وائل غُنيم

الثورة 2.0

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة ...



دار الشروق

الثورة 2.0

الثـــــورة 2.0

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة

وائــل غُنيــم

تحريــر: رحاب بسام

تصميم الغلاف: هشام الفقي

صورة الغلاف: روجيه أنيس

الطبعة الأولى ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: سيرة ذاتية

© دار الشروق

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٣٥٨٣/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3119-6

وائل غنيم

الثورة 2.0

إذا الشعب يومًا أراد الحياة...

دار الشروق

إهداء

إلى مَن آمن بالحُلم

فصنع المستحيل

إلى مَن ضحَّى بحياته..

ليبعثَ الحياة إلى هذا الجيل.

أُهديكم هذا الكتاب

المحتويات

مقدمة

تحول العالم إلى ظلام دامس، كل ما أشعر به هو حركة السيارة في أرجاء القاهرة بعد منتصف الليل. لاحظت أن قائد السيارة يغير من مسارها كثيرًا، حتى لا أتمكن من تخمين المكان الذي يقتادونني إليه.

عن يميني ويساري مُخبِران من أمن الدولة، يقبض كلٌّ منهما على يدَيَّ المُكبلتين بالكلابشات. أجبرني المُخبِران على أن أغطي وجهي بقميصي، ونزعا عني حزام البنطلون وعَقَداه بقوة فوق القميص ليتأكدا من تغميتي تمامًا. كان أحدهما يضغط بقوة على رأسي ليبقيها لأسفل كي لا يراني المارّة بالشارع. أخذوا كل متعلقاتي الشخصية وأمروني بالالتزام بالتعليمات، واخترت من جانبي الصمت الكامل حتى لا أستفزهم.

الدقائق القليلة التي سبقت الوصول إلى مقر أمن الدولة دفعتني إلى استرجاع كل ما أعرفه عن جرائم جهاز أمن الدولة من خلال ما كنت أنشره على الصفحة من ممارساتهم مع مَن يقبضون عليهم. الدور دوري الآن. تساءلت عما يمكن أن يحدث لي، وخلصت إلى نتيجة واحدة: أي شيء.

زعق فيَّ صوت عالٍ وغاضب: «اخرج يا ابن الـ...»، ودفعوني خارج السيارة. كان استقبالي داخل المكان عنيفًا وهازئًا. ضربوني وركلوني وسبّوني وهم يضحكون. كان يبدو أنهم يستمتعون بعملهم، أو على الأقل يقومون بهذه التصرفات عن قصد. كان الضحك جزءًا من استراتيجيتهم لزرع الخوف في نفوس الوافدين الجُدد قبل التحقيق معهم. أصعب ما في هذه الصفعات والركلات هي أنها كانت مفاجِئة، فبما أن عينَيَّ

كانتا مُغماتَيْن، لم أكن أعرف من أين ستأتيني الضربة التالية ومتى، وعلى أي جزء من جسمي.

أسأل نفسي عن المعلومات التي يعرفونها، وكيف عرفوها، أين أخطأت حتى ينكشف ما كنت أقوم به؟ (ركله متبوعة بسباب يطالُ أبي وأمي). تزايد خوفي. أعلم أن ما يريدونه هو تحطيمي نفسيًّا قبل التحقيق، وأنهم لن يتوقفوا قبل الوصول لهذا الهدف؛ ولذلك قررت أن أساعدهم حتى ينتهوا من عملية الإرهاب المنظم تلك. بدأت أرتعد عن عمد إلا أن خوفًا حقيقيًّا بدأ يغمرني.

وسط هذا المشهد المرعب تضرعت إلى الله أن يبادر صديقي نجيب في الإمارات بتغيير كلمة السر الخاصة ببريدي الإلكتروني قبل أن يبدءوا بالتحقيق معي. لا أريدهم أن يعرفوا شيئًا عمّا قمت به.

أريد أن أرى أولادي مرة أخرى.

الفصل الأول

أرض الخوف

لم يكن اختطافي في يناير ٢٠١١ هو المرة الأولى التي أتعامل فيها مع جهاز أمن الدولة؛ ففي ظُهر أحد أيام شتاء عام ٢٠٠٧، تلقيت اتصالًا على هاتفي المحمول من شخص عرَّف نفسه بأنه النقيب رأفت الجوهري من مباحث أمن الدولة بفرع جابر بن حيان بالجيزة؛ وبالطبع لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي؛ فضباط أمن الدولة يستخدمون أسماء حركية خوفًا على سلامتهم الشخصية، وحتى لا ينتقم منهم مَن يعذبونهم. رحبت به بصوت هادئ محاولًا إخفاء ارتباكي من المفاجأة، فطلب مني التوجه إلى مقر أمن الدولة في منطقة الدقي في الساعة الحادية عشرة مساء لمقابلته في أمر هامّ. ازداد قلقي وسألته عن سبب المقابلة فطمأنني قائلًا: «مفيش حاجة يا بشمهندس، إحنا بس هنشرب فنجان قهوة مع بعض». طلبت منه تأجيل اللقاء بداعي انشغالي، كنت أحاول أن أكسب بعض الوقت لأفكر لماذا يتم استدعائي، ولكنه أصرّ على أن نلتقي في الموعد الذي حدده، فوافقت على مضض. تساءلت بيني وبين نفسي: ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ كانت أيام نشاطي في الجامعة قد ولّت، ولم يتم استدعائي من قبل أبدًا.

بعد أن انتهتِ المكالمة، اتصلت بصديق مقرب لي واتفقنا على أن أتصل به فور انتهاء مقابلتي مع النقيب رأفت، وإذا لم أتصل به فيجب عليه أن يحاول أن يعرف ماذا حدث لي بالضبط. ففي حالات مشابهة، كان يتم استدعاء بعض الناس ثم يختفون بعد ذلك لأيام أو شهور بعد «زيارتهم». قررت ألا أخبر زوجتي وعائلتي بأمر هذه الزيارة حتى لا يصيبهم الفزع.

وصلت عند البوابة الرئيسية في تمام الحادية عشرة مساء. كانت المنطقة مألوفة بالنسبة لي؛ فمدرستي الثانوية كانت تقريبًا على ناصية الشارع. في الاستقبال، وبعد أن تأكدوا من أنني فعلًا لديّ موعد مع النقيب رأفت الجوهري، طلبوا مني أن أجلس وأنتظر. كان يجلس حولي ستة أشخاص آخرين، ورغم أننا لم نكن نعرف بعضنا البعض إلا أنه كان يجمع بيننا شيء واحد.. القلق.

أمن الدولة المصري كان جهازًا عنقوديًا يتدخل في كل تفاصيل الحياة في الشارع المصري، يعمل مستفيدًا بقانون الطوارئ والذي أُعلِن في ١٩٥٨ وتم تفعيله بعد النكسة عام ١٩٦٧ وما زال ساريًا حتى يومنا هذا. ويعطي قانون الطوارئ للسلطة التنفيذية الحق في القبض على أي مصري واعتقاله لمدة قد تصل إلى ستة أشهر، والتحقيق معه بدون وجود أي إذن نيابة أو صفة قانونية أو حتى محامٍ يدافع عن المتهمين. كما يتيح قانون الطوارئ للسلطات أن تمنع كل أنواع التجمهر أو التظاهر بدون تصريح أمني.

وأصبحتْ «ملفات أمن الدولة» مثار خوف وسخرية كل مَن يعمل عملًا عامًّا في مصر ويحاول أن ينهض بها، كل ناشط أو أي شخص لديه تأثير مالي أو فكري لا بد وأن يكون له ملف في أمن الدولة يحوي تفاصيل حياته، والتي تمكّنهم من استغلالها فيما بعد كوسيلة للضغط عليه لتنفيذ ما يريدون؛ إذا احتاجوا ذلك. لم يكن هناك أي احترام للخصوصية في قاموسهم؛ ولذلك كان التصنت على المكالمات إجراءً عاديًّا جدًّا بين ضباط أمن الدولة. بل ووصل الأمر إلى وجود غرفة في المقر الرئيسي لأمن الدولة احتوتْ على مجموعة من الشرائط الخاصة التي تفضح العلاقات المحرمة لبعض المشاهير من رجال الأعمال والشخصيات العامة. كان التصنت على المكالمات أمرًا روتينيًّا لديهم ولا يحتاج لموافقات خاصة، حتى إن ضباط أمن الدولة كانوا ينصحون بعضهم البعض ألا يتجسسوا على مكالمات زوجاتهم تفاديًا للمشاكل العائلية.

ولم تقتصر مهامّ هذا الجهاز على التضييق السياسي على كل قوى المعارضة ورموز التيارات الدينية، بل امتد ليشمل التضييق على كل مَن له علاقة بالعمل العامّ، بل وحتى الجمعيات الخيرية التي لا يتعدى نشاطها في الشارع مساعدة الفقراء والأيتام لم تسلم منهم؛ فهذه الجمعيات تقدم خدماتها للأغلبية الفقيرة من الشعب المصري،

وكانت السلطات تحاول باستمرار تحجيم أي شخص يعتقدون أنه يحاول أن يكوِّن أرضية جماهيرية بالأعمال الخيرية ثم يدعو المواطنين للتفاعل مع أي قضية سياسية في المستقبل.

وامتد هذا النشاط الأمني ليشمل موافقتهم أو رفضهم لتعيين أي مواطن يتقدم لمنصب حكومي مؤثر في مؤسسات الدولة، بل وحتى أوائل الدفعات المتخرجة من الجامعات لا يتم تعيينها في السلك الجامعي إلا قبل الحصول على «الموافقة الأمنية»؛ وهي بطبيعة الحال دليل براءة المواطن من ممارسة نشاط سياسي أو ديني معارض للنظام قبل تقدمه للمنصب الذي سيحصل عليه.

كان النظام المصري يخشى من تزايد الصوت المعارِض له في المجتمع، وكان يسعى إلى ديمقراطية «صورية» تعطي الانطباع بأن البلد يتقدم في مجال الحريات المدنية والحقوق السياسية، في الوقت نفسه الذي يسعى فيه لإسكات أي حركات معارِضة حقيقية قد تتحول إلى حركات شعبية تُجبر النظام على التغيير.

ومن أجل هذا اعتمد النظام على وزارة الداخلية كلاعب أساسي في عملية قمع وتخويف المعارضين، بالإضافة إلى وسائل الإعلام الرسمية؛ مثل القنوات التلفزيونية الأرضية والفضائية المملوكة للدولة، والصحف والمجلات القومية؛ مثل الأهرام والأخبار والجمهورية. كما كان النظام يعمل وبشكل منهجي على زرع الخوف في نفوس المصريين من صغرهم، هذا الخوف الذي بدأ منذ عصر ثورة ١٩٥٢ وأصبح موروثًا تتناقله الأجيال عبر حِكَم مثل: «امشِ جنب الحيط»، و«خليك في حالك وكُل عيش»، و«مِن خاف سِلم». لم يكن ذلك فحسب، بل امتدت سيطرة النظام على النقابات العمالية وأجهزة الدولة الرقابية والتشريعية.

كل هذا جعلَنا في النهاية نواجه سرطانًا سميته: «أسلحة القمع الشامل»؛ والتي تضمن أنه مهما ساءت حالة البلاد ومهما ازداد الفساد فيها لم يكن أحد ليجرؤ أن يسبح ضد التيار، وإن سولت نفس أحدهم أن يفعل ذلك انتهى به الأمر في إحدى زنازين سجن «طرة» بعد تحقيقات جهاز مباحث أمن الدولة، أو يتم اغتياله إعلاميًّا، أو تُلفق له قضايا كيدية، أو تُفتح ملفاته القديمة.

«إزيك يا بشمهندس، إنت مغلبنا معاك ليه يا عم؟ عامل مشاكل ليه؟؟». بهذه الكلمات استقبلني النقيب رأفت الجوهري بابتسامة صفراء في غرفة مكيفة بها ثلاثة من المحققين. كانت الغرفة جيدة التصميم وبها العديد من الكتب؛ بعضها كتب دينية ظهرت واضحة لمن يدخل المكان، وكأن المحققين يريدون إقناع مَن يزورهم أنهم ليسوا ضد التدين، ولكنهم ضد التطرف.

نظرت إليه وقلت له بصوت هادئ مبتسمًا: «أنا مش عامل مشاكل خالص، أنتم اللي عاملين مشاكل معايا وأنا مش عارف إيه سببها، والحمد لله إنكم طلبتوني عشان أفهم إيه المشكلة اللي بتتسبب إني كل مرة وأنا راجع من السفر بيظهر اسمي في قائمة ترقُّب الوصول، وضابط الجوازات بيودي جواز سفري لأمن الدولة اللي بيطلّع أمر بتفتيشي في الصالة الحمراء وبيفتش كل شُنَطي» واستطردت مازحًا: «مابقتش عارف أجيب أي حاجة بتتجمرك».

كانت هذه المشكلة تعود إلى ديسمبر ٢٠٠١؛ كنت عائدًا من الولايات المتحدة الأمريكية بعد ثلاثة أشهر من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. بعد أن تجاوزت وزوجتي الجوازات في مطار القاهرة الدولي سمعت اسمي عبر الميكروفون يطالبني بسرعة التوجه مرة أخرى إلى الجوازات، ووجدت شخصًا ينادي باسمي، وحينما أشرت له أنني الشخص الذي يبحث عنه أخذ جواز سفري وطلب مني الانتظار. انتظرت أمام ردهة، عرفت فيما بعد أنها تحوي غرفة جهاز مباحث أمن الدولة في المطار. وبعد قَرابة ثلاثين دقيقة من الانتظار المليء بالرهبة خرج أحد المُخْبِرين وفي يده جواز سفري وطالبني بإحضار حقائبي حتى يتم تفتيشها في الصالة الحمراء، وقتها خرجت من المطار حامدًا الله على أن «العواقب جَتْ سليمة»، ويبدو أن الأمر كله مُتعلق برجوعي من أمريكا بعد أحداث سبتمبر. ومن يومها وحتى بداية الثورة لم أسافر للخارج وأعود إلا ويتم تفتيشي بنفس الطريقة بدون أن أعرف السبب المنطقي لذلك.

بدأ النقيب رأفت الجوهري استجوابه لي بشكل ودّي جدًّا وكأنها دردشة، ولكنه أخرج ورقة وقلمًا من مكتبه وبدأ يكتب باهتمام ملخص الحوار الذي يدور بيننا، وينتظر بين الأسئلة حتى يكتب كل ما قلته. كانت تلك التحقيقات تتم بصورة ودّية،

وكان أغلب مَن يطلبه الجهاز للتحقيق من الطبقة الوسطى يتم استجوابه بهذا الشكل «الودّي» و«غير الرسمي» (كان الفقراء يتم التعامل معهم بعنف وقسوة أكثر)، إلا أن الجميع كان يعرف جيدًا أن لأمن الدولة الحق في اعتقال مَن يرى ضباطُه أنهم خطر على النظام بناء على قانون الطوارئ.

طلب المحقق بياناتي الشخصية؛ الاسم، السن، العنوان، الحالة الاجتماعية. أجبت عن كل أسئلته. سألني عن اسم زوجتي بالكامل، ثم قال: «آه دي مش مصرية. هي منين؟»، قلت: «أمريكية». كتب اسمها بالكامل بالعربية كما نطقته وطلب مني أن أتأكد من صحته، ثم سألني: «أنت متجوز أمريكية عشان تاخد الجنسية.. مش كده؟».

زاد استغرابُه بعد أن سمع إجابتي؛ فقد فاجأته بأنني منذ زواجي عام ٢٠٠١ لم أتقدم حتى بطلب الإقامة في الولايات المتحدة، فضلًا عن البطاقة الخضراء (Green Card) والجنسية. فسألني عن سِرّ ذلك فقلت له: «أنا باحب مصر جدًّا، ومش شايف أي حاجة تدعوني إني أقدم على جنسية أي بلد تانية». ولا أنسى وقتها نبرته الساخرة المتشبعة بعدم التصديق للرواية حين سألني: «وبتحب إيه في مصر؟»، فأخبرته ما بداخلي، وهي حقيقة يرددها كل مَن أعرف من أصدقائي المصريين: «مش باعرف أوصف أنا باحب مصر ليه.. حتى مراتي كانت بتتساءل عن سِر حبي للبلد رغم كل ما فيه، كنت باقول لها إني مش عارف سبب حبي الجارف لمصر. حضرتك عارف إني عشت في السعودية أول ١٣ سنة من عمري؟ كنت بانتظر الإجازة السنوية بفارغ الصبر عشان أرجع مصر.. كنت باحط على مكتبي ورقة باحسب فيها ـ بدون أي مبالغة ـ عدد الأيام المتبقية على سفرنا لمصر، وكنت مش باعرف أنام قبل السفر بكذا يوم لأني راجع على مصر». وبادَلْته نظرة الابتسامة الساخرة وقلت له مازحًا: «باحبها عشان الحياة مش روتينية.. بتصحى الصبح وماتعرفش يومك عامل إزاي.. ممكن تصحى الصبح تلاقي تليفون يجيلك زي اللي جالي من حضرتك فيه استدعاء لأمن الدولة»، فبادلني الضحك وقال لي: «أنت حكايتك حكاية»، واستطرد بلهجة أكثر جدية: «احكيلي بقه التزمت دينيًّا ازاي؟».

لمحت نسخة من القرآن الكريم على مكتب النقيب، وافترضت أنه وضعها هناك

ليؤكد لمَن يحقق معه أنه قارئ للقرآن. النظام كان متخوفًا جدًّا من الجماعات الدينية المنظمة في مصر، خاصة تلك المهتمة بالشأن العام. ومما زاد من هذا الخوف سفر آلاف المصريين لأفغانستان ليحاربوا الروس. الكثير من هؤلاء المحاربين، أو المجاهدين كما أطلقوا على أنفسهم، عادوا من أفغانستان بفِكر يرفض الأنظمة العربية ويعتبرها أنظمة خائنة وكافرة ومجرد أدوات في يد الغرب. شكّل هذا الفكر الجديد والمجاهدون الجدد تهديدًا للسلطات المصرية. وعلى الرغم من أن قانون الطوارئ أوقفه الرئيس أنور السادات في عام ١٩٨٠، فقد أُعيد العمل به بعد ذلك بثمانية عشر شهرًا بعد اغتيال السادات على يد الجماعات الإسلامية المتطرفة آنذاك. كان من الواضح أن الذين اغتالوا السادات دفعهم لذلك حبسه لأكثر من ١٥٠٠ ناشط سياسي وديني، وأيضًا لأنه وقّع على اتفاقية السلام مع إسرائيل، وكلّل هذه الاتفاقية بزيارته لتل أبيب؛ مما جعلهم يعتبرونه خائنًا للقضية الفلسطينية والعربية والإسلامية ويبررون اغتياله!

مع الوقت، زاد تأثير الجماعات الدينية في مصر وزاد تنوعها. لم تكن هذه الجماعات متجانسة، ولم تكن بالضرورة تتشارك في الأفكار أو الأهداف نفسها، إنما يجمع بينهم شيء واحد: كراهية هذا النظام. وبدوره كان نظام حسني مبارك يخشاهم. كان مبارك يعرف أن باستطاعة تلك الجماعات التأثير على الشعب أكثر من أي فصيل آخر، فالشعب المصري متدين بطبعه. في استقصاء قامت به وكالة جالوب في يونية من عام ٢٠١١، قال ٩٦٪ من الألف شخص الذين أجابوا على الاستقصاء إن الدين يلعب دورًا مُهمًّا في حياتهم اليومية؛ فرجل الشارع المصري يأخذ من الرموز الدينية مثلًا أعلى وقدوة، ويعتبرهم نموذجًا للنبل والإخلاص، وهي القيم التي يفتقدها ممثلو النظام. في أغلب الوقت، عندما كان النظام يهاجم أو يعادي إحدى الجماعات الدينية، كانت شعبية هذه الجماعة تزيد في الشارع. وكانت الأوضاع الاقتصادية المتدهورة تُسهم في زيادة تلك الشعبية.

جهاز أمن الدولة كان يراقب عن كثب العلماء وطلبة العلم الشرعي، وامتدت الرقابة على طلبة الجامعة الذين يَنشطون في العمل العام في الجامعة ويحرصون على ارتياد المساجد، ولم يكن الأمر مُقتصرًا على مَن ينتمي لتيارات دينية معينة أو

ناشطين في حركات إسلامية بعينها. حرص ضباط أمن الدولة على استدعاء هؤلاء الأشخاص إلى مكاتبهم بشكل دائم لسؤالهم عن أنشطتهم، ويعملون على تجنيد مَن يصلح منهم ليكون مصدرًا للمعلومات. وغالبًا ما يتم القبض على المئات والزجّ بهم في السجون لسنوات بدون اتهامات واضحة. وخلف القضبان، كان هؤلاء المواطنون يتم إهانتهم وتعذيبهم بقسوة دون جريمة ارتكبوها سوى الالتزام بدينهم أو اعتناقهم لفكر تراه الأجهزة الأمنية متطرفًا، وعندما يُفرج عنهم يصبح التحدي الأكبر هو أنهم إما أن يصبحوا أكثر تطرفًا ـ بعد تجربتهم السيئة مع النظام ـ أو يحاولوا الاندماج مع المجتمع مرة أخرى ونسيان الماضي.

أدركت أن هذا هو سر استدعائي للمقر؛ كانوا يريدون أن يعرفوا إذا كانت لديّ علاقات بأي أنشطة سياسية أو دينية، خاصة وأنني الآن كثير السفر خارج مصر وبالتالي أكثر اتصالًا وتواصلًا من غيري واطلاعًا على أوضاع البلاد الأخرى. قلت في نفسي وقتها إنه يبدو أن الوقت قد حان لفتح ملفي بأمن الدولة ليحوي تفاصيل حياتي كجزء من الأعمال الروتينية التي يقومون بها، ولتكون مرجعًا لهم إذا احتاجوه في أي وقت.

بدأت في الإجابة عن سؤاله. قصة تديني تعود إلى الثانوية العامة، فقبلها لم أكن ممن يواظب على الصلوات في وقتها، وذلك مع التزامي بالأخلاق الإسلامية متأثرًا بالتربية التي تلقيتها على يد أبي وأمي ونَشْأتي في السعودية؛ وهو مجتمع محافظ بطبيعته، وأَسْهَم في ذلك أيضًا طبيعة «أبها»؛ تلك المدينة الصغيرة في جنوب السعودية، أو كما يحب بعض أبناء العاصمة في السعودية تسميتها «صعيد السعودية». ولكن مصرع قريبتي «داليا» سنة ١٩٩٧ في حادث سيارة، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، كان له أكبر الأثر في نفسي، ودفعني للاطلاع بشكل أكثر على الدين والتفقه فيه والاستماع للخطب والدروس وقراءة الكتب وحضور الندوات والمحاضرات الدينية؛ لأنني شعرت أن الحياة ليست سوى اختبار قصير ينتهي بوفاة الشخص، ولم أكن أرغب في أن أخرج من هذه الحياة كالتلميذ الذي لم يُكمِل واجبه على أكمل وجه. بدأت وقتها في المواظبة على الصلاة، وكنت كثيرًا ما أصلي في المساجد.

وبدخولي الجامعة بدأت في الاختلاط بمختلف التيارات والأفكار الدينية بما فيهم

الإخوان المسلمون، وشاركت في الكثير من أنشطتهم الجامعية، وعملت معهم لفترة ليست بالقصيرة. ولكنني كنت أَعقِل الأمور بمنطقي الخاص، وكما وصفني أحد الشيوخ المعروفين بعد لقائي به عدة مرات: «مشكلتك يا وائل إنك شغال بدماغك ومالكش كبير». كان من الصعب عليّ تقبل فكرة الوصاية من الآخرين، وكنت بطبعي أحب النقاش للتوصل إلى الحقيقة التي يجب أن يستقر قلبي وعقلي عليها قبل تصديقها والإيمان بها؛ وهذا الأمر أزعج الكثيرين ممن هم حولي وخاصة مع صغر سِنّي التي لم تتجاوز الثامنة عشرة آنذاك، وقلة خبرتي في الحكم على الأمور. ولكنني لم أكن وحدي، فبفضل الانفتاح على وسائل الإعلام العالمية ووسائل الاتصال الحديثة، أصبح لدى العديد من المصريين الشباب مختلفُ الطرق للحصول على معلومات أكثر وبناء قراراتهم واختياراتهم على حقائق وبَعْد تفكير وتأنٍّ ودراسة.

كان نقيب أمن الدولة يستمع لي بإصغاء ويسألني في الكثير من التفاصيل عن حياتي الشخصية، سألني عن والدي ووالدتي وتَدَيُّنهما، وعن اهتماماتهما السياسية، وعن الأنشطة الاجتماعية التي يشاركان فيها، بل ووصلت الأسئلة للتعرف على ثروة والدي والسيارة التي يمتلكها!

«والدك شغال في السعودية بقاله قد إيه؟ وهل هو مُنضم لأي حزب أو حركة سياسية أو دينية؟».

كجزء من عمله، كان على النقيب رأفت أن يجمع أكبر قدر من المعلومات ليس فقط عني، ولكن أيضًا عن أفراد عائلتي.

والدي مِثال للمواطن المصري الكادح؛ فهو من الطبقة المتوسطة التي بدأتْ في الانقراض شيئًا فشيئًا في مصر. وُلِد في الخمسينيات؛ فهو الجيل الذي تربى على الهتاف للقومية العربية وتمجيد ثورة ١٩٥٢، عندما تم عزل الملك فاروق وتحولت مصر من ملكية إلى جمهورية. جدي ـ رحمة الله عليه ـ كان موظفًا حكوميًّا في هيئة السكك الحديدية المصرية، ولديه سبعة أبناء من الذكور أكبرهم والدي، سعى إلى تعليمهم جميعًا. تخرج أبي في كلية الطب ليبدأ مباشرة العمل في مستشفى حكومي.

بعد زواجه من والدتي في عام ١٩٧٩، وخروجي إلى الدنيا في عام ١٩٨٠، لم يعد راتب أبي يغطي احتياجاتنا الأساسية كأسرة؛ لذلك قرر السفر للعمل في السعودية بعد مولدي بعام واحد. كان السفر إلى دول الخليج خيارًا مغريًا لكثير من المصريين، فالراتب المعروض على والدي في السعودية كان عشرين ضِعفًا للمرتب الذي يتلقاه من المستشفى الحكومي في مصر. وكملايين من المصريين المغتربين، كان يطمح في ادخار بعض النقود ثم العودة إلى مصر بعد بضع سنوات ليفتح عيادته الخاصة في القاهرة. أصبح المواطنون الموهوبون في مصر هم أكثر سلعة يتم تصديرها للخارج؛ مما ساهم في تدهور أحوال البلد.

كانت الأوضاع الاقتصادية في مصر في ذلك الوقت شديدة الصعوبة. كل عام، عشرات الآلاف من المصريين يتقدمون بأوراقهم ليانصيب الهجرة الأمريكية للحصول على البطاقة الخضراء (Green Card)، بينما يحاول الآخرون بكل الطرق الممكنة أن يجدوا فرصة عمل في دول الخليج، أو كندا، أو أوربا. أخذتْ هذه الظاهرة في التزايد حتى أصبحت الهجرة هي حلم ملايين المصريين. حتى هؤلاء الذين لم تكن لديهم مؤهلات عليا أو مهارات مطلوبة بالخارج كان اليأس يصل بهم أحيانًا لدرجة أن يحاولوا السفر لأوربا بطريقة غير شرعية في مراكب تَعْبُر بهم البحر المتوسط، مخاطرين بحياتهم ومُعَرّضين أنفسهم للغرق. ما زلت أذكر رد أحد ممثلي الكوميديا المصريين عندما سُئل عن مستقبلنا كمصريين فقال: «مستقبل المصريين في كندا».

وقع والدي في فخّ شركات توظيف الأموال بعد أن أمضى بضع سنوات في السعودية. كانت هذه الشركات قد انتشرت في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات كفرصة استثمارية لا يمكن أن تعوَّض لتقديمها عوائد سنوية تصل إلى ٣٠ أو حتى ٤٠ في المائة من رأس المال المستثمر فيها، بينما كانت البنوك تقدم ١٠ في المائة فقط. وضع والدي كل ما لديه من أموال في أربع من هذه الشركات. أسس هذه الشركات مصريون متدينون كبديل حلال للبنوك الرِّبوية، فالكثير من علماء الإسلام كانوا يرون أن الفائدة الثابتة (التي تقدمها البنوك) هي نوع من أنواع الرِّبا؛ وبالتالي فهي مُخالفة للشريعة الإسلامية.

بعد بضع سنوات من تأسيس هذه الشركات وازدهارها، قرر النظام المصري شن الحرب عليها. كان النظام يريد أن يحمي مصالح رجال الأعمال المخلصين له، ويخشى أن تتحكم هذه الشركات المالية والاستثمارية الخاصة في الاقتصاد المصري وتتسبب في الإضرار بالبنوك. وفجأة قررتِ الدولة تجميد كل هذه المؤسسات والقبض على مؤسسيها بتهمة النصب والاحتيال وغسيل الأموال. وهكذا ضاعتْ أغلب الأموال التي جمعها والدي في سنوات غربته وشقائه في السعودية كغيره من المصريين داخل مصر وخارجها.

لم يكن مفاجِئًا أن والدي اتخذ قررًا بزيادة سنوات عمله في السعودية لتعويض تلك الخسائر. كلما كنت أسأله: «لماذا نعيش في السعودية ولا نعود إلى مصر؟»، كان دائمًا ما يقول لي: «كيف أصرف على أسرتنا المكونة من خمسة أفراد بمرتب لا يتجاوز بضع مئات من الجنيهات لا تكفينا حتى منتصف الشهر؟!». ولم تكن لديَّ إجابة مقنعة لسؤاله، ولكنني كنت ومع ذلك أتمنى العودة لمصر والعيش فيها حتى لو كانت ظروفنا المعيشية أكثر صعوبة.

أبي نموذج للشخصية المصرية؛ جَلْسته ممتعة، يُحبه الجميع، حينما يتحدث عن السياسة تجده يُطلق النكات التي تنتقد المسئولين وتسخر من طريقتهم في إدارة الدولة. فلسفته في الحياة عَبّر عنها بحكمة كثيرًا ما كان يردّدُها: «طَنِّش، عِش، تَنْتَعِش»، وكان يُفضِّل تجاهل المشاكل على مواجهتها بقدر الاستطاعة. أنا لا ألومه؛ فلقد كان هذا تأثير ثورة ١٩٥٢ على الأجيال التي عاصرَتْها وتَبِعَتها.

أما والدتي فكانت كثيرًا ما تحاول إقناع والدي سنويًّا بالاستقرار في مصر وفَتْح عيادته ومحاولة التأقلم مع الوضع. وانتهى بنا الأمر بقرار الأسرة أن نعود إلى مصر على أن يلحق بنا والدي خلال سنتين أو ثلاث على الأكثر بعد أن يكون قد جمع ما يكفيه لبدء مشروع يؤمِّن له مستقبل أولاده (حيث أصبح لديّ الآن أخ وأخت).

لم يكن النقيب رأفت مُهتمًّا بمعرفة مزيد من التفاصيل عن أبي، بعد أن عرف أنه ليس له أي نشاط سياسي أو ديني. سألني: «رجعت مصر إمتى؟».

عُدت إلى مصر في عام ١٩٩٤، والتحقت بمدرسة خاصة في منطقة الزمالك

القريبة من بيتنا في المهندسين، وكنت وقتها في الشهادة الإعدادية. كانت الزمالك والمهندسين من أرقى المناطق السكنية في القاهرة. قرار العودة إلى مصر كان من أسعد القرارات التي اتخذَتْها عائلتي؛ لأنني كنت أحلم باليوم الذي نعيش فيه في مصر بعد سنوات الغربة. لم يكن التأقلم على العيش بدون الأب سهلًا في البداية، فكنت أفتقد أبي كثيرًا وأنتظر ميعاد زيارته السنوية وأرافقه في كل مكان يذهب إليه طَوال الخمسة والأربعين يومًا التي يقضيها في مصر، أضحك على سُخريته التي لا تتوقف، وأحب تباسطه مع الجميع، وتخرج الدموع من عينَيَّ كلما حانت لحظة سفره بعد انتهاء إجازته السنوية.

بذلت والدتي كل مجهودها لتُعوّضنا عن غياب أبي، وتفانت في تربية أولادها ليصبحوا أشخاصًا محترمين ومسئولين، واحترمتها كثيرًا لتضحيتها وقبولها بالبقاء بعيدة عن زوجها في سبيل ذلك. كانت تُفضل أولادها عن نفسها في كل شيء بدون استثناء.

تأقلمت سريعًا مع المدرسة، وكان أعز أصدقائي شابًّا مصريًّا نابغة اسمه معتصم؛ كان الأولَ على دفعته خلال سنوات دراسته الأولى، ولم يتغير الأمر كثيرًا بعد دخولي المدرسة. حاولت منافسته في اختبارات الإعدادية إلا أنني كنت دائمًا ما أحل في المرتبة الثانية في أي امتحان، فمعتصم كان شديد الذكاء وكثير الاجتهاد. حصلت على الترتيب الثاني على المدرسة في الشهادة الإعدادية، وقرر معتصم الانتقال إلى مدرسة الأورمان الثانوية الحكومية؛ لأنه يريد أن يستكمل دراسته هناك في فصول المتفوقين، وأقنعني بالرحيل معه لأن هذه الفصول تنافسية جدًّا ويُدرِّس فيها أفضل المدرسين في القاهرة. كان كلامه مقنعًا، وكان هناك سبب آخر وراء اهتمامي بالذهاب لمدرسة الأورمان؛ وهو رغبتي في التعرف على مصر الحقيقية ولمعايشة مصريين من مختلف الأطياف والطبقات الاجتماعية وليس فقط القادرين على الالتحاق بالمدارس الخاصة.

ضاعت فرصتي في دخول فصول المتفوقين بسبب وجودي في السعودية لزيارة والدي أثناء عقد امتحانات الانضمام لتلك الفصول، لأجد نفسي في أحد الفصول العادية بالمدرسة. كنت قبل السفر قد سألت مسئولًا بالمدرسة وأكد لي أنه بإمكاني أداء هذه الاختبارات بعد عودتي من السفر، ولكنه للأسف لم يَفِ بوعده.

مَثّلت مدرسة الأورمان صدمة حضارية بالنسبة لي، وكل ما تخيلته أو سمعته عن المدارس الحكومية لم يَرْقَ لفداحة الواقع. المدرسة كانت مقصورة على الأولاد فقط مما يُشعرك بفائض من «التستوستيرون» في الجو. العراك في ساحة المدرسة كان أحيانًا ينتهي بإصابات بالغة للبعض، وكان هناك مكان خاصّ معروف للجميع لتدخين السجائر وأحيانًا الحشيش، والهروب من المدرسة متاح في أي وقت طالما ستدفع الإتاوة للطالب المُستَقِر دائمًا فوق السور. تكدستِ الفصول بالطلاب؛ فالفصل الذي يكفي لثلاثين تجد فيه ما يزيد على السبعين طالبًا!

بعد الصدمةِ حاولت التراجع عن قراري واتصلت بمدير مدرسة الشرق (مدرستي السابقة) راجيًا منه عودتي، إلا أنه رفض بشدة خاصة بعد رفضي لكل المغريات التي عرضها عليَّ للمكوث في المدرسة، ومنها خفض المصاريف الدراسية إلى النصف. كنت عنيدًا جدًّا في رفضي لعرضه؛ لذلك لا ألومه على رفضه عودتي للمدرسة. لم أكن أعلم وقتها أن استمراري في الأورمان كان شديد الأهمية في تشكيل شخصيتي.

لم يكن الاندماج سهلًا، وأثّرتِ الأجواء الجديدة على أدائي المدرسي في أول عام، ولم أستَعِد توازني إلا بعد أن بدأت التأقلم. كرهت تجربة مدرسة الأورمان في بدايتها لكنني أحببتها في النهاية. الأورمان أتاحت لي التعامل مع طبقات لم أكن أختلط بها من قبل، ونمَّت لديَّ قدرات التواصل مع مَن أختلف معهم في المستوى المادي والاجتماعي.

في سنتي الأولى بمدرسة الأورمان حصلت على أسوأ الدرجات الدراسية في حياتي. كان دائمًا الخوف من الفشل هو أكثر ما يُحركني لِأَن أُقاوم وأبذل مجهودًا أكبر. لذلك قررت أن أُركز كل وقتي وجهدي في العام التالي لتحقيق التفوق الدراسي لألتحق بفصل المتفوقين مع معتصم في آخر سنة لي في الثانوية. ونجحتُ بالفعل في مُهمتي؛ فبعد عام من الاجتهاد حصلت على تقدير ٩٥ ٪، واستطعت أخيرًا أن أجلس بجوار معتصم في الفصل كما كنا في مدرستنا السابقة. تجربة فصل المتفوقين مختلفة تمامًا عن الفصول العادية. في الثانية، اضطُر المدرسون لفرض سيطرتهم على الفصل باستخدام العنف وضرب الطلبة، وكان الطلبة يستمتعون بالمشاغبة ومضايقة الأساتذة؛

كانت معركة يومية يحاول فيها المدرس السيطرة على أكثر من سبعين طالبًا بعضهم من مثيري الشغب.

كباقي الخدمات الأساسية، كانت منظومة التعليم تسير من سيئ إلى أسوأ في مصر؛ فالمعلمون في المدارس الحكومية يَتلقَّوْن رواتب ضئيلة جدًّا لا تتعدى بضع مئات من الجنيهات لا تغطي الاحتياجات الأساسية لأُسَرهم؛ وعليه فقد أصبحت الدروس الخصوصية هي مصدر الرزق الأساسي للمدرسين؛ مما جعلهم يُهملون التدريس في الفصول؛ فالمدرس يمكنه الحصول على آلاف الجنيهات شهريًّا من تلك الدروس الخصوصية في بيوت الطلاب. ولقد أظهرت دراسة قام بها مركز المعلومات التابع لمجلس الوزراء في عام ٢٠٠٨ أن ٦٠ ٪ من أولياء الأمور يُوفّرون لأولادهم الدروس الخصوصية، والعديد من الأُسَر كانت تُنفق تقريبًا ثُلث دخلها على هذه الدروس!

انتشرت ظاهرة الدروس الخصوصية في مصر وأصبحت كالسرطان الذي لا يُمكن التخلص منه. في كل شوارع القاهرة وغيرها من المحافظات تجد منشورات يُسوِّق فيها المدرسون دروسهم الخصوصية وتحمل ألقابًا أطلقوها على أنفسهم مثل «إمبراطور الفيزياء»، و«جنرال الكيمياء» وغيرهما من الحملات التسويقية التي جعلت من العلم سِلعة للبيع والشراء. والمأساة الحقيقية هي أن أغلب المدرسين كانوا يهتمون بتحفيظ وتلقين الطلبة دون الاهتمام بالاستيعاب والتفكير اللازمَيْن لبناء شباب قادر على تطوير بلاده. حتى الكتاب المدرسي الحكومي كان مثالًا لترسيخ مبدأ الحفظ وليس الفهم، وكان الطلاب يعتمدون بشكل رئيسي على الكتب الخارجية التي يصرف المصريون على شرائها ما يزيد على مليار جنيه سنويًّا. كنت أقاوم بشدة فكرة الدروس الخصوصية، ولكنني استسلمت لها في الثانوية العامة بسبب صعوبة مادتَيِ الرياضيات والكيمياء وعدم قدرتي على فهم مُدرسَيِ المادتين في المدرسة.

أثناء دراستي، كانت إحدى المواد الاختيارية التي فضّلت دراستها في الثانوية هي علم النفس، واخترتها لأنني بطبيعة شخصيتي مُهتمّ بفهم النفس البشرية. قررت وقتها أن أتلقى دروسًا خصوصية في علم النفس مع مدرس جامعي اسمه أستاذ إيهاب. كنا نقضي ساعات بعد انتهاء الدرس في مناقشات فكرية. علَّمني الأستاذ إيهاب كيف أتعامل

مع مختلف الأشخاص والمواقف، وساعدني على أن أُدرك أن أغلبية المشاكل سببها الأساسي هو سوء التفاهم أو سوء التواصل، كما كان أرسطو يؤكد على أهمية تعريف المفاهيم لتجنب أي خلافات غير مرغوب فيها. كانت هذه الدروس والمناقشات تجربة هامّة وثرية جدًّا لي في هذه السن الصغيرة.

كان النظام التعليمي الفاسد يشجع على الغش في الامتحانات. فالطلبة يعتبرون أن المدرس الذي يراقب عليهم في الامتحان ولا يُسهّل الغش مُدرس «مُتعِب»، والذي يفعل هذا الجرم يسمى مُدرسًا «طيبًا»! لم يكن مُفاجئًا أن الغِشّ والتحايل أصبحا من سمات كثير من المصريين؛ فانتشرت هذه الظاهرة في المدرسة والجامعة وفي الأعمال الصناعية والتجارية.. وبالتالي في العمل السياسي.

بمجرد تخرجي في الثانوية العامة بتقدير ٩٧ ٪ وقبولي في كلية الهندسة بجامعة القاهرة بدأت أبحث عن عمل. كان الهدف الرئيسي من ذلك هو سداد فاتورة الهاتف التي أزعجت أبي بسبب ارتفاعها الملحوظ لدخولي المستمر على الإنترنت. كنت أقضي الساعات الطويلة مُتصفحًا لمواقع الإنترنت، ومتحدثًا مع غيري من مستخدميه الذين لم أكن أعرفهم عبر غرف الدردشة وبرامج الحوار، وأصبح لي الكثير من الأصدقاء الافتراضيين. أتذكر مشهد دخول أبي الغرفة غاضبًا بعد أن أخبرَتْه والدتي بقيمة فاتورة الهاتف في صيف الثانوية العامة، حينها أخذ الكمبيوتر ووضعه في دولاب غرفته وأغلق الدولاب قائلًا إن علاقتي بالكمبيوتر انتهت لأنني أستخدمه بدون مسئولية؛ مما تسبب في وصول فاتورة الهاتف لأرقام قياسية. خرج أبي من البيت، وبمجرد خروجه دخلت إلى غرفته واستطعت فتح الدولاب لأُخرج الكمبيوتر، وحينما عاد قلت له: «لا تغضب، من اليوم أريد هاتفًا باسمي وسأدفع كل فاتورته، ولا تعبأ بالمصاريف فأنا متكفل بها». وقد كان والدي ديمقراطيًّا في طريقة إدارته لعلاقتنا، وكان دائمًا ما يردد لي المثل الشهير: «اللي بيشيل قِربة مخرومة بِتخُر على دماغه.. اعمل اللي أنت عايزه». وهكذا بدأتْ حياتي على الإنترنت.. حياتي أونلاين، وبدأ استقلالي المادي وأصبح لديَّ مرتب ثابت من وظيفتين: واحدة في محل ألعاب كمبيوتر، وأخرى كمطور حُرّ لمواقع الإنترنت؛ تلك المهارة التي

بدأتُ في تعلمها عبر قراءتي الكتب واطلاعي على ما يُكتب وقتها على الشبكة من دروس تعليمية.

كان الجمع بين العمل والدراسة بالإضافة إلى الوقت الكثير الذي كنت أقضيه على الإنترنت يشكل تحديًا حقيقيًّا لي، وأدى إلى حصولي على نتيجة سيئة في نهاية السنة الإعدادية بكلية الهندسة فحُرمت من اختيار القسم الذي سأدخله وهو قسم الكمبيوتر؛ وهو أحد أقسام القمة في كلية الهندسة، حيث إن مَن يلتحق به يجب أن يكون ممن حصل على أعلى الدرجات في السنة الأولى الإعدادية، وبالتأكيد لم أكن من بينهم. عدم تمكني من دخول قسم الحاسبات كان صدمة لي؛ فلأول مرة أشعر بالفشل في حياتي الدراسية. دخلت قسم «الهندسة الكهربائية»، وبعد أسابيع قليلة من الدراسة شعرت بعدم رغبتي في مواصلة الدراسة بهذا القسم، وأنه يجب عليَّ أن أبحث عن أي وسيلة للالتحاق بقسم الحاسبات أو الانتقال إلى كلية أخرى. أخبرني أحد أصدقائي أنه في حالة رسوبي في السنة الأولى بقسم الكهرباء بإمكاني تقديم التماس إلى عميد الكلية موضحًا فيه رغبتي الالتحاق بقسم الحاسبات. ذهبت إلى شئون الطلبة، وعلمت أنه من الممكن قبول الالتماس بناء على عدد التحويلات التي تَرِد للقسم في السنة التالية من الأقسام الأخرى. ولكن الأمر مرهون بنظرية الاحتمالات.

وهنا اتخذت قرارًا جريئًا بعدم دخول امتحانات قسم الهندسة الكهربائية وتقديم الالتماس في نهاية العام. كالعادة، فوجئ أهلي بهذا القرار، وضغطوا عليَّ بشتى الطرق للعدول عنه، إلا أنني كنت مُصرًّا على الدخول في هذه المغامرة. وحدث ما كنت أتمناه؛ فلم يَرِد للقسم في السنة التالية سوى طلب واحد للتحويل إلى قسم الحاسبات بخلافي، وتم قبولي والطالب الآخر في القسم الذي كنت أحلم بالالتحاق به.

الدراسة في قسم الحاسبات مختلفة؛ فعددنا لا يتجاوز الأربعين، والأساتذة والمعيدون يَعرفوننا بالأسماء. حاولت التأقلم مع القسم ومنافسة مجموعة من أكثر الطلاب تفوقًا في الكلية، ولكنني فشلت في ملاحقتهم بسبب انشغالي الشديد بالمواقع التي أعمل على تطويرها والإنترنت بصفة عامة وعدم تركيزي في الدراسة؛ والتي لم تكن على قمة أولوياتي. شعوري بتأخري عن غيري من الطلاب لم يكن من فراغ، ففي

إحدى المرات وأثناء محاضرة أحد المعيدين سألني: «فهمت يا وائل؟»، فحينما أخبرته بالإيجاب، رد قائلًا: «يبقى كده الدفعة كلها فهمت!». مثل هذه المواقف جعلتني أكره التعليم في مصر، وجعلني لا شعوريًّا أقتنع بأن سبب تعثري لم يكن متعلقًا بقدراتي، بل بفشل النظام التعليمي نفسه. ورغم أنني لم أكن أحرز تفوقًا في الدراسة الجامعية إلا أنني كنت أبرُز في مجال آخر بعيدًا عن الدراسة.

ففي صيف السنة الإعدادية بكلية الهندسة عام ١٩٩٨، قررت أن أُنشِئ موقعًا يتواصل من خلاله المسلمون حول العالم، وأضع فيه طاقتي ورغبتي في بناء علاقات مع الآخرين، وفي الوقت نفسه يُفيد المجتمع ويُصقل من خبراتي. قدَّر الله لي أن أُنشئ موقعًا يشبه إلى حد كبير موقع اليوتيوب، إلا أنه يختلف في ثلاث نقاط جوهرية: أنه موقع للصوتيات وليس للمرئيات؛ فتقنيات الفيديو لم تكن متقدمة كما هي اليوم، والاختلاف الثاني هو أن هناك مركزية في إضافة محتويات الموقع؛ خاصة وأن الموقع بطبيعته ديني، وأخيرًا أن القائم على هذا الموقع غير معروف ولا يمكن التواصل معه بشكل شخصي سوى عن طريق بريد إلكتروني لا أذكر فيه إطلاقًا اسمي الحقيقي. وهنا كان إنشاء موقع «طريق الإسلام» أو «IslamWay.com».

آثرت من اليوم الأول لإنشائي الموقع أن أحافظ على سرية شخصيتي؛ فلقد كان من البديهي أن أُصبح هدفًا لأمن الدولة لو عرفوا أنني أنشأت موقعًا دينيًّا بهذا الحجم. ما أسمعه عنهم كان يكفي لبثّ الخوف في قلب أشجع رجل، وكنت ما أزال مُراهقًا. لم يمر وقت كبير حتى تحوَّل الموقع إلى واحد من أهم المواقع الإسلامية على الإنترنت وأكثرها زيارة. وعندما تلقيت مكالمة النقيب رأفت بعدها بسنوات دعوت الله ألا يكون استدعائي لسؤالي عن الموقع، ولحُسن الحظ لم يذكر النقيب الموقع في مقابلتنا، وحرصت ألا أخبره عن علاقتي به.

سريعًا ما أصبح موقع «طريق الإسلام» من أكبر المواقع الإسلامية على الإنترنت. فقد احتوى في سنواته الأولى على ما يزيد على عشرين ألف ساعة صوتية من خُطب ودروس ومحاضرات وتلاوات للقرآن الكريم، سجلت منها بنفسي ما يزيد على ثلاثة آلاف ساعة صوتية، واعتمدت وقتها على أكثر من ٨٠ متطوعًا لا أعرفهم ولا يعرفونني

في حصر وتحويل المحتوى المتوفر على شرائط الكاسيت إلى صيغة رقمية يَسهُل بها تداول هذه المواد عبر الإنترنت وأجهزة الحاسب الآلي. وساعدني ياسر؛ أحد أصدقائي المتطوعين من الجامعة في إدارة الموقع طَوال تلك الفترة.

بعد عامَيْن من إنشائه كان يزور الموقع عشرات الآلاف من المستخدمين يوميًّا. حرصت على أن يكون الموقع مثل المكتبة العامة التي تحوي كافة الأفكار والآراء الإسلامية المعتدلة. وبعد إنشاء النسخة الإنجليزية للموقع في عام ١٩٩٩، انتشر بشكل أكبر بين المسلمين غير المتحدثين بالعربية، وكذلك الراغبين في التعرف على الإسلام، وأصبح الموقع قوة مؤثرة.

ومن خلال موقع «طريق الإسلام» تعرفت على زوجتي. كنت قد قررت أن أتزوج في سن مبكرة، وتقدمت بالفعل لخطبة العديد من الفتيات اللاتي تعرفت عليهن على الإنترنت أو من أقاربي ودائرة معارفي. كانت فكرة مجنونة أن أتقدم لخطبة فتاة وأنا ما زلت طالبًا في الجامعة ـ برغم استقلالي ماديًّا عن أهلي وحصولي على دخل معقول من عملي. وبسبب ذلك فقد باءت كل محاولاتي لخطبة أي فتاة في مصر بالفشل. ولأنني عنيد و«ماشي بدماغي» قررت أن الحلَّ هو الزواج من أجنبية حديثة العهد بالإسلام. أعجبني في الثقافة الأمريكية الصراحة والوضوح والعملية الشديدة في مواجهة مشاكل الحياة، وكانت فكرة الزواج ممن يترك دينه ليعتنق الإسلام تُسيطر على عقلي؛ فلا بد وأن مَن يفعل ذلك شخصية فريدة تستحق الاحترام، وستكون أكثر إيمانًا ممن وُلِد مُسلمًا بالفعل. كانت هناك عقبة واحدة تقف في طريق خطتي للزواج: لم أكن أعرف أي أمريكية مسلمة؛ مما جعلني أفكر في كيفية الوصول لزوجة المستقبل عبر الوسيلة التي لا أعرف أكثر منها للتواصل الاجتماعي مع الآخرين وهي الإنترنت.

التقيت بزوجتي عبر الإنترنت أول مرة حينما قرأتُ ما كتَبَتْه في ساحة الحوار الإنجليزية التابعة لموقع «طريق الإسلام» والتي أنشأتها خصيصًا ليَسْهُل على المسلمين الجدد التواصل مع بعضهم البعض. كانت زوجتي كثيرة الكتابة والسؤال في ساحة الحوار محاوِلة إشباع نهمها في التعرف على الدين الإسلامي بعد اعتناقها له بأسابيع قليلة. راسلتها وبدأنا في الحديث وأُعجبت بشخصيتها القوية وبأسلوبها في الكتابة

وأفكارها، وعرضت عليها فكرة مجنونة بزيارة القاهرة لنلتقي ولكنها رفضتْ، وتضاءل تواصلنا شيئًا فشيئًا بسبب انشغال كل منا بحياته الشخصية.

وفي منتصف عام ٢٠٠١ شاءت الأقدار أن أسافر إلى أمريكا بعد أن قررت وقتها التبرعَ بموقع «طريق الإسلام» لجمعية خيرية إسلامية مقرها الرئيسي بولاية «ميتشجان» الأمريكية. كان الموقع آنذاك ناجحًا وكبيرًا للغاية، ولم أعد أستطيع تحمل مسئوليته وحدي وأحافظ على نموّه، كما كان عملي فيه لمدة أكثر من ثلاثين ساعة أسبوعيًّا يؤثر على أدائي الدراسي. وبالرغم من أنني تلقيت عرضًا في صيف عام ٢٠٠٠ من أحد المصريين القلائل الذين يعرفون أنني مؤسِّسُه لشراء ١٠ ٪ من الموقع مقابل ١٠٠ ألف دولار أمريكي إلا أنني رفضت بشدة لأنني لم أُنشئ هذا الموقع رغبة في الكسب، وآثرت التبرع به لجمعية خيرية. قررت أن الوقت قد حان ليتحول «طريق الإسلام» لموقع يُدار بطريقة احترافية، وكانت هناك جمعية خيرية أمريكية مستعدة لأن تقوم بذلك فوضعت نفسي في طائرة وذهبت لزيارتهم للاتفاق حول تفاصيل التبرع به لهم.

أثناء وجودي هناك، نصحني أحد أصدقائي بالتعرف على تلك الفتاة المهذبة التي تبحث عن زوج مسلم، وكانت المفاجأة أنها الفتاة نفسها التي كنت أتحدث معها لشهور على الإنترنت! ولم يستغرق الأمر سوى عدة أسابيع حتى تزوجنا. لم أخبر والدي ووالدتي عن قراري بالزواج من «إلكا»؛ كنت أخشى من الضغط عليَّ للعدول عن الفكرة، وخاصة والدتي التي كانت ترفض بشدة فكرة الزواج من أجنبية ذات ثقافة تختلف عن ثقافتنا. اتصلت بوالدي بعد يومين من الزواج (الذي لم يحضره سوى والدة «إلكا» وشاهدَيْن والإمام) وأخبرته بالخبر. تعجبت من رد فعله، فالمفاجأة لم تكن كبيرة بالنسبة له لأنني سبق وأن حدَّثته عن رغبتي في الزواج من زوجة غير مصرية، ولكنه لامني بهدوء شديد على اتخاذي للقرار دون استشارتي له ولوالدتي. طلبت منه أن يرسل لي بضعة آلاف من الدولارات حتى أستطيع الاستقرار في أمريكا، وأن يعدني أنه لن يخبر أمي؛ لأنني كنت أريد البحث عن طريقة إيصال الخبر لها بشكل يُقلل من غضبها، ولكنني فوجئت بوالدتي تتصل بعد دقائق من القاهرة تَصُبُّ عليَّ جامَ غضبها (وهي مُحقة كل الحق في ذلك) بسبب قراري الفردي. قاطعتني أمي لشهور كنت

أحاول فيها الاتصال بها، إلا أنها كانت تغلق الهاتف كلما سَمِعَتْ صوتي. كتبت لها مجموعة من الرسائل وأرسلتها لها محاولًا استعطاف قلبها، وكنت أحرص في هذه الرسائل أن أمدح زوجتي التي بهرتني بأخلاقها وصفاتها الرائعة.. ولكن للأسف لم تُفلح هذه المحاولات وباءت كلها بالفشل.

زيارتي إلى أمريكا وعمري لم يتجاوز العشرين ساهَمَتْ بشكل كبير في صَقْل شخصيتي. كأي مصري يسافر إلى دول الغرب ويُعْجَب بحضارتها ذُهلت لما رأيته من جودة في التعليم واحترام لحقوق الإنسان والديمقراطية التي تجعل من المواطن صاحب صوت وإرادة في العملية السياسية. وبالطبع كشابّ صغير تغافلت عن رؤية الأمور بشكل موضوعي وخرجت من زيارتي بتعبير كنت أردده لأصدقائي في مصر: «إحنا بينضحك علينا في مصر». كان أكثر ما يُبهرني هو احترام الأديان وحق الإنسان في ممارسة العقائد التي يؤمن بها. هناك منظمات كثيرة تدافع عن المسلمين وحقوقهم وتعمل بشكل علني وتهاجم سياسات الحكومة الأمريكية بدون خوف.

ولكن لم تكن الحياة وردية في أمريكا. فالمجتمع هناك يُقدر الفرد أكثر من الجماعة، وهو عكس ما نشأتُ عليه في مصر حيث إن التركيز دائمًا على الجماعة، في دراستي للمجتمعات والثقافات فليس هناك صواب وخطأ، ولكنني كمصري ترعرعت في ظل مجتمع متماسك يُقدس العمل الجماعي ويرى في الفردية أنانية. لم يكن في نظري كل ما يأتي من الغرب مُفيدًا، فاعتزازي بثقافتنا العربية والإسلامية لم يتأثر بما رأيته من جوانب أرى أنه من المفترض أن نراها أيضًا في مجتمعاتنا.

نويت بعد زواجي أن أعيش في أمريكا لأستكمل دراستي بسبب انبهاري بالتعليم هناك، ولكنني عدلت عن هذا القرار بعد أحداث سبتمبر. لن أنسى أبدًا هذا اليوم: فقد استيقظت يومها مُبكِّرًا لأعمل على جهازي الشخصي لتصميم موقع لإحدى الشركات السياحية الصغيرة على الإنترنت، عندما لاحظت أن هناك أخبارًا منتشرة في غُرف الدردشة تطالب الجميع بفتح التلفزيون فورًا لرؤية ما يحدث في نيويورك. شاهدت أعمدة من الدخان تخرج من أحد أبراج مركز التجارة العالمي. ظننت وقتها أنه حادث عرضي وأن الطائرة قد اصطدمت بالبرج عن طريق الخطأ. أيقظت «إلكا» لتشاهد معي ما يحدث وما هي

إلا دقائق وكنا نحن الاثنين نصرخ في فزع عندما رأينا طائرة أخرى تخترق البرج الثاني. لم أتخيل أبدًا أن مَن يفعل هذه الجريمة النكراء يمكن أن يَزعم أنه مُسلِم؛ فالإسلام يرفض قتل الأبرياء تحت أي ظروف كما يرفض الانتحار؛ لذلك صُدمت عندما ظهرت تكهنات في وسائل الإعلام الأمريكية بعد ذلك تقول بأن مرتكبي هذا التفجير مسلمون. كنت قد لاحظت على مدار السنوات أن بعض وسائل الإعلام الغربي تُضخم بعض تصرفات المسلمين المتطرفين وتبرزهم على أنهم يمثلون الإسلام. فكرت أنه إذا كانت تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر - التي راح ضحيتها آلاف الأبرياء - لها أي علاقة بالمسلمين، فمَن فعلها لا بد وأنه لا يفكر سوى في مصلحته السياسية، ولم يتخيل حجم الضرر الذي سيقع على صورة الإسلام والمسلمين الذين يعيشون في أمريكا وباقي دول الغرب. أو ربما لم يأبهوا بذلك على أي حال.

في الأسابيع التي تلت هجمات سبتمبر، لم يكن من السهل علي مصري مُسلِم أن يعيش في أمريكا. كنت أشعر أحيانًا وكأنني أنا وغيري من المسلمين متهمون بارتكاب هذه الجريمة البشعة. كنت ألاحظ نظرات «الشك» و«الريبة» تجاهي من كثير من الأمريكيين في الشارع والأماكن العامة، وتعرض العديد من أصدقائي المسلمين إلى عمليات تمييز تسببت في خسارة بعضهم لوظائفهم أو حتى القبض عليهم واحتجازهم لأيام عديدة، أو المضايقات في المطارات بدون ذنب اقترفوه. زادتِ العراقيل أمامي بسبب قرار الجامعة الأمريكية التي رَغِبتُ في الالتحاق بها عَدم الاعتراف بنصف ما درسته في كلية الهندسة بجامعة القاهرة؛ إما بسبب تقديري المتدني في بعض هذه المواد أو اختلافها عن المواد التي تُدرس في الجامعة؛ مما كان يعني بالنسبة لي فقدان سنة ونصف من الدراسة. كما أصبح الحصول على عمل في الولايات المتحدة لشخص عربي ومسلم صغير في السن وما زال في مرحلة الدراسة الجامعية أشبه بالمستحيل، فبدأت محاولات لإقناع زوجتي وقتها أن علينا الرحيل إلى مصر لأستكمل دراستي في جامعة القاهرة والاستقرار في مصر.

وعلى الرغم من تعلقها الشديد بوطنها، إلا أن زوجتي المُحجّبة كانت قد بدأتْ تشعر بالعزلة أيضًا خاصة مع حملات العديد من وسائل الإعلام الأمريكية ضد كل

ما هو مُسلِم. ولكنها ترددَتْ كثيرًا في الموافقة على طلبي؛ فهي لم تغادر الولايات المتحدة من قبل سوى لزيارة سياحية قصيرة إلى المكسيك. أتذكر ما قالته لي في تلك الأثناء: «لقد سألت بعض أصدقائي عبر الإنترنت عن القاهرة فأخبروني أن شوارعها قذرة!». قلت لها: «لن أنكر أن شوارع القاهرة بعضها قذرة.. ولكن قلوب أهلها نظيفة».

إن الشعب المصري من أطيب الشعوب وأكثرها خفة دم ومرحًا؛ فهم يضحكون حتى في أحلك الأوقات، ويجدون النكتة في أصعب المواقف. لم يستطع قمع النظام للشعب على مدار ستين عامًا أن يغير طبيعتهم هذه أبدًا.

بعد جرعة مكثفة من الإقناع، وافقت «إلكا» على الانتقال لمصر، وسافرنا في ديسمبر ٢٠٠١؛ أي بعد أحداث سبتمبر بثلاثة أشهر. كنت عازمًا على أن نذهب للقاء أمي فور وصولنا، ولم يكن دخولي منزلها ولقائي معها لأول مرة بعد زواجي أمرًا سهلًا. حاولتْ أمي أن تُخفي مشاعرها ولكنها فشلتْ بجدارة، فلم تبتسم حينما رأتني وزوجتي، ولم تقف كعادتها لتحضنني بعد غيابي عنها لفترة طويلة، وسلمت على «إلكا» بدون أي ترحيب. كان من الواضح أنها تشعر بالخيانة وأنني غدرت بها لزواجي بدون إخبارها. ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلًا، أحبتْ أمي «إلكا» وقَبِلتها في عائلتنا، وأصبحتْ أكثر تقاربًا وتوافقًا معها مني!

بعد عودتي إلى القاهرة، قررتُ مواصلة الدراسة في الفصل الدراسي الثاني للسنة الثالثة في كلية الهندسة، وفي الوقت نفسه بدأت أبحث عن وظيفة لأصرف بها على أسرتي الصغيرة. التقيت بأحد أصدقائي القدامى؛ عبد الرحمن محيلبة وزميله رامي ممدوح، واللذَيْن كانا في بداية تأسيسهما لمشروع صغير على الإنترنت لخدمات البريد الإلكتروني للشركات والأفراد. موقع «جواب» ما لبث أن انتشر بشكل سريع في العالم العربي بسبب تقديمه خدمة البريد الإلكتروني الداعمة للغة العربية وبمساحة ١٥ ميجا، في الوقت نفسه الذي تُقدم فيه شركتا هوتميل وياهو بريدًا إلكترونيًّا مجانيًّا لا تتجاوز مساحته ٢ ميجا.

عرض عليَّ عبد الرحمن العمل معهما في مشروعهما الصغير والإشراف على التسويق والمبيعات الإلكترونية للشركة؛ وذلك لخبرتي في موقع «طريق الإسلام».

وافقت بدون تردد وساهمت معهما في أن تنتشر خدمات جواب في العالم العربي، وأصبح لدينا ما يزيد على مليونَيْ مشترك، بالإضافة إلى توفير دخل دائم للشركة عبر الإعلانات والاشتراكات مدفوعة الأجر من الشركات. نَمَت شركة «جواب» ونما معها راتبي وأصبحت مسئولًا عن فريق عمل به ١٢ موظفًا يعملون مع عملاء الشركة في مختلف دول العالم العربي. وبعد سنوات من العمل الناجح في «جواب» رغبت في مغادرة الشركة والبدء في إنشاء مشروع إلكتروني خاصّ بي، خاصة بعد النجاح الكبير الذي تحقق في شركة «جواب»، وصل بأنها تلقتْ عرضًا مليونيًّا لشرائها من أحد المستثمرين العرب.

عملي في «جواب» كان هو أولَ عمل حقيقي أشعر فيه بالمسئولية المهنية؛ كنت أدير كل ما له علاقة بالتسويق والمبيعات بالشركة، وكنت مسئولًا عن حسابات الشركة وإدارتها للنقد. وبرغم عملي لساعات طويلة في «جواب» واهتمامي بطفلتي التي رُزقت بها في يناير ٢٠٠٣، إلا أن ذلك لم يمنعني من التركيز في الدراسة في آخر عامَيْن لي في الكلية. كنت سعيدًا جدًّا بشعور الأبوّة، خاصة وأنني الأب الوحيد ضمن أقراني في الجامعة الذين استغربوا ما أقوم به من خطوات «متسرعة» في حياتي الشخصية. مضى الوقت سريعًا وأتمت ابنتي إسراء عامها الأول، وتخرجت في الكلية وأصبحتُ رسميًّا مهندس كمبيوتر في ٢٠٠٤.

أثناء عملي في «جواب»، وبعد شهور قليلة من التخرج، اتخذت قرارًا بالحصول على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال؛ لأن ذلك سيُسهم بشكل كبير في صَقْل خبرتي العملية التي بدأتْ مبكرًا وبدون خبرة. واتخذت قرارًا بالتقديم في الجامعة الأمريكية لأنها من أفضل الجامعات في تقديم هذه الشهادة بالرغم من ارتفاع مصاريفها، والتي تسببت لاحقًا في أن أصرف أكثر من ٦٠ ٪ من دخلي السنوي في التعليم. لم أهتم كثيرًا بالتكاليف الباهظة لأنني كنت أؤمن أن ذلك استثمار سيعود عليَّ بعد سنوات قليلة بالنفع الكثير. تقدمتُ إلى الجامعة بطلب الالتحاق بها ولكنني فُوجئت بالخبر السيئ: لن يمكنك الالتحاق بالماجستير بسبب تدني درجاتك في بكالوريوس الهندسة.

أُصبت بإحباط شديد وكتبت رسالة مطولة إلى الجامعة أشرح لهم فيها أسباب عدم

حصولي على تقدير جامعي مرتفع، وعزوت ذلك لنظام التعليم العام في مصر الذي يقوم على أساس الفصول الدراسية وعدم قدرة أي شخص على الحصول على تقدير مرتفع في حالة امتناعه عن الامتحانات (وكنت قد امتنعت عن امتحانات السنة الأولى في قسم الكهرباء والفصل الدراسي الأول في السنة الثالثة بسبب السفر لأمريكا)؛ وكذلك بسبب ظروف عملي وزواجي المبكر. حاولت أن أشرح لهم ما استطعت إنجازه كطالب، وطلبت وقتها من أحد أساتذتي في كلية الهندسة؛ وهو الدكتور أحمد درويش، والذي كان وزيرًا للتنمية الإدارية آنذاك أن يكتب لي توصية ويزكّيني لأستطيع الالتحاق بالجامعة.

كان من شروط الالتحاق بالماجستير بالجامعة الأمريكية تحقيق معدل لا يقل عن ٥٠٠ في اختبار للقدرات الشخصية والذهنية واللغوية يسمى: «GMAT». أخبرَتْني مديرة قسم التسجيل بالجامعة أنه في حالة رغبتي في الالتحاق بالماجستير في الجامعة فإنه يتعين عليَّ أن أحصل على درجة مرتفعة تُحسّن من ملفي، سألتها عن الدرجة فقالت ما لا يقل عن ٥٥٠؛ لأن هذا هو المتوسط لديهم. شعرت بتحدٍّ كبير وبدأت في الاستعداد لاختبار الـ«GMAT»، وقضيت شهرَيْن من العمل المتواصل إلى أن دخلت الاختبار وحصلت على «٦٨٠»؛ وهو معدل مرتفع جدًّا مقارنة بأقراني من المصريين. وبعد تقديمي لنتيجة الاختبار وافقتِ الجامعة بعد أيام قليلة على قبولي في الماجستير، وأتذكر أنني قلت وقتها للمسئولة: «إنني سأُثبت لكم أنني لست طالبًا فاشلًا، وسأحصل على الدرجات النهائية في كل المواد التي أدرسها بالجامعة».

وبعد سنتَيْن ونصف من الدراسة حصلت على الماجستير من الجامعة الأمريكية بمعدل ٤,٠ بعد دراسة ١٦ مادة؛ وهو أعلى معدل يمكن الحصول عليه فى النظام الدراسي الأمريكي. كنت أذهب من عملي في شركة «جواب» مباشرة إلى الجامعة لأحضر المحاضرات، ثم أمكث في مكتبة الجامعة ساعات طويلة لاستذكار دروسي. وأصبح تحقيقي للدرجة النهائية مسألة حياة أو موت، بالرغم من أنها لا تعني كثيرًا في المجال العلمي أو حتى العملي. وقد كان والحمد لله، وتخرجت بالمعدل الذي كنت أحلم به متخصصًا في مجال التسويق؛ وكان ذلك بمثابة رد الاعتبار وشعوري بأنني لست فاشلًا دراسيًّا؛ وأن المشكلة كانت في مناخ الدراسة أثناء الدراسة الجامعية

وليست في قدراتي الشخصية. كانت «إلكا» خير سند ودعم لي طَوال فترة دراستي؛ فهي كانت تُدركُ أن الحصول على هذا الماجستير هو تحدٍّ شخصيّ بالنسبة لي. ورغم أنني كنت أقضي وقتًا قليلًا معها ومع إسراء، إلا أنها دائمًا ما شجّعتني على الدراسة والتركيز فيما يُطلب مني في الجامعة من أبحاث ومشروعات.

تجربة دراسة الماجستير في الجامعة الأمريكية كانت هامّة ومفيدة. دراسة التسويق ساهمَتْ بشكل محوري في تقدمي في عملي، وبعد ذلك في نشاطي السياسي على الإنترنت. وأتاح المزج في الدراسة بين التسويق والاقتصاد والتمويل فهمًا أفضل لدراسة احتياجات السوق، وتصميم المنتجات التي تلبي هذه الاحتياجات، وترويج هذه المنتجات للجمهور المُستهدَف. أدخلتني دروس الاقتصاد والتمويل عالم الأعمال، وبما أن خلفيتي هندسية، تعلمت من هذه المادة كيف أدير المشروعات ماليًّا. لم يخطر ببالي وقتها أن كل هذه الدراسة والمهارات ستتراكم وتساعدني في الترويج لمنتج لم أتخيل نفسي أسوّقه في يوم ما: الديمقراطية والحرية!

في عام ٢٠٠٥، أول عام لي في الماجستير، يسَّر الله لي مقابلة أحد أكبر المستثمرين العرب في مجال التقنية ـ والذي لا أعرف مجال عمل سواه ـ أثناء عملي في شركة «جواب»؛ وهو المهندس محمد رشيد البلاع. البلاع كان أحد الشركاء الرئيسيين في المجموعة الوطنية للتقنية (NTG)؛ وهي مجموعة تحوي أكثر من عشرين شركة متخصصة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وجنوب شرق آسيا وجنوب آسيا وأمريكا. أُعجب المهندس محمد بشخصيتي والتقى معي لأحكي له عن طموحاتي وعن رغبتي في إنشاء موقع عربي خاص بالسيارات يشبه المواقع الأمريكية الشهيرة في ذلك الوقت. دعاني لزيارة فرع الشركة في الإمارات للحديث بشكل أوسع عن مشروعي. وهناك عرض عليَّ الالتحاق بمجموعته التي تريد التوسع بشكل أكبر في مجال الإنترنت، وأعطاني الفرصة لأكون جزءًا من فريق كبير لديه مهمة تحسين وتطوير الإنترنت العربي. العرض كان مغريًا وقبلته بعد تردد متنازلًا عن حلمي في أن أؤسس شركة خاصة أمتلكها. وبعد الانضمام للمجموعة الوطنية توطدت علاقتي سريعًا بالمهندس محمد الذي وجدت فيه نموذجًا

للمستثمر العربي المحترم، وأصبح يعاملني كأحد أبنائه حتى إن بعض موظفي الشركة أطلقوا عليَّ وائل البلاع؛ كناية عن حب المهندس محمد لي.

إحدى الشركات التي أسسَتْها المجموعة الوطنية للتقنية هي «مباشر»؛ وهي شركة تقنية تقدم للمستثمر في البورصات العربية شاشة تتيح له متابعة أسعار الأسهم بشكل آنيّ لاتخاذ قرارات البيع والشراء. وكان للمهندس محمد رؤية خاصة بأهمية توفير الأبحاث والأخبار الاقتصادية كوسيلة تسهم في إثراء قرارات الشراء والبيع للمستخدمين. وطلب مني إنشاء شركة متخصصة في القاهرة؛ وذلك برغم صغر سني التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين.

لم يكن لديَّ أي خبرة وقتها عن صناعة النشر أو الإعلام ولا حتى عن البورصة، حتى إنني دائمًا ما كنت أقول إنني في ٢٠٠٥ (قبل دراستي للماجستير) لم أكن أعرف الفارق بين السهم والسند؛ ولذلك بدأت أقرأ بِنَهم كل ما يتعلق بالبورصة وآخذ موادًا لها علاقة بالاقتصاد أثناء دراسة الماجستير. وبدأت سريعًا في إنشاء تلك الشركة، وبسبب إيماني بجيل الإنترنت وبسبب صِغَر سني، بدأت في تكوين فريق عمل أغلبه من الشباب الصغير المتخرج حديثًا من كليتَيِ التجارة والإعلام وتدريبهم ليكون لديهم القدرة على القيام بالعمل الصحفي.

ساعدني المهندس محمد كثيرًا بدعمه المادي والمعنوي، وبعد أشهر قليلة نشأ موقع «معلومات مباشر»؛ والذي أضحى في أشهر قليلة من إطلاقه المرجع الرئيسي للكثير من صغار المستثمرين العرب فيما يتعلق بأخبار الشركات. تلك التجربة رسَّخت في شخصيتي الكثير؛ فلأول مرة أجد نفسي مسئولًا عن فريق عمل تجاوز أكثر من ١٢٠ شخصًا بعد سنتين من إنشائه، وكنت دائم البحث عن أفكار للتطوير والإبداع، وأحاول بشتى الطرق تطوير فريق العمل بالشكل الذي يدفعهم لتقديم أفضل ما لديهم. وصل عدد زوار الموقع لما يزيد على مليون زائر شهريًّا، وزادت شهرته عالميًّا بفضل فريق العمل الرائع، وأطلقنا النسخة الإنجليزية للموقع، وأصبحتْ بعض المواقع وشركات البورصة العالمية تعتمد على ما فيه من أخبار ومعلومات؛ مما شكَّل نجاحًا أدى إلى زيادة استثمارات الشركة في مصر ورغبتها في التوسع.

تميز المهندس محمد البلاع بطاقة شابٍّ في العشرينيات بالرغم من أنه كان على مشارف الستين عامًا من عمره. كان يستمتع بخوض المخاطرات المحسوبة والعمل في مجالات نادرًا ما يتجه إليها أغلبُ رجال الأعمال. أتذكر أنه كان دائمًا يقول لي إن في العالم الذي يتطور سريعًا من حولنا يصعُب القيام بخُطط على خمس أو عشر سنوات، خاصة في مجال التكنولوجيا. وكمستثمر كان المهندس محمد يُقَسِّم رأس ماله على العديد من المشروعات متوقعًا أن ينجح واحد منها نجاحًا ساحقًا يعوّضه عن الخسائر في الاستثمارات الأخرى. كان لهذا الأسلوب في إدارة الأعمال أعمق التأثير عليَّ.

الإنترنت ساهم بشكل كبير في صَقْل خبراتي وشخصيتي؛ فمن خلاله دخلت إلى عالم الاتصالات وعمري لا يتجاوز الثامنة عشرة، وقمت بإقامة مئات العلاقات مع شباب في عمري من مختلف دول العالم. استمتعت كغيري من الشباب بقضاء الساعات الطويلة أمام شاشات وبرامج الحوار مثل الـ«IRC» والـ«ICQ»؛ لأبني شبكة من العلاقات الاجتماعية الافتراضية مع أشخاص لم يُتَحْ لي رؤية الكثير منهم ولو لمرة واحدة في الحقيقة.

بطبعي لم أحب الظهور في المجتمع الحقيقي؛ أرى في العالم الافتراضي حياة تناسبني؛ ففي العالم الافتراضي، وخاصة مع عدم إعلان شخصيتك الحقيقية، يمكن أن تكتب كما تريد وتُعبر عما تراه بالشكل الذي يُعجبك، وتختار مَن تتحدث معه وعن ماذا، وتُنهي الحوار في دقائق. لم أكُن اجتماعيًّا بالمعنى الدارج؛ فلم أكُن أقضي وقتي في زيارة الآخرين أو الخروج للتنزه معهم، وشيئًا فشيئًا أصبحت مُدمِنًا للإنترنت.

إدماني للإنترنت جعل من الالتحاق بشركة «جوجل» أحدَ أحلام حياتي؛ بسبب ما سمعته عنهم؛ فالشركة استطاع مؤسساها «سيرجي برين» و«لاري بيج» الشابَّان أن يُصبحا من أغنى أغنياء العالم في سنوات قليلة بسبب تطويرهم لمُحرّك بحث أصبح الأشهر في العالم. الشركة تحرص على موظفيها بشكل جعلها تتصدر تصنيفات الشركات الأكثر إرضاء لموظفيها. حاولت لسنوات أن ألتحق بالعمل في «جوجل»، وراسلتهم بسيرتي الذاتية في كل مرة أعلنوا عن وجود وظائفَ خالية لديهم في المنطقة لعلهم يَقبلون انضمامي لفريق عملهم. كنت مجنونًا بفكرة العمل في «جوجل» حتى

إنني كنت أقول لزوجتي مداعبًا إنني أريد أن أعمل في «جوجل» حتى ولو كانت الوظيفة المتاحة لديهم هي ساعي المكتب.

وفي عام ٢٠٠٥، وبعد أسابيع من انضمامي لشركة المهندس البلاع، أعلنتْ «جوجل» عن رغبتها في تعيين مستشار لها بالمنطقة العربية. وبدون أي تردد، وبرغم أن عمري لم يتجاوز الخامسة والعشرين وقتها، أرسلت لهم سيرتي الذاتية؛ والتي تتيح لقارئها وبشكل سريع أن يستنتج وَلَعي بالإنترنت.

حينما أرسلت سيرتي الذاتية لم أكن أتوقع أن يراسلني أحد من الشركة بسبب صِغَر سني وقلة خبرتي؛ لأن مستشار الشركة في الشرق الأوسط سيضع استراتيجيتها في المنطقة، ولكنني فوجئت باتصال من أحد مسئولي الموارد البشرية يخبرني أنني سأبدأ في مقابلات التوظيف.

إن «جوجل» شركة فريدة في كل ما تقوم به؛ ولذلك أرسلوا لي بعضًا من الملفات لأقرأها وأستعد للمقابلات. وبدأت بالفعل في أول مقابلة وتلتها عدت مقابلات استمرت لشهور. وفي المقابلة الأخيرة تحدث معي نائب رئيس الشركة من مكتبه في لندن، وبدأ في سؤالي عن خبراتي، وبالطبع لم يكن لديَّ الخبرة الكافية للوظيفة، وانتهت المقابلة، وشعرت وقتها بأنني لن أحصل على الوظيفة. وبعد أن راسلني مسئول الموارد البشرية معلنًا أنه لم يتم قبولي للوظيفة شعرت بحزن شديد.

زاد هذا الرفض من رغبتي في الانضمام لشركة «جوجل». لم يعد الموضوع مجرد وظيفة ولكنه تحدٍّ يناسب شخصًا عنيدًا مثلي. لم أكن أريد أن أفشل في الانضمام لشركة أعتقد أنها تلائم شخصيتي وعشقي للإنترنت.

وفي عام ٢٠٠٨ أعلنتِ الشركة عن رغبتها في تعيين مدير إقليمي للتسويق في المنطقة العربية يعمل من فرعها الجديد في القاهرة الذي لم يمر على تأسيسه سوى عامٍ واحد. وجدت أنها الفرصة السانحة خاصة أن السنوات القليلة الماضية استطعت فيها الحصول على الماجستير في التسويق وتكوَّنتْ لديَّ خبرة عملية أقوى وأعمق بسبب إدارتي لشركة خدمات «مباشر». وبالفعل تقدمت لاختبارات التوظيف

مرة أخرى. أعددت دراسة لم تُطلبْ مني أشرح فيها وجهة نظري في استراتيجية الشركة، وأرسلت لهم بعض الملاحظات التقنية على طريقة عمل محرك البحث باللغة العربية. واستمرت المُقابلات واحدة تلو الأخرى حتى استطعت تخطي آخر مقابلة مع نائبة رئيس الشركة للتسويق، والتي سألَتْني عن سِرّ إصراري على الانضمام للشركة فأخبرتها أنني أعتقد أن «جوجل» شركة غيرت العالم، وأنا أريد أن أساهم في تغيير حياة الملايين من العرب بتوفير التقنية لهم ودعمهم، وأن العمل في «جوجل» هو أفضل طريقة لتحقيق ذلك.

بعد ثمانية أشهر من المقابلات، تم قبولي في الوظيفة. أخيرًا أصبحتُ مُوظفًا في «جوجل»! أخبرَتْني مديرتي أن أحد كبار الموظفين الذين قابلوني وصفني بأنني مُثابِر وعنيد؛ وهو الشخص المناسب للوظيفة في هذه السوق الجديدة بالنسبة للشركة.

ساهمتِ الشركة في صَقْل خبراتي، وانبهرت كثيرًا من ثقافتها؛ فالثقافة السائدة في الشركة هي ثقافة الاستماع للآخرين. «البيانات والمعلومات» هي المَلِك، والقرارات تُتخذ بناء على قدر المعلومات المتوفرة، والسلطة لمن لديه المعلومة وليست للمدير الأكثر خبرة. أعجبتني أيضًا ثقافة الشركة المتمثلة في الثقة بالموظفين؛ فيمكنك الحصول عبر مختلف البرامج الداخلية على المعلومات التي تَبحث عنها، والوثائقُ والخُطط التسويقية والاستراتيجية في متناول أغلب الموظفين.

لم تتربع «جوجل» على عرش شركات التقنية من فراغ؛ فقد حدث ذلك بسبب سياسات الشركة؛ التي لم تهتم فقط بموظفيها، بل وبالسعي لإرضاء مستخدميها والتعرف على احتياجاتهم وآرائهم وتحليل استخدامهم لبرامج الشركة؛ ومن ثَمَّ استخدام ذلك في تطوير المنتجات. الشيء الوحيد الثابت في الشركة هو التغيير؛ فالشركة تُغير دائمًا وتُطوّر من منتجاتها، كما أن طريقتها في التعامل مع تطوير المنتجات كانت فريدة.

كان أكثر ما يعجبني في «جوجل» هو ثقافة التجربة، فلا مانع من التجربة طالما أننا سنقيّمها ونعلن سريعًا نتيجتها. في حالة اختلاف وجهات النظر في تطوير إحدى خصائص أي منتج من منتجات الشركة يقوم مديرو تطوير المنتجات والمهندسون

بعمل تجربة ووَضْعها لمجموعة من المستخدمين واتخاذ القرار بناء عليها. لم تكن الشركة تخشى من الفشل؛ تُخرج المنتج وفي حالة عدم نجاحه تقوم بوقف العمل به مُعترفةً بفشلها.

أكثر ما جذب انتباهي هو قاعدة الـ ٢٠٪ التي تتبعُها الشركة في كل فروعها في العالم؛ فالشركة تترك لموظفيها حرية اختيار ما يودون القيام به خلال ٢٠٪ من وقتهم (يوم في الأسبوع)، حتى ولو كان خارج إطار المشاريع المكلفين بها، وهذه القاعدة تسببتْ في إخراج العديد من المنتجات الرائعة مثل خدمة البريد الإلكتروني الرائدة «Gmail»، أو أكبر شبكة لإدارة إعلانات مواقع الإنترنت «Adsense». أدركتِ الشركة أن نجاحها في دَعْم موظفيها سينتهي بنجاحها، واستثمرت الشركة الملايين من الدولارات في سبيل تحقيق ذلك فعاد ذلك عليها بالمليارات. ساعدَتْني «جوجل» في التأكيد على فكرة أن إشراك الموظفين في قرارات وأنشطة الشركة هي من أهم الاستراتيجيات. فكلما أشركتَ الناس في محاولة التوصل لحل لمشكلتك، كلما زادت فُرصُ نجاحِك. وكان من الطبيعي بعد ذلك بسنوات أن أُطبق الفلسفة نفسها على النشاط الاجتماعي والسياسي.

لم يكن النقيب رأفت الجوهري أثناء استجوابي مُهتمًا بكل هذه التفاصيل في حياتي، كان أكثر ما يَشْغلُه هو نشاطي الديني ومعتقداتي الشخصية، وكان من الواضح أنه يريد أن يعرف أين سيضع ملفي الشخصي. كان من المُهم أن يُصنِّف كلَّ ملف حسب أفكار صاحبه؛ فهناك السلفي والإخواني والتكفيري والجهادي والتبليغي... وغيرها من التصنيفات التي يُنظِّم عبرها الضباطُ مَلفاتهم وآلية متابعتهم ومراقبتهم لمن يستجوبونه. سألني النقيب: «إيه رأيك في حسني مبارك؟ هل شايف إنه كافر عشان مابيحكمش بغَير ما أنزل الله؟»، تعجبت من السؤال! وببديهية سريعة ابتسمت قائلًا له: «هو حضرتك أهلاوي ولا زمالكاوي؟»، لم يَفهم سؤالي وسألَني: «هو إيه علاقة سؤالي بسؤالك؟!»، زادت ابتسامتي وأنا أقول له: «لو حضرتك شُفْت الباسبور بتاعي هتلاقيني سافرت أحضر ماتش الأهلي في تونس في نهائي أبطال إفريقيا، فلو إنت أهلاوي قول إني مابكفّرش حسني مبارك، ولو أنت بقه زمالكاوي ومش بتحب

الأهلاوية فقول إني باكفّر حسني مبارك». ضحك النقيب وقال لي: «معلش دي أسئلة روتينية ولازم نسألها». بدأ من نفسه يكتب في التقرير: «وبسؤاله أكّد أنه لا يُكفّر الحاكم ويصلي الجمعة في المسجد ويسلم على السيدات بدون مشكلة».

ثم أخبرني أنه سيسعى لحذف اسمي من قائمة ترقُّب الوصول في المطار بعد تقديم محضر التحقيق معي لمرءوسيه، فشكرته وغادرت حامدًا الله على انتهاء هذا اليوم الغريب والتحقيق الذي استمر لثلاث ساعات على الأقل.

لو أن النقيب رأفت وزملاءه قَضَوْا بعض الوقت في التفكير فيما يحدث على الإنترنت بدلًا من تكريس جهودهم على تصنيف المصريين طبقًا لمعتقداتهم الدينية ربما كانوا أكثر استعدادًا للإعصار المعلوماتي والرقمي، والذي كان على وشك القضاء على نظامهم القمعي الأمني.

الفصل الثاني

البحث عن مُنقذ

«أنا ماليش في السياسة» كان هذا موقفي وموقف غالبية المصريين من النشاط السياسي؛ مخزون متوارث من الخوف من مصير مجهول لكل من يجرؤ أن يدخل هذا العالم بدون أن يكون عضوًا في حزب الأغلبية؛ الحزب الوطني الديمقراطي. تفادى أغلبنا الخوض في العمل السياسي وأقنَعْنا أنفسنا أنه ليس بيدنا شيء نستطيعه لتغيير الوضع الحالي.

الحقيقة أن كل مصري تدخُل السياسة حياته الشخصية بشكل دوري، بل ويعبر عن رأيه فيها يوميًّا ولكن بصيغة المبني للمجهول؛ فالمصريون دائمو التبرم من التعليم، والصحة، والظروف الاقتصادية، والبطالة، وقسوة الشرطة، والرشوة، والفساد، والقليل منهم يتحدث بشفافية عن المسئول عن هذا الأمر، والكثير يُفضل أن يحتفظ بأفكاره عن المسئول لنفسه ويكتفي بالدعاء عليه!

جهاز الشرطة السرية (أمن الدولة) ومن قَبله «البوليس السياسي» أيام الملك، أنشأ حاجزًا نفسيًّا بين المصريين والسياسة؛ فجيل الآباء الحاليين الذي نشأ في الخمسينيات والستينيات، عاش أسوأ فترات القمع في تاريخ مصر الحديث من اعتقالات وتعذيب ومحاكمات عسكرية وغيرها من وسائل الإرهاب التي جعلت الكثير منهم يُؤْثر السلامة، وبالتعبير المصري «ياكل عيش». الجيل الذي نشأ في كنف ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تعلَّم أنه لا شيء جيدًا يمكن أن يأتي من وراء السياسة؛ فحتى بين أفراد العائلة كان الناس يخافون أن يكون بينهم واشٍ إن تحدثوا في السياسة. هذا الجيل ربَّى أولاده (قبل أي

شيء) على أن يخافوا السياسة وبطش جهاز أمن الدولة، أحيانًا أشعر أننا كمصريين تربينا على الخوف من الوقوع في قبضة الشرطة السرية أكثر من الموت ذاته.

لم تَخْتر مصر رئيسها قط، فبعد أكثر من مائة وخمسين عامًا من حُكم أسرة محمد علي وصل إلى الحكم عسكريون مصريون فيما عُرف بعدها بثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢. كان محمد نجيب أول رئيس لمصر، عيَّنه العسكريون الذين قاموا بالثورة، وبعد سنتين فقط اتخذوا قرارًا إجباريًّا بتنحيته ووضعه تحت الإقامة الجبرية التي قضى فيها ما تبقَّى من حياته؛ لأنه كان حسب مذكراته التي كتبها يريد تسليم السلطة لمن ينتخبه الشعب.

جاء بعده عبد الناصر صاحب الكاريزما الطاغية والمشروع العربي القومي، والذي برغم شعبيته بين المصريين لم يؤمن بالديمقراطية والحرية بمفهومهما الواسع، واكتفى باستفتاءات على شعبيته يُخيَّر فيها الناس (بنعم أو بلا) بدلًا من الانتخابات الرئاسية التي تعطي الشعب الحق في اختيار مَن يرونه أفضلَ حاكم لمصر. استفتاءات عبد الناصر كانت مثارًا لسخرية المجتمع الدولي لأن نتيجتها دائمًا كانت ٩٩,٩٪ موافقين عليه، وأطلق المصريون المعروفون بحسِّ الفكاهة نِكاتًا عن ضرورة معرفة هوية الـ ٠,١٪ المعترضين على حكمه.

اختار عبدُ الناصر محمدَ أنور السادات نائبًا له، وبوفاته أصبح الساداتُ رئيسَ مصر باستفتاء وليس بانتخاب. ثم تكرر نفس الشيء مع السادات الذي اختار محمد حسني مبارك نائبًا له، وعند اغتياله تولى النائب مقعد الرئيس! ظلت الاستفتاءات الصورية هي الطريقة الوحيدة لإضفاء الشرعية على رؤساء لم يخترهم الشعب مع تغير طفيف في النسبة لإضفاء بعض المصداقية على الأمر، إلا أن نسبة الاستفتاء ظلت في التسعينيات.

جمال عبدالناصر	١٩٥٦	٪٩٩,٩٩
أنور السادات	١٩٧٠	٪٩٠,٠٤٠
أنور السادات	١٩٧٦	٪٩٩,٩٣٩
حسني مبارك	١٩٨١	٪٩٨,٤٦٠
حسني مبارك	١٩٨٧	٪٩٧,١٢
حسني مبارك	١٩٩٣	٪٩٤,٩١٠
حسني مبارك	١٩٩٩	٪٩٣,٧٩٠

المُنْصفون لمبارك يقارنون بين الفترتين (الأولى والثانية) وبين باقي فترات حكمه. فترة الحكم الواحدة كانت ست سنوات، ومبارك قضى خمس فترات كان أفضلها الأولى والثانية. بدأ الأمر بالإفراج عن المعتقلين الذين احتجزهم السادات، مع وعود بتحسين الأوضاع على كافة الأصعدة، ووعود بمحاربة الفساد بكل أوجهه، وأهم وعد كان أنه لن يجدد فترة ولايته لأكثر من فترتين. يؤمن الكثير من المحللين السياسيين أن مبارك لم يكن فاسدًا منذ البداية، إلا أن بطانة السوء والمنتفعين، بالإضافة إلى طريقة إدارة البلاد كانت تدفعه دفعًا لما انتهى إليه (السُّلطة المُطْلقة مفسدة مُطلقة!).

طبيعة تَولِّي الحاكم الإجباري الذي كانت تُحكم به مصر تُخول للرئيس معظم الصلاحيات، إلا أنه لِيحتفظ بماء وجهه أمام العالم يجب أن يكون هناك برلمان يسنّ القوانين ويحاسب الحكومة، وبالطبع هذا البرلمان يجب أن يكون تحت سيطرة النظام. والطريقة الوحيدة التي تضمن ولاء البرلمان هي «دولة سلسلة المصالح»؛ فبعقد غير مكتوب أصبح معلومًا أن العضو الذي ينتمي للحزب الحاكم (الحزب الوطني) ستُفتح له أبواب الجنة (أراضٍ ، قروض، حصانة، امتيازات)، وأهم شيء أنه سينضم لقائمة الكبار.

بالطريقة نفسها، ولكن على مستوى أصغر، كان اختيار المجالس المحلية في كل محافظة، والمسئولة عن سياسات المحافظة الخدمية وأولويات الحكومة بها، القلة المحظية التي تدين بالولاء للحزب أصبح من حقها امتيازات لا يحصل عليها الآخرون، كل عنصر في الحزب يطبق نفس «سلسلة المصالح» على مَن هم أقل منه؛ الولاء مقابل الامتيازات.

رويدًا رويدًا تسببت هذه الامتيازات في انتهاء دولة القانون؛ فبقدر ارتباطك بهذه السلسلة كان قَدْر تطبيق القانون عليك. مفهوم العدالة ظل مُشوّهًا لفترة طويلة للدرجة التي تَغيّر فيها تمامًا، تحولت «المصلحة الشخصية بدلًا من المصلحة العامة» من فكر فردي إلى فكر جماعي. كانت معظم موارد الدولة تُستنفد في غير محلها بسبب الرشوة والمحسوبية والفساد. تحطمت الشخصية المصرية، وفُقدت أهم

ميزة لدى الإنسان وهي «إيمانه بنفسه»، وانتشرت كلمة «مفيش فايدة» بين الناس وبخاصة الشباب.

كل حقّ طبيعي من حقوق الإنسان أصبح حلمًا بعيد المنال كحلم الوظيفة، وحلم الشقة، وحلم الزواج ، وحلم الحياة الكريمة. باختصار كانت مصر مستعدة للثورة منذ زمن طويل، مستعدة أكثر من أي دولة جارة لها؛ فمستوى غضب الشارع في مصر لم يكن له مثيل. لم يكن بين الشعب والثورة غير حاجز الخوف وإيمان كل شخص أنه حتى لو تجرأ فبالتأكيد سيجد نفسه وحيدًا. وكلما كان الشعب يتحمل أنواع الظلم ولا يثور كلما تمادى النظام وأمعن في ظلمه.

وعد الرئيس مبارك المصريين أنه سيحترم الدستور المصري ولن يترشح لأكثر من فترتَيْن رئاسيتَيْن يقوم فيهما بواجبه تجاه مصر ويفسح المجال لغيره، ولا أظن مبارك كان يقول غير ما يعتقد وقتها، ولكن سلسلة المصالح التي أصابت مصر بـ«سرطان» الفساد جعلت أمر تنحّيه الإرادي عن منصبه شبه المستحيل. فنكثَ مبارك بوعده للشعب؛ وفي تمثيلية مُعدة بإتقان خطط لها ونفذها بطانته من أصحاب المصالح دخل في الفترة الثالثة والرابعة من حكمه، وكانت وسائل الإعلام الرسمية ـ هي الوحيدة آنذاك التي تستطيع مخاطبة الشعب ـ تصور الرئيس على أنه منبع الحكمة، وأن بقاءه في الحكم هو السبيل الوحيد لنهضة البلاد. وكان سلاح «الاستقرار» هو أهم الأسلحة التي يستخدمها الرئيس وحاشيته كوسيلة للإقناع الجبري للشعب. يقدمون الرئيس للشعب على أنه الخيار الوحيد استغلالًا لثقافة الشعب المصري المحب للاستقرار والخائف من التغيير تحت شعار: «اللي نعرفه أحسن من اللي مانعرفوش».

مع بداية الألفية الجديدة، وبعد أربع فترات رئاسية لمبارك، بدأ جمال مبارك نجل الرئيس يظهر على استحياء كلاعب في الحياة السياسية في مصر، شائعات كثيرة كانت تُطلَق كبالونات اختبار عن احتمال أن يكون جمال هو المرشح الأوفر حظًّا لخلافة والده. سوريا حدث بها سيناريو مشابه بتولّي بشار الأسد خلفًا لوالده، فلماذا لا يحدث المثل في مصر؟

كانت الجهة الأكثر تأثيرًا والتي ظلت في صراع محتدم مع النظام المصري منذ

نشأتها عام ١٩٢٨ هي الإخوان المسلمين؛ ولذلك ظلت شعبية الإخوان في الشارع فزاعة يستخدمها النظام مع الغرب عندما تتم مطالبته بتطبيق ديمقراطية حقيقية. دفع الإخوان الثمن غاليًا لتصميمهم على دخول المعترك السياسي رغم تضييق النظام عليهم؛ فهم أكثر مَن اعتُقل، وأكثر مَن تم تحويلهم إلى محاكمات عسكرية، وأكثر من شُوِّهوا إعلاميًّا.

كان النظام يعي أن صراع البقاء في السلطة هو صراع مصالح، فبالرغم من حربه المستمرة مع جماعة الإخوان، كان يحرص على أن تظل الجماعة موجودة على الساحة وأن يَظهر بمظهر المحارِب لانتشار أفكارهم والترويج في الغرب أنهم من الجماعات الإسلامية المتطرفة مستغلًّا في ذلك رؤية الغرب للإسلام على أنه الخطر القادم.

ولكن معارضة النظام بدأت تأخذ مناحي مختلفة في السنوات القليلة الماضية؛ ففي عام ٢٠٠٤ أنشأ مجموعة من الناشطين السياسيين المناهضين للنظام ما سُمّي آنذاك بالحركة المصرية من أجل التغيير «كفاية» لرفض التجديد للرئيس حسني مبارك لفترة خامسة، ومحاولة قطع الطريق على ما رأته من مناورات سياسية وتشريعية وإعلامية هدفها التمهيد لتولي ابنه جمال مبارك الرئاسة من بعده، وكان شعارها لا للتمديد لا للتوريث. تكونت الحركة من نسيج مختلف من المعارضين والمثقفين والفنانين وشباب المدونين على الإنترنت، وكانت أول حركة تُعبر عن اعتراضها صراحة على ترشيح مبارك وابنه. نظمت «كفاية» أول مظاهرة كبيرة لها ضد النظام في ١٢ من ديسمبر عام ٢٠٠٤ (رغم أن أغلب المشاركين في هذه المظاهرة كانوا يعرفون بعضهم بعضًا من مظاهرات سابقة ضد العدوان الإسرائيلي على غزة وغزو أمريكا للعراق).

تعامَل النظام مع أعضاء الحركة بدرجة أقل من القسوة من تعامله مع الإخوان؛ لأن الأمن لم يَرَ أن تأثير مثل هذه الحركات على الشارع سيكون كبيرًا؛ فهي بعكس الإخوان لم يكن لها ظهير شعبيّ، وخاصة أن جزءًا أساسيًّا من تكوينها كان من النخبة التي يظل خطابها بعيدًا عن الشارع. ولكن ظل لديهم الهاجس من كسر المصريين لحاجز الخوف وتعدي الخطوط الحمراء التي رسمها النظام لشخصية الرئيس، فلم يكن هناك مَن يجرؤ على انتقاد الرئيس علانية في وسائل الإعلام أو الشارع. وساهمت

هذه الحركة بشجاعة أعضائها في كسر هذا الحاجز النفسي عند الكثير من النشطاء ـ كان أشهر هتاف لكفاية هو «يسقط يسقط حسني مبارك» ـ ولكن الحركة ظلت حبيسة النخبة المعارِضة ولم تمتد إلى الشارع بالشكل المرجوّ منها بسبب أسلحة القمع الشامل التي كان النظام يستخدمها ضد معارضيه.

ولكن شجاعة كفاية لم تَغْنِ الكثير لنجل الرئيس. وُلِد جمال مبارك عام ١٩٦٣، وانتهى من دراسته الثانوية عام ١٩٨٠؛ العام الذي وُلِدتُ فيه. حصل جمال على البكالوريوس والماجستير في إدارة الأعمال من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وبعدها ببضع سنوات ترك مصر ليعمل في «بنك أوف أمريكا» بلندن. بعدها بفترة ترك عمله في البنك وأسس شركة للاستثمار البنكي في لندن مع بعض أصدقائه. وبعودته لمصر عام ١٩٩٨، بدأ طموحه السياسي في الظهور، فانضم لحزب والده الحاكم في عام ٢٠٠٠. ولأنه ابن الفرعون، سريعًا ما تقدم في الحزب حتى أصبح شخصًا محوريًّا فيه، وعمل على إعادة هيكلة الحزب وتوجيهه. تمت ترقيته ليكون رئيسًا للجنة السياسات؛ وهي أهم لجنة في الحزب، كما أصبح نائب الأمين العام للحزب. كان أصغر عضو مؤثر في حزبٍ حَكَمه العواجيز.

في عام ٢٠٠٤ شُكّلت حكومة جديدة أغلبها من أصدقاء جمال مبارك وحلفائه المقربين وسُميت آنذاك من قِبَل المعارضين بحكومة رجال الأعمال. ولكن مبارك احتفظ برجاله في أهم المناصب الوزارية، فلم يتغير وزير الدفاع أو الداخلية أو رئيس المخابرات. رأى الكثيرون الحالمون بالتغيير بما فيهم أنا بصيصًا من الأمل في تغيير الوجوه الذي حدث بالتعديل الوزاري، وكان رئيس الوزارة الجديد؛ أحمد نظيف، أستاذًا دكتورًا بالهندسة وخبيرًا في تكنولوجيا المعلومات، مما زادني تفاؤلًا لأنني أعمل بنفس المجال. ولكن، وبرغم ذلك لم يَخْفَ على أحد أن هذه الوزارة كانت مؤشرًا قويًّا أن المطبخ السياسي للنظام يُعد جمال مبارك ليكون الرئيس القادم للبلاد؛ ولكن بدلًا من حدوث ذلك، تسببت هذه الوزارة نفسها في سوء أوضاع البلاد وحدوث الثورة.

عندما ظهر جمال مبارك على الساحة السياسية المصرية، اعتبرت أن هذه فرصة

لتمكين الأجيال الشابة والتخلص من العقليات القديمة التي طالما جرّتنا للعصور السحيقة لسنوات. لم أكن أفهم السياسة ودهاليزها فبدا لي أن جمال شخص تقدميّ يُقدِّر الخبرات ويفهم ثقافة الشباب أفضل من هؤلاء الديناصورات المحيطين بوالده. وبدا أن الحملات الجديدة للحزب تعكس رغبة حقيقية في التغيير، ولكن اتضح لي بعد ذلك أنها مجرد إجراءات تجميلية للحزب، مجرد تغيير في الحملة ولكن المحتوى هو ذاته. كان الفساد يضرب بجذوره في الحزب، وأصبح واضحًا أن جمال مبارك قرر أن يلعب بقواعد الباقين نفسها.

وفي عام ٢٠٠٥، وتحت ضغوط المجتمع الدولي، وبخاصة الإدارة الأمريكية، تم إجراء انتخابات مجلس الشعب لأول مرة تحت إشراف قضائي. نفوذ جمال مبارك كان قد بدأ في الازدياد، وكان قد أعلن عن إجراءات تصحيحية داخل الحزب الوطني وتجنيب بعضٍ من كوادره المكروهة شعبيًّا.

وبدأت انتخابات مجلس الشعب بالمرحلة الأولى والثانية (المكونة من ثلاث مراحل في أماكن مختلفة)، والتي كانت صفعة على وجه الحزب الوطني؛ حيث حصد الإخوان المسلمون ٧٧ مقعدًا في المرحلة الأولى والثانية. وأصبحوا قادرين (إذا استمرت النتائج على نفس المنوال في المراحل التالية) على تشكيل نسبة ثلث البرلمان مع المعارضة مما يجعلهم معارضة مؤثرة قادرة على رفض القوانين والتشريعات. النتيجة كانت معبرة؛ فالمصريون يكرهون الحزب الوطني وسيُصوّتون لأي قوة تواجهه. تعاملت قوات الشرطة في تلك المراحل الأولى والثانية بقدر أقل من العنف مما كانت عليه أثناء انتخابات السنوات الماضية.

وفي المرحلة الثالثة كشف فيها النظام عن وجهه الحقيقي، ورجع إلى التزوير الصريح غير المتخفي، وأُغلقت المئات من مراكز الاقتراع، وعندما تظاهر الناخبون كان التعامل معهم عنيفًا. ضغوط المجتمع الدولي انخفضت أصواتها بعد نتيجة الانتخابات النزيهة التي تفوَّق فيها الإخوان بسبب خوفهم من التيار الإسلامي، وتُوفّي على إثر الأحداث تسعة من المصريين. ولم يستطع الإخوان في هذه المرحلة سوى حصد إحدى عشر مقعدًا لينتهي الأمر بمعارضة ممثلة في الإخوان بنسبة ٢٠٪ من

مقاعد مجلس الشعب، وحزب وطني حصل على أكثر من ٧٠٪ بعد انضمام بعض المرشحين المستقلين للحزب بعد فوزهم؛ كانوا طامعين في المكاسب الشخصية التي يحققها أعضاء الحزب أو خائفين من رفض عرض الانضمام له. كان واضحًا أن الحزب يحتاج إلى أغلبية يمكنه التحكم بها لفرض أي قوانين دون التفاوض مع قوى المعارضة في البلد. فحالة الطوارئ يجب أن يؤيد أغلبية البرلمان تجديدها؛ وهي سلاح النظام الفعّال لاستمرار وجوده.

واستمرارًا لتمثيليات تحسين صورة النظام أمام العالم الخارجي، قرر مبارك في العام نفسه تحويل الاستفتاء الرئاسي إلى انتخابات رئاسية تسمح فقط لرؤساء الأحزاب المعارِضة بمنافسته. وقتها استمرت وسائل الإعلام الحكومية في الإشادة بنظام مبارك وتصوير الأمر على أنه انتصار تاريخي لإرادة الشعب، وموقف يُحسب للرئيس مبارك لأنه أول رئيس مصري يَقبل أن ينافسه غيره على رئاسة الجمهورية!

إن وصف الأحزاب المصرية المعارِضة بالضعف سيكون مبالغة، فالأحزاب لا وجود لها على أرض الواقع، وأغلبها كرتونية يستخدها النظام لتحسين صورته. كنت دائمًا ما أقول تندرًا إن أعضاء ومؤيدي هذه الأحزاب الكرتونية لو اجتمعوا على قلب حزب واحد لن يستطيعوا أن يملئوا استاد القاهرة الذي لا يتسع لأكثر من ثمانين ألف متفرج. لم يكن الأمر يدعو للدهشة؛ لأن النظام أنشأ جهة تنظيمية يكون من حقها الموافقة أو رفض تأسيس الأحزاب، وللمفارقة كان رئيس هذه اللجنة هو أمين عام الحزب الوطني شخصيًّا؛ صفوت الشريف. لذلك ليس من المستغرَب أنه لم تؤسَّس أحزاب حقيقية في هذا العصر الدكتاتوري.

بعد التعديلات الدستورية بدأت الانتخابات الرئاسية الصورية. كان الأمر أشبه بالمسرحية المُسلِّية؛ فهذا مرشَّح يَعِدُ برجوع «الطربوش» إلى مصر، وآخر في حملته الانتخابية وعدَ بانتخاب مبارك لأنه هو الأجدر.

ظهر دور جمال مبارك جليًّا في هذه الحملة، فقد خرج علينا الرئيس مبارك لأول مرة متخليًا عن بدلته الرسمية ومرتديًا لقميص يُظهره بمظهر الشباب برغم تجاوزه للخامسة والسبعين من عمره، وانتشرت الحملات الدعائية الإجبارية والمموَّلة من

رجال الأعمال وأصحاب المحلات التجارية والمقاهي بأوامر من أجهزة الأمن في مختلف مناطق الجمهورية.

انتصر مبارك بسهولة بعد تمثيلية مُتقَنة واستغلال عدد كبير من موظفي الحكومة البالغ عددهم أكثر من ستة ملايين موظف وأمرهم من قِبَل رؤسائهم في العمل بالتوجه لانتخاب الرئيس، وعلى الرغم من هذا لم يَنْسَ مبارك التنكيل بمن نافسه بجدية من رؤساء الأحزاب كالدكتور أيمن نور رئيس حزب الغد الذي سُجن بعدها ثلاث سنوات في قضية تزوير، ونعمان جمعة رئيس حزب الوفد الذي أُقيل من رئاسة الحزب بعدها وطُرد من مقره. كانت الرسالة للجميع: إذا كنت تريد فعلًا أن تنافس مبارك فعليك أن تدفع الثمن.

كنا كلنا نعرف أنها تمثيلية، ولكن كان السؤال: إلى متى سنتحملها؟

استمر الاقتصاد المصري في التدهور بالرغم من تعيين الحكومة الجديدة «الشابة» صاحبة الوعود المتفائلة. كان النظام قد بدأ في بيع شركات القطاع العام منذ التسعينيات، في محاولة لخصخصة وتنشيط قطاعات عريضة من الاقتصاد. ولكن كان الكثير من العمال والمعارضين لديهم قناعة أن هذه الصفقات فاسدة، ولم تُسفر الخصخصة عن تحسين الأوضاع الاقتصادية. فلم يستطع العمال أن يَسكتوا طويلًا على الظلم، وبدأت مصر تشهد موجة جديدة من الإضرابات في عامَيْ ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، ووصل الأمر إلى إضراب ٢٦ ألف عامل في وقت واحد مطالبين بالعدالة الاجتماعية لتحسين أوضاعهم المعيشية. بدا واضحًا أن هذه الموجة في طريقها للارتفاع.

وفي عام ٢٠٠٨ قرر عمال شركة غزل المحلة الإضراب في السادس من إبريل. قرر ناشطون على الإنترنت مساندة إضراب غزل المحلة وتبنِّي اقتراح من المُعارض البارز مجدي أحمد حسين بأن يمتد الإضراب ليشمل مصر كلها. إحدى صفحات الإضراب على الفيسبوك انضم لها أكثر من سبعين ألف مشترك. الرقم كان كبيرًا وغير متوقع؛ فمعظم المظاهرات المعارِضة لا يزيد أعداد المشاركين فيها على بضع مئات.

نجاح وانتشار الفكرة كان له عدة أسباب؛ منها اشتراك أكثر من جهة في الدعوة

للإضراب مثل حركة كفاية، وحزب الوسط، وحزب الكرامة، وحركة موظفي الضرائب العقارية، ونقابة المحامين، وحركة ٩ مارس (المعروفة بأساتذة الجامعة)، وحركة إداريي القطاع التعليمي، والحركة الشبابية التي ظهرت على الإنترنت لأول مرة وبقوة ممثلة في الشباب الذين كَوَّنوا فيما بعد ما يُعرف بحركة ٦ إبريل.

فكرة الإضراب (عدم النزول للشارع أو العمل) كانت فكرة أسهل نفسيًّا على المصريين من النزول ومواجهة الأمن والمخاطرة بالاعتقال. بسبب طبيعة الإضراب لم يظهر أثره على الشارع في القاهرة والمدن الكبيرة المزدحمة، وأصيب الكثيرون ممن وضعوا آمالًا عريضة على هذا اليوم بالإحباط، بالرغم من ملاحظتي الشخصية لضعف حركة الشارع في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لعملي مع سعادتي لوجود مثل هذا الحراك في مصر. أما في المحلة التي دعا عمالها للإضراب، فتحولت المظاهرات إلى اشتباكات عنيفة بين العمال المتظاهرين ورجال الأمن، واستُشهد اثنان من المتظاهرين، وحَطَّم العمال المُضْرِبون صورة كبيرة لمبارك وداسوها بأقدامهم. انتشر فيديو تقطيع الصورة على اليوتيوب، ولكن بالطبع لم تصل هذه الصورة إلى وسائل الإعلام الحكومية.

يوم ٦ من إبريل كان إنذارًا للنظام باقتراب الثورة عليه وتنبيهًا للجميع أن الإنترنت أصبح لاعبًا جديدًا في الساحة. كردّ فعل لما حدث طوّر الجهاز الأمني فرعًا خاصًّا للإنترنت، وكوّن الحزب الوطني لجنة إلكترونية تحوي عشرات أو مئات من الشباب، الذين توظفوا مقابل أجور جيدة، هدفها التأثير على رأي الشباب على الإنترنت عن طريق الكتابة في المواقع الإلكترونية وشبكات التواصل الاجتماعي، ووضع التعليقات المؤيِّدة للحكومة وللحزب على مواقع الأخبار بدلًا من تحقيق إصلاحات حقيقية على الأرض. كما صدرت قرارات اعتقال لناشطي ٦ إبريل والذين دَعَوا لمساندة العمال في احتجاجاتهم بالمحلة والإضراب في كل مصر، ثم اعتُقلت الناشطة إسراء عبد الفتاح؛ وهي صاحبة واحدة من كبرى الصفحات الداعية للإضراب على الفيسبوك آنذاك، ولم يُفرَج عنها سوى بعد أسبوعين من الاحتجاز بدون تهمة حقيقية!

رفضي لما يجري في مصر لم يكن موضع شك في ذلك الوقت، ولكن ظل السؤال: ما الذي يمكنني أن أفعله؟ لم أكن واثقًا بجدوى ما يفعله النشطاء، وكنت منشغلًا بعملي

الذي وضعت فيه كل وقتي وجهدي، ولكن بهرتني شجاعة هؤلاء المحاربين الذين وقفوا أمام النظام المصري في أَوْجِ قوته؛ فخرج جيل من الشباب المصري مُقرِّرًا أن معركته مع النظام هي معركة وجود، وقرروا المخاطرة بحياتهم الشخصية من أجل حلم التغيير. وستظل الثورة المصرية مدينة لكل من ألقى حجرًا في المياه الراكدة وقتما كان هذا مغامرة غير محسوبة بكل ما تعنيه الكلمة. كانوا وقتها يهتفون: ثورة ثورة حتى النصر.. ثورة في كل شوارع مصر! وكأنهم كانوا يؤمنون أن هذه البلاد سيحدث بها ثورة عاجلًا أم آجلًا، وسيكونون هم في الصفوف الأولى لها.

أحمد ماهر؛ أحد رموز هذه الحركة الشبابية التي سُمّيت بعد ذلك بـ«حركة شباب ٦ إبريل»، تم استيقافه في الشارع بعد انتهاء أحداث الإضراب. اقتادوه إلى مقر أمن الدولة وانهالوا عليه بالضرب وتوجيه الشتائم والتعذيب. لم يصدق الأمن ظهور هذا التيار الشبابي المعارِض لسياسات الدولة والذي لا يَتْبع أحزابًا سياسية ولا تيارات إسلامية كما هو المعتاد، وكانت استراتيجيتهم التي لا يُتقنون غيرها هي جعل رموز هذه الحركات الأكثر شهرة عبرة لغيرهم ممن يفكر في الانضمام لهم.

خرج أحمد ماهر بعد أيام من اختطافه غير القانوني من مقر أمن الدولة إلى الشارع، وذهب إلى أحد النشطاء الحقوقيين والذي سارع بتصوير جسده؛ علامات الضرب والتعذيب كانت واضحة في ظهره ورقبته. ولكن أحمد كغيره من الشباب الشجاع آنذاك قرر ألا ينسحب من المعركة، وأن يلجأ إلى الإعلام ليحكي قصته وينال حصانة الرأي العام ويفضح نظامًا إرهابيًّا يقوم على قمع معارضيه بغضّ النظر عن هويتهم.

وبمرور الوقت لعبت التكنولوجيا دورًا هامًّا في كشف الحقائق. فمصر قد شهدت تغيرًا ملموسًا في وسائل الإعلام وأنماطه؛ وذلك بفضل زيادة انتشار الجرائد والمجلات والقنوات الفضائية الخاصة في السنوات العشر الماضية. لم يكن الإعلام الخاص يخضع لقيود الإعلام الرسمي التابع للدولة بالرغم من معاناتهم من التدخل المستمر من قِبل أمن الدولة والذي كان يصدر الأوامر ليُجبر كبار مقدمي البرامج على الاستقالة من مناصبهم. ومع ذلك تمكنتْ تلك الوسائل الإعلامية من تقديم تغطية أكثر حيادية برغم قُرب الكثير من مالكيها من رجال الأعمال للنظام الحاكم وتشابك مصالحهم المالية مع السلطة.

كما أن قناة الجزيرة قد لعبتْ دورًا حيويًّا أيضًا في نقل المعلومات وتقديم التغطية المختلفة بعد تأسيسها في ١٩٩٦، وكانت برامجها توجه النقد الشديد للحكام العرب. وبعد سنوات قليلة حصدت أعلى نسبة مشاهدة في مصر والعالم العربي، وقدمتْ نموذجًا تبنته عدة قنوات في الشرق الأوسط من بعدها.

وبالتوازي، زاد خلال هذه الفترة معدل استخدام المصريين للإنترنت من ١,٥ مليون شخص في سنة ٢٠٠٤ إلى ١٣,٦ مليون في سنة ٢٠٠٨. ازدهرت غرف الشات أو الدردشة والمنتديات والمدونات؛ مما أعطى للكثير الفرصة للتعبير عن أنفسهم. ولم يكن الأمر يمر بسلام دائمًا؛ فأمن الدولة كان يُلقي القبض من آنٍ لآخر على بعض المدونين الذين يتناولون مواضيع سياسية حساسة أو ينشرون أخبارًا لم تكن على هوى النظام، ومع ذلك استمر عدد المدونين السياسيين في التزايد.

في بدايات هذا العقد، كنت كغيري ممارسًا للمعارضة السلبية؛ فأحرص على قراءة جرائد المعارضة خاصة الدستور الأسبوعي، وأقرأ للكثير من المعارضين للنظام (منهم: إبراهيم عيسى، وعلاء الأسواني، وبلال فضل، وفهمي هويدي)، وأتابع عن قرب موقع جماعة الإخوان المسلمين الرسمي للتعرف على أخبارهم، وأمارس هوايتي بين الحين والآخر في إطلاق النكات السياسية الساخرة كما تعلمت ممن سبقوني، ولكن نكاتي كانت نكاتًا إلكترونية أنشرها دون الإفصاح عن هويتي.

واحدة من هذه النكات كانت تَصوّرًا لصندوق بريد الرئيس؛ صورة من بريد الهوت ميل صممتُها منذ سنوات عديدة، يظهر فيها رسائل تصله، فواحدة من جورج بوش ـ الرئيس الأمريكي آنذاك ـ عنوانها: «مبارك، كيف أستطيع أن أصبح رئيسًا لأمريكا حتى وفاتي؟؟»، وأخرى من جمال يسأله هل سيسمح له بتوريث الحكم له مثل بشار الأسد، وثالثة من البنك السويسري يخبره أن رصيده الحالي هو خمسة وثلاثين مليون دولار أمريكي. أيقونة «سلة المهملات» كان اسمها في التصميم هو «طلبات شعبية». وانتشر هذا التصميم بشكل كبير على الإنترنت دون معرفة هوية المُصمِّم.

كنت أُبدي اعتراضًا دائمًا على الطريقة التي تُدار بها مصر وسط أصدقائي وأهلي برغم تحذيراتهم المستمرة أنني «هاودّي نفسي في داهية»، ولكن عندما تشتد وطأة

الحوار ويسألني أحدهم: إذن ما البديل؟ لا أجد إجابة غير أن أي بديل سيكون أفضل مما نحن فيه. لم تكن هذه الإجابة تُقنع الكثيرين.

كان غياب البديل في رأيي أحد خطط الأنظمة القمعية المعروفة لإقناع الشعوب أنهم يحصلون على أفضل المعروض. وكان النظام المصري ينفذ هذه الخطة بإحكام؛ أي شخص له شعبية أو يمكن أن يبزغ كبديل يجب أن يُقصى، أو يتم تشويهه. كانت هذه السياسة تُطبق مع المعارضين وحتى أصحاب الشعبية من داخل النظام ذاته؛ كما يُشاع عن إقصاء وزير الدفاع السابق أبو غزالة، ورئيس الوزراء السابق كمال الجنزوري، ووزير الخارجية الأسبق عمرو موسى، وكان الكثير من المصريين مقتنعين بنظرية المؤامرة وأن هؤلاء تم إقصاؤهم من المشهد السياسي بسبب شعبيتهم الجارفة لدى رجل الشارع العادي.

الكثير ممن هم مثلي كانوا بالفعل يتساءلون فيما بينهم عن البديل الذي يمكن معه لمّ شمل الشارع المصري وكسر حاجز الخوف، والتحرك بشكل أكثر فعالية للوصول بحركة التغيير إلى رجل الشارع؛ الذي كان لعقود «مفعولًا به» لا دور له فيما يحدث في البلاد. ولم تكن هناك للأسف «إجابة نموذجية» حتى سمعنا جميعًا خبر عودة البرادعي إلى مصر.

محمد مصطفى البرادعي؛ رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مواطن مصري اشتغل بالعمل السياسي منذ تخرجه في كلية الحقوق عام ١٩٦٢. تميز البرادعي عن العديد من أقرانه في السلك الدبلوماسي ونجح في فترة قصيرة في إثبات هذا التميز. حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٤ في القانون الدولي من جامعة نيويورك وعاد لمصر ليعمل مساعدًا لوزير الخارجية لشئون القانون الدولي، ثم انتقل للعمل مستشارًا قانونيًّا للوكالة الدولية للطاقة الذرية في سنة ١٩٨٤، ثم تدرج في المناصب حتى عُين رئيسًا للوكالة في عام ١٩٩٧. حصل البرادعي على جائزة نوبل للسلام مُناصفة مع الوكالة عام ٢٠٠٥ اعترافًا بجهوده في الحد من انتشار الأسلحة النووية في العالم.

كان البرادعي شخصًا لم يستطع النظام المصري أن يُقصيه أو يشوّه صورته. في البداية حاول النظام احتضان الدكتور البرادعي كغيره من المصريين المتميزين في الخارج، ورغبة منهم في تلميع صورة النظام داخل مصر وتسويقه خارجها، وكان

البرادعي مصدر فخر لمصر في كتابات محرري الصحف الرسمية ووسائل الإعلام الحكومية. وبلغ التكريم ذروته حينما حصل على قلادة النيل؛ وهي أعلى وسام مصري يُمنح لمواطن من الرئيس حسني مبارك شخصيًّا عام ٢٠٠٦، ووصفه الرئيس آنذاك بأنه فخر لكل المصريين، وأن هذا الوشاح تقديرًا لخدماته الجليلة للوطن. هذا التقدير الرسمي الكبير جعل من البرادعي عند الكثير من المصريين موضعَ فخر واعتزاز، وزاد من ذلك جائزة نوبل والتي يُقدّرها المصريون، خاصة وأنه كان واحدًا من أربعة مصريين حصلوا على هذه الجائزة.

حينما اقتربتْ نهاية الفترة الثالثة لتولي محمد البرادعي رئاسة الوكالة الدولية للطاقة الذرية وقرب عودته لمصر، عقدت الصحف المصرية معه بعض الحوارات، التي أبدى فيها تذمره كمصري من طريقة إدارة البلاد. ركَّز البرادعي في انتقاداته على الديمقراطية الصورية ومشاكل الصحة والتعليم في مصر، وقوبلت هذه التعليقات في ٢٠٠٩ بالاستهجان من النظام المصري الذي قرر معاقبته بمنعه من الظهور على أي وسائل إعلام رسمية.

كانت الكتابة على الإنترنت بشكل عفوي وغير منظم صاحبة دور كبير في الثورة المصرية. أحد الشباب الجامعيين، ويُدعى محمود الحتة، قرر بعد أحد لقاءات محمد البرادعي التلفزيونية عمل «مجموعة» أو كما يسميه المصريون «جروب» على موقع الفيسبوك بعنوان: «البرادعي رئيسًا لمصر ٢٠١١». كان البرادعي قد سُئل سؤالًا عفويًّا في تلك المقابلة عمَّا إذا كان يريد الترشح للرئاسة، فأجاب معلنًا أن هذا الأمر سابق لأوانه في ظل ما يراه من تخبط سياسي تمر به مصر، ولكنه ترك الباب مفتوحًا، فسارع هذا الشاب وغيره بخطواتهم غير المحسوبة في الحشد للفكرة وإقناع الدكتور البرادعي بها.

ظهر جروب «البرادعي رئيسًا»، وبدأ في الانضمام له الكثير من الشباب الحالِم بالتغيير. جيلنا كان دائمًا ما يصطدم بالسؤال التقليدي من الشارع: «لو ماانتخبناش حسني مبارك هننتخب مين؟ مافيش بديل»، بل حتى في الشارع بدأنا نسمع حملات لجس النبض لانتخاب جمال مبارك رئيسًا لمصر بدعوى أنه تربى في بيت سياسي ويعرف خفايا إدارة الدولة، وبأنه بالتعبير المصري الدارج: «شبعان ومش محتاج يسرق».

انضم عشرات الآلاف للجروب، وكنت منهم، وما لاحظته كزائر للْجروب هو وجود الكثير من أصدقائي الشخصيين ممن يعملون في شركات كبيرة ولهم مناصب مرموقة فيها. الجميع وجد في البرادعي بصيص أمل لإصلاح مصر؛ بديلًا قويًّا ولديه سيرة ذاتية تؤهله لتولي منصب القيادة السياسية خاصة في ظل سُمعته الطيبة واحتفاء النظام به في السابق. وبدأ محمود وغيره من الشباب في حشد غيرهم عبر الفيسبوك وبإمكانات بسيطة وعفوية في دعوة البرادعي للترشح للرئاسة. وبعد فترة قصيرة زاد الإقبال على الصفحة وتجاوز المائة ألف، وأعلن البرادعي عن رغبته في أن يكون عضوًا فاعلًا في حركة تغيير مصرية تُعيد مصر لمكانتها الطبيعية وتُنهي عصور الديمقراطية الصورية التي عشنا في ظلها منذ عقود.

هذه المفاجأة جعلت النظام المصري يَفقد توازنه، وبدأ بشكل سريع في خطة منظمة لتشويه سمعة الدكتور البرادعي، فهذا الرمز المصري الذي رفع اسم مصر عاليًا في نظرهم، أصبح فجأة هدفًا لحملة تشويه منهجية قادها مخبرو أمن الدولة العاملون في المؤسسات الإعلامية الرسمية. بدأت التهم تتوالى على البرادعي؛ أصبح في زمن قياسي السبب الرئيسي في حرب العراق ودخول أمريكا لهذا البلد العربي وقتلهم لمئات الآلاف من العراقيين. كما أشاعوا عن البرادعي أنه مريض بداء السلطة؛ فبعد انتهائه من الفترة الثالثة بوكالة الطاقة الذرية يريد الآن الرجوع لمصر ليمارس هوايته في السلطة وأحلامه في رئاسة مصر. وصفه النظام السابق بنقص الخبرة السياسية الكافية لإدارة مصر، بل وبدأ البعض في ترديد شائعة أنه حاصل على الجنسية النمساوية. ووصل السخف برئيس تحرير أكبر جريدة مصرية؛ وهي الأهرام، في وصفه بأنه كان فاشلًا دراسيًّا وحلّ أخيرًا في إحدى سنوات الابتدائية أثناء دراسته بمصر. الهجوم على البرادعي لم يكن حبًّا في مصر، بل كان رغبة في أفول نجمه الذي صعد بسرعة بين المصريين كأمل للتغيير.

لم يهتم جروب «البرادعي رئيسًا» بهذه الحملة الشعواء من الشائعات، وتحول الجروب من مجرد صفحة على الفيسبوك إلى حملة لدعم البرادعي رئيسًا. اختير الشاعر عبد الرحمن يوسف لقيادة الحملة، وعمل معه مؤسسو الصفحة ومديروها

لمحاولة النزول إلى الشارع المصري مستفيدين من حملة الدعم الكبيرة والزخم الذي لاقاه الجروب على الإنترنت. وفي ديسمبر ٢٠٠٩، أجرى البرادعي حوارًا مطولًا قبل عودته بشهرين على مدار ثلاثة أيام لجريدة «الشروق» المعارِضة للنظام، أبدى فيه آماله وطموحاته لمعركة التغيير في مصر.

أبرز ما جاء في هذا الحوار هو رؤية البرادعي لأهمية وحتمية التغيير في مصر، وبرفضه لفكرة الترشح للرئاسة في ظل الانتخابات الصورية التي يستغل النظام فيها الأحزاب الكارتونية والضعيفة لإيصال رسالة للمصريين بأنه لا بديل عن حسني مبارك، وللخارج بأن مصر تتقدم ديمقراطيًّا. رَفْضُ البرادعي إضفاءَ الشرعية على النظام كانت أولى خطوات المواجهة، وربطُه الترشح الرئاسي بإجراء إصلاحات دستورية وقانونية وإجرائية كان أمرًا يراه الكثيرون حلمًا صعب المنال.

كانت حياتي الشخصية تتغير مثلما تتغير الأوضاع السياسية في مصر. أُصيبت زوجتي بالإحباط بسبب ما تلاقيه في حياتها اليومية في مصر؛ فهي لم تكن تستطيع قيادة سيارتها في زحام القاهرة، ولم تعُد تحتمل التلوث. لم تكن تمكنت من اللغة العربية بعد؛ وبالتالي كانت تجد صعوبة في التعاملات اليومية. ولهذه الأسباب وللكثير غيرها وبعد سبع سنوات قضيناها في مصر بدأت تُلِحّ عليَّ في السفر خارجها ولو لفترة. وساهم غيابي المستمر بسبب عملي في زيادة إحساسها بالاغتراب والوحدة. في هذا الوقت، كان فريق «جوجل» بالشرق الأوسط قد بدأ التمركز في الإمارات، وبالتدريج أصبح من الأفضل لي الانتقال للعيش والعمل هناك. وعندما استشرت «إلكا» أبدت ترحيبها الفوري بالانتقال إلى الإمارات. كنت مترددًا؛ فلقد كنت أُفضّل البقاء في مصر، ولكنه أصبح واضحًا أن البقاء سيكون تصرفًا أنانيًّا مني. وفي يناير ٢٠١٠، انتقلتُ إلى فرع الشركة في دبي، ولحُسن الحظ كانت طبيعة عملي تُحتم عليّ زيارة القاهرة بانتظام. كانت «إلكا» في غاية السعادة من العيش بدبي، أما أنا فكان عقلي في دبي وقلبي في مصر.

كنت أتابع الأحداث الساخنة بشكل مباشر ومستمر، أدخل يوميًّا على الجروب لأقرأ النقاشات الدائرة بين الأعضاء دون أن أشارك بشكل فعّال.

كان فبراير ٢٠١٠ شهرًا يترقبه الكثيرون؛ فهو موعد عودة الدكتور البرادعي لمصر بصورة نهائية بعد انتهاء فترة عمله بالوكالة الدولية للطاقة الذرية. نظمتِ العديد من القوى الوطنية استقبالًا حاشدًا له في المطار، والاستقبال الحاشد في ذلك الوقت كان يعني بضع مئات من النشطاء المستعدين لتحمُّل تبعات معارضة النظام بشكل علني. وحضر الاستقبال العديد من الشخصيات المصرية المعروفة مثل الأستاذ حمدي قنديل وغيره من المعارضين القدامى للنظام، ولكن الجديد هو وجوه الكثير من الشباب التي شارك بعضها لأول مرة في الخروج للشارع لتأييد فكرة التغيير.

لم أكن مستعدًّا بعدُ للمواجهة المباشرة مع النظام؛ خاصة وأن لديَّ الكثير الذي أخسره؛ فأنا أعمل في وظيفة مرموقة في شركة هي حلم الكثير من الشباب في العالم، ومصنفة كأفضل الشركات في العالم احترامًا لموظفيها، ولديَّ طفلان وزوجة أعولهم، وكذلك بسبب إيماني بأن التغيير في مصر سيتطلب وقتًا طويلًا برغم بصيص الأمل. ولكنني قررت أن أستخدم خبرتي في الإعلام والتسويق والإنترنت في دعم البرادعي؛ فأنشأت صفحة محمد البرادعي على الفيسبوك لتكون فيما بعد مِنبرًا رسميًّا يستخدمُه للتواصل مع مؤيديه عبر الإنترنت.

على الرغم من أنني أكره تقديس الأشخاص ولا أؤمن بنظريات الحلول السحرية التي تكمن في أفراد مُنقذين؛ لأن التغيير يحدث بتغيير السياسات والمناهج وليس الحكام كأفراد، وبرغم اختلافي في العديد من القضايا والآراء الفكرية مع الدكتور البرادعي، إلا أنني لم أتردد في الترويج له كمرشح للرئاسة. فقضيتي شخصيًّا هي التغيير وليس ترشح البرادعي للرئاسة أو حتى فوزه بها. دعمي كان للفكرة أكثر من الشخص، وكان السبيل الوحيد آنذاك هو دعم الشخص لتنجح الفكرة. وكان الدكتور البرادعي بما يملكه من إخلاص للقضية وخبرة وسمعة عالمية ومحلية خيرَ داعم للفكرة آنذاك. النظام كان جدارًا فولاذيًّا صعب الاختراق؛ ولذا كان من المهم إضعافه شيئًا فشيئًا بطرح بدائل للشعب والدعوة للتغيير التي بدأها الشباب مؤيدين لصاحب الرؤية المتميزة والسجل الوظيفي النظيف. كان أكثر ما أعجبني في البرادعي هو رؤيته لذاته أنه ليس مُنقذًا لمصر، وأن الشعب هو المُنقذ لنفسه، وأنه مستعد أن يتم استخدامه لدعم قضية التغيير.

من خبرتي على الإنترنت كنت أعرف أن إنشاء صفحة على الفيسبوك أفضل كثيرًا في إيصال المعلومات بخلاف المجموعة «الجروب». فبمجرد إعجاب الشخص بالصفحة (بالضغط على زر Like) فإن الفيسبوك يعتبر الصفحة والشخص أصدقاء، وبالكتابة على الصفحة تصل التعليقات الخاصة بها إلى صفحة المستخدم دون حاجته لزيارة الصفحة مما يعني انتشار الفكرة.

أنشأتُ الصفحة في فبراير، قبل أيام قليلة من وصول البرادعي لمصر، وبدأت في حملة تسويقية احترافية لها على الفيسبوك. انتشرتِ الصفحة بشكل سريع بسبب وجود عدد كبير من المستخدمين المتحمسين للبرادعي والراغبين في التغيير في مصر، وأيضًا بسبب الحملات الدعائية التي كنتُ أقوم بها عن طريق الفيسبوك. في البداية، اعتمدت في الصفحة بشكل رئيسي على وضع مقتطفات من حوارات الدكتور البرادعي في الصحف مع التركيز على رؤيته الإصلاحية لمصر وتأكيده على أن مصر بحاجة إلى ديمقراطية حقيقية.

بعد أيام قليلة من إنشاء الصفحة، اكتشفت أنني في حاجة إلى أحد ليشاركني في إدارة الصفحة، فطبيعة عملي في «جوجل» تجعلني كثير السفر، وأنا لا أريد أن تكون الصفحة قائمة على حسب جدول أعمالي الشخصية. لاحظت أن واحدًا من أصدقائي على الفيسبوك متحمس جدًّا للبرادعي. لم يسبق لي مقابلة عبد الرحمن منصور شخصيًّا، ولكن كنا أصدقاء على الفيسبوك منذ أغسطس ٢٠٠٩. كان عبد الرحمن طالبًا جامعيًّا في الرابعة والعشرين من عمره، في عامه الأخير بكلية الإعلام جامعة المنصورة. بدأ نشاط عبد الرحمن السياسي بالكتابة على مدونته عن الأوضاع السياسية في مصر. كان قد قام بتغطية الانتخابات البرلمانية المزورة في ٢٠٠٥، والعديد من الأحداث الأخرى. لاحظت أنه كان يعمل بنشاط في المشهد السياسي في مصر، وأُعجبت بطريقته في الكتابة.

عندما أرسلت دعوة مفتوحة لجميع أصدقائي للانضمام إلى الصفحة، وصلتني رسالة من عبد الرحمن يسألني عما إذا كنت أنا المسئول عنها. على الفور، أصبح خيارًا مناسبًا لي ليكون مشرفًا معي على الصفحة. أُعجبت بحماسه وفكره من ناحية،

ومن ناحية أخرى، فقد أصبح الآن واحدًا من قلة قليلة من الناس الذين إما عرفوا أو على الأقل يشكّون أنني الشخص الذي قام بتأسيس صفحة البرادعي على الفيسبوك. وبدون تردد، قَبِل عبد الرحمن العرض الذي قدمته له. هذا اليوم بمثابة بداية لعلاقة عمل افتراضية مستمرة حتى يومنا هذا.

استغرق الأمر بعض الوقت لبناء الثقة المتبادَلة والتفاهم بيننا. مرات عديدة أرسلت له رسائل خاصة لأطلب منه حذف محتوى نَشَره على الصفحة، وكنا في بعض الأحيان نخوض نقاشات ساخنة حول هذه المسائل، كلما احتد النقاش بيننا أفكر قليلًا وأطلب أخيرًا أن نتبع القاعدة الذهبية وهي أن نسأل أنفسنا السؤال التالي : «هل كان محمد البرادعي ليكتب هذا بنفسه؟». هذا السؤال جعل عملية اتخاذ القرار لدينا أسهل بكثير.

بعد استقبال البرادعي من قِبَل بعض الشباب والشخصيات السياسية المعارِضة المعروفة في مصر دخل في اجتماع مع هذه الشخصيات، وفوجئنا بعد الاجتماع مباشرة بإعلان إنشاء «الجمعية الوطنية للتغيير»؛ وهي كيان يجمع كل الشخصيات المصرية المعروف عنها معارضتها للنظام المصري مثل مرشح الرئاسة السابق أيمن نور، والإعلامي حمدي قنديل، والدكتور محمد غنيم، وبعض قيادات جماعة الإخوان المسلمين مثل الدكتور محمد البلتاجي والدكتور عصام العريان، وحزب الجبهة الديمقراطية، والكرامة، والوسط، و«الاشتراكيون الثوريون»، ومصريات مع التغيير، وحركة شباب ٦ إبريل... وغيرهم. وخرجَت الجمعية بأولى الخطوات العملية وهي «بيان التغيير»، أو ما كان يسمى أيضًا: «مطالب البرادعي السبعة للتغيير». كانت مجموعة من المطالب اعتبرها الدكتور البرادعي شروطًا هامة لنظام ديمقراطي حقيقي في مصر.

المطالب السبعة

١ ـ إنهاء حالة الطوارئ.

٢ ـ تمكين القضاء المصري من الإشراف الكامل على الانتخابات.

٣ ـ الرقابة على الانتخابات من قِبَل مُنظمات المجتمع المدني المحلي والدولي.

٤ ـ توفير فرص متكافئة في وسائل الإعلام لجميع المرشحين خاصة الرئاسية.

٥ ـ تمكين المصريين في الخارج من التصويت.

٦ ـ كفالة حق الترشح للانتخابات الرئاسية دون قيود تعسفية وقَصْر حق الترشح على فترتين.

٧ ـ الانتخابات عن طريق الرقم القومي.

كانت قائمة طموحة، تهدف إلى تحرير الإعلام، وإتاحة الفرصة لأكثر من ثمانية ملايين مصري في الخارج للتصويت في الانتخابات، ودعم الرقابة القضائية المستقلة على الانتخابات لجعل تزويرها أمرًا أكثر صعوبة. كما كان المطلب السابع من أهم هذه المطالب لأن الناخب آنذاك كان يتوجب عليه استصدار بطاقة انتخابية، وكانت هذه البطاقة أحد أهم المعوقات التي تُنفّر الكثيرين من المشاركة في الانتخابات، أما الرقم القومي فهو بمثابة البطاقة الشخصية الموجودة مع كل مصري.

كان الرائع في كل هذه المطالب أنها توافقية لا خلاف عليها بين القوى الوطنية السياسية، بل حتى النظام المصري قد يختلف مع مطلب أو مطلبين في العلن، ولكن يصعب عليه أن يعارض باقي المطالب. وزاد من قوة الفكرة أنها جاءت في صورة مطالب يقوم الشعب بالتوقيع عليها لفرض ضغطٍ على النظام المصري عَلَّه يستجيب.

كان نموذج التوقيع الإلكتروني على بيان التغيير بسيطًا: الاسم والسن والعنوان وبطاقة الرقم القومي. ولكسر حاجز الخوف لدى الجميع كان هناك أكثر من ١٠٠ شخصية عامة ببياناتها الحقيقية عند تدشين الموقع ظهرت أسماؤهم في قائمة الموقعين.

شعور الخوف انتابني في اليوم الأول والثاني فلم أُوقِّع على البيان، ولكنني ما لبثت أن وَقَّعت بعدها بكامل بياناتي الحقيقية لأكون رقم ٣٦٨. شعرت وقتها بالفرح الشديد أنني بدأت مرحلة جديدة من المواجهة العلنية للنظام؛ لأنني كنت متأكدًا أن جهاز مباحث أمن الدولة يقوم بتحميل هذه القائمة بشكل مستمر للتعرف على مَن فيها. ولكنني كنت سعيدًا ومتحمسًا للانضمام للجماهير المطالبة بالتغيير حتى لو كانوا قلة آنذاك.

كنت أرغب بشدة في مقابلة الدكتور محمد البرادعي في مصر، ولكنني لم يكن لي أي صداقة شخصية بأي من معارفه وقتها، ولكنني حاولت أن أحدد موعدًا معه في زيارتي التالية لمصر. راسلت الفنان الشاب خالد أبو النجا ـ الذي سبق والتقيت به في إحدى المناسبات التي نظمتها في شركة «جوجل»؛ وهي مسابقة للرسم بين الأيتام في مصر احتفالًا بيوم اليتيم، وحضرها خالد بصفته سفيرًا للأمم المتحدة لشئون الطفولة ـ وسألته عما إذا كان له أي علاقة بالبرادعي؛ خاصة بعد أن شاهدت له على اليوتيوب فيديو يتحدث فيه عن دعمه للبرادعي كرئيس، وأنه يرى فيه أملًا للتغيير الذي ننشده. سألت خالد إذا كان على علاقة شخصية بالدكتور محمد لأنني أريد مساعدته بما لديَّ من خبرة في مجال الإنترنت، ورد عليَّ مباشرة مُرسِلًا لي بريد أخيه علي البرادعي الإلكتروني لمراسلته والحديث معه في هذا الشأن.

أرسلت بريدًا إلكترونيًّا إلى علي البرادعي وأخبرته بما أقوم به، وإدارتي لصفحة الدكتور البرادعي، وشعرت أنه لا يعرف الصفحة وقتها؛ لأنه كما بدا لي لم يكن ناشطًا على الإنترنت، ولكنه رحَّب بأي نوع من التعاون ووعدني بتحديد موعد مع الدكتور البرادعي للقائه.

في الوقت نفسه راسلت الشاب محمود الحتة صاحب جروب «البرادعي رئيسًا» على الفيسبوك، وقدمت له نفسي كمؤسس لصفحة محمد البرادعي على الإنترنت، وتحدثت معه عبر برنامج «Skype» من الإمارات قبل سفري إلى مصر للحديث عن رأيي في طريقة إدارة الجروب وكيفية التعاون مع الصفحة. تعجبت وقتها من جرأة هذا الشاب وغيره من النشطاء؛ فعلى الرغم من قيامه بالحشد للتوقيع على بيان التغيير ودعمه المباشر للبرادعي إلا أنه قرر أن يتواجد باسمه الحقيقي وأسماء غيره من النشطاء الذين يعملون في الصفحة. أتذكر أنني نصحته وقتها بأن يُخفي اسمه؛ فذلك أفضل لضمان استمرارية الحركة، وذكرت له أن من أهم مميزات الصفحات على الفيسبوك هو إخفاء أسماء مؤسسيها. وانتهت المكالمة السريعة بالاتفاق على اللقاء في القاهرة بمجرد زيارتي لها.

بعد أسبوعين سافرت إلى مصر واتصلت بمحمود، ورتبت معه موعدًا وأخبرني

أن الشاعر عبد الرحمن يوسف سيكون حاضرًا. ذهبت إلى مدينة نصر متوجسًا؛ ففوبيا أمن الدولة تحاصرني، وخوفي من أن يكون هناك مَن يراقبني ويتجسس على مكالماتي كان شعورًا ملازمًا لي. وصلت إلى إحدى المقاهي الشعبية في أحد شوارع مدينة نصر، ونظرت يمينًا ويسارًا قبل أن أجلس معهم. كنت أتابع نظرات عامل المقهى وشعرت أنه يراقبنا، ونقلت إحساسي لعبد الرحمن يوسف الذي تبسم وقال إننا نعمل في العلن، ولن نحقق للنظام ما يريده من بثّ مشاعر الخوف في نفوسنا. لم أقتنع بكلامه وحاولت إقناعه بأهمية العمل بشكل سرّي؛ فنحن أذكى منهم، ولكن ما ينقصنا هو عامل الخبرة وإخفاء المعلومات حتى نستطيع تحقيق هدفنا.

دار حوار طويل بيننا وانتهى الاجتماع بالاتفاق على التعاون والعمل معًا؛ فهدفنا واحد. وعلى الرغم من أننا لم نصل لخطة نتحرك في إطارها بنهاية الاجتماع إلا أنني كنت سعيدًا حيث أرى فيهما هذا الحماس والعمل في سبيل القضية.

في ١١ من إبريل، أُتيحت لي الفرصة أخيرًا للقاء البرادعي. أخبرَني علي البرادعي عبر البريد الإلكتروني بتحديد موعد مع الدكتور البرادعي سيحضره آخرون، وطلب مني ترشيح شخصيتين للاجتماع أيضًا، اتصلت بعبد الرحمن منصور فأخبرني أنه خارج البلاد، فتواصلت مع اثنين من أصدقائي وهما المهندس مصطفى أبو جمرة؛ وهو صاحب إحدى شركات التقنية وتطوير المحتوى، والدكتور حازم عبد العظيم مستشار وزير الاتصالات، لحضور الاجتماع معي. كنت شديد الحماس لمقابلة البرادعي الذي أكتب عنه منذ فترة وأحشد الآخرين للإيمان برسالته دون أن أعرفه شخصيًّا، كنت سعيدًا ولكنني لم أُخبر سوى عدد محدود من أصدقائي عن لقائي المرتقب مع البرادعي.

يعيش البرادعي في فيلّا بأحد التجمعات السكنية الخاصة على طريق مصر إسكندرية الصحراوي. قررت الذهاب إلى هناك باستخدام تاكسي؛ لأنني لم أكن أرغب في أن يتعرف عليَّ حرس المنطقة السكنية من خلال رقم سيارتي، ولكن الدكتور حازم عبد العظيم أخبرني أنه سيذهب بسيارته الخاصة ولا يبالي من أي رقابة، فالبرادعي شخصية مصرية وطنية ولا توجد أي مشكلة في زيارته. ذهبت معه في السيارة وانضم إلينا مصطفى أبو جمرة قبل دخولنا.

كان بيته عبارة عن فيلّا بسيطة، ذوقها هادئ وما فيها من مقتنيات يُعبّر عن بساطة عائلة البرادعي. تذكرت كيف أن أحد الانتقادات التي واجهت البرادعي كانت أنه يعيش في فيلّا على أطراف القاهرة بعيدًا عن آلام الناس، وحاولوا تصوير الفيلّا كأنها قصر أسواره تفصل قاطنيه عن القاهرة الحقيقية.

استقبلَنَا د. البرادعي شخصيًّا، وكانت كل كلمة يتفوه بها تزيد الانطباع الإيجابي الذي كنت أتمنى أن يماثله. كنت قلقًا أن يتغير انطباعي عنه بعد أن أنتقده؛ فغالبًا تظهر حقيقة الأشخاص عند انتقادهم وليس عند توجيه عبارات الثناء لهم. البرادعي كان يتوسط مجموعة من الزائرين بينهم المخرجان الشابّان عمرو سلامة ومحمد دياب وبعض رجال الأعمال والسياسة.

كان النقاش ساخنًا، والبرادعي كان مستمعًا جيدًا، فلا تشعر أنه يقود الجلسة، بل على العكس تشعر أنه يتعلم ويستفيد من آراء الآخرين بقدر ما يساهم في الحوار. وجّهت له مجموعة من النصائح فيما يتعلق بأسلوبه في الحديث وأهمية أن يتحدث بلغة رجل الشارع العادي وليس المثقفين، أو ما يُطلق عليهم «النخبة»، إذا كنا نريد استقطاب الفئة الكبرى في المجتمع.

تحدثت أيضًا عن اشتراك البرادعي الرسمي على تويتر والذي أنشأه منذ فترة قصيرة، وكان به أكثر من ١٠ آلاف مشترك. كنت أشعر أن الدكتور يتسرع أحيانًا في الكتابة عليه، وبعض عباراته لها مفعول سلبيّ لدى النشطاء أو قارئي الصحف التي كانت تنقل كلامه. اقترحت عليه أن يُصبح أكثر حذرًا ويعين مجموعة ممن يثق بهم ليراجعوا ما يكتبه قبل كتابته. كان من مميزات البرادعي أنه يرفض أن يكون مُنقِذًا لمصر، وأنه يؤمن بالشباب ودورهم في قيادة عملية التغيير، وطلبت منه أن يكتب في هذا الاتجاه كثيرًا؛ فعودة الثقة أمر هامٌّ للشباب المصري حتى يتحرك. كما أتذكر أنني أيضًا انتقدت كثرة سفره خارج مصر في هذه الظروف وضَعْف تحركاته في الشارع. الكثير غيري كان يرى في ذلك أسوأ نقاط الضعف في البرادعي؛ فسفره المتكرر قد يُقلّل من جدية الحركة ويتيح الفرصة لمَن يعارضه أن ينتقده بشكل موضوعي.

كانت هناك ملاحظات من جانب الجميع: المخرجان محمد دياب وعمرو سلامة

كانا يظُنّان أن تصدير فكرة بيان التغيير والاهتمام به كأولوية، وإعلان أعداد الموقعين عليه علنًا سيُعرّض البرادعي لحرج، فتوقيع البيان يستوجب رقم البطاقة الشخصية، والمصريون ما زالوا غير مُستعدين لأن يعارضوا في العلن ويتحملوا تبعات ذلك. كانت هناك فجوة بين مؤيدي البرادعي المتوقِّعِين وبين الذين وقَّعوا على بيان التغيير حتى تلك اللحظة.

رأيت شخصيًّا في بيان التغيير تعبيرًا رائعًا عن سرعة نمو المعارضة والالتفاف حول المطالب، وعارضت وجهتَيْ نظر دياب وسلامة؛ لأنه طالما كانت التوقيعات في زيادة بشكل يومي فإن ذلك يعطي الأمل في التغيير، كما أن البيان يتيح قيام حوار مجتمعي حول هذه المطالب والضغط على النظام لتنفيذها. لم يكن الخلاف في الجلسة حول محتوى البيان، بل على آلية دعم انتشاره.

كان لقاءً مثمرًا، خرجت منه أكثر تفاؤلًا ورغبة في المساهمة في تغيير مصر، التقطت صورة تذكارية مع البرادعي وعُدت إلى بيتي لأضعها صورة لصفحتي الشخصية على الفيسبوك وكتبت تعليقًا على الصورة: «أنا وائل غنيم، وأُعلن دعمي وتأييدي العلني للدكتور البرادعي». لقاء البرادعي جعلَني نوعًا ما أكسر جزءًا من حاجز الخوف بداخلي؛ الخوف من النظام وأجهزة قمعه التي يستخدمها ضد مَن يعارضه.

بعد لقائي مع البرادعي رَغِبْت في أن يكون بين جميع من يؤيده من الشخصيات المؤثرة وسيلة للتواصل، قمت بإنشاء مجموعة بريدية على «جوجل» أسميتها: «ElBaradei»؛ وكانت مجموعة مغلقة لا يمكن لأي شخص الانضمام لها إلا بعد إذن أحد المشرفين. وبدأت في إضافة مَن أعرفهم وأثق فيهم للمجموعة، وكذلك كان علي البرادعي يرسل لي كل مَن يشعر أن في إضافته للمجموعة فائدة. حدثت العديد من النقاشات في هذه المجموعة.. ولكن العمل في الشارع كان قليلًا.

حاولت مع عبد الرحمن كثيرًا تحسين صورة البرادعي بعد الحملات الشعواء التي شُنت ضده، بحثت في أرشيف الصحف القومية المتوفر على الإنترنت لأُخرج مقالات الإطراء والثناء على البرادعي والتي تؤكد تعمُّد النظام تشويه صورته، فبطل الأمس هو عدو اليوم. وجدت مجموعة من الصور للبرادعي مع بعض زعماء العالم مثل الرئيس

الأمريكي والفرنسي ومستشارة ألمانيا وملك السعودية وغيرهم فنشرتها لأظهر كذب ما يقال إن البرادعي عالم ذرة وليس له أي علاقة بالسياسة كما كان يُشاع بين الناس.

بحثت عن فيديو يحوي جلسة مجلس الأمن التي خرج فيها البرادعي بتقريره الذي أكد خلوّ العراق من أي أسلحة نووية، وأنه يطالب بمزيد من الوقت ويرفض الحل العسكري في الوقت الحالي؛ وذلك لتبرئته من تهمة تسببه في حرب العراق. ترجمت الفيديو ونشرته على صفحته محاولًا الرد على الشائعات. كان التقرير الذي قدمه البرادعي آنذاك يطالب بمنح التفتيش على المواقع النووية بالعراق المزيد من الوقت، ورفض فيه البرادعي التدخل الحربي الأمريكي المزمع.

بعد أقل من ثلاثة أشهر، وفي يوم ٦ من إبريل ٢٠١٠، أصبح عدد المشتركين في صفحة محمد البرادعي أكثر من مائة ألف مشترك، ويشاء القدر أن هذا اليوم هو اليوم الذي تحتفل فيه حركة ٦ إبريل بميلادها بشكل سنويّ بمحاولة التظاهر والذي فشل بسبب سطوة الأمن.

لم نكن نكتب في الصفحة بكامل حريتنا؛ لأننا في النهاية كنا نكتب باسم الدكتور محمد البرادعي، فاللغة كانت رسمية، ونادرًا ما أكتب رأيي الشخصي؛ إيمانًا منا أن الصفحة يجب أن تمثله بشكل رسمي. وكان أكثر مَن يكتبون التعليقات يظنون أن الدكتور محمد يُشرِف بشكل شخصي على الصفحة، ولكن الصفحة كانت بمثابة تدريب هامّ لي في كيفية إدارة صفحات الفيسبوك والتي لم يكن لي سابق خبرة في إدارتها من قبل.

في ١٥ من إبريل، وصلتني رسالة مُشجّعة للغاية من د. البرادعي من خلال ابنه، قال فيها إنه قضى بعض الوقت يومها في تصفُّح صفحتنا، وأنها صفحة رائعة. شكرني على طريقة عملي المهنية والإبداعية وطلب مني الاستمرار. رددت عليه شاكرًا لدعمه وقلت له إن كلامه يعني لي الكثير. وضعت عبد الرحمن في ردي على البرادعي وقلت له إنه الأدمن الثاني للصفحة، وإنه يستحق الشكر مثلي لجهوده في إدارتها.

كان من العلامات المهمة في هذه الصفحة استخدام استطلاع الرأي عبر الإنترنت لتحديد خطة العمل. الاستطلاعات على الإنترنت بما فيها من عيوب تتمثل في أنه لا يمكن بسهولة الحصول على عينة صغيرة تمثل الشريحة المستهدفة بشكل دقيق، إلا أنها ظلت وسيلة جيدة للتعرف على نبض الشارع بما هو متاح من وسائل؛ فالاستطلاعات في الشارع ممنوعة ولا يمكن إجراؤها سوى بتصريح أمني يتم استصداره من وزارة الداخلية.

بحثت عن أفضل مواقع الاستطلاع والتي تدعم اللغة العربية واشتركت فيها بمبلغ بسيط، وأنشأت أول استطلاع لقياس مستوى رضاء أعضاء صفحة محمد البرادعي عن الوضع في البلاد، وعن سبب عدم توقيعهم على بيان التغيير. شارك في الاستطلاع أكثر من ١٥ ألف عضو. كتبت بعدها رسالة مطولة إلى أعضاء جروب البرادعي وأرسلتها أيضًا إلى الدكتور محمد وبها نتائج الاستطلاع وبعض التوصيات التي كنت أرى أهمية حدوثها.

بعد أن عرضت ملاحظاتي على د. البرادعي، دعاني علي البرادعي للقاء مجموعة من الشباب يعملون منذ فترة على خطة لنشر بيان التغيير، والتقيت وقتها بالدكتور مصطفى النجار؛ وهو الشخص الذي تولى منصب المنسق العام لحملة البرادعي بعد استقالة الشاعر عبد الرحمن يوسف من إدارة الحملة. لمست في مصطفى الإخلاص والرغبة الحقيقية في التغيير، ولفت نظري في طبيب الأسنان دماثة خلقه، وكان هذا من العوامل المهمة التي قربتني من شخصيته. أصبحنا أصدقاء إلكترونيين نتحادث كثيرًا عبر الإنترنت عما يحدث في الشارع ونُشجّع بعضنا البعض، وأحيانًا نثبط بعضنا البعض بسبب ما يحدث على أرض الواقع. كان مصطفى ناشطًا سياسيًّا عمره من عمري، وقد اعتقله جهاز أمن الدولة أكثر من مرة بسبب نشاطه المعارِض.

كنت دائمًا أدخل في خلافات طويلة مع مصطفى النجار حول دور الإنترنت في عملية التغيير؛ فمصطفى كان يرى الإنترنت عالَمًا افتراضيًّا لا يمكنه التأثير بشكل فعّال على أرض الواقع، بينما كنت أرى في الإنترنت شرارة التغيير. الإنترنت ليس عالَمًا

افتراضيًّا يسكنه الأشباح، بل هو وسيلة للتواصل تعطي للعالم الحقيقي طريقة للتنظيم والتحرك ونشر الوعي والفكر.

كنت مؤمنًا بدور الإنترنت في دعم المعارَضة السياسية في مصر، ذات مرة كتبت على الفيسبوك وتويتر أن الإنترنت سيُغير السياسة في مصر، وأن الانتخابات البرلمانية في ٢٠١١ ستكون مختلفة عن انتخابات ٢٠٠٥. لا أنسى عبارات السخرية التي كتبها بعض مَن كان يتابعني بأن النظام في مصر هو الذي سيغير الإنترنت وليس العكس، وكان العديد منهم يتوقع أن الإنترنت لو مثّل خطرًا على النظام فسيتم فلترته أسوة ببعض الدول المجاورة مثل السعودية؛ والتي تُحكم السيطرة على الإنترنت وتمنع مواطنيها من زيارة المواقع السياسية المعارِضة للنظام السعودي الملكي. لم أوافقهم على ذلك؛ فالنظام المصري يحب أن تظهر مصر أمام العالم بمظهر الدولة المنفتحة والمتقدمة والمُرحّبة بالعالم الخارجي، فاقتصادنا يعتمد بدرجة كبيرة على السياحة، والنظام يهتم جدًّا بسُمعته العالمية.

لم يُكتب لخطة العمل التي كنت قد اقترحتها على البرادعي النجاح، وكان أغلب ما يحدث منها هو خطوات بسيطة غير ملموسة، وزاد هذا من شعوري بالإحباط؛ خاصة وأن مقدار الزيادة في أعداد الموقعين على بيان التغيير كان في تناقُص، ولكنني فصلت بين شعوري الشخصي وبين الصفحة. حاولت مع عبد الرحمن منصور بثّ الأمل ومتابعة كل أخبار الدكتور البرادعي والحملات التي كان يقوم بها في الشارع؛ مثل زيارته لمصر القديمة والفيوم. كنا ننشر الصور ونستمر في كتابة آرائه ومتابعة التوقيعات على بيان التغيير وانتقاد بعض الأوضاع السياسية في البلد، وكنت ألاحظ أن أغلب التعليقات على الصفحة تطالب البرادعي بالتحرك العملي وعدم الاكتفاء بالكتابة على الفيسبوك وتويتر.

من اللحظات الفارقة كانت لقاءً حضرتُه مع أحد الخبراء الاستراتيجيين في مكتبه وهو الدكتور مصطفى حجازي؛ شخصية وطنية مخلصة، دعاني والدكتور حازم عبد العظيم وبعض الشباب للحديث حول التغيير في مصر. كان الدكتور يرى خطأً كبيرًا في تصوير التغيير على أنه اختيار البرادعي رئيسًا. ويرى أن المهم

في المرحلة القادمة هو التركيز على التغيير كهدف، وترسيخ مفهوم مِلكية الوطن للمصريين؛ لأن هذا المفهوم هو الذي سيبثّ فيهم روح المقاومة ورفض الظلم والفساد. أتذكر جيدًا الكثير من تفاصيل هذه المقابلة وجدالي وبعض الحضور أن الدعاية للدكتور البرادعي هي في الأصل دعاية لقضية التغيير. وفي الحقيقة كنت مقتنعًا بما يقول قبل لقائه، ولكنني بعد اللقاء قررت بالفعل التواصل معه بشكل أكبر والتركيز فيما أقوم به على مِلكية المواطن وعلى التغيير وليس فقط انتخاب البرادعي رئيسًا. بعد الاجتماع، ظلت كلمات د. مصطفى ترن في أذني: «البلد دي بلدنا!»، وما زالت حتى يومنا هذا. كنت أريد أن يهتف كل مصري بهذه الكلمات بأعلى صوت لديه.

بعد بضعة أيام تلقينا في مجموعة البرادعي رسالة من د. حازم عبد العظيم يعتذر فيها عن عدم قدرته على الاستمرار في حملة التغيير. قال في رسالته:

«يؤسفني أن أبلغكم أنني لن أتمكن في الاستمرار في عمل سياسي يتعلق بما نأمل به من تغيير؛ فإن موقفي حساس للغاية بحكم مركزي في الحكومة. كنت أعرف هذا من البداية ولكن لم يكن تقديري للأمر صائبًا. خلال الأسابيع الماضية كان استعدادي للاستمرار في هذه المبادرة واضحًا، وكنت على استعداد أن أستقيل من وظيفتي لتمكين ذلك، ولكني وجدت أن الأمر أعقد من ذلك، فقد انتشر أمر مشاركتي في الحملة حتى وصلتني أخبار بوجود خطورة على سلامتي وسلامة أسرتي».

كنت حزينًا لانسحاب الدكتور عبد العظيم، ولكننا كنا متفهمين لموقفه ولم يكن بوسعنا لومه. كنا نعرف أن مثل تلك التهديدات جادة وخطيرة للغاية. تسبب هذا الموقف في ترسيخ اقتناعي بأهمية العمل دون الكشف عن هويتي. بقيت على اتصال بالدكتور عبد العظيم وكنا من وقت إلى آخر نتناقش عبر الإنترنت حول ما يحدث على الساحة السياسية في مصر.

وصل بي الإحباط لذروته بعد فترة من الوقت، فأرسلت رسالة معاتبًا للدكتور البرادعي عبر أخيه أُعبر له عن ضِيقي من بطء تحركاته، وأملي في أن يتحرك بشكل أسرع؛ لأن حركة التغيير تحتاج لمرونة وديناميكية، ولأنه رفع آمالنا وطموحنا للسماء ولكننا نسير بكل بطء. عبرت في الرسالة عن دهشتي من عدم لقائه بنا ولا مراسلتنا

واكتفائه بالتواصل معنا عبر شقيقه، وذكرت أنني أبذل ساعات طويلة يوميًّا من أجل نشر فكره على الإنترنت، وأنه من المفيد أن نتواصل ولو ساعة أسبوعيًّا من الحديث للتفاهم حول المستقبل وتوجهاته. ردّ عليَّ الدكتور محمد عبر شقيقه بعدها بيوم واحد، أخبرني في رسالته أنه يتفهم أسباب تذمري، ولكننا نعيش في ظروف استثنائية، وهو يحاول بذل ما يستطيع من جهد على الرغم من التضييقات القانونية والحرب الإعلامية ضده، فلا يوجد حاليًا أي صفة قانونية لعملنا سويًّا؛ ولذلك فإنه يُفضل التواصل غير المباشر حتى لا يقع أي منا تحت طائلة القانون. لم أتفهم رسالته بشكل كبير؛ فأنا مؤمن أن الدولة تستطيع الإضرار بنا دون الحاجة لمسوغ قانوني. ولكنني اتفقت مع علي البرادعي أن نلتقي لنتحدث عن المرحلة القادمة.

التقيت مع علي، كان يرى أننا يجب أن نتوقف عن إلقاء اللوم على البرادعي؛ فهو منذ اللحظة الأولى لم يسوّق نفسه على أنه المُنقذ، وأن علينا كشباب أن نجتهد بشكل أكبر في جمع التوقيعات على بيان التغيير؛ خاصة وأن الأعداد المُوقِّعة قليلة جدًّا. انتهى اللقاء بشكل إيجابي واتفقنا على بعض الخطوات التي سنعمل على تنفيذها في الفترة المقبلة لتواصل أفضل.

شَهِدَت تلك الفترة انخفاضًا شديدًا في أدائي الوظيفي بشركة «جوجل»، ولكن على الرغم من ذلك كان مديري المباشر سعيدًا. فقبل انشغالي بصفحة البرادعي كنت أقضي ساعات طويلة في العمل، حتى إن الملاحظة التي كان يكتبها مديري وأقراني عن أدائي (في التقرير ربع السنوي) كانت لا تخلو من ملاحظة أهمية التوفيق بين العمل والحياة الشخصية. كنت أحيانًا أعمل لمدة ١٥ ساعة متواصلة رغبة في إنهاء مشروع، أو للعمل على وضع خطة تسويقية لمنتج جديد، أو البحث مع آخرين من موظفي الشركة في فكرة جديدة للمنطقة.

وبعد انشغالي بقضية التغيير في مصر عادت ساعات عملي لمعدلاتها طبيعية، فاعتقد مديري أن ذلك بسبب استماعي لنصائحه الخاصة بأهمية التوازن بين العمل والحياة الشخصية، ولكنه لم يعرف حقيقة الأمر وهي انخراطي في السياسة لأول مرة في حياتي، وحلمي أن تتغير مصر.

زوجتي كانت أكثر الناس دعمًا لي وأقلّهم تذمرًا؛ فمنذ سنوات الزواج الأولى وهي تعرف أنني مدمن للعمل والجلوس أمام شاشة الكمبيوتر. كانت أحيانًا تطلب مني أن أقضي مزيدًا من الوقت مع الأسرة، وأن أعطيهم اهتمامًا أكثر. كنت أحاول من فترة لأخرى أن أتحسن، ولكنني لا بد لي من الاعتراف بأنني فشلت في ذلك فشلًا ذريعًا.

اشتدت حملة تشويه البرادعي إعلاميًّا؛ فلم تقتصر فقط على الإعلام الحكومي، بل شملت كثيرًا من وسائل الإعلام الخاصة مدعومة بأوامر من أجهزة الدولة. تم منع البرادعي من الظهور على شاشات التلفزيون الرسمية والتضييق على ظهوره الإعلامي في غيرها، وأصبح تويتر هو منبره الأساسي للتواصل مع غيره من المصريين الحالمين بالتغيير.

مع ازدياد الانتقادات للبرادعي، وحملة التضييق عليه، خطرتْ في بالي فكرة باستخدام خدمة تسمى «Google Moderator» تتيح إمكانية طرح مجموعة من الأسئلة على أي متحدث في ندوة أو مؤتمر، والجميل في هذه الخدمة اعتمادها على تصويت الجماهير في تحديد أهمية الأسئلة؛ فالمستخدم يمكنه أن يسأل سؤالًا أو يقوم بالتصويت على أسئلة الآخرين سلبًا أو إيجابًا، ومن ثَمَّ تقوم الخدمة بترتيب الأسئلة تنازليًّا اعتمادًا على هذا التصويت.

عرضت الفكرة على البرادعي عبر أخيه، وعبَّرت عن أهميتها لفريق حملته لزيادة التواصل الإيجابي مع الشباب، وهو عيب قاتل في حسني مبارك والذي كان لا يتواصل مطلقًا مع الشباب. رحّب الدكتور محمد بالفكرة وعبَّر عن استعداده لتنفيذها بمجرد عودته من السفر، وأعلنت على صفحته الخاصة إطلاق مبادرة «اسألوا البرادعي». شارك في المبادرة أكثر من ٢٧٠٠ شخص، وسألوا ١٣٠٠ سؤال، تم التصويت عليها بما يقرب من ٦٠ ألف صوت. كانت تجربة ديمقراطية رائعة لترتيب أولويات أسئلة مستخدمي الإنترنت، والطريف أن فريق جمال مبارك قبلها بفترة قصيرة أعلن عن مبادرة للحوار عبر الإنترنت وطلب من المهتمين تقديم أسئلتهم وأنفسهم لحضور لقاء معه، ولكن بالطبع كان اللقاء مُعدًّا والأسئلة مُختارَة بعناية.

تساءلت وقتها: ماذا لو أعلن الرئيس حسني مبارك أنه سيتلقى أسئلة من شباب

الإنترنت، هل سيستطيع أتباعه تحمُّل قوة الأسئلة ومباشرتها ووضوحها بعيدًا عن التضليل المعتاد؟! بالطبع كنت أعرف الإجابة!

الرائع في الأسئلة هو عمقها؛ أظهرتِ الكثير من الأسئلة التي حصلتْ على أعلى الأصوات قلقًا لدى الشباب من نتيجة جمعهم للتوقيعات، خاصة وأن الكثير منهم بدأ بالفعل النزول للشارع لجمع التوقيعات واستغلال أي مناسبة جماهيرية في ذلك. كانت أهم الأسئلة التي تم توجيهها للبرادعي: كيف ستتم الاستفادة بما نجمعه من التوقيعات؟ ما هي خطتك في حالة رفض النظام التغيير السلمي بعد جمع أكبر عدد من التوقيعات؟ كيف نستطيع النزول إلى القرى والمناطق الريفية لنشر الوعي هناك بأهمية التغيير؟ هل ستتجه بمصر نحو النظام العلماني؟ وما موقفك من المادة الثانية من الدستور والتي تُعلِن بصراحة أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع؟ ما هي أولويات برنامجك الانتخابي؟ وأخيرًا، السؤال الذي حَظِيَ بنسبة أصوات عالية: هل تحب الكشري؟ كان واضحًا أن هؤلاء السائلين يريدون أن يتأكدوا من أن البرادعي «واحد مننا».

قمت وغيري من مسئولي حملة البرادعي بتنقيح الأسئلة وحذف المتشابه منها، وبدأنا في رحلة البحث عن مذيع ليَخرج مع الدكتور محمد ليسأله الأسئلة بلسان الشباب. كانت الرحلة صعبة؛ فالجميع كان يرفض ولم نكن نفهم سبب الرفض؛ فالبعض يترجمه أنه رفض لأسباب شخصية أو لالتزامات أخرى، والبعض يراه خوفًا من العقاب. قررنا في النهاية بعد أن فشلتْ كل المحاولات أن يقوم مصطفى النجار بمهمة المذيع. المخرج عمرو سلامة أخرج اللقاء متطوعًا، وساعده المخرج محمد دياب؛ مما جعل اللقاء يَظهر بشكل احترافيّ. وشوهدت ملفات المقابلة أكثر من مائة ألف مرة من قِبَل مستخدمي الإنترنت.

حاول البرادعي في إجاباته أن يكون أكثر تفاؤلًا، وبدلًا من أن يُظهر الإحباط من قلة عدد الموقِّعين ولوم الناس على السلبية، تحدث عن الإيجابية وأهمية التحرك الجماعي لتغيير أوضاع البلد. كان البرادعي رائعًا في التبشير بغدٍ أفضل، وأن النظام لن يتمكن من الصمود طويلًا أمام مطالب الشعب.

لم يكن هذا التغيير في الصياغة بعيدًا عن سياسة البرادعي التي اتخذها منذ رجوعه لمصر؛ فكلما اشتدت صعوبة الأمور وبدا أنه لا أمل، كلما ردد البرادعي كلامًا مُفعَمًا بالأمل، مؤكِّدًا أن التغيير قادم. إبراهيم عيسى الصحفي المُعارِض البارز تكلم عن تفاؤل البرادعي غير المفهوم وأردف ساخرًا أنه بالتأكيد يعلم شيئًا لا نعلمه.

كان البرادعي مُلهَمًا حينما قال: «مِصْرُ لا تحتاجُ لمُنقِذ؛ الشعبُ هو مَن سيُنقذُ نفسَه».

الفصل الثالث

كلنا خالد سعيد

أثناء تَصفُّحي الفيسبوك يوم ٨ من يونية ٢٠١٠ فوجئت بصورة تظهر على حائطي الشخصي وَضع أحد أصدقائي رابطًا لها من صفحة الدكتور أيمن نور؛ رئيس حزب الغد والمرشح الرئاسي السابق في انتخابات ٢٠٠٥. تُظهر هذه الصورة وجهًا مشوهًا لشابّ متوفى في العشرينيات من عمره، الدماء متناثرة على وجهه، وبقعة كبيرة من الدماء خلف رأسه المُلقى على قطعة من الرخام. جثة الشابّ كان بها قَطْع واضح في الشفاه وفكّه مكسور، وكانت إحدى أسنانه الأمامية مفقودة. كانت الصورة شديدة الفظاعة وظننت لأول وهلة أنها صورة لشابّ مصاب في إحدى الحروب، لكنني دخلت لصفحة الدكتور أيمن نور لأجده قد كَتَب قصة الشاب خالد محمد سعيد؛ الذي تم ضربه حتى الموت في أحد شوارع الإسكندرية يوم ٦ من يونية من قِبَل اثنين من مخبري المباحث.

كان أول ردّ فعل لي هو الإنكار؛ لم أتوقع أن أحدًا يمكن أن يفعل مثل هذا الفعل الوحشي في أي إنسان مهما كان جرمه. كان المجني عليه شابًّا في الثامنة والعشرين من عمره يعيش بالإسكندرية. ووفقًا لشهود العيان، حدث بينه وبين المخبرين خلاف تسبب في قيامهم بالاعتداء عليه حتى الموت.

شعرت بالحزن والإحباط والغضب الشديد. موت خالد وغيره ممن لم نعرف عن موتهم شيئًا كان نتيجة للوضع السياسي الحالي الذي جعل من قوات الأمن خدمًا أوفياء للنظام القمعي؛ فقد تحول بعض القائمين على تطبيق القانون في مصر إلى وحوش

يقومون بمختلف الانتهاكات البشعة استغلالًا لحصانتهم من أي عقاب أو مساءلة. لقد هجر هؤلاء العادات والتقاليد الطيبة الأصيلة للشعب المصري والتي سادت في مجتمعنا على مدار السنين.

أتذكر جيدًا يومها كيف أنني جلست في غرفة مكتبي الصغيرة في بيتي بالإمارات عاجزًا عن إيقاف الدموع من عينيّ، حتى أن زوجتي دخلت عليَّ الغرفة لتسألني ماذا يحدث؟ أريتها الصورة فأدارت وجهها سريعًا من بشاعتها، وطلبت مني إغلاق الصفحة. خرجَتْ زوجتي واستمررت في البكاء على حال بلادنا وانتشار الظلم. كانت صورة خالد بالنسبة لي تجسيدًا لواقعنا المصري.

قررت ألا أقف موقف المتفرجين على هذا الظلم، وأن أكون واحدًا من هؤلاء الذين سينادون بتحقيق العدالة في قضية خالد، وأن أستخدم كل ما أملك من خبرة في تحويل هذه القضية لقضية رأي عام، واستخدامها لإظهار الممارسات الفاسدة لوزارة الداخلية؛ الذراع اليمنى الباطشة للنظام المصري القمعي.

كان بديهيًّا أن أنشر خبر مقتل خالد في صفحة الدكتور محمد البرادعي، التي بلغ أعضاؤها آنذاك ما يزيد على ١٥٠ ألف عضو، ولكن رأيت أن ذلك قد يعد استغلالًا للحدث لمصلحة سياسية. وجدت صفحة أخرى أنشئت كان اسمها: «أنا اسمي خالد محمد سعيد»، تصفحت قليلًا ما كتبه مشرفوها وشعرت وقتها أنهم مجموعة من النشطاء السياسيين؛ كانت لغة الخطاب تصادمية، خاصة تلك الصورة التي ظهرت في رأس الصفحة: «دم خالد لن يضيع يا كلاب النظام». من خبرتي، كنت أعرف أن تلك اللغة لن تساعد في خلق الوعي وكسب التأييد لقضية خالد بين أغلب فئات الشباب على الإنترنت.

قررت وقتها أن أنشئ صفحة أخرى، وأن أعتمد على ما لديَّ من خبرة في التسويق لنشرها. فكرت في الاسم، وكان أفضل اسم توصلت له هو «كلنا خالد سعيد». كان الاسم يُعبر عما بداخلي؛ فخالد شابٌ مثلي مثله، قد يحدث لي ما حدث له، كما أن كلنا نمثل تلك الصورة للشابّ المقموع الذي لا يملك حقوقًا في وطن ينتمي له. الاسم كان قصيرًا ومعبرًا عما بداخلي وعن التعاطف الشديد الذي أظهره كل مَن أعرف على الفيسبوك تجاه القضية بسبب تلك الصورة. تعمدتُ أن أُخفي هويتي، وأدرت الصفحة كمجهول.

كان أول ما كتبته على الصفحة مباشرًا وصريحًا، معبرًا عن حنقي وحزني مما حدث:

في دقيقتين فقط اشترك في الصفحة ٣٠٠ مشترك بسبب رابط وضعتُه للصفحة لكل أصدقائي. كتبت:

يا جماعة إحنا بقينا ٣٠٠ شخص في دقيقتين.. عاوزين نبقى مائة ألف.. لازم نتحد علشان ناخد موقف حاسم ضد من تسلط علينا واقتنع بملكيته لأرواحنا.

64 Likes / 44 Comments

كتبت أول مقالة على الصفحة: «يا معدومي الإنسانية. سنأخذ حق خالد سعيد». كانت المقالة عاطفية للغاية ومشحونة بما شعرت به من حزن وغضب؛ حيث إنني كتبتها بتلقائية شديدة تعهدت فيها أنني لن أترك حق خالد حتى يُحاسَب مَن فعل ذلك به.

كان رد الفعل سريعًا، وخلال ساعة أصبح عدد المشتركين في الصفحة أكثر من ٣٠٠٠ مشترك.

دمي في رقبتكم يا مصريين.

50 Likes / 39 Comments

تكلمت على الصفحة كأنني خالد سعيد. أكثر ما كان يحركني هو تخيلي أنني يمكن أن أتكلم بلسانه، فلو أتيحت الفرصة لضحية واحدة من ضحايا النظام للدفاع عن نفسه فقد يستطيع أن يؤثر في الرأي العام، فلا يحدث لغيره ما حدث له. كلامي بلسان خالد أعطاني حرية لم أكن أحظى بها في صفحة البرادعي شبه الرسمية، وأيضًا كان أكثر تأثيرًا على المشتركين في الصفحة؛ فالأمر بدا وكأن خالد سعيد يحدثهم من قبره.

وعلى الرغم من إجادتي للغة العربية الفصحى (بفضل سنوات الدراسة التي قضيتها في السعودية)، إلا أنني اخترت أن أكتب على صفحة «كلنا خالد سعيد» بالعامية المصرية لأنها أقرب إلى قلوب الشباب المصري؛ فبالنسبة للجيل المولود في الثمانينيات والتسعينيات كانت الفصحى هي لغة الجرائد أو نشرة الأخبار في التلفزيون، وتبدو

لنا رسمية للغاية. كان هدفي من استخدام العامية المصرية هو تجاوز أي حواجز بيني وبين الداعمين لقضية خالد سعيد. كما قصدت تفادي استخدام أي تعبيرات غير دارجة أو لا يستعملها الشباب المصري غير المهتم بالسياسة كالتي يستعملها النشطاء، مثل كلمة «النظام». حرصت على أن أُشعر مشتركي الصفحة أنني واحد منهم، وأن تصل لهم حقيقة أنني لا أختلف عنهم على الإطلاق. كان استخدام ضمير المتكلم «أنا» حيويًّا ومُهمًّا في ترسيخ فكرة أن هذه الصفحة لم تُنشئها مؤسسة أو حزب أو حركة من أي نوع، بالعكس، الشخص الذي يكتب هذا الكلام هو مجرد مصري عادي أغضبته القسوة التي تعاملت بها السلطات مع خالد سعيد؛ مما جعله يسعى إلى تحقيق العدالة. ساهمت اللغة العامية غير الرسمية للصفحة في انتشارها وتقبل الناس لما أكتبه عليها.

بعد أن انضم للصفحة ما يزيد على مائة ألف عضو أدركت من عدد الردود وسرعتها على ما أكتبه عن قضية خالد أن إدارتها ستحتاج المزيد من الوقت والجهد عن صفحة البرادعي. كنت في أمسّ الحاجة للمساعدة، وتجربتي حتى الآن مع عبد الرحمن منصور جعلته الاختيار الأمثل؛ فأضفته كمدير ثانٍ لصفحة «كلنا خالد سعيد». خلال الأسابيع الأولى القليلة كان عبد الرحمن مشغولًا بدراسته وبارتباطات أخرى، لكنه حاول قدر استطاعته أن يساعدني كلما احتجته برأيه وبجهده وبكتابته على الصفحة.

تابعت أخبار القضية بتركيز وفُوجئت بتقرير النيابة الذي يُبرّئ الشرطة، فكتبت:

النيابة طلعت تقرير مبدئي أن سبب الوفاة هو إدمان المخدرات وتناول جرعة زائدة من المخدرات.. مش كفاية قتلتوني.. وكمان لوثتم سمعتي بعد مقتلي؟ حسبي الله ونعم الوكيل فيكم يا معدومي الضمير.

55 Likes / 112 Comments

مصطفى النجار؛ مدير حملة دعم البرادعي في ذلك الوقت، كتب هو الآخر مقالة مؤثرة على صفحته الشخصية عنوانها: «إحنا اللي قتلنا خالد سعيد»، وذلك بعد زيارته للإسكندرية ليتأكد من القصة. نشرتُ مقالته على الصفحة دون الإشارة لاسمه حتى لا يحاول البعض الربط بين الصفحة وبينه ويتم التعرف على شخصية الأدمن المجهولة، خاصة وأنه كان يعرفني ويعرف علاقتي بالصفحة.

مع تزايد أعضاء الصفحة والاستجابة للقضية أصبح الموضوع التزامًا شخصيًّا بالنسبة لي؛ شعرت أننا على أعتاب فرصة نادرة لنصنع فَرْقًا ونعمل على وقف التعذيب والممارسات القمعية. كنت غاضبًا، ولكنني لم أكن الوحيد. في أول يوم اشترك في الصفحة ستة وثلاثون ألف مشترك، بعضهم يرغب في التعرف على تفاصيل القضية، وآخرون يرغبون في دعمها والتعبير عن تعاطفهم، وغيرهم اشتركوا من باب الفضول لأنهم تلقَّوا دعوة للصفحة من صديق. انتشرت الصورة التي تقارن بين خالد قبل الاعتداء عليه وبعده في كل مكان كانتشار النار في الهشيم. يرجع تعاطف الناس مع هذه القضية لهذه الصورة، فجرائم كثيرة كهذه حدثتْ وسمعنا عنها من قبل، ولكن الصورة تظل إثباتًا بصريًّا لا مجال في الشك فيه على ميتة خالد البشعة، فالصورة تستحضر فظاعة ما حدث. أضف إلى ذلك أن خالد كان من الطبقة الوسطى، وعمل ذلك أيضًا على تنامي رد فعل كثيرين من مستخدمي الفيسبوك. كان من المستحيل نسيان الصورة، وبفضل وسائل وشبكات التواصل الاجتماعية (Social Media) انتشرت في كل مكان بشكل غير مسبوق.

انتهى اليوم الأول بأكثر من ١٨٠٠ تعليق كُتب على الصفحة من أعضائها. رأيت بعض التعليقات تسأل مشرفي الصفحة لماذا فتحوا صفحة أخرى، فصفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» وصل عدد المشتركين فيها لأكثر من سبعين ألف (ضعف عدد أعضاء صفحة كلنا خالد سعيد)، فلماذا تشتيت الجهود؟ ثمة شيء داخليّ كان يدعوني للتعاون والاتحاد معهم أو إغلاق صفحة «كلنا خالد سعيد» لعدم تشتيت الجهود، ولكن نبرة الخطاب الصادمة والقوية التي كانت تسود صفحتهم جعلتني أشعر بأهمية استمرار «كلنا خالد سعيد» كمنبر وسطيّ مؤمن بالقضية ويخاطب الغالبية ممن ليس لهم أي نشاط سياسي أو حقيقي مثلي.

أعلنت عن صفحتهم على «كلنا خالد سعيد» موضحًا أن كلنا نعمل لهدف واحد، ودعوت الناس للاشتراك بصفحتهم، وطلبت منهم تنسيق الجهود بيننا عبر الصفحة. وسعدت للغاية عندما فعل مديرو صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» المثل. كان من الواضح أن قضية خالد سعيد قادرة على توحيد الكثير حتى وإن لم يلتقوا من قبل.

أشار العديد من المعارضين السياسيين البارزين إلى الطريقة البشعة التي قُتل بها خالد سعيد وأعلنوا استنكارهم لها. كما أُعلن عن جنازة شعبية لخالد يوم الجمعة ١١ من يونية، فوضعتُ الدعوة لحضور الجنازة على الصفحة وطلبت من أكبر عدد ممكن أن يحضرها. وبدأتُ في نشر مقاطع فيديو مجمعة تُظهر تعذيب مواطنين مصريين من قِبَل الشرطة، على أمل أن يرى المصريون الوجه المظلم للنظام ويدركوا أنهم ليسوا ببعيدين عن بطش الشرطة؛ فأي شخص قد يكون الضحية التالية.

شارك في الجنازة بالإسكندرية ما يقرب من ألف شخص، كثير منهم نشطاء سياسيون، وفي اليوم التالي كانت هناك وقفة في القاهرة احتجاجًا على ما حدث لخالد أعلنت عنها حركة ٦ إبريل وحركات ومجموعات شبابية أخرى. كان حماسي وأملي في أن تصبح قضية خالد رمزًا لتحقيق العدالة في ازدياد. طلبت من مشتركي الصفحة أن يشاركوا في هذه المظاهرة، والتي كان مقررا لها أن تكون أمام وزارة الداخلية. ولكن القوات الأمنية كانت مستعدة وحاسمة؛ اعتقلوا الكثير من المتظاهرين وحاصروا باقي المتظاهرين بأضعاف أعدادهم من قوات الأمن في منظر يثير الشفقة. من بعيد، كان هذا المشهد يبدو رمزيًّا للغاية، فهو يمثل ما الذي يفعله النظام بمصر. وتحت الضغط المعتاد من جهاز أمن الدولة، تجاهلَت مختلفُ وسائل الإعلام الوقفةَ. وكما حدث في عديد من حالات انتهاك حقوق الإنسان في مصر، استمر التعتيم الإعلامي على القضية وظل الشعب في الظلام.

القمع الإعلامي والقمع في الشارع جعل من العالم الافتراضي على الإنترنت بديلا هامًّا لنشر القضية والتعريف بها ودعوة الشباب لدعمها. بدأت أُوضح لأعضاء الصفحة أن ما حدث لخالد يحدث بشكل يومي وبصور مختلفة مع آخرين لا نسمع عنهم، وأن التعذيب في وزارة الداخلية منهجيّ. كانت أهم مصادري للمعلومات والفيديوهات مدونة «الوعي المصري»؛ وهي لمدوّن اسمه وائل عباس، كان ينشر في مدونته أيَّ وثائق عن التعذيب تصله على الإنترنت من مجهولين. فمن ٢٠٠٥ حتى ٢٠٠٨ نشر وائل عباس العديد من الفيديوهات الخاصة بالتعذيب على الإنترنت. ألقى أمن الدولة القبض على وائل أكثر من مرة، ولكن على الرغم من ذلك استمر هو وآخرون من المدوّنين في كشف الانتهاكات لحقوق الإنسان التي كانت تحدث في مصر.

ولم يقتصر الأمر على التدوين وكشف الحقائق، بل اتجه أيضًا إلى الفن، والذي كان ينتشر عبر الإنترنت بين الشباب المصري. مغني الراب المصري «محمد أسامة» قرر أن يكتب أغنية كاملة عن التعذيب أسماها «فن التعذيب»، انتشرت على الإنترنت قبل وفاة خالد رحمه الله. نَشرتُ الأغنية على الصفحة ووضعت كلماتها ليقرأها الجميع، كان الفيديو الذي صمّمه أحد مستخدمي الإنترنت غير المعروفين يحوي مع الأغنية مقاطع التعذيب التي حصل عليها المدونون، وبعض صور المظاهرات المناهِضة لممارسات وزارة الداخلية.

كلمات الأغنية تخاطب ضابط الداخلية:

فاكرني خايف منه لسه مش عارف إنه..
فن التعذيب فنه خلاص الناس اتجنوا
ماسك طبنجة في إيده ماهو لازم يرضي سيده..
ده القسوة جوه وريده ويلك لو مش هتفيده

340 Likes / 54 Comments

بدا جليًّا لنا كشباب أن الإنترنت كان وسيلة لنلتقي دون أن يعرف بعضنا بعضًا، ونعمل على قضية من القضايا التي تهم وطننا. كان الكثير من الجهود يصب في قضايا متعلقة بالسياسة وحقوق الإنسان نظرًا لطبيعة النشطاء المهتمين بهذه القضايا.

أنا آسف يا جماعة إني بجيبلكوا صور قديمة، بس والله حتى أنا عمري ما شفت الصور دي... أنا شكلي كنت عايش في كوكب تاني... كوكب باتفرج فيه علي ماتشات الأهلي واقعد على القهوة مع أصحابي والصبح بشتغل.. وبقول على العالم اللي بيتكلموا في السياسة دول شوية ناس فاضية.. بس أنا بقيت مذهول إني بشوف مصر تانية خالص ماشفتهاش في حياتي قبل كده... مصر بعد خالد سعيد.. مش هي مصر قبل كده.. بس والله لهنغيرها

658 Likes / 188 Comments

نَشرتُ على الصفحة وصلات (لينكات) للعديد من فيديوهات التعذيب الأخرى التي كانت منتشرة على الإنترنت. فيديو منهم (الخاص بمقاطع وصور التعذيب) حَذَفه موقع اليوتيوب لمخالفته سياسات الموقع بعد أن قام الكثيرون بالإبلاغ عنه

كمقطع دموي بشع. وبرغم عملي في «جوجل» إلا أنني لم أحاول أن أستغل ذلك لتغيير قرار الحذف، فارتضيت حذف الفيديو من اليوتيوب ونشرته مرة أخرى في الفيسبوك؛ فأخلاق العمل تجعلني أعرف جيدًا أن نشاطي السياسي ينبغي أن يكون منفصلًا انفصالًا تامًّا عن عملي.

في هذه الأثناء، وعلى الرغم من عدم نشر أي صحيفة رسمية تحقيقًا عن قضية خالد سعيد وملابساتها كأن شيئًا لم يحدث، إلا أن وزارة الداخلية بدأت تقلق من الجدل الدائر حول القضية، وبدأ النظام في إنكار أو تبرير ما حدث؛ فبدءوا بتشويه سمعة خالد. ففي بيان رسميّ غير معهود منها في مثل هذه الحالات أعلنت وزارة الداخلية أن خالد تُوفي مختنقًا لابتلاعه لفافة بانجو وليس بسبب التعذيب، وأنه ظهر مشوهًا في الصورة المنتشرة بسبب إجراءات التشريح، كما أنه كان شخصًا سيئ السمعة ومطلوبًا في أربع قضايا هي: الاتجار بالمخدرات، وحيازة سلاح، وتحرّش بأنثى، وهروب من الخدمة العسكرية. أظهر البيان بشكل واضح أن القضية تتحول إلى قضية رأي عام في الشارع المصري، وأن الوزارة تخشى من اهتزاز صورتها أمام الأغلبية الصامتة من الطبقة الوسطى التي تأثرت بوفاة شابّ يبدو لهم أنه واحد منهم في ظروف غامضة.

وبعد صدور البيان بدأت آلة الإعلام الرسمي في العمل. وكالة أنباء الشرق الأوسط التابعة للدولة، وبالتالي للنظام، أطلقت عليه «عاطل الإسكندرية»، وأكدت أن التحقيقات أشارت إلى وفاته بإسفكسيا الخنق وليس التعذيب، ولم تنس ذكر القضايا الأربع له كنوع من التبرير للطبقة الوسطى أنه مجرم عتيد الإجرام، وأن ما حدث له هو نتيجة طبيعية لإجرامه واتجاره في المخدرات. الوزارة كانت تستغل قبول بعض المصريين لفكرة أن تعذيب البلطجية أو معتادي الإجرام هو أمر يمكن تبريره. وأطلقت صحيفة الجمهورية الحكومية على خالد لقب «شهيد البانجو» ردًّا على تسميته بـ«شهيد الطوارئ» من قِبَل النشطاء؛ في إشارة لقانون الطوارئ الذي سمح للمخبرين بإلقاء القبض على خالد بدون سبب واضح، وبدون إذن نيابة، وبدون سلطة لأن المخبر ليس لديه سلطة ضبط أي متهم حتى لو كان متورطًا، وسلطة الضبط هي لدى الضباط فقط.

كانت ملابسات وفاة خالد غامضة؛ فبناءً على رواية الشهود كان خالد يجلس في

مقهى للإنترنت عندما باغته مخبران محاولَيْن اعتقاله، وعند مقاومته لهما انهالا عليه ضربًا، وحينما حاول الهرب أخذاه إلى مدخل عمارة وأكملوا ضربه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. لم تكن هذه هي الرواية الوحيدة لوفاة خالد رحمه الله، فرواية الداخلية أكدت أنه أراد إخفاء لفافة بانجو فقرر ابتلاعها، وأن المخبرَيْن لم يقوما بتنفيذ أي اعتداء عليه، بل حاولا مساعدته للفظها من جوفه!

المساندة المطلقة من الداخلية لرواية مخبريها، بالإضافة لحملة التشويه المتعمَّدة ضد خالد كانت مثالًا للطريقة التي تتعامل بها الداخلية، وبالتبعية النظام، مع مشاكلهم. ثقافة الاعتذار أو الاعتراف بخطأ ما لم تكن في قاموسهم، الموقف الدائم لوزارة الداخلية هو إنكار حدوث أي تجاوزات، حتى أن بعض الضباط الذين كانت تَصدُر ضدهم أحكام في قضايا التعذيب، وهم لا يتعدّون أصابع اليد الواحدة، كانوا يرجعون للخدمة بمجرد انتهاء مدة عقوبتهم.

وردًّا على بيان وزارة الداخلية، فجَّرت والدة خالد سعيد مفاجأة في تصريحات لجريدة الشروق المستقلة عندما أعلنت أنها تعتقد أن مقتل ابنها كان بسبب نشره لفيديو حصل عليه يُظهر ضابطًا من ضباط قسم سيدي جابر يستعرض ضبطية مخدرات مع المخبرين وأمناء الشرطة قبل تقسيمهم للأموال التي حرّزوها أثناء القبض على الجناة. وفورًا انتشر على الفيسبوك الفيديو الذي يقال إنه وُجد على هاتف خالد المحمول. ونَشر الكثيرون هذا الفيديو على أنه سبب قتل خالد. قال أصدقاؤه إن خالد حصل على هذا الفيديو من محمول أحد المخبرين عبر اختراق الهاتف بالبلوتوث. في الفيديو، كان الضابط يقوم بحصر الأموال التي تم جمعها، ثم بطريقة مريبة يعد من حوله من مخبرين وأمناء للشرطة وكأنه سيقوم بتقسيمها.

نَشرتُ الفيديو فورًا على الصفحة، وقدمته على أنه تفسير محتمل للعنف الذي مارسه المخبران على خالد. ولكن بعض تعليقات الأعضاء، والتي استاءت من توجيهي اتهام بدون دليل واضح لمن في الفيديو، جعلتني أحذف الفيديو من الصفحة، وأن أنشر اعتذارًا. كنت فعلًا قد تسرعت في اتهام الشرطة، وكان من الممكن أن تكون لتصرفات الضابط في الفيديو الكثير من التفسيرات الأخرى. شكرني أعضاء الصفحة

على محاولتي البحث عن الحقيقة وليس مجرد تشويه صورة الضباط. ولكن على الرغم من ذلك انتشر الفيديو على الإنترنت بشكل كبير وشاهده أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ مستخدم في بضعة أيام.

في هذه الأثناء، وردًّا على ما أعلنته وزارة الداخلية، أظهرت أسرة خالد سعيد صورة من شهادة الخدمة العسكرية لخالد سعيد تثبت أنه أدى الخدمة بالكامل، وأن ادعاء الداخلية كذب لا أساس له. نشرتُ صورة الشهادة على الصفحة ثم أتبعتها بثلاثة فيديوهات لشهود عيان على مقتل خالد. الفيديو الأول كان لصاحب الإنترنت كافيه، يشهد فيه أن المخبرَيْن اقتحما المقهى وانهالا على خالد بالضرب، وأنه حاول أن يتدخل للدفاع عن خالد، ولكن ذلك كان بلا جدوى، وأكد فيه أنه لم ير خالد يضع أي شيء في فمه. الفيديو الثاني لطفل صغير يشهد على الضرب الوحشي لخالد، وأن الناس رأوا ما حدث وخافوا أن يتدخلوا. الفيديو الثالث لبواب العمارة التي ضُرب فيها خالد حتى لفظ أنفاسَه الأخيرة يصف الضرب الوحشيّ لخالد، وأنهما كانا يضربان رأسه في السلم بينما كان يصرخ قائلًا لهم: «أنا هاموت»، ولكن ذلك لم يمنعهما من مواصلة ضربه. وأكد البوّاب في روايته أن خالد فَقَدَ وعيَه وربما يكون قد تُوفي حينها، وبعد دقائق جاءت سيارة إسعاف لتنقله خارج مكان الحادث دون تدخُّل من السكان.

كان معدل ازدياد المشتركين الجدد في الصفحة يرتفع بسرعة كبيرة. لم تكن صفحة أحد، فقد حرصت من البداية ألا أستخدم الصفحة لصالح أي شخص أو قضية سياسية، ولا حتى لنشر بيان التغيير الخاص بالدكتور محمد البرادعي. كانت «كلنا خالد سعيد» تحاول أن تُعبر عن أغلبية شباب الإنترنت وتتكلم بلغتهم. لغة الصفحة المهذبة غير الصِّدامية كانت أهم ما يميزها، واعتماد الصفحة على مشاركات أعضائها ونشرها بشكل متواصل يؤصِّل أنها صوت الشباب الحزين على ما آلت إليه مصر من تدهور، خاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان.

كنا جميعًا مع بعضنا نحاول أن نبحث عن شيء إيجابي نفعله لحصول خالد على

حقه ولوقف التعذيب. ميزة وسائل التواصل الاجتماعي أنها وسيلة سهلة لم تكن متاحة من قبل لتجميع وتشبيك الشباب النشط الإيجابي. كما أتاحت لنا الفرصة لنتحدى المخاوف المرتبطة بالتعبير عن معارضة النظام. بدا العالم الافتراضي وكأنه بعيد عن قبضة النظام القمعية؛ مما شجع الكثيرين على إعلان اعتراضهم والتعبير عن آرائهم. ولكن بقيت المرحلة الأصعب في نقل هذا الاعتراض والكفاح إلى أرض الواقع.

لم أكن أرغب في أن أدعو لمظاهرة أخرى على الصفحة بعدما حدث في الوقفة الاحتجاجية أمام وزارة الداخلية بسبب خالد سعيد، والتي شعرت فيها بالإحباط لسببين؛ الأول أن عدد من شاركوا كان أقل من المتوقع بكثير، والثاني أن الأمن تعامل معها بحسم وأجهضها بسهولة؛ فظهر الأمر كأنه هزيمة. الناشطون اعتبروها خطوة إيجابية وناجحة لأنها كانت تحديًا لجبروت وزارة الداخلية، ولكن على الصفحة حيث معظم الأعضاء أشخاص عاديين من السهل أن يتسلل الإحباط إليهم إذا تم التعامل معهم بهذه الطريقة الأمنية. عبد الرحمن منصور لم يشاركني رأيي هذا لأنه كان يرى أن كل خطوة تساهم في إحداث التغيير، ولكننا في النهاية اتفقنا على أن من المهم ألا نُعرّض مشتركي الصفحة لأي خطر مهما كان؛ لذلك اخترنا أن نبحث عن أنشطة على الإنترنت لندعمها ونروّج لها لنُشعر المشاركين بالتفاؤل والثقة في قدراتهم، وفي أنهم يستطيعون أن يُحدثوا فَرقًا، حتى لو كان ذلك الفَرْق في العالم الافتراضي في الوقت الحالي.

أول حملة أطلقتها على الصفحة كانت مطالبة أعضائها بتغيير صورة البروفايل الخاصة بهم على الفيسبوك لتصميمه صمَّمه شخص لا أعرفه، وفيه صورة خالد وخلفه علم مصر ومكتوب عليها «شهيد مصر». استجاب الآلاف من أعضاء الصفحة للحملة، حتى أن بعض أصدقائي الذين لا يعرفون علاقتي بالصفحة غيروا صورهم الشخصية إلى صورة خالد. الحملة كانت مثار سخرية بعض أعضاء الصفحة أيضًا؛ لأنهم كانوا يَرَوْن أن تغيير صورة البروفايل هي سلاح عاجز أمام بطش جهاز الداخلية، ولكن الواقع هو أن القضية بذلك زاد معها التفاعل والتأييد بسبب حملة التوعية البسيطة تلك.

كانت الاستراتيجية الأساسية للصفحة هي حشد التأييد الشعبي للقضية، وهذا لم يكن مختلفًا عما تعلمته عن التسويق من خلال دراستي. أولًا، البداية تكون بإقناع الناس بالاشتراك في الصفحة وتلقِّي رسائلها؛ ثانيًا، التفاعل بالإعجاب بهذا المحتوى أو التعليق عليه؛ ثالثًا، المشاركة في حملات التضامن على الإنترنت وحتى المشاركة بمحتواهم الخاص على الصفحة؛ رابعًا وأخيرًا، وبعد كل هذا الحشد، أن يقرر الناس أن يأخذوا هذا النشاط للشارع. كان هذا هو غاية ما نبحث عنه.

فكرة قُدرة الإنترنت على الحشد للشارع كانت مثار نقاش جرى بيني وبين مروة عوض؛ وهي مراسلة في وكالة أنباء «رويترز» الدولية. كنت وقتها بالطبع أتحدث كموظف في شركة «جوجل»، وأتحدث معها كخبير في الإنترنت وحسب. كانت مروة مؤمنة بالحاجة للتغيير في مصر ولكنها كغيرها من الخبراء والنشطاء ترى أن دور الإنترنت محدود، وأن التضامن على الإنترنت والنجاح في خلق حشد افتراضي لن يعني بالضرورة النجاح في تحويل هذا التضامن إلى الشارع المصري الخائف بسبب قانون الطوارئ وتهديده لمعارضي النظام وممارساته. ولكنني كنت مقتنعًا أنه باستطاعتنا أن نقوم بهذه القفزة من العالم الافتراضي للحقيقي. كنت مؤمنًا أن ذلك سيحدث في يوم ما وبطريقة ما. ساهَمَتْ مروة والتي كانت صديقة لعبد الرحمن كثيرًا في إيصال صوت الصفحة إلى العالم الخارجي عبر متابعة فعاليات الصفحة والنشر عنها بشكل مستمر.

كان مُهمًّا أن تخاطب الصفحة مشتركيها مباشرة وتقنعهم بأن يكونوا مشاركين فعّالين، وكان من المهم أيضًا كسر حاجز الخوف والرهبة لدى الكثيرين. وهنا فكرت في فكرة تدعم الهدفين؛ طلبت من أعضاء الصفحة تصوير أنفسهم حاملين لورقة مكتوب عليها «كلنا خالد سعيد». تجاوب مع الفكرة مئات من الأعضاء، وبدأت في نشر صورهم تباعًا على الصفحة. كل صورة كانت قوة دافعة ومؤثرة أقوى بكثير من أي كلمات نكتبها على الصفحة؛ شباب وشابّات من كل الخلفيات، تتراوح أعمارهم بين ١٤ إلى ٤٠ عامًا، جعلوا الحملة أكثر واقعية. تضامن مع الحملة

الكثير من المصريين المغتربين حول العالم، وكذلك الأشقاء من مختلف الدول العربية.. بما فيها شباب من الجزائر، والتي كان بينها وبين مصر آنذاك أزمة كبيرة بسبب مباراة مصر والجزائر في تصفيات كأس العالم والتي انتهت بخسارة مصر وحدوث احتكاكات بين الجماهير أدت لقطيعة وشبه أزمة دبلوماسية بين البلدين.

وصل التضامن مع قضية خالد إلى ابنتي ذات سبع السنوات؛ رأت إسراء بعضًا من صور خالد سعيد الشخصية على حاسبي الشخصي وسألتني عنه. قلت لها إنه شابّ مصري قتلته الشرطة، فسألتني ببراءة: «هو مش المفروض البوليس يبقوا ناس كويسين ويحموا الناس؟ ليه قتلوه؟»، جاوبتها بأن كلامها صحيح، ولكن بعض رجال الشرطة في مصر أشرار ولا يحترمون حياة الإنسان. في نهاية اليوم، جاءت إسراء إلى غرفتي لتُريني لوحة رسمَتْها لشرطي يضرب شابًّا بالنار، والشاب يحمل علم مصر. قالت لي إن الشاب في اللوحة هو خالد سعيد. حضنتها وقلت لها إنني فخور بها لأنها تهتم بأمر الآخرين، وفخور بالطريقة التي عبّرت بها عن تضامنها معهم باستخدام مهاراتها الخاصة. قررت أن أنشر اللوحة على «كلنا خالد سعيد»، وعلقت عليها قائلًا: «إن الأجيال القادمة لن تقبل المهانة أو التعذيب».

نَشرتُ صورة أخرى على الصفحة أكّدت على هذه الفكرة؛ فلقد أرسلَتْ لنا سيدة حامل صورة بالأشعة فوق الصوتية لجنينها وكتبت عليها على لسانه: «أنا اسمي خالد. أنا سأصل إلى العالم بعد ثلاثة أشهر. لن أنسى أبدًا خالد سعيد، وسأطالب بتحقيق العدالة في قضيته».

كل صورة كان مفعولها كالسحر؛ كان الأعضاء يتجاوبون ويشكرون صاحب الصورة أو صاحبتها لشجاعتهم في التعبير عن تعاطفهم مع القضية، عبارات الإعجاب والتفاعل الإيجابي كانت تُشجّع المزيد من الأعضاء على فعل الشيء ذاته ووضع صورهم على الصفحة تأييدًا للقضية. ومما سهّل الموضوع على الكثير هو أن النظام لم يَرُد على هذه الحملة بأي طريقة. كانت حواجز الخوف تتحطم ببطء.

بعد بضعة أيام من مقتل خالد سعيد، بدأتْ صحف المعارضة تكتب عن القضية

بشكل داعم لها، وبدأتْ بعض قنوات التلفزيون الخاصة في مناقشة القضية ومساندتها. طلبت من أعضاء الصفحة أن يمارسوا ضغطا على البرامج الحوارية، ويتصلوا بهم يطالبونهم بالحديث عن القضية وفتحها والدفاع عن خالد، وبالفعل جمعنا سويًّا أرقام البرامج ونشرناها على الصفحة، وشجعت كل الأعضاء على المشاركة بإيجابية ومحاولة الاتصال لعرض قضية خالد. كانت قد بدأت بعض البرامج الحوارية عرض القضية؛ بعضهم كان مُهاجمًا لخالد ومبرِّرًا لما حدث، والآخر كان موقفهم حياديًّا، وقليل منهم كانوا داعمين للقضية، وكنا نأمل أن نزيد بمبادرتنا من عدد هؤلاء المساندين والداعمين للقضية.

زاد الجدل حول قضية خالد سعيد وتحولت لقضية رأي عام. وفي ١٥ من يونية، قرر النائب العام تحويلها إلى النيابة الاستئنائية وإعادة تشريح جثة خالد مرة أخرى للتأكد من الأسباب الحقيقية وراء مقتله. كان هذا نصرًا صغيرًا، ولكنه مفيد للقضية وجعلَنا نتحمس أكثر، كما ساهم في إيمان الكثيرين بأهمية الضغط وفعاليته في مثل هذه القضايا.

لاحظتُ أيضًا ازدياد نسبة أعضاء الصفحة الذين يهاجمون خالد رحمه الله، والذين يصفونه بشهيد البانجو والحشّاش والديلر (تاجر المخدرات). وكانت هذه الحملة قوية، لدرجة أنني بدأت في محاولة البحث عن سرها لأكتشف أن كثيرًا من هؤلاء الذين ينشرون هذه الأفكار تابعون لما يسمى باللجنة الإلكترونية بالحزب الوطني؛ وهي لجنة بدا واضحًا أنها منظمة يعمل بها مجموعة من الشباب مقابل أجر للدفاع عن الحزب الوطني على ساحات الحوار في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي لتغيير الرأي العام تجاه مثل هذه القضايا. كانت اللجنة تحاول إقناع الناس بأن النظام غير مسئول عن موت خالد، وأنه كان شخصًا غير شريف، ولا يستحق كل هذا الاهتمام. ولكن أعداد المتعاطفين مع القضية كانت أضعاف ذلك، وكانوا يحرصون على الرد على ما يروّجه هؤلاء من تبريرات. أعضاء الصفحة النَّشِطون كانوا خير شركاء لنا في كل ما نقوم به من نشاط، ولم يقتصر دورهم على المشاركة.. بل وأيضا المبادرة.

«محمد ٢٦ سنة من الإسكندرية: ليه مانتجمعش كلنا في الإسكندرية على الكورنيش يوم الجمعة كلنا وشنا للبحر وندّي ظهرنا للشارع في تعبير عن رفضنا للي حصل للشهيد خالد ونمسك إيدين بعض ونحاول نوصل من مكتبة الإسكندرية للمنتزه.. يعني مش مظاهرة بس تعبير صامت ورافض».

431 Likes / 152 Comments

وصلتني هذه الفكرة بالإيميل على بريد الصفحة من محمد عيسى. لم أرغب في نشر اسمه بالكامل على الصفحة خوفًا من تعرضه لأي أذى. لم أكن أعرفه، ولا يعرفني، ولكن أجهزة الأمن قد تقبض عليه لمحاولة التعرف على هوية أصحاب الصفحة مما قد يُعرّضه للخطر. نشرتُ رسالة محمد بعدما شعرت أن اقتراحه مناسب للصفحة؛ فالوقفة الصامتة عمل إيجابي ولكنه غير مستفز للأمن، وصعب أن يتم إجهاضه. أعلنتُ عن ميعاد الوقفة، وطلبت من الجميع اقتراحات لوضع تصور نهائي للفكرة.

وصلني كمّ كبير من الاقتراحات التي طورت الفكرة، كانت أهم نقطة ذَكَرها الكثير من الأعضاء هي ألا تتحول إلى مظاهرة، فأسميتها بالوقفة الصامتة لكي يصبح ذلك واضحًا ومُلزِمًا لمن يشاركون فيها، وطلبت أيضًا أن لا يحضر أحد بشعارات أو لافتات حتى ولو لخالد سعيد. وبناء على اقتراح من أحد الأعضاء، طلبت من المشاركين أن يحضروا ومعهم قرآن أو إنجيل لكي يقرءوا منه بسلام. أردنا أن نُرسل رسالة واضحة من خلال هذه الوقفة؛ وهي أنه رغم حزننا وغضبنا إلا أننا سنعبر عنه بشكل حضاري. أما الفكرة الأخرى فكانت ارتداء الملابس السوداء حِدادًا على وفاة خالد وكل شهداء التعذيب في السجون المصرية؛ وذلك حتى يمكن تمييز كل مَن سيشارك في الوقفة ولفت انتباه المارة لهم.

الفكرة لاقت ترحيبًا من كثيرين على الصفحة الذين شعروا أنها مبتكرة، ولاقت سخرية من كثيرين. رأى النشطاء خاصة أن الفكرة سلبية وغير مؤثرة. بعضهم كانوا يتساءلون: إذا كان النظام لا يعبأ بالمظاهرات الصاخبة ضده فكيف بوقفة صامتة بدون أي لوحات للتنديد بممارساتهم؟!

كان الأمر يبدو كأن أغلبية أعضاء الصفحة والنشطاء السياسيين متفقون على الهدف ومختلفون حول طريقة الوصول إليه. كلنا أردنا أن ترسل المظاهرات رسالة للنظام أننا غير راضين عما يحدث في مصر، والوقفة كان لها نفس الهدف، ولكن شروط الوقفة تُقلل من فرصة احتكاك الأمن بها. والهدف من الوقفة هو المشاركة الإيجابية لمن يرى في نفسه الشجاعة للنزول للشارع وليس الضغط على الداخلية فقط، وهكذا قررتُ الاستمرار في الدعوة للوقفة.

فكرة الوقوف على الكورنيش من مكتبة الإسكندرية للمنتزه وقت الغروب كلنا هنقف لمدة نصف ساعة وكل واحد بكل هدوء هيمسك اللي على يمينه وشماله وهندعي كلنا في سرنا.. على فكرة الناس اللي بتقلك وبعدين.. دي أقوى رسالة نوجهها للحكومة عن رفضنا وفي نفس الوقت رسالة راقية ومش بتؤذي إلى حد سواء.

362 Likes / 82 Comments

بعد اقتراح محمد عيسى بساعة أنشأتُ صفحة للحدث (Facebook Event) وأسميته: وقفة صامتة للدعاء للشهيد خالد سعيد على كورنيش إسكندرية. حددت ميعاد الوقفة بعد يومين؛ الجمعة القادمة الساعة الخامسة مساء.

يا شباب عشان الفكرة دي تنجح.. البسوا تيشرتات سوداء.. روحوا على البحر وكل واحد يقف مع نفسه.. محدش يكلم حد.. أقف وضهرك للشارع.. ومتخششش في أي نقاش أو جدال مع حد وكده مستحيل أي حد يقول إنك بتعمل أي غلط.. هنتفق على نقطة بداية بحيث عددنا يبقى كبير جنب بعض.. عايزين وسائل الإعلام تشوف شباب مصري واقف ٣ أو ٤ كيلو على البحر إيه رأيكو؟

313 Likes / 105 Comments

وصلتني رسائل بريدية وتعليقات كثيرة على الصفحة تطلب أن تطبق نفس الفكرة في القاهرة على كورنيش النيل، فقمت بعمل صفحة أخرى بنفس الوقفة ولكن في القاهرة في التوقيت نفسه. كان التركيز على أن المشاركة «آمنة»، وأن غرابة التجربة ستجعلها رسالة قوية للداخلية بأننا مستعدون لفعل أي شيء حتى يتحقق العدل في قضية خالد.

يا جماعة أنا دلوقتي عملت إيفنت كمان للقاهرة بناء على طلب الجماهير.. دلوقتي عايزين نركز شوية.. مكان القاهرة لازم يتحدد وفي نفس الوقت نقطة التجمع في الإسكندرية.. ولكن لي رجاء بسيط من كل واحد أون لاين دلوقتي لو سمحتوا عايزين مصر كلها على الفيسبوك تسمع بموضوع الوقفة.. عايزين الناس تشارك.. دي مشاركة بدون أي مخاطرة محدش هيوقفك عشان لابس أسود وواقف مع نفسك على الكورنيش.

242 Likes / 40 Comments

عارفين قوة الفكرة دي إيه؟ فكرتها إننا مش تنظيم.. إننا مش حزب.. وإن معندناش أي هدف غير إننا نعبر عن رأينا بأسلوب حضاري.. وقوتها في إننا منعرفش بعض ومش رايحين نعمل مظاهرة.. تخيلوا وسائل الإعلام تمشي في الكورنيش طول إسكندرية وبتصور شباب ظهره للشارع والله العالم كله هيتفرج على شباب الفيسبوك.

242 Likes / 40 Comments

نشرتُ نداءً على الصفحة لوالدة خالد سعيد، والتي لم يكن لديَّ حينها أي طريقة للتواصل المباشر معها أو مع أبنائها أحمد وزهرة، عسى أن تصل الرسالة لها لتشارك في هذا اليوم مما سيعطي دفعة معنوية قوية للآخرين للمشاركة معها؛ فالشعب المصري شديد العاطفة تجاه الأمهات، وهذه العاطفة تزيد بشكل كبير خاصة إذا ما تعلق الأمر بأُمّ فقدت ابنها ورأت صورته التي رأيناها جميعًا.

رسالة إلى أم خالد سعيد يا ماما انزلي يوم الجمعة تشوفي ولادك الحقيقيين مجتمعين علشان ابنك..

211 Likes / 72 Comments

كنت آمل أن يتمكن أحد أعضاء الصفحة من الوصول لوالدة خالد أو إخوته ويُبلّغها رسالتي.

وصلني على البريد الإلكتروني للصفحة عشرات الرسائل من أعضاء للصفحة في محافظات غير القاهرة والإسكندرية مطالبين بتحديد أماكن للوقفات في المحافظات أيضًا، ولكن الأمر كان بالغ الصعوبة، خاصة مع ضيق الوقت ومع غياب القدرة الحقيقية على معرفة حجم التأييد. كتبت لأعضاء الصفحة هذه الرسالة:

يا جماعة عمال يجيلي إيميلات ورسائل إني أفتح الموضوع للمحافظات.. للأسف لازم نركز.. بس فيه فكرة كويسة.. أي حد هيخرج يوم الجمعة من بيته يبقى لابس تي شيرت أو بلوزة لونها أسود تعبيرًا عن الغضب الصامت يوم الجمعة.. وصوروا نفسكم لابسين أسود وحطوها على فيسبوك.. وإن شاء الله الآلاف هيكونوا معانا في القاهرة والإسكندرية على النيل والبحر.

161 Likes / 59 Comments

سِرّ نجاح هذه الصفحة هو أعضاؤها المؤمنون بالقضية، ولم تكن تلك عبارة أقولها لاسترضاء أعضاء الصفحة، بل كانت إيمانًا بأهمية دور الفرد في الصفحة وقيمة المجهود الشخصي الذي ينتشر بشكل كبير بين الأعضاء، ومن ثَمَّ بين أصدقائهم. كانت الصفحة أشبه بالمنتَج الذي يُروِّج له كل مَن يحبه؛ ولذلك اعتمدنا في الوقفة الأولى على فكرة أن يُروّج الأعضاء للوقفة ولا يكتفوا بالمشاركة فيها.

من دلوقتي لحد العصر عاوزين أكبر حملة ترويج، عايزين ألف شخص يساعد، وعايزين ننشر اللينكات دي بين كل أصحابنا، وأي حد يعرف صحفيين يبعتها لهم ويطلب منه ينشرهم وهنكلم القنوات كلها ونوجه الدعوة لكل الناس.

1,016 Likes / 32 Comments

كتبت مع عبد الرحمن منصور بيانًا صحفيًّا للنشر على وسائل الإعلام حتى تنال الوقفة تغطية صحفية قبل حدوثها مما يُساهم في وصول صوتنا لرجل الشارع العادي حتى يستطيع المشاركة، وكذلك حتى تتم تغطية الوقفة من قِبَل الصحف وقنوات الإعلام المصرية. وصلنا في الصفحة إلى أكثر من مائة ألف عضو في وقت قياسي لم يتجاوز أيامًا قليلة مقارنة بصفحة الدكتور محمد البرادعي والتي استغرق الوصول لأول ١٠٠ ألف عضو بها ما يزيد على شهرين؛ مما جعلني أُوقِن بشكل أكبر بأن التغيير هو القضية الحقيقية، وأن الفكرة أكثر فعالية في جذب المصريين حولها بعكس الأشخاص الذين قد يختلف عليهم الناس ويُشكّكون في نواياهم الحقيقية وينتقدونهم ويُفَضّلون عدم دعمهم، ولكن لا يوجد مُخلص وطني في مصر يستطيع أن يرفض التغيير. نشرنا البيان على الصفحة وطلبنا من أعضاء الصفحة مساعدتنا في نشره لمَن يعرفه من الإعلاميين.

بيان صحفي للتوزيع على الصحافة..
هام جدًا: يرجى نشر هذا البيان الصحفي وإرساله لكافة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة
تابعنا بقلق خلال الأيام القليلة الماضية ما يحدث من حملات إعلامية مشبوهة على أغلب الصحف والقنوات القومية وبعض وسائل الإعلام الخاصة والتي تتعمد الإساءة والتشهير بالشهيد خالد سعيد واتهامه باتجار وتعاطي المخدرات والتحرش الجنسي وغيرها من التهم والتي حتى وإن ثبتت عليه لا تبرر على أي حال التعذيب البشع الذي تعرض له على يد مخبرين من جهاز الشرطة وبعلم أحد ضباط مباحث سيدي جابر.
ونحن مجموعة من أكثر من ١٠٠ ألف شاب وفتاة مصريين على موقع الفيسبوك تجمعنا في صفحة: «كلنا خالد سعيد» تعبيرًا عن تضامننا مع أسرة الشهيد وكذلك على رغبتنا في مواجهة هذه الممارسات اللاإنسانية التي يقوم بها بعض أفراد من جهاز الشرطة أدمنوا العقاب فأساءوا معاملة المواطنين ونسوا دورهم الأصلي وهو الحفاظ على كرامة وحرية المواطن المصري.
وقد اتفقنا جميعًا على أن نقوم بالتعبير عن غضبنا مما يحدث في الأيام الأخيرة من طمس للحقائق من وسائل الإعلام وأكاذيب روجتها الأجهزة الأمنية. واخترنا وسيلة حضارية وراقية حيث إننا لا نهدف للصدام مع جهاز الشرطة ولكن هدفنا هو إيصال صوت الشباب إلى الحكومة المصرية.
سيرتدي شباب وبنات القاهرة والإسكندرية الملابس السوداء ويحملون مصاحفهم وأناجيلهم في يوم الجمعة الموافق ١٨ من يونية وفي تمام الساعة الخامسة مساء ويتوجهون إلى كورنيشَي النيل والبحر وسيتوجهون إلى الله بالدعاء إلى الشهيد خالد بأن يتغمده الله برحمته وأن يظهر الحقيقة ويعاقَب المسئولون عن هذه العملية الوحشية.
وستكون هذه الوقفة صامتة ولن يحمل الشباب فيها أي منشورات أو لافتات أو أوراق وسيعطون ظهورهم للشارع تعبيرًا عن الغضب والحزن على ما آلت إليه حالة الأمن في مصرنا الحبيبة.
ولن يكون هناك تنظيم للوقفة فكل فرد سيتوجه بشخصه إلى الكورنيش ممسكًا بكتابه المقدس ومرتديًا الملابس السوداء.
كما أننا نناشد كل من لا يستطيع المشاركة في الوقفة الصامتة على الكورنيش لعذر أو لعدم وجوده في القاهرة والإسكندرية أن يخرج من بيته مرتديًا ملابس سوداء تعبيرًا عن تعاطفنا مع الشهيد خالد سعيد.
إننا لا نريد أن يحدث لأي منا ما حدث لخالد بغض النظر عما نقترفه من خطأ، فالمجرم تعاقبه المحكمة من خلال منظومة قانونية وآليات تضمن حقوق المتهم والمجني عليه.
ويسرنا أن ندعو أم الشهيد خالد سعيد للتجول على كورنيش البحر في يوم الجمعة لترى أبناءها الأبرار.
338 Likes. / 123 Comments

الاعتماد على أعضاء الصفحة لم يكن فقط للترويج للوقفة، بل أيضًا لتصميم الدعوات لها، فوجّهنا نداءً لكل مُصمّمي الجرافيكس المحترفين أن يساعدونا في تصميم شعارات وبانرات للدعوة لليوم. التصميمات كانت فريدة، بعضها يُعبر عن روح مبدعة في التعبير والدعوة لليوم، والآخر كان برغم بساطته إلا أنه كان مُفعمًا بالمصداقية. كنا ننشر أغلب ما يصلنا من تصميمات حتى تلك التصميمات غير الاحترافية. كان كلٌّ منها له مفعول قويّ لشريحة معينة من مستخدمي الصفحة؛ فكل مصمم كان يخاطب فئة معينة من الأعضاء. وكان التفاعل مع التصميمات مصدرَ سعادة لهؤلاء المصممين الذين تحمّسوا للدفاع عن قضية خالد.

التفاعل كان كبيرًا، وبدأت بعض الصحف القومية في الهجوم على «الفيسبوك» وادعت أنه مملوك لوكالة الاستخبارات الأمريكية، وأن الكثير من الجواسيس والأعداء يستخدمونه لغسل دماغ الشباب المصري. وقتها شعرت بأن هذه الهجمة المبطنة ما هي إلا تخويف من الفيسبوك وما يُكتب فيه من آراء صريحة معارِضة للنظام، خاصة مع انتشار الصفحات المناهضة لحسني مبارك ونظامه بعد عودة البرادعي لمصر. كنت أحاول إيصال هذا المعنى للشباب ليشعر أكثر بثقته في نفسه وتميزه عن غيره من الأجيال القديمة والتي لا تقرأ سوى ما يوجهه لها النظام.

عارفين ليه وسائل الإعلام بتهاجم الفيسبوك؟ لأنه مش بياخد رشوة علشان يكتب موضوع.. ولأنه مش بيضّغط عليه أمنيًّا عشان يحذف موضوع.. الفيسبوك بقى هو وسيلتنا الوحيدة للتعبير عن رأينا وطموحاتنا وأحلامنا من غير أي ضغوطات من أي جهة.. دلوقتي رسالتنا بتتوزع زيها زي جرايدهم المشبوهة.. بس رسالتنا بتعبر عننا.. شباب مصري بيحب بعض وبيخاف على بعض ولينا صوت.

383 Likes / 85 Comments

تفاعلتْ صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» مع الدعوة لليوم وساعدتْ على ترويجها. كانت الصفحة كما ذكرت أكثر جرأة في أسلوب طرحها، وكانت تدعو لكافة المظاهرات والفعاليات المواجهة للنظام. نشر الدعوة للوقفة أسعدني؛ لأن هذا كان مؤشرًا أن اليوم سيشارك فيه العديد من النشطاء السياسيين الذين يساهمون بما لديهم من خبرة في كسر حاجز الخوف لدى الكثيرين، كما أن لديهم خبرة أفضل في التعامل مع الأجهزة الأمنية

في حالة تعقد الأمور. قام شاب اسمه خالد كامل بتصميم فيديو لصفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» عن الوقفة. صَمّمه بشكل رائع، وكان أولَ عمل مرئيّ للوقفة الصامتة.

شكرًا لشباب جروب أنا اسمي خالد محمد سعيد على عمل الفيديو ده للترويج للوقفة.. بجد أحسن حاجة إن كلنا بنتعاون مع بعض من غير ما نعرف بعض عشان خالد الله يرحمه.

116 Likes / 40 Comments

للأسف، كانت حالة الإحباط السائدة في الشارع المصري تحتاج دائمًا لدفعات من الأمل. السرعة الشديدة في التجاوب مع قضية خالد، وردّ الفعل الإيجابي لما نشرناه من فكرة الوقفة الصامتة التي انتشرت سريعًا عبر الإنترنت جعلا من المهم أن نشير لذلك مرارًا وتكرارًا على الصفحة لبثّ روح الأمل والتفاؤل. «**نحن نستطيع**» كان هذا الشعار دائمًا في ذهني وأنا أكتب على الصفحة وأحاول أن أوصله للجميع.

الله بجد على شبابك يا مصر.. مين يقدر يغلب ١٠٠ ألف شاب وبنت بيحبوا بعض وبيخافوا على بعض؟ محمد بعتلنا إيميل الساعة ١ بالليل بفكرته وأكيد لما يصحا الصبح ويدخل على الجروب ويلاقي إن فيه ألفين واحد لحد دلوقتي هيلبسوا أسود وينزلوا في وقفة صامتة يوم الجمعة.. هيبقى إيه شعوره ؟ تسلم إيدك يا محمد.. إحنا والله شباب لينا لازمة في الدنيا بس نفسنا ناخد الفرصة.

323 Likes / 132 Comments

أول وقفة دعتْ إليها صفحة «كلنا خالد سعيد» كانت نقطة فاصلة؛ فلم أحشد بهذه القوة وفي مثل هذا الوقت القصير من قبل. عملت على الترويج للوقفة لتسع ساعات متواصلة من وقت نشر رسالة محمد في الواحدة مساءً بعد منتصف الليل حتى العاشرة صباحًا. لم يكن هناك متسع من الوقت، فميعاد الوقفة الذي قررناه كان بعدها بيومين، ولكن إعجابي بالفكرة وإيماني بها زاد حماسي الذي ظهر فيما أكتبه على الصفحة.

زار أحدُ أعضاء الصفحة والدة خالد سعيد ودعاها للمشاركة في الوقفة الصامتة، فوافقت فورًا دون تردد، ونشرتُ هذا الخبر السعيد على الصفحة. كان لاشتراكها تأثير كبير على زيادة نسبة المشاركة. لم أتوقف عن الحشد حتى ميعاد الوقفة، فطلبت من الناس على الصفحة الدعوة لصفحة الحدث على الفيسبوك، وتم إرسال دعوات

للإعلام والصحافة المصرية والعالمية لتغطية الحدث. كان نجاح الوقفة أو فشلها حاسمًا، فالصفحة وَضعتْ كل طاقتها في الترويج لها، وكنت مع عبد الرحمن نرى أن الوقفة إذا فشلت فسينقضّ السلبيون سخرية وانتقادًا على مَن شاركوا، وسنرجع عشر خطوات للوراء. أكّد على الحضور في صفحة الحدث على الفيسبوك ما يزيد على عشرة آلاف، ولكن أقصى طموحاتي وقتها أن نرى ألفَيْ شخص في الشارع؛ لأنه من المعلوم أن الكثير يؤكّدون حضورهم على الإنترنت تعاطفًا منهم ورغبة في شحذ الهمم بدون نية حقيقية في النزول إما خوفًا أو بسبب عدم تواجدهم في مصر.

وضعتُ قائمة من الإرشادات؛ لأن أغلب الشباب لم يشاركوا في أي عمل سياسي مثل هذا على الأرض من قبل، كانت الإرشادات تُوصي بعدم التصادم نهائيًّا مع رجال الأمن واتباع تعليماتهم بمغادرة المكان إن لزم الأمر مع اختيار مكان آخر، وعدم الوقوف أمام مباني السفارات، وعدم اصطحاب أي صور أو بانرات حتى تلك التي تحمل صورة خالد حتى لا يتعرضوا لأي إيذاء بدعوى قانون الطوارئ، وأن يُحضروا معهم إثبات الشخصية وتقديمه للأمن في حالة طلبهم لذلك.

في ليلة الخميس، تحدثت مع عبد الرحمن منصور. كنا في غاية السعادة والتفاؤل الحذر الممزوج بالخوف من الفشل. كان من الصعب التكهن بعدد الأشخاص الذين سيشاركون على أرض الواقع، ولكن الوقت حان للمخاطرة. كنا بحاجة إلى فوز آخر، وهذه المرة في الشارع، وليس فقط عبر الإنترنت.

كانت عبقرية الفكرة التي اقترحها محمد عيسى وطوّرها أعضاء الصفحة أنه لا يمكن لرجل الأمن أن يتعامل معها، فهم خبراء في التعامل مع المظاهرات ويعرفون كيف يُطوقون المظاهرة ويمنعون انتشارها، ومَن يقبضون عليه ومَن يتركونه. أما الوقفة الصامتة فهي عمل فردي بحت، لا قيادة فيه ولا يوجد مسوّغ قانوني حتى باستخدام قانون الطوارئ لتوقيف أي مشارك فيها؛ لأن ارتداء الملابس السوداء لا يُعد جريمة في القوانين المصرية!

يوم الجمعة، قبل الساعة الخامسة مساء بقليل، لم يكن هناك أي أثر للوقفة الصامتة على كورنيش النيل بالقاهرة. اتضح أن وزارة الداخلية كانت ترصد نشاطنا على صفحة الفيسبوك واستعدّت لهذا اليوم. انتشرت قوات الأمن على طول الكورنيش، وأغلق

الأمن بعض الطرق المؤدية إليه، وحصّن منطقة التحرير. تابعتُ ما يُكتب على تويتر والصفحة من مشاركات للأعضاء وبدا لي أن الأعداد ضعيفة جدًّا أيضًا في الإسكندرية حسب بعض روايات مَن هناك. كتبت على الصفحة محاولًا شحذ الهمم:

يا شباب الأعداد ضعيفة جدًّا لسه على الكورنيش في النيل والبحر.. فين الشباب اللي قالوا جايين؟ فين العشرة آلاف شاب وشابة؟ إن شاء الله يكونوا بس متأخرين.. ياريت يا جماعة محدش يتواكل ويفتكر إن فيه ناس كتير رايحة.. لو سمحتم كله ينزل.

112 Likes / 113 Comments

أصابني الإحباط الشديد وقتها، وبدأت أتخيل كمّ الإحباط الذي سيكون على الصفحة. أكره أفكار اليأس ونغمة «مفيش فايدة»، ولكن هل هناك أمل فعلًا؟ كان السؤال يجول بخاطري ولا أجرؤ أن أكتبه على الصفحة. فلا مكان للإحباط والانهزام في لغة الصفحة التي تشعّ تفاؤلًا وتحديًا منذ إنشائها.

أخيرًا ظهرت بارقة أمل؛ أحد النشطاء الذين أتابعهم على تويتر وصل إلى منطقة كليوباترا في الإسكندرية وقال وقتها إن المشهد مختلف، وإن أكثر من مائة شخص يقفون على الكورنيش بالشكل الذي كنا نتوقعه، الجميع يرتدي الملابس السوداء ويقف بخشوع وهيبة يقرأ القرآن أو الإنجيل أو يستمع إلى شيء ما عبر تليفونه المحمول. كتبت بسرعة بعد أن تجدد لديَّ الأمل:

شباب فيه واحد معانا في كليوباترا بيقول مشهد كليوباترا مختلف فيه أكثر من ١٠٠ واحد هناك.

145 Likes / 44 Comments

استمر توافد الشباب في منطقة كليوباترا مع الوقت، كان توتري وقلقي في البداية غير مُبررَيْن؛ لأن المصريين بسبب أزمات المواصلات قد يتأخرون عن الحضور في المواعيد المحددة.

يا جماعة المشهد في كليوباترا بقى غريب فيه أكثر من ٣٠٠ شاب وشابة لابسين أسود.. يااارب.. بنحاول نجيب صور من هناك.. فين بقية الناس.. كل واحد قاعد في بيته ينزل لو سمحتم.

150 Likes / 71 Comments

جاءت الأخبار السعيدة عبر تويتر مرة أخرى تحكي تفاصيل ما يحدث هناك على كورنيش النيل:

فيه أخبار إن فيه حوالي ٢٠ واحد في منطقة التحرير.. بس الأمن بيفرق أي مجموعة أكثر من ثلاثة.. يا شباب بلاش نقلبها مظاهرة كل واحد يلتزم بالقواعد عشان نقدر نعدي اليوم بسلام.

61 Likes / 47 Comments

واستمرت الأخبار السعيدة تأتينا من الإسكندرية:

رسالة من أحمد فاضل..
الناس كتيرة جدًا.. الناس كانوا بيصلوا العصر بس.. كل دول شباااب ده فيه زيادة رهيبة على الكورنيش لدرجة البحر مش باين من السواد.. الناس في كليوباترا كتير جدًا.

199 Likes / 32 Comments

تواترت الأنباء عن أن وقفة القاهرة تم إحباطها في منطقة وسط البلد، حيث إن الأمن انتشر بشكل مُكثّف على الكورنيش ليمنع أي شخص مرتدٍ الأسود من الوقوف أمام الكورنيش، مما كان مثار سخرية على الصفحة من الأمن الذي يخشى من شباب صامت يرتدي السواد ولا يتحدث.

الأمن حاطط متاريس ومنع الحركة في التحرير عربيات أمن مركزي ولواءات وعمداء منعوا إن أي حد يمشي.. للدرجة دي مرعوبين يا نظام هش بيخاف من شباب لابس أسود.

128 Likes / 51 Comments

على الساعة السابعة مساءً بدأت الصور الخاصة بالوقفة تصلني. عبقرية الفكرة جعلت منها فكرة ناجحة حتى لو شارك فيها عدد قليل؛ لأن السلسلة تنتشر إلى ما يصل إلى نصف كيلومتر في حالة وجود مسافة متر بين كل مشترك وآخر، والملابس السوداء جعلت مَن يمشي في الشارع يتساءل: مَن هؤلاء وماذا يريدون؟ لم يستطع الأمن السيطرة على شاطئ الإسكندرية لأنه مزدحم، ولا يمكن منع الجميع من المرور فيه، بينما نجحوا في السيطرة على كورنيش النيل في منطقة وسط البلد. عرفت لاحقًا أن وقفة صغيرة في المعادي قد تمت، بدا واضحًا أن تعامل الأمن مع المتظاهرين في القاهرة كان أكثر حسمًا؛ لأن الإسكندرية كانت أكثر غليانًا فلم يشأ

الأمن أن تَحدُث مواجهة؛ خاصة أن الوقفة تبدو رمزية من الصعب تصنيفها تحت اسم مظاهرة بمعناها المعروف.

تبادلتُ عبارات التهنئة مع عبد الرحمن عبر الإنترنت وبدأتُ أشاهد الصور التي وصلتنا عبر الصفحة أو البريد الإلكتروني؛ مجموعة صور رائعة لأعضاء الصفحة وأغلبهم من الشباب والشابات واقفين بتدبر وخشوع بملابسهم السوداء مُعبرين عن غضبهم ورفضهم لما يحدث في مصر. بدأنا في نشر الصور التي كان لها أثر رائع على معنويات المشاركين على الصفحة. نشرتُ فيديو أرسلَته عضوة بالصفحة التقطته بسيارتها وهي تسير ببطء في شارع كورنيش الإسكندرية لمدة خمس دقائق كاملة، كانت تُصوِّر شابًّا وراء شاب وفتاة وراء فتاة على الكورنيش.. بدا أن عددهم لا نهائي رغم أن المجموع قد يكون بالفعل أقل من مظاهرة خالد التي حدثت منذ أيام.

نشرنا صورة لأربعة شباب مصريين على كورنيش قطر شاركوا في الوقفة من هناك. كان لهذه الصورة أبلغ التأثير؛ فقد أظهرت أن الفكرة نجحت خارج حدود مصر وليس فقط داخلها حتى وإن قلت الأعداد فرمزية المشاركة كان لها كبيرُ الأثر، وشجعت كثيرين من المصريين المغتربين على الانضمام للصفحة لاحقًا.

حرصنا على نَشْر كل صورة قام بالتقاطها أحدُ أعضاء الصفحة؛ فنَشْر هذه الصور يجعلهم يَشعرون بقيمة إنجازهم ويُشعر مَن لم يشارك بالغيرة أنه لم يشارك، كما يسهم في كسر حاجز الخوف عند الكثيرين. كل صورة نُشرت كان تأثيرها أقوى بكثير مما كنا نكتبه لأيام. هناك فرق أن نكتب أننا نستطيع أن نفعل أي شيء وبين أن أُريك صورة تثبت هذا. وصدق من قال إن الصورة تساوي ألف كلمة.

أشارت رويترز في تقريرها الذي أعدته مروة عوض أن عدد الذين شاركوا في الوقفة ثمانية آلاف شابّ وشابة. كان من الصعب تحديد العدد، ولكن إحدى مميزات الوقفات الصامتة والاستخدام الأمثل للمشاركين في الوقفة يظهرهم أكبر بكثير من عددهم. تحدثتْ معي مروة آنذاك أن ما حدث في قضية خالد سعيد يعطي أملًا في فكرة الربط بين الواقع الافتراضي والشارع. كان دعم مروة هامًّا لجذب الاهتمام الإعلامي بالقضية في مصر وخارجها.

شارك في الوقفة بعضُ النشطاء السياسيين، إلا أن أعدادهم تزايدت في الوقفات التالية بعد نجاح الوقفة الأولى؛ مما أعطى للفكرة مصداقية وقوة تأثير؛ فقليلة هي الأفكار أو الجهات التي تستطيع تحريكَ الناس بهذا الشكل. بل إن كثيرًا من رجال الأمن كانوا مقتنعين أن الإخوان هم مَن نظموا هذه الوقفة لأنهم هم الوحيدون المعروفون بقدرتهم على التأثير. كان أفضل ما في هذه الوقفة أن أغلب مَن شاركوا فيها من الشباب غير النشط سياسيًّا والذي لم يسبق له المشاركة في مثل هذه الفعاليات.

«الصفحة دي غيرت حياتي».. تلقيت أكثر من رسالة حملت هذه الكلمات من أكثر من شابّ وشابة شاركوا في الوقفة. كان انطباع المشاركين في الوقفة أكثر من إيجابي، شعروا أنهم كسروا حاجز الخوف وأنهم أقوى، وأهم شيء أنهم أخيرًا حوّلوا نضالَ العالم الافتراضي على الإنترنت لنضال حقيقي. كما أن الوقوف بصمت بجوار شخص ربما لم يسبق لك التعرف عليه إلا أن كليكما عضو في صفحة على الإنترنت، نزلتما لقضية واحدة.. وقفتما على مسافة نصف متر مرتدين نفس الملابس السوداء، كان له رمزية لا يمكن وصفها. كانت مشاعر الألفة والتضامن تسود الوقفة وتجعل منها بيئة اجتماعية جديدة يشارك فيها كلُّ مَن يحمل همَّ مصر ويتمنى وقف التعذيب في البلاد.

الشباب المحبَط (بفتح الباء) والمحبِط (بكسرها) أو مَن أُحب أن أطلق عليهم دعاة الإحباط أخذوا يُقللون من أهمية الوقفة ويعتبرونها إهدارًا للوقت والجهد. كانوا يتساءلون: وماذا استفدتم؟ ويؤكدون أنه لن يتغير شيء؛ فخالد مات، ولن يدخل أي مسئول في الداخلية السجن في قضيته، والأمر محسوم ولا يتعدى كونه حماسًا طائشًا وغير مفيد. بسبب زيادة نسبة هذه التعليقات مع كل صورة كنت أضيفها على الصفحة قررت أن أرد عليهم لأنني كما سبق وذكرت كنت مُهتمًّا بتحويل أكبر عدد من أعضاء الصفحة من معارض لمؤيد:

هيطلع علينا ناس يقولون وبعدين استفدتم إيه يعني.. هما دول نفس الناس اللي قالوا المصريين جبناء ومحدش هينزل الوقفة الصامتة.. فوائدنا: رسالة قوية إننا شباب متحد على قلب واحد وبيخاف على بعضه.. إننا مش سلبيين.. إننا وجهنا رسالة قوية للداخلية والقضاء والطب الشرعي.. وإننا هنفضح أي حد يحاول يعذب إنسان بريء.. شكرًا يا شباب الفيسبوك..

463 Likes / 134 Comments

مشاركات الأعضاء بمشاعرهم الحقيقية وبأسلوبهم الشخصي كان له مفعولُ السِّحر؛ لذلك حرصنا على إضافة كل مشاركة تَبثُّ الأمل وتؤكد على أهمية الوقفة وفائدتها، إن لم يكن من أجل قضية خالد فمن أجل تغيير كل عضو من أعضاء الصفحة ليهتمّ بما يحدث حوله.

بَثُّ الأمل في صدور كل أعضاء الصفحة وكل مَن يشارك معنا كان أهم هدف، «نحن نستطيع»؛ كان هو السلاح المهم ضد «مفيش فايدة» و«مفيش حاجة هتتغير».

يوم الجمعة اللي فاتت فتحنا الصفحة دي.. يوم الثلاثاء محمد من إسكندرية بعت اقتراحه وأعلناه.. يوم الجمعة بقى فيه أكثر من ١٠٠ ألف شخص على الجروب ونزل آلاف الشباب في القاهرة وإسكندرية مطبقين فكرة أول مرة تتعمل في مصر.. يبقى نقدر نعمل أي حاجة ولا مانقدرش؟

557 Likes / 206 Comments

الفصل الرابع

من الإنترنت إلى الشارع

أثناء عملي في صفحة «كلنا خالد سعيد» على الفيسبوك أدركت أهمية أن تظل هوية مشرفي الصفحة مجهولة، وزاد اهتمامي الشخصي بالسرية والأمان بعد نجاح أول عمل لنا على الأرض. كان عليَّ أنا وعبد الرحمن الاستمرار في إدارة الصفحة دون السماح بمعرفة حقيقة هويتنا أو مكاننا؛ فاستخدمت برنامج بروكسي اسمه «Tor» والذي كان يغير العنوان الخاص بجهازي (IP Address)؛ ليجعل إمكانية معرفة مكاني وتتبعي عبر الإنترنت مستحيلة. كما أنني حرصت ألا أفتح أية مرفقات تصلني عبر البريد الإلكتروني إلا إذا كانت ملفات صور أو ملفات نصية، والتي كنت أفتحها أولا على البريد دون تنزيلها على جهاز الكمبيوتر. كان هذا يضمن لي أنها خالية من أية فيروسات. حتى حاسبي الشخصي كان جهاز ماكنتوش والذي أظن، في رأيي، أنه أكثر أمانا من أنظمة تشغيل مايكروسوفت الأكثر انتشارا. كل هذه التدابير مكنتني أنا وعبد الرحمن منصور والذي طبق الكثير منها من تجاهل التهديدات والإهانات التي كانت تصلنا بشكل مستمر عبر البريد الإلكتروني، خاصة وأن عدد الذين كانوا على علم بهويتنا الحقيقية لم يتجاوز عدد أصابع اليد. وهكذا استمرت الصفحة في نجاحها كفكرة آمَن بها الجميع دون اهتمامهم بمعرفة هوية من يكتب فيها.

في اليوم التالي للوقفة الصامتة، قررتُ عمل استطلاع للرأي لمعرفة رد فعل الناس

تجاه الوقفة، ثم نَشْر النتيجة على الإنترنت. نشرتُ الاستطلاع فشارك فيه أكثر من خمسة آلاف عضو بالصفحة. ساعدَت نتيجة الاستطلاع على تنشيط وتحريك روح المشاركة الديمقراطية على الصفحة.

أظهر استطلاع الرأي حماسَ الأعضاء وسعادتهم بتجربة الوقفة الصامتة واستعدادهم لتكرارها، كما أكد لي أن المشاركين في الوقفة هم أشخاص عاديون، وأن الكثير من الشباب يريد المشاركة، لكن العائق الوحيد كان رفض أهاليهم خوفا عليهم. كان هذا منطقيًّا، خاصة وأن أكثر من ٧٠٪ من أعضاء الصفحة تحت سن ٢٤ سنة؛ أي من شريحة الطلاب المعتمدين على ذويهم. كان لسلاح الخوف الذي استخدمَته أجهزة الأمن المصرية على المدى الطويل أثر في الأجيال السابقة، ولكن هذا السلاح وضح جليًّا أنه غير مُجدٍ مع الشباب الأكثر حماسة ورغبة في المخاطرة.

حرصت على الاستمرار في بثِّ الأمل بكتابة ما أشعر به من مشاعر فرحة وفخر بالشباب، أخبرتهم بالتخوف الذي كان يعتريني قبل الوقفة وشكِّي شخصيًّا في نجاحها (برغم عدم إظهار هذا الشك قبل الوقفة حتى لا أصيبهم بالإحباط).

عايز أقول لكم حاجة بصراحة.. أنا ماكنتش متخيل إننا ننجح وقلت هعمل اللي عليَّ.. وكنت بقول لمراتي إن أنا حاسس إني بضيع وقتي في موضوع الوقفة دي.. الحمد لله بقى عندي حاجة ممكن أقولها لابني أو بنتي لما يكبروا.. ولسه إحنا ماعملناش حاجة.. اللي عملناه بس هو إننا رجعنا الثقة لنفسنا وبقينا إيد واحدة.

593 Likes / 118 Comments

الإقبال على الصفحة زاد بشكل كبير جدًّا يوم الجمعة. كان متوسط الأعضاء الذين يُعجبون بالمحتوى الذي ننشره يوميًّا لا يتجاوز ٥٠٠٠ بأي حال من الأحوال منذ إنشاء الصفحة، والتعليقات على المحتوى لا تتجاوز ٧٠٠٠، ولكن في يوم الجمعة وصل عدد المعجبين بما نشرناه ٣٧٠٠٠، والتعليقات إلى ١٢٠٠٠. كان ذلك رسالة واضحة لي أن العمل على الأرض يزيد من التفاعل بين الأعضاء على الصفحة، وأنه مهمّ وحيوي لاستمرارها.

نوعية التعليقات أيضًا تغيرت بشكل كبير؛ أصبح هناك نوع من ثقافة الانتماء للصفحة في نبرة بعض المعلقين تجعل منهم مدافعين عن خالد رحمه الله، وعن الصفحة وأهدافها دون حتى معرفتهم بمَن هو وراءها.

بعد اتخاذ قضية خالد منحًى جديدًا ونزول هؤلاء الشباب غير المسيّس إلى الشارع أصبح واضحًا لوزارة الداخلية أن أسلوبهم في طمس القضايا لن يُجدي هذه المرة. خرج الدكتور أحمد نظيف رئيس وزراء مصر في تلك الفترة في تصريح يؤكد فيه للرأي العام أنه مهتم بقضية خالد، وأنه لو ثبت تورط الشرطة سيتم محاسبة المسئولين عن هذا الخطأ. باختصار، كان النظام يحاول أن يكسبنا لصفّه. كان هذا انتصارًا مرحليًّا؛ لأن الطبيعي كما ذكرت في مثل هذه الحوادث ألا يعبأ المسئولون بمثل هذه الأحداث من انتهاكات حقوق الإنسان، ويحاولون التهرب من الحديث عنها، إلا أن الضغط الإعلامي الكبير بسبب النشاط على الإنترنت من مختلف المجموعات تسبب في تحويل القضية لقضية رأي عامّ يتابعها بشكل مستمر.

استغلال كل خطوة أو نجاح صغير نحققه كان مُهمًّا للرد على دعاة الإحباط؛ ولهذا كان مُهمًّا أن نحتفل بشكل دائم بأي انتصار ولو كان صغيرًا، وبأي خطوة تجاه تحقيق العدالة في قضية خالد ولو كانت غير مؤثرة.

ما كان م الأول يا نظيف؟ بس بجد أنا مش عارف أشكركم إزاي لو كنت عاقبتم اللي عذبوا خالد بسرعة ماكناش اتحدنا هنا وبقينا إيد واحدة من كل ممارساتكم الوحشية ضد شباب مصر كلهم.. ومن النهاردة مافيش حكومة.. إحنا الحكومة.

456 Likes / 200 Comments

تصريح رئيس الوزراء بنفسه عن قضية خالد أوضح أن الضغط الذي نمارسه كصفحة وكوقفات أعلن عنها ناشطون آخرون ومعارضون بارزون قد لفت انتباه النظام، كان هذا دليلًا آخر لي قبل أي شخص آخر أن ما نفعله هامّ ومؤثر، ويجب الاستمرار فيه حتى يحصل خالد على حقه ونحقق انتصارًا على أجهزة القمع الأمنية.

التضامن مع قضية خالد تعدّى حدود مصر الجغرافية؛ فقد بدأت مجموعات من الشباب من دول مختلفة مثل تونس واليمن في إنشاء صفحات لدعم القضية. الشباب العربي بالرغم من وقوعه فريسة للتفرق والشقاق بسبب الصراع على أمور ثانوية مثل كرة القدم، إلا أن الإنترنت جعل من الممكن أن نتشارك مع بعض في القضايا الحقيقية. صفحة التضامن مع خالد رحمه الله والتي قام بها شباب تونسيون وصلت إلى أكثر من ألف عضو خلال يومين من إنشائها. أصبح واضحا لي أن العرب، على الرغم من اختلافاتهم الظاهرة، إلا أنهم يجمع بينهم غضب عميق مشترك. كانت إرهاصات ما سيُعرف بعد ذلك بالربيع العربي موجودة حولنا بالفعل، ولكن لم يكن أحدنا يعرف متى سينتهي الشتاء.

بجد هو ده الشباب العربي.. ألف تونسي تجمعوا عشان يتضامنوا مع خالد.. شباب الفيسبوك لو اتحدوا ضد الفساد والظلم في البلد دي مصر هتبقى حاجة تانية..

470 Likes / 68 Comments

بعد الوقفة الصامتة الأولى بيوم شعرت أنه من المهم أن يكون هناك فيديو يجمع ويوثِّق الصور الرائعة التي التقطَتْها عدساتُ المشاركين فيها، وكان من الضروري أن يكون لهذا الفيديو أغنية معبرة عن الوضع الراهن؛ فالمصريون يتأثرون كثيرًا بالفن؛ نظرًا لأن مصر هي عاصمة الفن والثقافة في العالم العربي، والكلمة تكون أكثر وصولا إلى القلب إذا كانت في أغنية؛ ولهذا بدأت أبحث عن أغنية تناسب الحدث، وبعد رحلة بحث غير طويلة وجدت أغنية «شعبنا قامت قيامته»، والتي غناها المطرب هيثم سعيد بعد أحداث مباراة مصر والجزائر لكرة القدم يتوعد فيها مَن يفكر في الاعتداء على المصريين بأنه سيدفع الثمن. فكرة الأغنية كانت توحيد الشعب المصري ضد كل من يُهينه، ولكنني رأيت أن كلماتها تنطبق بشكل أفضل على وزارة الداخلية المصرية التي تمارس إهانة كرامة المصريين بشكل مستمر.

لم أقم بإخراج أي فيديو في حياتي من قبل، ولكن تعوّدي على فكرة تجربة ما لا أعرفه جعلتني أقرر أن أحاول ولم يكن الأمر صعبًا. بعد ثلاث أو أربع ساعات

من العمل المتواصل، كان الفيديو جاهزًا. استخدمت صورًا من الوقفة الصامتة ومظاهرات أخرى لتتناسق مع الكلمات وتوصِّل المعنى المطلوب؛ وهو أننا شباب لن يسكت عن حقه بعد اليوم.

كانت كلمات الأغنية تقول:

مش هقول بلد الحضارة.. ولا أهرامات ولا نيل
ع الطيبة نزلنا الستارة.. وقرارنا مالوش بديل
ده احنا كنا زمان غلابة.. عايشين بقلب كبير
عملنا كتير لغيرنا.. وطلعوا ناكرين الجميل
مش هقول بلد الحضارة .. ولا أهرامات ولا نيل
مصر ولادة رجال.. بيعلوا جيل ورا جيل
عشان خاطرها.. ولادها ياما عملوا المستحيل

على مدار الأيام التالية، شاهد الفيديو أكثر من ٥٠,٠٠٠ عضو بالصفحة. كان وَقْع الأغنية رائعًا؛ استخدام الصورة والشعر والفيديو والأغنية كان مُلهِمًا ومؤثرًا في الكثيرين؛ فأغلب الحقوقيين أو مَن يدافع عن حقوق الإنسان يستخدمون الحقائق والإحصائيات ومحاضر التحقيقات وغيرها من الأمور لكسب الدعم لقضاياهم، ولكن هذه الوسائل على أهميتها في ملاحقة المتورطين في الأحداث إلا أنها لا تخلق ارتباطًا عاطفيًّا بين القضية والرأي العام المتابع لها.

بانتهاء يوم السبت قررت مع عبد الرحمن أن تكون هناك وقفة صامتة يوم الجمعة التالية أيضًا. كانت القوى الوطنية أعلنت عن مظاهرة أمام مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية بعد صلاة الجمعة، وقمنا نحن بالإعلان عن وقفة صامتة قبل غروب الشمس على كورنيش النيل والبحر في عشر محافظات مصرية هذه المرة؛ وذلك بسبب إعجاب الكثيرين بالفكرة خاصة بعد أن شاهدوا الصور ومقاطع الفيديو. كان تحديد الأماكن يتم بناء على اقتراحات الأعضاء أنفسهم. أنشأت حدثًا جديدًا وأوضحنا فيه مجموعة من المطالب ودعوة للجميع للمشاركة في اليوم:

الجمعة ١٨ يونية طلع آلاف الشباب في إسكندرية والقاهرة والمنصورة لابسين أسود وزعلانين وقعدوا على الشاطئ.. ضهرهم للشارع وقروا قرآن وإنجيل.. ودعوا لخالد إن ربنا يرحمه.
الوقفة كانت مركزة في كليوباترا وستانلي ومكتبة إسكندرية.
الجمعة دي الشباب هيكونوا خلصوا امتحانات.. الجمعة دي عايزين نملا الشط كله في إسكندرية والكورنيش في باقي المحافظات.

اللي هنغيروا من المرة اللي فاتت:

- التوقيت هيبقى ستة ونصف بدل خمسة علشان الحر.
- الربط مع الإعلام هيكون أقوى بكتير.
- أي شخص مش هينزل هيقف معانا برضه بأنه يبعتلنا صورته وهو واقف في أي مكان نصف ساعة حدادًا على روح الشهيد خالد وتعاطفًا مع ضحايا التعذيب في مصر.
- كل قوى الفيسبوك هتتحد المرة دي علشان الوقفة الجديدة، وإن شاء الله تكون أنجح بكتير من اللي قبلها.

مطالبنا هي:

التحقيق الفوري من قِبَل جهات قضائية في كافة قضايا التعذيب.
دعوة شعبية لكل مصري تم إهانته أو تعذيبه من قِبَل ضابط شرطة للتقدم لهذه الجهة القضائية مع وجود حماية شعبية كاملة لكل هؤلاء.
حق خالد سعيد لازم يرجع والمخبرين اللي قتلوه لازم يتقدموا للمحاكمة.

بس إحنا بنأكد:

دي وقفة صامتة مش مظاهرة ولا هتافات ولا شعارات.
دي مش وقفة سياسية.. دي وقفة إنسانية علشان الناس اللي بتتعذب في المعتقلات.. السياسيين نتمنى إنهم ييجوا بس ممنوع يستغلوا الموقف سياسيًّا.
إحنا بنوصل للعالم كله رسالة إننا متحدين.. إننا بنحب بعض.. إننا بنخاف على بعض.. وإن خالد سعيد هو رمز للي بيحصل لشباب مصر.. وإحنا مش هنسكت تاني على مقتل أو تعذيب أي شاب مننا.
يا ريت يا جماعة تنشروا الدعوة دي لكل الناس المرة دي زي المرة اللي فاتت وأكتر.. وياريت كلنا نركز جهودنا المرة دي تطلع أكتر نجاحًا.

214 Likes / 109 Comments

بعد نجاح الوقفة الأولى ودعوتنا للوقفة الثانية في الجمعة التالية زادت رغبة أعضاء الصفحة في معرفة مَن يقف وراء الصفحة، وما هي أفكاره، وماذا يريد منها. البعض

يسأل من باب الفضول، والآخرون يسألون من باب التشكك والريبة في الصفحة. كنت أقرأ على الصفحة اتهامات ليست بالكثيرة عن أن الصفحة تابعة لتيار سياسي غرضه هو تحقيق مكاسب شخصية من قضية خالد رحمه الله. خطر ببالي فكرة بدأت في تنفيذها على الفور. فكتبت: «أنت مين يا عم الأدمن؟».

كل شوية يجيلي إيميل وواحد يعمل تعليق ويقولوا: أنت مين يا أدمن.. وحبيت أرد على الأسئلة دي في حوار افتراضي:

اسمك إيه؟

اسمي خالد سعيد

اسمي عبد السميع صابر

اسمي عماد الكبير

اسمي عبد الرازق عبد الباسط

اسمي أحمد صابر

اسمي هو كل واحد مصري اتهان واتعذب في مصر.

عندك كام سنة؟

مش هاقدر أقول لك بالظبط، بس من ساعة ما اتولدت والريس هو نفس الريس.. الفساد هو نفس الفساد.. السلبية هي نفس السلبية.. وحزب «مفيش فايدة» هو اللي واخد الأغلبية.

تقرب لخالد؟

خالد اللي صحا فيا حاجات كتيرة.. خالد بفضله أنا بقيت إنسان حاسس إن لي لازمة في الحياة.. بعد كل ده عايزني أقول إني مقربلوش.. ده أخويا اللي ماشفتوش.. وكان نفسي المخبرين يعذبوه مايقتلوهوش عشان يشوف اللي بنعمله عشان قضيته.

طيب أنت بتعمل كده ليه؟

لما شفت صورة خالد وهو مقتول دخلت في أوضة المكتب بتاعتي في البيت وقعدت أعيط لمدة ساعتين.. حسيت أد إيه إننا بقينا شعب جبان.. شعب بيقبل بالإهانة والذل.. وقررت إني هابدأ بنفسي وهاغير كل حاجة غلط كنت باعملها، وعشان كده عملت الصفحة. أنا عيطت على خالد أكتر ما عيطت على قرايبي اللي ماتوا.. وكل ما باشوف صورته بعد التعذيب بيجيلي اكتئاب وبأقول إني فعلًا مش هاسيب أي مجرم يعمل كده ويفلت من العقاب.

ومين اللي بيمولك؟

الحمد لله مصادر تمويلي كتيرة:

الأولاني هو ضميري اللي فاق وصحي.. ده مصدر بيخليني أعرف أنام ٤ ساعات في اليوم

وأصحى الصبح أول حاجة أعملها قبل ما أغسل وشي إني أبص على الصفحة.
المصدر التاني هو تعليمي؛ فالحمد لله أنا متعلم وكنت من أوائل دفعتي، وباستغل اللي اتعلمته عشان أخدم بلدي.
المصدر التالت هو إن عندي ابن وخفت ابني يطلع يقول يا بابا هو أنتم كنتم بتشوفوا الناس بتتعذب ومابتعملوش حاجة؟!
المصدر الأخير هو حب ناس لي؛ عمري ما شفتهم ولا شافوني وميعرفوش اسمي.. كل يوم بيبعتولي رسائل شكر ودعوات وبيشاركوا بتصميمات وشعارات وفيديوهات وبينشروا الصفحة وبينشروا قضية خالد في كل مكان.
يا أدمن طب أنت عايز إيه؟
أنا عملت الصفحة دي في السر مش بس عشان ماحدش يؤذيني.. كمان عشان أنا مش عايز حاجة غير إن بلدي تبقى بلد جميلة.. نفسي الناس ترجع تحب بعض، ونفسي كلنا مانسكتش على الظلم، ونفسي اللي شايف حاجة غلط في البلد دي يصلحها.. والواحد يفكر ألف مرة قبل ما يضرب شخص على وشه.
طب يا سيدي مش خايف على نفسك؟
خايف طبعًا.. لأن الخوف غريزة.. بس أنا لو فيه شباب زيكم هيتعاطفوا معايا زي ما تعاطفوا مع خالد أكيد أنا هابقى سعيد.. وفي النهاية العمر ده مكتوب عند ربنا وماحدش هيموت ناقص عمر.. قريبتي ماتت وهي عندها خمس وعشرين سنة في حادثة عربية.. هابقى أحسن منها يعني؟

* * *

ناس كتير مش هتصدق الكلام ده بس هو طالع من قلبي والله.. أنا فعلًا باحب بلدي وفعلًا نفسي نبقى أحسن من اللي إحنا فيه دلوقتي.. ومش جاي أعمل ثورة ولا انقلاب.. ولا باعتبر نفسي زعيم حزب ولا تنظيم.. أنا شاب مصري عادي بيشجع الأهلي وبيقعد على القهوة وبياكل لب.. وبيزعل لما منتخب مصر يخسر.. أنا من الآخر مش عايز غير إني أمشي في الشارع فخور إني مصري.. وإن أي حد غلبانماينضربش على قفاه ويبقى حتى مش قادر يقول آه.
معلش صدعتكم بس أنا قلت أكتب الكلام ده عشان أي حد يقول لي أنت مين يا أدمن أبعتله اللينك!
3,761 Likes / 2,122 Comments

ككل ما أكتب على الصفحة منذ تاريخ إنشائها، كتبت هذه الرسالة بشكل عفوي؛ لم أُرتبها ولم أُنمقها وتحدثت بلغة أقرب إلى قلبي من عقلي. وَقْع الرسالة كان رائعًا؛ انتشرت بشكل كبير على الإنترنت حتى أن الكثيرين من أصدقائي وضعوها على صفحاتهم ووصفوا صاحب الصفحة بالمحترم الذي لا يبحث عن أي مكاسب.

وتسببتْ في وجود مئات التعليقات ورسائل الإعجاب على البريد الإلكتروني الخاص بالصفحة. كانت تلك المقالة حجر زاوية في تحديد العلاقة الافتراضية بين أعضاء الصفحة وصاحبها المجهول الذي لا يعرفه أحد.

كنت أكتب دائما بقلبي لا بقلمي، أحاول وضع مشاعري على الصفحة، وكان هذا من أكثر أسباب ارتباط أعضاء الصفحة بها. ما حدث لخالد جعلني أكتب بتلقائية بسيطة، وبعض ما كتبته انتشر بشكل كبير على الإنترنت دون حتى أن يعرف أحدٌ مصدره. كان من ذلك: «خالد سعيد.. الدم نازف م الوريد.. والظلم قابض من حديد.. بس الصراحة فيه جديد.. فيه جيل عنيد.. عزمه شديد.. مافيهوش عبيد.. فيه ألف إيد.. حالفة تجيب حق الشهيد»، و«يا أمي يااللي ماشفتكيش.. بلاش دموع ماتعيطيش.. خالد أخويا وماتخافيش.. اللي حصله مايرضينيش».

لم يقتصر الأمر على ما كنت أكتبه أو يكتبه عبد الرحمن، بل كان من المهم الاعتماد على أعضاء الصفحة في إنتاج محتوى يتناوله الجميع لتظل قضية خالد وغيره من المعذبين والشهداء حيّة. كنت أطلب من الجميع المشاركة بشكل مستمر، وكان من المهم أن يشعروا بالمسئولية والمشاركة.

أنا عاهدت ربنا ابارح إني كل يوم هاحط على الأقل ٣ ساعات من وقتي عشان أفضح أي مجرم وحرامي وعميل في مصر.. أنا مش هسيب البلد دي تغرق.. وأنا فعلًا مش عايز أشتغل لوحدي.. عايزكم كلكم معايا وعايزكم كلكم تحسوا إننا لازم نغير البلد دي.

236 Likes / 67 Comments

نداء لكل شخص ربنا اداله موهبة الكتابة أو التأليف أو الرسم أو التصميم أو عمل الفيديو.. ياريت كلنا نعمل كل حاجة نقدر عليها علشان نروّج ليوم الملايين السوداء والوقفة الصامتة على ضحايا التعذيب في مصر.. ياريت تتبرع بجزء صغير من وقتك عشان شغلك هيشوفه عشرات الآلاف.. عايزين مصر كلها تنزل.

221 Likes / 70 Comments

التركيز على المواهب يصقلها ويجعلها تشعر بسعادة حينما ترى إنتاجها يتجاوب معه الآلاف من أعضاء الصفحة؛ ولذا قررت إنشاء موقع متخصص أجمع فيه هذا

الإنتاج من الأشعار والمقالات والتصميمات حتى لا تضيع مع الوقت وأسميته «الشهيد» (http / /:elshaheeed.org).

استعنت بشابّ اسمه عمرو القزاز لإدارة الموقع. عمرو هو شابّ في الحادية والعشرين من عمره، مدوّن نَشِط أُلقي القبض عليه من قِبَل أمن الدولة سابقًا بسبب تغطيته لأحداث المظاهرات أثناء الانتخابات. لم يكن عمرو يعرفني ولم نلتقِ من قبل، ولكن رسالته لبريد الصفحة ومدونته ساعدتني على اتخاذ قرار الثقة به. قال إنه سيتواصل معي عبر البريد الإلكتروني واتفقنا أنه لن يسعى بأي شكل للتعرف على شخصيتي الحقيقية، وأعرب عن حرصه على المساعدة. مهمته في الموقع كانت تجميع كل القصص الإخبارية، وأشرطة الفيديو، والصور، أو حتى الأشعار التي من شأنها أن تركز على قضية خالد. كانت مشيئة الله أن أتعرف على عمرو وقتها استعدادًا لدور حيويّ سيلعبه عمرو في الصفحة وفي الثورة في وقت لاحق.

بعد بضعة أيام من إطلاق موقع «الشهيد»، تلقيت رسالة إلكترونية على بريد صفحة «كلنا خالد سعيد» من محمد إبراهيم؛ وهو مصري يعيش في بريطانيا (ولكنني لم أعرف اسمه حينها). عبَّر محمد عن تضامنه مع قضية خالد واهتمامه بالمساعدة في نشر الوعي على المستوى الدولي بهذه القضية.

رددت عليه فورًا: «بالتأكيد.. نحن في حاجة لمساعدتك»، وطلبت منه أن يُنشئ نسخة باللغة الإنجليزية من موقع «الشهيد» ليحكي للعالم قصة خالد سعيد حتى لا نكتفي بعرض القضية على الرأي العام المحلي، بل ليمتد ويصل لكل المهتمين بحقوق الإنسان في العالم.

كان محمد متحمسًا جدًّا وأخذ يعمل طوال أربع وعشرين ساعة لينشئ الصفحة الإنجليزية (www.elshaheed.co.uk). بعد ذلك بوقت قليل قرر محمد أن يُنشئ صفحة إنجليزية على الفيسبوك باسم «كلنا خالد سعيد»؛ لأنه أراد أن يتواصل مع الجمهور غير المتحدث باللغة العربية والمهتم بهذه القضية وحقوق الإنسان في مصر. فور إنشاء الصفحة الإنجليزية نشرت رابطًا لها على صفحة «كلنا خالد سعيد» ومَدَحْتُ جهودَ مدير الصفحة الإنجليزية الذي لم أكن حتى أعرف اسمه، وأكدت على أن هذا الجيل الجديد في مصر لن يتوقف حتى يحصل على حقوقه. ولكن سرعان ما تلقيت

تعليقات تنتقد الصفحة الإنجليزية من المصريين؛ لأن أغلبنا كمصريين شديدو الحساسية من فكرة إدخال غير المصريين في قضايانا. كان من الضروري أن يكون أغلب أعضاء الصفحة مرتاحين لفكرة الصفحة الإنجليزية؛ لذلك وضعت استطلاعًا للرأي على الصفحة. أظهر الاستطلاع أن ٧٨٪ من الذين أجابوا عنه، والبالغ عددهم ١,٣٥٥ عضوًا، أيدوا استمرار الصفحة الإنجليزية في العمل ونشر ما نصل له من حقائق عن قضية خالد وغيرها من قضايا الوطن باللغة الإنجليزية.

على مدار الأشهر التالية لعبت الصفحة الإنجليزية دورًا هامًّا في حشد الدعم لقضيتنا من مختلف الناس حول العالم. كان محمد ينشر أحيانا خطابات بالإنجليزية لدعمنا، وكنت أحرص على ترجمة هذه الخطابات ونشرها على صفحة «كلنا خالد سعيد» العربية. كنت أنا ومحمد نتواصل ونعمل معًا دون أن نعرف هوية بعضنا بعضًا، ومن الطريف أنني لم أعرف اسمه الحقيقي إلا بعد الثورة بأيام!

قبل الوقفة الصامتة الثانية بيومين، والتي كان محددًا لها يوم ٢٥ من يونية، أعلن الحزب الوطني عن مسيرة بالإسكندرية يشارك فيها أطفال الإسكندرية. وبمحض الصدفة تقرر أن تكون هذه المسيرة في الخامسة مساء وعلى كورنيش البحر في الإسكندرية. بدا واضحًا أن النظام المصري يريد تحجيم أصوات هذه الحركة الشبابية غير المسيّسة الجديدة بالتنافس معها وليس قمعها كما جرت عادتهم. فلقد اتضح لهم أن أسلوب التعامل الأمني مع الوقفة الأولى لم يكن مجديًا، بل بالعكس كان مُضرًّا لهم وتسبب في إحداث مشاكل أكبر؛ ولذا قرروا التعامل معنا بنفس منطقنا وبنفس أدواتنا، غير أن الفارق أن الشباب الذي يشارك في وقفاتهم كان مدفوعًا لأهداف سياسية ليقوم بذلك فهو لا يؤمن بقضية، وشبابنا آمن بقضية نزل من أجلها.

قررَتِ العديد من القوى الوطنية والحركات السياسية، مثل كفاية والجمعية الوطنية للتغيير وشباب العدالة والحرية و٦ إبريل، المشاركة في مظاهرة القائد إبراهيم بالإسكندرية، وامتلأت ساحات المسجد بعد الصلاة بآلاف المتظاهرين، وقامت قوات الأمن بتطويقهم بسيارات الأمن المركزي وقوات مكافحة الشغب. المظاهرة كانت ناجحة؛ فالدكتور محمد البرادعي حضر خصيصًا لها من القاهرة هو وأيمن نور وغيرهما من رموز المعارضة آنذاك.

كنت قد سألت قبلها بيوم أو يومين مصطفى النجار إذا كان من الممكن أن يشارك الدكتور البرادعي في الوقفة الصامتة؛ لأن مشاركته ستكون سببًا في تركيز العديد من الأضواء الإعلامية على الوقفات الصامتة بشكل خاص، كان هذا النجاح الإعلامي سيؤدي لمزيد من المشاركة الفعالة من أعضاء الصفحة في نشاطها.. وقد كان.

بعد المشاركة في المظاهرة انضم البرادعي إلى الوقفة الصامتة على الكورنيش مرتديًا السواد، وظهر أيضًا الدكتور أيمن نور أول من فَجّر قضية خالد رحمه الله والإعلامية المعروفة بثينة كامل والفنان خالد أبو النجا. كانت لحظة رائعة التقطتها الكاميرات. وبالرغم من أنني لم أُنشئ هذه الصفحة للترويج للبرادعي كرمز من رموز التغيير، إلا أنني وضعت صورته على الصفحة لأول وآخر مرة وهو واقف مع غيره من الشباب والنشطاء على الكورنيش.

شهدتْ هذه الوقفة نجاحًا ملحوظًا؛ فقد زاد عدد المشاركين، ونجحتْ الوقفة بعشر محافظات. كما أن وقفة المنصورة شهدتْ مشاركة إحدى الشخصيات الوطنية المعروفة هناك وهو الدكتور محمد غنيم؛ أحد أبرز أطباء الكلى في مصر والعالم العربي. كانت هذه الوقفة كابوسًا بالنسبة للجهات الأمنية، ولكنهم للمرة الثانية لم يتعرضوا للمشاركين فيها. كانت فكرتنا تنتشر، وبدأت هذه المرة تلتحم بشكل مباشر مع القوى السياسية المعارِضة للنظام.

الصور التي أرسلها أعضاء الصفحة كانت رائعة ومُعبرة عن الواقع ونشرناها على الصفحة. أحد الشباب قرر النزول في البحر والوقوف وسط الأمواج لمدة ساعة مُعبرًا عن غضبه وألمه مما يحدث، وصورة أخرى تُظهر أسرة من أب وأمّ وطفل لم يتجاوز عدة أشهر، قال والده في التعليق على الصورة: «أتيت به إلى هنا حتى يتعود أن يشارك في المطالبة بحقوقه، وألا يقبل الظلم منذ نعومة أظفاره». ومن أكثر الصور المُلهِمة كانت صورة شابّ رجله مكسورة وقف مستندا على عكاز لأكثر من نصف ساعة، وقال معلقًا على صورته: «بالرغم من الألم الذي عانيت منه في الوقفة إلا أن الألم الذي تمر به مصر يستحق تضامني».

في الوقفة الثانية كنت في الإمارات، وكان من المفترض أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع مع أبنائي، إلا أنني أخبرت زوجتي عن الوقفة، وأنه يتوجب عليَّ متابعة الوقفة

أولا بأول ونشر ما حدث بها بمجرد انتهائها.. كانت ثاني عطلة نهاية أسبوع أقضيها بعيدًا عنهم، جلست طَوال يوم الجمعة متسمرًا في مكاني في غرفة المكتب لا أغادره، أتابع عن كثب ما يحدث عن طريق النشطاء الموجودين بتويتر وبعض المشاركين من الشباب الذين يستخدمون هواتفهم المحمولة للتعليق على ما يحدث على الصفحة. لم أنم طَوال الليل لأنني كنت أضع الصور ومقاطع الفيديو التي تصلني على الصفحة. كان حجم ما يصلنا من محتوى كبيرًا جدًّا؛ مئات الصور وعشرات مقاطع الفيديو، وكان من الضروري إضافتها على الصفحة، ولكن على فترات زمنية حتى لا يشعر متابعو الصفحة بالإزعاج؛ فكل ما نضعه على الصفحة يظهر لديهم في صفحتهم الرئيسية.

أعلنَتْ زوجتي ضيقها من فكرة ضياع العطلة؛ فمنذ اهتمامي بالسياسة وأنا أقضي وقتًا طويلًا على مواقع التواصل الاجتماعي، وأصبحت أعمل ما يزيد على ١٦ ساعة يوميًّا بين عملي الأساسي في الشركة وعملي السياسي في البيت، وكان ذلك بلا شك على حساب حياتي الأسرية. ولكنها ومع كل الضجر والملل الذي كانت تُظهره كانت متفهمة مشاعري، وكانت تعرف إصراري وأنني في النهاية سأفعل ما يمليه عليَّ ضميري تجاه وطني مَهما كلفني الأمر على المستوى الشخصي.

كانت الوقفة الثانية أكثر نجاحًا من الأولى، وبدا واضحًا زيادة الاهتمام من الأعضاء ومن جهات الأمن أيضًا، فقررنا أن تكون الوقفة الصامتة الثالثة في التاسع من يولية؛ أي بعد أسبوعين من انتهاء الثانية، وذلك لالتقاط الأنفاس والتجهيز والحشد للوقفة بشكل سليم، ولزيادة الزخم الإعلامي حولها، وحتى أقضي بعض الوقت مع أسرتي، وعبَّرت عن ذلك صراحة على الصفحة. الرائع أن الكثير من الشباب كانوا يرون أن تأجيل الوقفة لأسبوع فكرة غير صائبة، وتحوَّل الأمر إلى أنهم يحاولون إقناعي بالإعلان عن ٢ من يولية ميعادًا للوقفة الثالثة، فقمنا بعمل استطلاع وافقت فيه الأغلبية على فكرة التأجيل لأسبوع. كنت أشعر دائمًا أنه يجب أن يكون القرار النهائي قرارًا جماعيًّا؛ لذلك كنت أحسم الموضوع بالاستطلاعات وأتصرف بناء على رأي الأغلبية.

مع كل وقفة في الشارع كانت أصوات الأمل تتزايد بين الشباب الذين يشاركون أو يتمنَّون المشاركة، ولكن لا يقدرون على ذلك، وفي نفس الوقت كانت أصوات

المحبِطين (بكسر الباء) تتزايد أيضًا. دعاة الإحباط كانوا عدوّي الافتراضي على الإنترنت. كنت أحيانًا أعطيهم أكبر من حجمهم بالحديث عنهم بشكل مستمر على الصفحة، ولكنني كنت أرى ضرورة لذلك؛ فهذا المرض وللأسف الشديد تفشّى في مصر بشكل كبير. أسميتهم: «حزب مفيش فايدة». قررت كتابة مقالة قصيرة أسميتها «عباس والأدمن» محاولًا تسليط الضوء على دعاة الإحباط.

عباس والأدمن

كتبها: أدمن صفحة كلنا خالد سعيد

قصة غير حقيقية ولكن ذات مغزى!

يا ريت بعد ما تقرأ جاوب على السؤال: أنت أدمن ولا عباس؟

بعد الوقفة الصامتة.. رحت له على القهوة.. هو صحيح صاحبي من زمان بس إحنا مختلفين تمامًا عن بعض. اسمه عباس.. شاب في العشرينيات من عمره.. موظف في شركة وفي حاله.. عباس من أهم مميزاته إنه مدمن تشاؤم وعاشق للسلبية.. شعاره هو ياكش تولع، ومثله الأعلى هو هاني رمزي في مسرحية وجهة نظر وهو بيقول مفيش فايدة كل حاجة عنده غلط إلا لعب الطاولة طول الليل ع القهوة وشرب الشيشة.. عباس مش بس من محبي السلبية.. لا هو كمان من الدعاة ليها.. بيغير من أي حد بيشتغل في مصلحة بلده ويقعد ينتقده.. ده بيقلل شعوره بالذنب ويخليه يحس إن طالما مفيش فايدة يبقى نلعب طاولة أحسن!

رحت القهوة لاقيته مبسوط جدًّا.. وقلت أخيرًا عباس شكله سمع عن الوقفة الصامتة وعرف إننا نجحنا.. أتاريه مبسوط عشان البرتغال اتعادلت مع البرازيل.. لأنه بيحب الفرقتين وكان نفسه الاتنين يتأهلوا. ابتديت أكلمه على موضوع الوقفة وأد إيه كانت جميلة وحسينا ببعض كشباب مصري بيخاف على بعضه.

عباس راح باصصلي بطرف عينه وقال لي: إيه يا عم الأدمن.. وقفة مين يا عم الحاج.. متفوقوا من اللي انتو فيه ده والهبل ده وركزوا في مستقبلكو.

الأدمن: ماهو يا عباس إحنا فعلًا فقنا من الهبل اللي كنا فيه وفعلًا بنشوف مستقبلنا ومستقبل عيالنا كمان.

عباس وهو مستغرب: يعني والنبي شوية عيال واقفين على الكورنيش بيتشمسوا.. مصر هتتغير بيهم؟

الأدمن: محدش قال إن التغيير هييجي من وقفة.. بس في النهاية وقوفنا نفس الوقفة شباب وبنات مسلمين ومسيحيين كبار وصغيرين ده أكبر دليل أننا ممكن نتحد.. ولو أعدادنا زادت.. أكيد هنعمل حاجة في البلد.

عباس: يا سيدي أنت عارفني من زمان.. والله ومهما تعملوا مفيش فايدة.. لا والمصيبة المظاهرات مش نافعة.. السكات هينفع؟

الأدمن: أنت عارف إن الوقفة دي فعلًا هتنفع! إحنا مش بنعمل مظاهرة عشان يمنعوها ومش بنتكلم أو شايلين شعارات عشان يطبقوا علينا قوانين طوارئ.. ولا بننادي بحاجة.. إحنا لابسين أسود عشان حال البلد اللي مش عاجب حد.. لابسين أسود لحد ما ترجعلنا كرامتنا.. لابسين أسود لحد...

عباس مقاطعًا: يا عم حيلك حيلك.. كرامة إيه وكلام كبير إيه... أنت محسسني إنك قاعد في جوانتانامو.. البلد زي الفل وشوية حاجة صغيرة بتحصل فيها مش معناه إن البلد فيها مشاكل.

الأدمن: المشكلة يا عباس إنك من سلبيتك مابقتش تدور على الحقيقة.. أنا كنت زيك فاكر البلد زي الفل وفيه حوادث قليل.. طلع فيه مصايب بتحصل كل يوم وماحدش بيشوفها.. الشرطة بتعذب الناس بشكل منهجي.. والمخبرين بيهددوا المواطنين.. وبيشتغلوا مع البلطجية.. والقانون في البلد بيتطبق على أي حد مالوش ضهر.. البلد فعلًا في حالة يضيع فيها حق أي غلبان.. ولما الغلط بيحصل بيهددوا أي شخص إنه يفتح بقه.. لحد ما موضوع خالد ظهر وعرفنا كلنا الحقايق.. شوف يا عباس الفيديوهات اللي ملت الفيسبوك وبتخبيها الجرايد اللي زي الأهرام والأخبار...

عباس (بيقاطع تاني): يا سيدي ده كلام كبير علينا ومش هينفع نتغير.. البلد دي بلدهم يا عم الحاج.

الأدمن: البلد دي مش بلدهم.. دي بلدنا كلنا كمصريين.. عشان كده محتاجين نتحد عشان نعرف نغيرها.. بلد ٨٠ مليون مابنفعش شوية آلاف يتحكموا فيها... والموضوع مش كيمياء.. كل الدول اللي عندها إن الحرية والكرامة المواطنين حاجة أساسية حصل فيها كده.. المواطنين بيطالبوا بحقوقهم وبياخدوها.. لكن طول ما إحنا كده سايبين حقوقنا وبنقول حسبي الله ونعم الوكيل وخلاص مافيش حاجة هتحصل.. ده أنت راجل بتصلي.. النبي صلى الله عليه وسلم قال ما معناه إن في آخر الزمان ربنا هيخسف الأرض بناس.. وهيكون فيهم ناس صالحة عشان كانوا بيشوفوا الظلم ويسكتوا عليه.. عايز تبقى من دول؟

عباس: يا عم أنا لا من دول ولا من دول.. أنا عايز أتفرج على تحليل ماتش البرازيل والبرتغال.. لحسن مدحت شلبي هيولعها النهاردة.

الأدمن: صدقني يا عباس.. عارف إيه مشكلة مصر؟ إن فيها ٨٠ مليون عباس.. بس إن شاء الله لو فاق منهم نص مليون واحد هنغير البلد دي.. واللي زيك هيقعدوا يتفرجوا من مدرجات الدرجة التالتة.. أو لو حظهم وحش مش هيلحقوا يتفرجوا هيحصل لهم زي اللي حصل لخالد سعيد.. بس ساعتها مش هادافع عنك!

يا ترى كام واحد من اللي بيقرا المقالة دي عباس... وكام واحد أدمن؟!

قل لي.. أنت أدمن ولا عباس؟

688 Likes / 735 Comments

الكثير من التعليقات كانت تُجيب عن السؤال الذي جعلهم يفكرون هل هم دعاة عمل وتفاؤل ومطالبة بحق، أم دعاة إحباط ويأس وانهزامية. ظل أثر المقالة على أعضاء الصفحة لأيام طويلة حتى أن الكثير من تعليقات الأعضاء والتي كنت أحرص على قراءتها بشكل مستمر كانت أحيانًا تتندر بالمقالة بشكل ساخر مثل قولهم: «الأخ اللي عمال يحبّط فينا ده ماتبقاش عباس وخليك أدمن».

أخذَتْ قضية خالد سعيد منحًى جديدًا بعد قرار القبض على المتهمين بقتله وبدء التحقيقات معهم. كان ذلك انتصارًا كبيرًا لنا، وتابع مركز النديم لمناهضة التعذيب، وهو واحد من مؤسسات المجتمع المدني الناشطة في مجال حقوق الإنسان في مصر، القضية بشكل كبير عن طريق أحد محاميه واسمه محمد عبد العزيز. نشر مركز النديم يوم الخميس ١ من يولية محضر التحقيقات مع مخبري الشرطة المتهمين بقتل خالد، وبدا واضحًا تضارب أقوالهما وعدم منطقية شهاداتهما. جعلني ذلك أكتب مقالًا كاملًا لإثبات براءة خالد باستخدام العقل وما لديَّ من فيديوهات تحوي شهادة بعض شهود العيان الذين عاصروا الحدث. كان ذلك مُهمًّا في ظل الحملة الإعلامية القوية ضد خالد في الصحف القومية ووسائل الإعلام الرسمية وعلى صفحات الحزب الوطني ولجانه الإلكترونية.

وقفة ٩ من يولية الصامتة كانت أول وقفة تشهد بدء التضييق الأمني على مَن يشارك فيها، كان هذا في رأيي بسبب ما حدث في الوقفة الثانية، والتي شاركت فيها القوى السياسية. بدأ الأمن يدرك مخاطر الوقفة حتى لو كانت صامتة؛ فقد حوَّلنا الصمت الذي هو في الطبيعي ضعف إلى قوة، وكنت أكتب على الصفحة: «صمتنا قوة.. صمتنا في البحر نوّة»، وأتذكر تعليقًا كتبه أحد أعضاء الصفحة قائلًا: «لا تحسبوا صمتنا ضعفًا واستسلامًا؛ فالأرض ساكنة وتحتها بركان». فكرة الوقفات الصامتة مع ما يراه البعض من سلبية فيها، إلا أنها كانت رسالة قوية لا يستطيع الأمن التعامل معها. حتى أن التصميمات التي يرسلها لنا المتطوعون تحوي عبارة «صمتنا قوة» لتؤكد على هذا المعنى.

جاءتني رسالة من أحد أعضاء الصفحة في لندن اسمها سالي سامي لتخبرني بأنهم سيقومون بتجهيز وتنظيم وقفة أيضًا هناك للتأكيد على حق الشهيد والمطالبة بوقف قانون الطوارئ، وكنت شديد السعادة بمثل هذه الخطوة؛ فانتشار الفكرة وعدم مركزية التنظيم قوة رائعة تُسهم في نشر القضية وانتشارها بشكل كبير.

الوقفة في هذه المرة بدأتْ فيها بعض المضايقات الواضحة من الأمن؛ مدير أمن الإسكندرية بنفسه كان في الشارع يوم الجمعة ليتفقد الأمن، وحصل تطويق كبير وعمل «كردون» من أفراد الأمن حول مجموعات من الشباب المشارك في الوقفة لأول مرة، وأجبر الشباب على أن يجلس في دائرة يحرسها الأمن في مشهد يُذكِّرنا بالمظاهرات؛ وذلك لوقف انتشارهم على الكورنيش. بدا واضحًا أن الأمن أصبح يَضيق ذرعًا بالفكرة ولا يريد تكرارها. في القاهرة تم أخذ البطاقات الشخصية للعديد من الشباب وتسجيل بياناتها قبل مغادرتهم لأماكن الوقفات؛ وذلك حتى يتم الاستعلام عن ملفاتهم في أمن الدولة، وكذلك لتخويفهم حتى لا يشاركوا مرة أخرى.

صوَّر أحد الشباب مقطعًا للفيديو في الإسكندرية يُظهر أحد الضباط هناك يسب أحد المشاركين في الوقفة بأمه مطالبًا منه أن يتحرك ويغادر المكان على وجه السرعة. كانت مثل هذه اللقطات تزيد غضب وحنق الشباب على الصفحة من وزارة الداخلية بسبب أسلوب تعاملهم؛ خاصة وأن ما نقوم به هو عمل سلميّ وبسيط ولم يصل حتى إلى درجة المظاهرة.

وفي العالم الافتراضي، كان عدد أعضاء الصفحة في تنامٍ، وكانت العلاقة بين شباب الفيسبوك ووزارة الداخلية تزداد سوءًا؛ فالكثير ممن رأوا تأثير قضية خالد على الرأي العام خرجوا عن صمتهم وعبّروا عن رأيهم، وذكروا وقائع ونشروا وثائق ومستندات، وكذلك صوّروا مقاطع فيديو يتحدثون فيها عن سوء معاملة وزارة الداخلية للمواطنين. بركان يغلي ويكاد أن ينفجر ولن تستطيع الداخلية أن توقفه، ولكن الداخلية شعارها: لا أسمع.. لا أرى.. لا أتكلم.

كان تكريسي لكل وقتي وجهدي لصفحة خالد سعيد على حساب نشاطي السياسي مع الدكتور البرادعي؛ فلقد كنت الآن غير نَشِط على الإطلاق بصفحة البرادعي

على الفيسبوك كما كنت من قبل. ولتعويض غيابي الافتراضي المتزايد طلبت من عبد الرحمن منصور أن يهتم بصفحة البرادعي أكثر. كان الإخوان المسلمون قد قرروا رسميًّا الانضمام لحملة جمع التوقيعات على بيان التغيير. وكان النظام حانقًا عليهم بسبب ذلك؛ فالإخوان يمكنهم أن يجمعوا عددًا ضخمًا للغاية من التوقيعات على بيان المطالب. قبل أن ينضم الإخوان للمبادرة، في ٨ من يولية، كان عدد التوقيعات يزيد على ١٠٠,٠٠٠ توقيع، ولكن بعد انضمامهم زاد هذا الرقم زيادة هائلة.

بدأت وسائل الإعلام الرسمية تزعم أن هذه التوقيعات غير حقيقية، وأنه حتى لو وقّع مليون مصري على هذه المطالب فذلك سيمثل أقل من ١٪ من تعداد سكان مصر البالغ عددهم ٨٥ مليون نسمة. كنت أتابع الأخبار عن كثب، وكان عبد الرحمن منصور حريصًا على تحديث صفحة البرادعي بهذه الأخبار، ولكنني قررت تكريس كل وقتي وجهدي لقضية خالد سعيد لِما رأيت فيها من بارقة أمل في إحداث تغيير حقيقي بين أوساط الشباب في مصر.

خلال هذه الفترة لاحظت تعليقًا ذات مرة على الصفحة من أحد الأعضاء علمت بعد الدخول على صفحته الشخصية أنه ضابط؛ لأنه كتب في خانة التعليم أنه خريج أكاديمية مبارك للأمن. خطرتْ في ذهني فكرة حينما رأيت أن بعض أصدقائه من الضباط أيضًا، ويبدو ذلك واضحًا من صُوَرهم الشخصية بالزي الرسمي للشرطة، الفكرة كانت: لماذا لا نتحاور معهم ونرسل لهم برسائل واضحة وصريحة تُعلن رفضنا لما يقوم به بعضهم من ممارسات تتنافى مع حقوق الإنسان؟!

فتحت ملفًّا وبدأت في قص ولزق عناوين الصفحات الشخصية للضباط، أحاول من خلال مشاهدة قوائم أصدقاء كل ضابط للوصول إلى مَن هو مثله من الضباط، أو أبحث في الفيسبوك عن كل مَن تخرج في أكاديمية مبارك للأمن أو كتب في مهنته أنه ضابط. بالطبع قد يكون هناك مَن ينتحل شخصية ضابط، ولكن لا ضرر في ذلك؛ ففي النهاية نحن نريد التواصل مع أكبر قدر من الضباط. بعد عدة ساعات من العمل المتواصل أمام الشاشة جمعت ما يزيد على ٤٠٠ اشتراك لضباط شرطة مصريين.

قررت عمل حملة باسم: «حملة شباب الفيسبوك»، وطلبت من أعضاء الصفحة الذين يريدون المساهمة في حملة بسيطة ومهمة أن يتواجدوا جميعًا بعد بضع ساعات على الصفحة. كان مُهمًّا أن تكون الحملة في وقت قصير حتى يصل أكبر قدر من الرسائل للضباط قبل أن يُغيّروا خصوصية اشتراكاتهم ويمنعوا التواصل معهم. في ساعة الصفر شرحت الفكرة للجميع ووضعت بعض التنبيهات الهامة لهم جميعًا بالتزام الأدب والحوار الجادّ؛ فما نريده هو الإصلاح وليس الشقاق. وضعت اشتراكًا وهميًّا وسط قائمة اشتراكات الضباط حتى يتسنى لي قراءة ما سيكتبه الأعضاء من رسائل، وطلبت من الشباب أن يقوموا بإنشاء اشتراكات جديدة على الفيسبوك فيها صورة خالد رحمه الله كصورة رئيسية ويستخدموها لمراسلة الضباط. كنت أخشى أن يدخل أي عضو(ة) من الصفحة في أي معارك جانبية مع أحد الضباط مما يُعرضه لخطر؛ ولذلك حرصت على اقتراح تسجيلهم لاشتراكات جديدة في الفيسبوك معدة خصيصًا لهذه الحملة.

الحملة كانت ناجحة؛ آلاف الرسائل التي أرسلها مئات الأعضاء من الصفحة إلى الضباط، والغريب طلبات الإضافة أيضًا! اشتراكي الوهمي وصله ما يزيد على خمسين رسالة و١٠٠ طلب إضافة! أعدت نشر هذه الرسائل على الصفحة حتى تُلهم الآخرين، وحتى نثبت للجميع نجاح فكرتنا، كان التواصل مع الضباط رائعًا؛ فالبعض أبدى تأييده لما نقوم به، والآخرون رفضوا بشدة ما نقوم به، ووصفوا خالد بشهيد البانجو وتاجر المخدرات، ولكن الشاهد أن حالة الحوار كانت مفيدة جدًّا في كسر حاجز الخوف لكل مَن شارك في الحملة، ولفتح الباب للمساءلة المجتمعية لضباط الشرطة حتى يعرفوا أنهم ليسوا بمأمن عن التواصل معنا بعد انتشار وسائل الاتصال الحديثة مثل شبكات التواصل الاجتماعي.

بعد الوقفة الصامتة الثالثة، كان الحدث الأقرب هو عيد ثورة ٢٣ يولية، وشاءت الأقدار أن يكون يومَ الجمعة! وأهمية هذا اليوم كانت أن أول محاكمة للمتهمين بقتل خالد ستكون يوم ٢٨ من يولية؛ أي بعد خمسة أيام؛ مما يجعل من الحشد أهمية إعلامية تساهم في تسليط الضوء بشكل أقوى على القضية.

اليوم له معانٍ كثيرة؛ فهو الذكرى السنوية لثورة ٢٣ يولية؛ والتي يرى بعض المؤرخين أنها كانت انقلابًا عسكريًّا تَسبَّب في سوء الأوضاع في مصر بسبب دكتاتورية حكم العسكر والتي استمرت حتى يومنا هذا، ولكن اليوم كان يوم احتفال رسمي؛ إجازة رسمية واحتفالات قومية وخطاب للرئيس مبارك. كان اليوم ملائمًا لعمل حِراك في الشارع يُسهم في إيصال صوتنا للجماهير؛ فالإعلام يهتم بكل الأخبار أثناء مثل هذه المناسبات. أعلنتُ على الصفحة أن وقفتنا الصامتة الرابعة ستكون في ٢٣ من يولية، وأسميتها آنذاك ثورة الصمت. سخر الكثير من الاسم، خاصة وهم يتذكرون ما قام به أجدادنا من ثورة على النظام الملكي، وامتلأت الصفحة بنكات الأعضاء والتي ترى أن الفكرة تضر ولا تنفع، قررنا الاستمرار في الفكرة والحشد لها، وكتبت مقالًا طويلًا عن ثقافة الصمت، وعن أنه وسيلة ليست بالضعيفة كما يظنها البعض.

فكرة ربط ثورة ٢٣ يولية بالأحداث كانت فكرة مزعجة للكثيرين ومنهم جهات الأمن، فالحكومة لا تريد أن يتم إحراجها بأي شكل من الأشكال في يوم عيد؛ ولذا بدأت بعضُ رسائل التهديد المبطنة تصلني عبر البريد الإلكتروني، مثل: واحدة ادعت أن والدها من أمن الدولة، وأنهم استطاعوا الوصول لشخصي عن طريق الـ«IP Address»، ويجب أن أتوقف عما أفعله فهي تخاف عليَّ من عاقبة ذلك. كان الأمر مستبعدًا بالنسبة لي؛ فأنا أعلم جيدًا أنهم لا يستطيعون أبدًا التوصل إلى الـ«IP Address»؛ لأنني كنت أراعي أقصى درجات السرية في التعامل.

في عام ٢٠٠٦ كنت قد شاهدت فيلم «V for Vendetta» وأُعجبت كثيرًا بفكرته آنذاك، ليست فكرة استخدام العنف والإرهاب لمحاربة الشر، ولكن فكرة غموض شخصية مَن يحارب الشر. ومع إنشائي لصفحة «كلنا خالد سعيد» كنت متأثرًا بتلك الفكرة؛ الشخص الغامض الذي يحاول إفاقة مَن حوله للثورة على ظلم الحكومة. التأثر كان واضحًا.. حتى أن مقالة: «أنت مين يا عم الأدمن؟» وضعتُ صورتها الأساسية القناع الذي كان بطل الفيلم يرتديه ليُخفي معالم وجهه، وخطرتْ على بالي فكرة؛ وهي أن أستخدم لقطات من الفيلم للترويج للنزول في ثورة الصمت.

قمت بتحميل الفيلم من على الإنترنت واستخدمت أحد برامج الفيديو لقطع جزء

هام من الفيلم؛ وهي اللحظة التي استطاع فيها «V» أن يخترق أنظمة أجهزة الإعلام المحلية ويخرج على الهواء مباشرة ليتحدث مع الجماهير ويخبرهم بواقع أمرهم، قمت بترجمة ما يقول ولكن ترجمة غير حرفية، وكان «V» في هذه اللقطة يدعو كل قاطني مدينته للخروج إلى الشارع في الخامس من نوفمبر للتحرك ضد الظلم والفساد، وأتذكر تلك العبارة التي قالها لسكان المدينة: «إذا أردتم أن تعرفوا السبب فيما نحن فيه من ظلم وفساد فانظروا في المرآة». غيرت الترجمة لتكون دعوة للمصريين للنزول يوم ٢٣ من يولية للثورة، ولكن بصمت، ضد فساد وزارة الداخلية.

وضعتُ العديد من التنبيهات الهامة عن الوقفة، وهي نفس التنبيهات الاعتيادية، وشارك بعض أعضاء الصفحة في دعوة الآخرين للنزول عن طريق التصميمات ومقاطع الفيديو. خالد كامل؛ ذلك الشاب الذي لم يتجاوز ٢١ سنة من البحيرة، والذي عرفته عبر الإنترنت ولم يعرف شخصيتي الحقيقية، كان يبذل مجهودًا رائعًا قبل كل وقفة ليحشد الناس عبر خبرته الرائعة في إنتاج مقاطع الفيديو. كنت أتعامل معه دون أن يعرف هويتي، وكنت أرفض في مراسلاتي معه ذكر أي تفاصيل شخصية عن حياتي، وذلك حتى لا يُتاح له التعرف عليَّ، ولكن أمرًا مُقلقًا جدًّا قد حدث.

أرسل لي خالد رابطًا لمدونته أثناء حوارنا عن الفيديو الذي أريده أن يقوم به، ودخلت على الرابط لأنه كان موقع «Blogger» التابع ل«جوجل». وبسرعة وجدت خالد يخبرني أنه عرف أين أعيش؛ كان لديه في مدونته برنامجًا لمعرفة الـ«IP Address»، ولسوء حظي وقتها كنت قد نسيت الاتصال بالبروكسي الخاص ببرنامج «Tor». قال لي خالد: أنت تعيش في الإمارات؛ لذا أنت مطمئن من عدم قدرة أحد على ملاحقتك.

احمرّ وجهي وخالجني شعور بالقلق من كشف شخصيتي وأنا أقرأ ما يكتبه على الشاشة، المشكلة أنه أيضًا يعرف الـ«IP Address» ويمكنه معرفة مقر سكني أيضًا، رددت عليه بابتسامة وأخبرته عن برنامج «Tor»، وأنه يمكنني أن أكون في النرويج أو أيسلندا أو سويسرا الآن، لم يقتنع وضحك قائلًا إنه يشك فيما أقول فقمت بتشغيل «Tor» ودخلت صفحته من جديد فخرج له «IP Address» من أمريكا الجنوبية، ومرة أخرى، فخرج له أنني أتصل من اليابان، وهنا أبدى بعض الاقتناع مع الريبة والشك،

آخر ما كنت أريده أن يعرف شخص لا أعرفه وأثق فيه أي معلومة أو تفصيلة عن حياتي الشخصية، ولكن الحمد لله أن التجربة مرت بسلام.

حشدنا بشكل كبير لليوم، ودَعَوْنا لثورة الصمت في مختلف المحافظات، وهكذا فعَلَت بعض الحركات السياسية الأخرى وصفحات الفيسبوك مثل صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد». الحضور في الشارع لم يكن كالمتوقع، ولم تجتذب الوقفة الأعداد نفسها التي جاءت في الوقفات السابقة، ولكن حدثت واقعة لم تحدث من قبل؛ وهي أن بعض نشطاء الحركة السياسية في الإسكندرية قرروا تنظيم مسيرة إلى بيت خالد سعيد للهتاف تحت بيت والدته بأن حقه لن يضيع، وأننا جميعًا معه. لم أكن أحبذ فكرة المسيرة لما فيها من أخطار على مَن يشارك فيها؛ كنت أشعر بالمسئولية عن كل مَن يشارك في الوقفة، فهم إخواني وأخواتي الذين لا أحب أن يتعرضوا لأي مخاطرة، بينما كان عبد الرحمن منصور أكثر جرأة مني ويرى أنه من المهم أن يشعر هؤلاء بملكيتهم لمشروع التغيير الذي يجب على الجميع دفع ثمن له.

تحركت المسيرة ووصلت إلى بيت خالد، وامتلأ شارعه الضيق في الإسكندرية بالمتظاهرين، وبدءوا في الهتاف لوالدته، بدأت الهتافات بـ«كلنا خالد سعيد» وقسم بأن حقه لن يضيع، ثم تحولت للهجوم على وزير الداخلية قائلين: «لو كان خالد ابن وزير كانت راس العادلي تطير»، نبرة الهتاف زادت بشكل سريع حتى كان الهتاف الذي كان دائمًا ما يهتف به النشطاء السياسيون في أي مظاهرة ضد النظام: «يسقط يسقط حسني مبارك». أظهر مقطع الفيديو الذي التقطَتْه عدساتُ أعضاء الصفحة أن هذا الهتاف كان أعلى هتاف مقارنة بغيره، فالجميع كان يعرف أن مبارك ونظامه هم المشكلة، فجهاز الداخلية توحش في عصره للحفاظ على مصلحة النظام وليس أمن الشعب. شعرت ببعض الغضب من النشطاء السياسيين لأن فكرة وقفة الصمت تحولت إلى مسيرة، ثم تم تسييسها بهتاف سقوط حسني مبارك. سر غضبي لم يكن حبي لمبارك بقدر ما هو خوفي من خسارة الأغلبية الصامتة في الصفحة والتي تَعتبر أن الهجوم المباشر على رئيس الجمهورية إما غير لائق أو يُعرضهم للخطر. كنت لا أريد أن أخلق صراعًا بين أعضاء الصفحة بسبب آرائهم المختلفة، وكان يجب على الصفحة أن تفعل ما بوسعها لتحافظ على تركيزها على قضية حقوق الإنسان وتجمع الناس حولها.

حدثت بعض الاشتباكات أثناء المسيرة، وقامت أجهزة الأمن بالتعامل ببعض العنف مع النشطاء والمشاركين في الوقفة لإخافتهم وقمع الوقفة. عاد بعض الشباب منفعلين وغاضبين بشكل كبير من تجربتهم السيئة مع رجال الأمن؛ لذلك كتبت أكثر من رسالة تُبين أن التحرك في مسيرات والهتافات كانت سببًا في ذلك، وأن الأفضل هو السيطرة وضبط النفس حتى تمر الوقفات بسلام وتستطيع استقطاب أعداد أكبر في المرات القادمة. كتبت أيضًا مقالة في الصفحة عَنْوَنتها: «يسقط يسقط حسني مبارك». حاولت أن أشرح فيها أن الهتاف ضد حسني مبارك ليس من الحكمة الآن، وأوضحت لهم أن قضية خالد قضية حقوقية بمعناها الواسع وليست سياسية في الوضع الحالي، وأن تحويلها لقضية سياسية قد يجعلنا نخسر تعاطف الشارع والذي سيظن أننا نستغلها لمصالح خاصة، ولكنني تعرضت لهجوم شديد من بعض أعضاء الصفحة يتهمونني بقصور رؤيتي السياسية؛ لأن سبب كل المشاكل هو تردي أوضاعنا السياسية.

كتب أحد نشطاء الإسكندرية؛ واسمه محمد عبد السلام من حركة شباب من أجل الحرية والعدالة، ردًّا ينتقدني فيه ويبين أن الحكم للشارع وليس خلف شاشات الكمبيوتر، وأن مَن بدأ الهتاف ضد مبارك هم من غير المسيّسين، وأن عليّ أن أترك للشارع كلمته. نشرت ما قاله رغم انتقاده المباشر لرأيي لأتيح له الفرصة ليقنع غيره. كان هناك نسبة ملحوظة من أعضاء الصفحة يشاركه الرأي، ولكنني لم أكن مقتنعًا بفكرة المواجهة بأي حال. كنت أؤمن أن الضغط على وزارة الداخلية سيحقق مكاسب مقارنة بحجم المخاطَرة، أما مواجهة النظام فالمكاسب فيها غير متناسبة مع المخاطَرة. لم أعلم وقتها هل ما أقوله هو الصواب، ولكنه على الأقل كان يجعلني أشعر براحة الضمير لأنني لا أريد تعريض مَن أقنعهم بالنزول للشارع للخطر الأمني.

تعرض بعض المشاركين في وقفة القاهرة لمضايقات؛ حيث قام مأمور مباحث ومعه مجموعة من البلطجية التابعين له بمحاولة لفض الوقفة على كورنيش النيل بجوار منطقة ماسبيرو، وصورت إحدى المشاركات مشهد قيام البلطجية بقطع بعض أفرع الشجر لاستخدامها كعصي لإرهاب المشاركين وضربهم في حالة عدم انصياعهم للأوامر.

حينما رآها أحد هؤلاء البلطجية توجه لها بشكل سريع وضرب هاتفها المحمول بشكل قوي فسقط على الأرض واختفت الصورة، ولم نسمع سوى صراخها وزعيقها له.

بدأت أشعر بخطر الوقفات، وأنها على الرغم من سِلميتها إلا أن المشاركين فيها بدءوا يشعرون بجاهزيتهم للمواجهة؛ يريدون التظاهر والهتاف وليس الصمت. كانت فكرة الوقفة الصامتة تفقد رونقها بعد كل وقفة.

حاولت تهدئة روع المشاركين في الوقفة، وكذلك أيضًا روع مَن يشاهد ويتابع الصفحة ويرفض المشاركة أو يخاف منها. كتبت مقالة أحاول أن أشرح لهم فيها لماذا يقوم الضباط والعساكر بضرب المتظاهرين.

هما بيضربونا ليه؟

مهم جدًّا نحط نفسنا مكان الآخر ونفكر بنفس طريقتهم ونشوف هما وصلوا ازاي للي بيعملوه ده.. وعشان نقدر نفكر ازاي تكون ردود أفعالنا وازاي نقدر نؤثر في طريقتهم في اتخاذ قراراتهم.

خلينا نتكلم الأول عن اللي بيؤمر بالضرب مش اللي بينفذ:

أولًا دايمًا عشان تحارب أي فكرة لازم يكون قصادها فكرة مضادة.. الطريقة السريعة لمحاربة أي فكرة في وجهة نظر أي حاكم بيقمع شعبه هو إنك تخوف الشعب عشان مايفكرش.. لأن دي طريقة مش هتكلفه في إنه كل شوية يتحاسب على تصرفاته. الضرب بيختصر السكة.. لأن الشعب اللي خايف مش هيتكلم ولا هيعترض. عارفين زي إيه؟ زي واحد بيتناقش مع حد قريبه كبير في قضية وقريبه معترض على الفكرة يقوم مزعّق فجأة ويؤمره إنه يسكت خالص! الهدف مش بيكون إن اللي نزل المظاهرة أو الوقفة يخاف ومايحضرش مظاهرة أو وقفة تاني لأن المسئول ده عارف كويس إن اللي انضرب مرة خلاص زالت عنده الرهبة وغالبًا مش هتفرق معاه وهينزل تاني.. الهدف إنه يخوّف الناس اللي مش بتشارك في الحياة السياسية إنهم يشاركوا. هو بيطبق نظرية: اضرب المربوط يخاف السايب. هما دايمًا خايفين من تأثير كرة الثلج.. النهاردة ١٠ بكرة ١٠٠ بعده ١٠٠٠ وبعد كده ١٠ آلاف لحد ما نوصل لمليون. ومن أكبر فوائد الضرب إنه بتزود العداوة.. هو عايزك عصبي متعصب شرس مابقتش تقبل أي صوت بيدافع عنهم وبتصفه بالعمالة.. هو عايزك بتشتم بالأب والأم وبتلعن في الحكومة.. ليه؟ لأن استفزازه ليك وتلبيتك للاستفزاز ده يقدر هو يستغله إعلاميًّا ويطلعك على إنك مشبوه متطرف الفكر.. عشان الناس العادية اللي مالهاش في السياسة تبعد عنك.

هما شايفين وعندهم قناعة راسخة إن أغلب الشباب اللي بينزل في الشارع وبيعترض على حال البلد هو شباب يهدف لبث الفوضى في البلد (دي قناعة فعلية عند ضابط الشرطة سواء اللواء أو المقدم)، وإن اللي بيحركهم مجموعة من العملاء النصابين اللي عاملين نفسهم وطنيين ومخلصين. وأغلبهم أصلا ده بالنسبة له شيء من المسلّمات زي إن حرب أكتوبر كانت سنة ١٩٧٣. وبعضهم يرفض أي نقاش في اتجاه التشكيك في الرأي ده.

ولو سألته طيب هو مفيش فساد في البلد؟ هيرد عليك فعلًا فيه فساد كتير بس لازم ندافع عن النظام القائم على عيوبه لأن الفوضى ممكن تعمل فساد أكتر والبلد تروح من إيدينا. فيبقى لازم مانديش فرصة للناس دي إنها تعبر عن رأيها.

المسئول في الداخلية مقتنع إن أغلب اللي بينزل الوقفات دي مموّل من أمريكا لأن الأمريكان عايزين دايمًا يبقى في إيديهم ورقة ضغط يستخدموها كل لما الحكومة المصرية تفكر ترفض أي طلب منهم. وللأسف قناعتهم زادت في موضوع خالد سعيد بسبب تدخل وزيرة الخارجية الأمريكية ووصول النائب العام الأمريكي لمصر وأعضاء الكونجرس اللي طلبوا الضغط على مصر عشان إلغاء قانون الطوارئ.

أسلوبهم في التفكير هو أسلوب الإقصاء.. اللي على فكرة كتير من المصريين بيمارسوه في حياتهم اليومية.. أنت لو مش معايا تبقى ضدي.. أحيانًا نفس الأسلوب ده بعضنا بيشوفه في بيته.. والدك أو والدتك بيمارسه عليك.. سياسة الأستاذ في الجامعة لما طالب يجادل معاه ويطالب بحقه فيطلب منه الكارنيه عشان ياخد بياناته ويستقصده. منهج الإقصاء ده موجود حتى في الحركات السياسية سواء كانت حزب وطني أو حتى معارضة. الفرق بين إقصاء النظام وإقصاء الأفراد إن كل واحد بيستخدم أدواته.. وهما أدواتهم من ضمنها الداخلية. هو دايمًا هيبرر الإقصاء ده بإنه خايف على مصلحة البلد.. مع إنه لو شاف العالم كله عرف إن مصلحة أي بلد هو الاستيعاب لكل الأفكار وإتاحة الحريات.. ده لو بنتكلم على البلد بصفة عامة مش على نظام أو شخصيات بعينها.

أكبر مشكلة إن اللي قدامك يقول: «أنا عارف مصلحتك أكتر منك.. عشان أنا عندي خبرة أكتر منك».. ويختزل صوتك ورأيك ويحرمك من المشاركة والتفكير وإنك تغلط وتتعلم.. وده واحد من الأسباب الرئيسية لتأخرنا وتخلفنا كبلد.

تعالوا نتكلم عن اللي بيضرب في المظاهرة نفسها:

اللي بيضرب أو بيؤمر الناس بالضرب وسط المظاهرة فيه منه كذا نوع:

- نوع محترم أو على الأقل اتربى في بيت حاول يخليه ابن ناس: فده في البداية بيكون مش عايز يضرب وضميره بيؤنبه.. ومع الضغط ولما بيشوف كل الضباط بيضربوا بيبدأ هو كمان يضرب.. وبعد شوية الشعور بالذنب بيتلاشى وبيتحول الضرب لروتين. أديكم مثال بسيط

أوي: مش بنشوف أغلب الدكاترة بيتعاملوا مع المرضى بكل هدوء وهما بيصرخوا من الألم.. مع إننا كأشخاص عاديين بنبقى خلاص على أعصابنا.. ده بيبقى نتيجة إن الدكتور خلاص اتعود وشاف المنظر ده بشكل يومي. طبعًا الروتين ده بيبقى مدعوم بعملية غسيل الدماغ اللي بتحصل للضابط إن اللي في المظاهرة دول شوية ناس هتضر البلد (نفس اللي بيدور في ذهن المسئول).

- فيه نوع تاني وهو النوع اللي عنده عقدة نقص: دول بيكون تعليمهم وثقافتهم بسيطة جدًا.. ولما بيلبس بدلة الضابط بيبدأ يحس بقوة.. زي كده اللي بيشتري عربية جديدة ويحب ينزل الشارع يمشي بيها في منطقته عشان الناس كلها تشوفه. النوع ده عقدة النقص بتتسبب في إن الضرب عنده بيكون هدف مش وسيلة.. هو عايز يضرب أي حد خاصة اللي شكله ابن ناس.. لأن ده بيخاطب عقدته بشكل مباشر.. وده نوع خطر جدًا لأنه للأسف منتشر وبشكل كبير في المجتمع خاصة إن اللي بيضرب أغلبهم مخبرين وعساكر أمن مركزي.
- فيه نوع تالت وهو النوع السادي ودول فعلًا أقلية (أو كذلك أتمنى) ده شخص بيستلذ لما يشوف شخص تاني بيتعذب وبينضرب.. بيحققله نشوة.. وده مش عشان عقدة النقص على فكرة.. ممكن يكون حتى ابن ناس ومتربي في بيت كويس.. ده عشان هو كشخص من زمان بيستمتع بالمنظر ده. عارفين دول أحب أشبههم باللي كان معانا في المدرسة اللي كل شوية يضرب واحد وخلاص.. وأكيد كل واحد مننا كان معاه في الفصل بتاعه النموذج ده.
- فيه نوع رابع وده عساكر الأمن المركزي: شاب أجبر على التجنيد لأنه مش لاقي ياكل.. بينضرب في المعسكر بتاعه ليل نهار وبيتعامل أبشع معاملة.. وعارف إنه حتى لو اللي بيضربه ده أخوه لازم ينفذ الأمر.. لأنه زي ما احنا بنخاف هو كمان بيخاف من تكسير الأوامر.

إيه فايدة الكلام ده كله؟

لازم نعرف الناس دي بتفكر ازاي عشان نقدر ناخد حقوقنا.. ولازم نشيل من دماغنا نظريات الخير المطلق والشر المطلق. كل واحد فينا فيه عيوب وبعضنا أصلًا فيه عيوب زي اللي موجودة في الحكومة وأكتر كمان بس الفكرة إنهم معاهم سلطة واحنا مش معانا.

لازم نشوف ازاي نقدر في نفس الوقت نتعامل مع نظريتهم إن الإيجابيين اللي في مصر هما شر مطلق خونة وعملاء.

إحنا لازم نغير أدواتنا ونتوعها.. لأن استخدامنا لأداة واحدة وهي أداة التظاهر (وهي طبعًا وسيلة فعالة وعالمية في التعبير عن الرأي) على إنها الوسيلة الأفضل هو قصور ومش هيخلينا نقدر نوصل للتغيير اللي عايزينه. لازم يكون عندنا وسائل تانية ومتنوعة لتصحيح الخلل.

أحب أسمع آراءكم كلها.

1,111 Likes / 272 Comments

ألهمني غاندي وغيره من المُنادين بالمقاومة السِّلْمية، وكنت حريصا على أن أؤكد دائما على الصفحة أن أنشطتنا يجب أن تظل سِلمية رغم كل شيء. غاندي هو أحد المؤثرين في تشكيل فلسفة المقاومة لديَّ؛ فلقد استمتعت بقراءة الكثير من الكتب عنه وعن فلسفته وحرصه على مبدأ اللاعنف في نضاله السياسي.

كثيرًا ما استَخْدمت اقتباسات من أقوال غاندي في صفحة «كلنا خالد سعيد». وطلبت أكثر من مرة من الأعضاء أن يشاهدوا الفيلم الأجنبي الذي يحكي قصة كفاح غاندي والذي أُنتج عام ١٩٨٢. كان أكثر المَشاهد إلهامًا بالنسبة لي عندما كان غاندي يتكلم مع الهنود في جنوب إفريقيا حول الخطوة التالية في كفاحهم من أجل حقوق الإنسان. طلب غاندي منهم أن يُضربوا ضد قوانين تمييزية وعنصرية قاسية تم فرضها حديثًا عليهم، فرد عليه بعض الناس بحماس أنهم مستعدون للموت من أجل القضية. وكان رد غاندي: «إذن، أنا أيضًا مستعد للموت، ولكن يا أصدقائي ليس هناك قضية أنا مستعد لأن أُقتَل من أجلها. مهما فعلوا بنا فنحن لن نهاجم أحدًا، أو نقتُل أحدًا، ولكننا لن نعطيهم ما يريدون. سيسجنوننا، وسيفرضون علينا الغرامات، ويستولون على ممتلكاتنا، ولكنهم لن يستطيعوا أبدًا أن يُجردونا من احترامنا لأنفسنا إذا لم نسمح لهم بذلك». وهنا صاح أحد الحضور سائلًا غاندي: «هل سبق وسُجنت؟ إنهم يضربوننا هناك ويعذبوننا!»، ولكن غاندي قاطعه قائلًا: «أنا أطلب منكم أن تحاربوا، تحاربوا ضد غضبهم، ولا تستفزوا هذا الغضب. نحن لن نضربهم ضربة واحدة، ولكننا سنتلقى الضربات. ومن خلال ألمنا سنجعلهم يَرَون ظلمهم. سيؤلمنا هذا؛ كما هو الحال في كل الحروب والصراعات، ولكننا لا يمكن أن نخسر. لا يمكن أن نخسر أبدًا. قد يعذبون جسدي، ويكسرون عظامي، وقد يقتلونني حتى. حينها سيحصلون على جثتي، ولكنهم لن يحصلوا على انصياعي لهم أبدًا!».

تَرجمت المشهد بالكامل ونشرته على الصفحة. كان انتصار غاندي في وجه الإمبراطورية البريطانية مُلهِمًا لي ومؤكدًا أنه يمكن خوض الصراعات الكبيرة وحسمها دون اللجوء للعنف.

لم يكن الاعتماد على الأسلوب السلميّ غير الصداميّ هو الموضوع الوحيد الذي

كنا نؤكد عليه باستمرار على صفحة «كلنا خالد سعيد» هو ما يميز الصفحة فقط، بل اعتمادنا على الديمقراطية في اتخاذ معظم القرارات، خاصة القرارات المتعلقة بالأنشطة على الأرض ساهم بشكل كبير في نجاحها. لقد كنت دومًا من أشد المؤمنين بإشراك وتمكين الأعضاء في شئون الصفحة؛ لأنني أعرف أن هذا سيزيد من ثقتهم وأيضًا رغبتهم في الدفاع عن القضية. كانت المشاركة والتفاعل هما المبدأين الأساسيين للصفحة، وكان ذلك بالتأكيد أهم للصفحة من انخراطها في النشاط السياسي.

في ٢٥ من يولية، نَشرت استطلاعًا لأعرف انطباعات الأعضاء عن الصفحة وطريقة إدارتها. تم نشر الاستطلاع عدة مرات وفي خلال ٥ أيام أجاب عليه أكثر من ٤٠٠٠ عضو. وكما توقعت، كان أكثر من ٨١٪ من المشاركين في الاستطلاع دون الثلاثين عامًا، وأكثر من نصفهم كانت تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٤ عامًا.

نتائج الاستطلاع الأساسية أظهرت أن الأعضاء موافقون على استراتيجية الصفحة. ٧٢٪ من الذين شاركوا في الاستطلاع قالوا إنهم معجبون بالصفحة ويحترمونها للغاية، بينما قال ٧٥٪ إنهم يشعرون كما لو كانوا يمتلكون الصفحة، وإن القضايا التي يتم الترويج لها على الصفحة هي قضاياهم الشخصية. و١٤٪ قالوا إن مدير الصفحة أو «الأدمن» دكتاتور ويفرض وجهة نظره على الأعضاء، و٧٪ قالوا إن الأدمن كثيرًا ما يُناقض نفسه. كانت نتائج الاستطلاع تأكيدًا قويًّا على أننا نسير في الطريق الصحيح.

بعد خمسة أيام من وقفة ٢٣ من يولية، كان موعدنا مع أولى جلسات محاكمة المتهمين في قضية خالد سعيد. لم تكن التهمة الموجهة لأمينَي الشرطة هي القتل، ولكن استخدام العنف غير المبرَّر. أشارت تحقيقات النيابة إلى أن الوفاة حدثت بسبب إسفكسيا الخنق بعد ابتلاع لفافة من البانجو؛ كما جاء في تقرير الطب الشرعي. قرر بعض النشطاء عمل وقفة رمزية أمام المحكمة قبل جلسة يوم ٢٨ من يولية، واستجبنا لهذه الدعوة على الصفحة ونشرناها حتى يشارك من يستطيع في الوقفة.

في يوم ٢٨ من يولية، وصل النشطاء إلى ساحة المحكمة ليفاجأوا بمجموعات بدا واضحًا أنه تم حشدهم للحضور بشكل جماعي من قِبل وزارة الداخلية. كان أغلبهم يحملون لافتات كتبها نفس الخطاط، تحمل معاني متشابهة بأن «الشرطة في خدمة

الشعب»، وأن «خالد شهيد البانجو»، و«لا للعملاء.. أفيقوا يا شعب»، محاولين بذلك الإشارة إلى أن خالد وأهله من العملاء لجهات خارج مصر، وكأن ذلك مبرر لقتلهم. ازداد عدد النشطاء بشكل كبير، وحدثت بعض المشاحنات الكلامية، وبدأت الجلسة داخل المحكمة في ظل هذا الجو المشحون.

كانت أولى الجلسات إجرائية بحتة، طلب فيها كل طرف استدعاء شهود النفي والإثبات وكذلك النظر في التقارير. رفضت أسرة خالد تقرير الطب الشرعي لما به من ثغرات، وطالبت النيابة توجيه تهمة استخدام العنف والقبض بدون إذن نيابة لأمينَيِ الشرطة. قرر القاضي تأجيل القضية إلى سبتمبر لاستدعاء الشهود والنظر في مستندات القضية. شعر الجميع بخيبة أمل؛ خاصة مع عدم فهم أغلبية أعضاء الصفحة بما فيهم أنا وعبد الرحمن لإجراءات القضاء، ولكننا حاولنا تقوية عزيمة الجميع بأنه على الأقل يجري الآن محاسبة المخطئين في القضية بعد أن كادت تموت بدفن خالد وتنتهي دون أي حساب، وإن هذا في حد ذاته إنجاز.

استمر تأجيل جلسات المحاكمة المرة تلو الأخرى؛ فإجراءات القضاء المصري روتينية وبطيئة جدًّا، وكل مرة يكون التأجيل بسبب الإجراءات، ولكن مع كل تأجيل تتأجل القضية لشهر، فمن سبتمبر لأكتوبر لنوفمبر ثم ديسمبر. بدأ الجميع يفقدون الإحساس بإمكانية تحقيق العدالة، وكانت ردود الأفعال كل مرة من أعضاء الصفحة أن ما يحدث هو تأجيل القضية حتى يتم نسيانها.

في هذا الوقت نفسه، قامت منظمة العفو الدولية ـ بالتنسيق مع أسرة الشهيد ـ بإعداد تقرير استشاري أعدّه بعض كبار أطباء الطب الشرعي الأجانب قرروا فيه وجود خلل في الإجراءات التي اتبعها أطباء الطب الشرعي المصريين في قضية خالد، وبوجود أخطاء مهنية قاتلة تجعل من البديهي الشك في تقريرهم بشكل كامل. وطالبت المنظمة، التي كان بعض موظفيها من المصريين الذين يتابعون بشكل دقيق ما يحدث، أن يتم تحقيق العدالة في قضية خالد.

لم تعد ثلاث الساعات اليومية التي أُكرسها للصفحة كافية بالنسبة لي، فالصفحة تحولت لإعصار يلتهم معظم وقتي. أصبحتُ أقل تركيزًا في العمل، لم أعد أناقش

وأجادل وأحاول تحسين كل وضع أراه كما كنت في السابق، أصبحت أعمل بالقدر الذي لا يُظهرني مقصرًا، إلا أن مقارنة أدائي الحالي بأدائي السابق كان يُظهر أن طاقتي قلَّت لأكثر من النصف. ولحسن الحظ، فإن الإدارة في «جوجل» لم تنزعج من انخفاض أدائي؛ بل ظنوا أني بدأت أوازن بين بيتي وعملي، ولكن الحقيقة أنني كنت قد أخذت كل وقت ممكن من عائلتي حتى اضطررت أن آخذ من عملي.

زوجتي كانت قد تعودت أن العطلة الأسبوعية هي الفرصة الوحيدة للتواصل الحقيقي معي، إلا أن الوقفات الصامتة كانت دائمًا يوم الجمعة، وبالتالي كان مجهودي على الصفحة يتضاعف قبلها بيومين حتى أني لا أنام في كثير من الأحيان لمدة يوم أو اثنين مما يضطرني للنوم يوم السبت للراحة. اشتكت زوجتي كثيرًا من تركيزي الشديد في الصفحة والعمل السياسي في مصر وإهمالي لحياتي الأسرية على نحو غير معهود من قبل، وكانت مُحقة عندما اتهمتني أن عائلتي تأتي متأخرة على قائمة أولوياتي. وعدتها بأن أقلل من ساعات العمل بالصفحة، وكنت أطلب من عبد الرحمن منصور أن يكون أكثر حضورًا وأن يتابع الصفحة بشكل أكبر، ولكن كان له هو الآخر ظروفه الخاصة والتي جعلته يضحي بنفس القدر في إيثار الصفحة على كثير من أموره الشخصية.

أتذكر أنني كنت قد وعدت زوجتي باصطحابها والأولاد إلى السينما يوم السبت التالي لإحدى الوقفات الصامتة التي كنا ننظمها. كانت زوجتي وأبنائي يشاهدون الفيلم بينما كنت أنا أكتب وأقرأ ما يُكتب على الصفحة عبر جهاز الهاتف المحمول الخاص بي. خرجنا من السينما وزوجتي منزعجة، وعندما سألتها عن السبب أخبَرَتني أنها لاحظت أنني لم أشاهد تقريبًا أيَّ مشهد من الفيلم، وأنني كنت حاضرًا غائبًا كعادتي كلما خرجت مع العائلة.

كنت أحاول تبرير ما أقوم به بأنني أساهم في تغيير بلادي. لم تكن هي مقتنعة، والحقيقة أنني لم أكن أيضًا مقتنعًا بأي مبررات تجعل أسرتي لا تراني. لكنني كنت أقوم بواجبي تجاه وطني من محاولات لإيقاظ وشحذ الهمم، واستخدام كل ما لديَّ من خبرة في ذلك.

أداء صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» بدا أكثر حدة من أي وقت، وتجاوز عدد

أعضاء صفحتهم عدد أعضاء صفحة «كلنا خالد سعيد» بستين ألف عضو. كان أسلوبهم الحاد يتسبب في هجوم بعض أعضاء الصفحة علينا؛ لأن بعض أعضائنا لا يفرقون بين أداء الصفحتين. قبل إحدى الوقفات التي قمنا بالإعلان عنها قرروا الدعوة لتغيير فكرة «الصمت» والبحث عن بدائل أخرى دون التنسيق معنا، وهنا قررت مراسلتهم للتشاور. أتذكر جيدًا آنذاك كيف كان من السهل معرفة أسمائهم؛ فبالرغم من عدم نشر أسمائهم في الصفحة إلا أنه ومع أول مراسلة وصلت عبر فتاة مشرفة على الصفحة اسمها هدير إلى محمود سامي أحد القائمين عليها.

بحثت عن محمود على الفيسبوك باستخدام البريد الإلكتروني الخاص به لأكتشف أنه شاب يدرس في جامعة عين شمس من نشطاء ٦ إبريل. أرسلت له رسالة واتفقنا على أن نتحدث عبر المحادثة الصوتية في بريد الـ«جي ميل». التقينا على برنامج الحوار، ولكنني كنت قد أرسلت له رسالة فيها شرط لحوارنا، وهي أنه لن يسألني أي أسئلة شخصية مهما كانت، وألا يحاول الوصول إلى هويتي. السرية كانت ضرورية جدًّا خاصة وأنهم يُشرفون على صفحة أخرى كبيرة، وقد يتوصل إليهم أمن الدولة في وقت ما، ولا أريد أن يلاحق الأمن كلينا. وافق محمود على شرطي.

بدأ حوارنا بسؤال مني: هل يمكنك أن تخبرني عن بعض إحصاءات صفحتكم؟ وافق محمود بشكل سريع ودون الحاجة للإقناع، وأرسل لي المعلومات، وهنا عقدت بينها وبين إحصاءات صفحة «كلنا خالد سعيد» مقارنة سريعة. بالرغم من أن عدد أعضاء صفحة كلنا خالد سعيد أقل بنسبة ٣٠٪ من أعضاء صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» إلا أن مشاركات أعضاء صفحتنا تصل أحيانًا إلى ضعف مشاركات وتعليقات أعضاء صفحتهم. سألته: هل تعرف السبب؟ فأجابني بأنه لا يعرف، ولكنه لاحظ أن الأعضاء يحبون صفحة «كلنا خالد سعيد» ويستجيبون لما تقوله بشكل ملحوظ. سعدت جدًّا لملاحظته، وكان ذلك بداية رائعة لما أردت أن أتحدث معه فيه.

بدأت أوضح له الفارق بين النشطاء والشباب العادي غير المُسيس، المشكلة من وجهة نظري أن الكثير من النشطاء يتحدثون بلغة ثائرة لا يفهمها مَن لم يمر بتجاربهم؛ ولذا تحدث فجوة بين الناشط وجماهيره، وتصبح قدرته على الاستقطاب والتأثير محدودة

بشريحة معينة من هؤلاء الجماهير. ذكرت له بضعة أمثلة، فمثلا تعبير «كلاب النظام» الذي استخدموه على صفحتهم لفترة طويلة منذ إنشائها، صحيح أنه يحمل توصيفًا غاضبًا لما حدث لخالد، ولكن حدة اللغة واستخدام تعبير «النظام» يُقصي بكل تأكيد مجموعات من الأعضاء الذين لن يُحبذوا سماع مثل هذه اللغة. بدا محمود مستمعًا منصتًا طَوال المكالمة؛ لأنه شعر أنه يتحدث إلى شخص يحاول نصيحته حتى يستفيد ويفيد غيره.

كانت لغة صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» دائمًا غاضبة وثائرة، كان تعاملهم مع المخالفين أو المُشكّكين في قضية خالد يتسم بقسوة الردود وحدّتها. سألته: هل درست علم التسويق في الجامعة؟ نظرًا لأنه أخبرني أنه طالب بكلية التجارة، ولكنه نفى ذلك. قلت له: لكل شخصية اعتبارية خصائص معينة. صفحة «كلنا خالد سعيد» شخصية اعتبارية، وصفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» شخصية اعتبارية أيضًا. صفحتنا عاطفية، هادئة، محترمة ومهذبة، تريد الحق وتشرك أعضاءها في اتخاذ القرارات، بينما صفحتكم ثائرة، عصبية، حادة، وفي بعض الأحيان غير مهذبة، يظهر منها في أحيان كثيرة انفراد بالرأي. لم يبد أنه اختلف معي في تحليلي واتفق مع وصفي للصفحتين.

تحدثنا أيضًا عن أهمية استخدام اللغة العامية والبعد عن استخدام الألفاظ النخبوية، والتركيز على نشر الوعي بشكل احترافي. أخبرته عن حملة التصوير مع ورقة مكتوب عليها «كلنا خالد سعيد» وأثر ذلك على الصفحة وصورتها أمام أعضائها. تحدثنا عن أهمية الاعتذار وقت الخطأ، وكذلك المصداقية والموضوعية أثناء الطرح، وشُكْر ضباط الشرطة إذا قاموا بأي عمل يُحسب لهم.

استمر حواري مع محمود لأكثر من ساعة، وأعتقد أنني قمت بتقديم وجبة دسمة له فيها كل ما تعلمته أثناء إدارتي للصفحة، وشعر محمود بأنه يتحدث مع شخص محترف ويعرف جيدًا ماذا يفعل، وشكرني في نهاية الرسالة مازحًا: «شكرا يا أبانا الذي على الإنترنت». ضحكت بشدة من طرافة التعبير وقلت له إنني سعيد بمحادثته، وفي النهاية إذا نجح في تغيير كل ما أخبرته به في صفحتهم فسأكون من السعداء؛ لأن هدفي هو تغيير مصر وليس انتصار صفحة على أخرى.

حدث بعض التغيير في أسلوب صفحتهم بعد لقائي مع محمود، إلا أن هذا التغيير لم

يكن كاملًا، محمود كان مديرًا مع ثلاثة مديرين آخرين في الصفحة لم يقنع منهم سوى شخص واحد فقط بكل هذه الأفكار، فأصبح واضحًا للجميع أن الصفحة يديرها أكثر من عقلية مختلفة في الأسلوب وطريقة الطرح. كنت أتواصل مع محمود وألومه كلما رأيت ما لا يعجبني في الصفحة. تذبذُب أداء الصفحة جعل محمود يفكر في ترك الإشراف عليها، ولكن ما كان يمنعه من ذلك هو أنه يساهم ولو بشكل بسيط في خدمة القضية.

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فقد قررت إدارة الفيسبوك وبدون إنذار مسبق في ٨ من سبتمبر ٢٠١٠ أن تمنع مديري صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» من تحديثها. راسلوهم فأخبرَتهم الإدارة أنهم قد خالفوا بعض قواعد وحقوق النشر، وأنه لا يمكن عودة الصفحة مرة أخرى للتحديث؛ وبذلك فقدَ الشباب صفحتهم، وأصبحت «كلنا خالد سعيد» هي المصدر الأول لمتابعة قضية خالد وباقي قضايا حقوق الإنسان فزادت المسئولية على الصفحة.

لم تقتصر الصفحة على قضية خالد فقط، كنا نطرح دائمًا كل ما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان؛ فالصفحة دعمت قضية محمد صلاح؛ وهو شابٌّ من المنصورة قام أُمناء الشرطة بضربه ضربًا مبرحًا مما تسبب في حدوث كسور في جسده، دخل محمد المستشفى وبدأت الضغوط تمارَس على والدته البسيطة حتى تتنازل، تدخل مركز النديم وحاول مساعدة الأم ودعمها وقمنا بعمل تغطية شاملة على الصفحة، احتوت على ما يزيد على ٢٠٠ ألف عضو آنذاك للضغط، راسلت وقتها بثينة كامل والتي كانت تشارك في وقفات خالد رحمة الله عليه، وطلبت منها دعم محمد صلاح، فسافرتْ إلى المنصورة وزارتْ والدته، وجاءت بانطباع أن الأسرة فقيرة وبسيطة وكل ما يريدون هو علاج ابنهم، ويبدو أنهم سيتنازلون عن القضية، ولم يلبث الأمر سوى بضعة أيام لنقرأ خبر تنازل محمد صلاح عن القضية. أصاب الخبر أعضاء الصفحة بالإحباط، وألقوا باللوم عليها في عدم متابعة القضية ودعم محمد بشكل أوضح.

عرضنا أيضًا قضية محمد سعد ترك؛ وهو شاب اختفى منذ أكثر من سنة، ويعتقد والده أنه قد تم اعتقاله من قِبَل أمن الدولة، محمد كان طالبًا هادئًا اختفى في الشارع قبل يوم واحد من زيارة كانت مخططة للرئيس المخلوع لمحافظته. بعد أيام تلقى والده

اتصالًا من أجهزة الشرطة تسأله عن أنواع الأدوية التي يتناولها محمد، واطمأن والده وقتها أنه بحوزتهم، ولكن حينما ذهب لهم أنكر الجميع وجوده. بدأنا في نشر القضية بشكل إعلامي، وبدأت بالفعل الصحف وقنوات الإعلام نهتم بعرضها، وحاولت الوصول لوالد محمد عبر أحد نشطاء الصفحة هاتفيًّا للتصوير معه وعَرْض قضيته، إلا أن والد محمد خاف من الخروج في وسائل الإعلام لأنه وزوجته من الموظفين الحكوميين ولا يستطيع تحمُّل تبعات ذلك. قامت منظمة العفو الدولية بالبحث في القضية وقررتْ كتابة مراسلات إلى الحكومة وبيان صحفيّ تطالب فيه بالكشف عن مصير محمد سعد ترك، وقامت بثينة كامل بالتواصل بشكل مباشر مع أحد قيادات الدولة ولم نحصل على أي إجابة.

كنت كثيرًا ما أتحدث مع عبد الرحمن عن المشكلة التي نواجهها في الصفحة، فنحن نصيب الآخرين بالإحباط، كثرة القضايا الخاصة بالقتل والتعذيب والاختطاف والظلم التي نعرضها على الصفحة بشكل مستمر تجعل الروح في الصفحة سلبية، حتى أنني أتذكر جيدًا أكثر من رسالة جاءتني على البريد الإلكتروني أو تعليقات توحي بنفس المعنى، أقوى هذه الرسائل كانت من شخص قال لنا إنه كان يتمنى ألا يشترك في الصفحة، فالجهل بالأشياء أحيانًا نعمة، وإنه لم يكن يتخيل كمّ الفساد والظلم والتعذيب الموجود في مصر، ويشعر بالقصور والعجز أمام فعل أي شيء؛ ولذلك فإنه يندم على متابعته الصفحة التي لم تُصبه إلا بالاكتئاب.

دائمًا ما كنت أقرأ كل التعليقات وأتأثر بها كثيرًا، حتى أنه أحيانًا كنا نحذف ما نكتبه سواء أنا أم عبد الرحمن إذا ما لاحظنا أن نسبة كبيرة من أعضاء الصفحة يرفضونه، أو إذا تسبب بشكل واضح في صراع بين مختلف أعضاء الصفحة لأن هدفنا كان أن تكون صفحتنا جامعة لكل المصريين.

فكرت في أن أبحث عن طرق ووسائل مختلفة لبثّ الأمل في النفوس: البحث عن شخصيات مصرية ناجحة وعرض تاريخ حياتها.. التذكير بعظماء من الساسة المصريين أو ضباط الجيش الذين استطاعوا استعادة الأراضي المصرية التي احتلتها إسرائيل قبل ١٩٧٣، وغيرها من النماذج. كما بدأنا حملة للإيجابية نسأل فيها الجميع أن يتبادلوا

الخبرات في الأعمال الخيرية التي يقومون بها مما يشجع الجميع، بدأنا في نَشْر بعض الأخبار السعيدة أو المتفائلة على الصفحة، لم أكن أريد أن يكون الشعور العام تجاه الصفحة هو الإحباط.. ولكن الأمل.

في سبتمبر ٢٠١٠ وصلت الصفحة إلى ربع مليون عضو في أقل من ثلاثة أشهر برغم عدم استخدامنا لأي دعاية؛ فنشاط الصفحة وما تنشره كان خير دعاية لها. الكثير من الشباب كان يبحث عن نموذج للتغيير غير مرتبط بالأشخاص، وعن الحق والعدل في قضية ارتبطوا بها عاطفيًّا، احتفلنا بالوصول لهذا الإنجاز، وكتبتُ مقالة عن الاختلاف بين أعضاء الصفحة محاولًا لَمِّ الشمل وتقليل أي نوع من أنواع الخلاف والتحزب في «كلنا خالد سعيد».

تحولتِ الصفحة إلى منبر إعلامي يضاهي في قوته الجرائد ووسائل الإعلام الرسمية من حيث الأعداد، ولكن أغلب مَن يقرأ الصفحة هم من جيل الشباب، ولا يتعامل معها كثيرًا جيلُ الكبار والذي يُؤثّر في الأحداث السياسية في البلاد. كانت هذه الفجوة أمرًا مفيدًا بعد الإعلان عن فكرة النزول للشارع في ٢٥ من يناير؛ لأن الجميع لم يكن يتوقع هذا الإقبال. كما ميّز الصفحة الاختلاف بين الأعضاء فيها.

الحمد لله.. بقينا ربع مليون مشترك أغلبهم بيشوف التحديثات اللي على الصفحة بشكل يومي وبصفة دورية يعني إحنا باختصار بنوصل لقراء بيزيد عددهم على قراء كل الجرائد غير الحكومية مجموعين على بعض.. وده في حد ذاته تحدي كبير جدًّا.

-ربع مليون مشترك مش بس بيقروا الأخبار لكن بعضهم بيشارك في صنعها وبينزل أخبارهم مش بس في الجرائد المحلية لا والعربية والعالمية كمان.. منهم ناس بيصوروا الصورة والفيديو ويكتبوا القصيدة والمقالة ويشاركوا في المظاهرة والوقفة.. ومنهم اللي بيتفرج وبيتابع من بعيد وهو لسان حاله بيقول ربنا معاكوا.. ومنهم اللي داخل عشان يحاول يبوظ الجهود دي عشان مصلحته إن مايبقاش فيه أي حد معاه إعلام حر مش تحت سيطرة أجهزة الدولة.

بصراحة من فترة وأنا عايز أكتب موضوع عن الاختلاف في الصفحة.. وللتوضيح المفروض مانكونش أبدًا ضد الخلاف في وجهات النظر لأن دي حاجة تبسط وبتدل على التنوع.. نختلف زي ما احنا عايزين طالما مش هنشكك في النوايا ومش هنشتم في بعض ومش هنعتبر اللي بيخالفنا شخص مشبوه.

لازم نفهم إن الصفحة دي داخل عليها دلوقتي شاب في شقته في الزمالك وشايل اللاب توب على حجره.. وبنت قاعدة في البيت بتاعها في قرية صغيرة في المنيا.. بيخش عليها واحد بيدرس دكتوراه في أمريكا.. وواحد تاني أهله رفضوا إنه يكمل شهادته الثانوية عشان يشتغل ويكوّن نفسه.. وولد في تالتة إعدادي في المحلة.. يبقى نفهم من كده إن بديهي انطلاقاتنا وآراءنا هتختلف عن بعض بس طول ما هنعرف نحترم بعض يبقى مفيش مشكلة.

خليني أحكيلكم نموذج للي بيحصل في الصفحة والكومنتات والإيميلات اللي بتجيني:

- بعد نشر اقتراح محمد عيسى الخاص بتنظيم فكرة الوقفة الصامتة على الكورنيش:

- هههه وقفة صامتة.. والله أنتم عالم هايفة.. متعملوها فاييريشن أحسن! الثورة هي الحل.
- فكرة حلوة أوي أوي أوي وتسلم إيد اللي اقترحها.. بجد تحححححفة يا أدمن.
- حد يقف عشان واحد حشاش وبالع بانجو؟
- اوعى حد ينزل يا جماعة الأمن هيقبض على الناس كلها.
- بصراحة شايف إن ده خوف وسلبية يعني إيه منقدرش نهتف؟
- يا جماعة أنتم مكبرين الموضوع أوي ده واحد مات زيه زي أي واحد تاني.
- مفيش فايدة.

- بعد نشر قضية خالد سعيد مباشرة وانتشار الصفحة بشكل كبير وتنفيذ أول وقفة صامتة:

- ربنا يبارك فيك بجد لأنك صحيتني وصحيت شباب مصر.. لو مصر كلها زيك كانت البلد اتغيرت.
- أنت شخص غريب ومريب وأهدافك مش معلنة وغالبًا أنت مش مصري وبتلعب بعقول الشباب.
- رسالة بالميل: يا أدمن بابا شغال في أمن الدولة وبيقول إن اللي عمل الصفحة دي هيتسحل أنا خايفة عليك أوي.
- عملتوا وقفة صامتة.. هاه بقه استفدتم إيه؟ مش قلتلكم بتضيعوا وقت؟
- أنا عندي ١٤ سنة وكان نفسي أحضر معاكم بس بابايا رفض وقال لي أنتي بنت وأنا خايف عليكي.

- بعد نشر سلسلة من فضائح الداخلية وقضايا التعذيب اللي بتحصل في البلد:

- أنت عايز إيه يا عم الأدمن أنت؟ أنت بتفضح البلد وبتسيء لسمعة مصر.
- يا جماعة الأدمن ده يهودي والفيسبوك سايبه لأنه عايز البلد تولّع.
- رسالة على الميل: مباحث الاتصالات قربت توصل للآي بي بتاعك وقريب هيحصل فيك زي ما حصل في خالد.
- حسبي الله ونعم الوكيل.

- ربنا معااكو.
- أنت ملقتش غير الداخلية تبهدلها؟ دول أكتر ناس بتتعرض لضغط سبت قضايا الفساد ومسكت في كام ضابط فاسد.
- البلد دي مبقاش يتعاش فيها.. أنا بجد عايز أهاجر وأسيبها.

ـ بعد وضع خبر رجل الشرطة اللي أنقذ بنت من الاغتصاب وشكره:

- إيه يا أدمن هو احنا هنشكرهم على اللي واجبهم اللي المفروض يعملوه؟
- برافو يا أدمن كده احنا بنوريهم إننا متحضرين وكويسين ومش غرضنا نضر بلدنا.
- هههههه أنت شكلك شاب سطحي جدًّا يا أدمن.. الكلام ده كذب ودي حملة عشان الداخلية تحسن من صورتها.
- أنت متناقض يا أدمن.. يعني شوية تشتم الداخلية وشوية تشكرهم؟ مترساللك على بر.
- يا أدمن القصة مش منطقية خالص وأنا قريتها ومش مقتنع بكل الأحداث اللي فيها والتوقيت بتاعها.
- فيه ناس مش بتحب تشوف إلا الوحش.. استمر يا أدمن وسيبك من الناس دي.

ـ بعد كتابة نوت بنقول فيها بلاش أي شتايم بشكل مش لايق في الوقفات وبلاش هتاف يسقط يسقط حسني مبارك لأن ده مش مكانه:

- الأدمن تم تجنيده من الأمن وعندي دلائل بتقول كده.
- يا أدمن أنت بجد راجل محترم وأنا مش عارفة أعبر لك عن إعجابي بفكرك أد إيه.
- يسقط يسقط حسني مبارك.
- إحنا مش بنشتم يا أدمن تعبير يسقط ده يعني مش عايزينه ريس هو أنت عايزه ريس؟
- إنت شاب صغير يا أدمن ويا ريت حد أكبر منك شوية يمسك الصفحة يعني إيه منشتمش مبارك أمال نشتم مين؟
- أيوه فيه ناس بتستغل الوقفات وقضية خالد سعيد عشان تروج للأحزاب والحركات السياسية.
- إيه ده وهو أصلًا عيب إننا نروج للحركات السياسية؟ عايزينا نهتف نقول إيه طيب؟

ـ بعد التركيز في قضايا خالد سعيد قبل محاكمته:

- يا أدمن أنا عايز أسألك سؤال هو إحنا تجمعنا هنا عشان خالد بس؟ لو كده أنا منسحب من الجروب.
- يعني خلاص مبقاش فيه في مصر غير قضية خالد.. اتكلموا عن البلد اللي بتتسرق وبتتورث.. شباب هايف.
- يا أدمن من فضلك ركز في قضية خالد بس وإلا أنا هانسحب من الجروب.

- فين يا أدمن الخبر عن المظاهرة بتاعة امبارح مكتبتش عنها ليه مع إننا طالبنا بحق خالد.. أنا فعلًا مش فاهماك وهانسحب من الجروب.
- أنا شاكك فيك من زمان يا أدمن ودلوقتي بس اتاكدت إنك بتستغل قضية خالد في أهداف تانية.

ـ بعد طرح قضية الكهرباء في الصفحة بسبب قطعها ووضع صور لعواميد نور مضيئة:

- الجروب بقه هايف أوي ومش فاهم إيه القضايا التعبانة دي اللي بيتكلم فيها.
- ربنا يجزيك الخير يا أدمن أنا بقالي ٣ ساعات في الضلمة وكنت خايفة ولسه النور راجع بجد حاجة تقرف.
- الحكومة دي حكومة فاشلة ولازم تتغير.
- بصراحة يا أدمن إنت مش محترم لو ليك أغراض سياسية المفروض تقول عليها من غير لف ولا دوران.
- منوووووورة يا حكومة.
- نسينا قضية خالد وبقينا نتكلم في عواميد الكهرباء.. هما دول المصريين.
- يوزر بيعلق على صورة الشمس فيها في وسط السما: على فكرة الصورة دي وقت المغرب.
- بجد حاجة تسعد إننا كلنا إيد واحدة وبنشتغل مع بعض كلنا خالد سعيد.

في النهاية.. لازم نعامل كل شخص باحترام في الصفحة دي بغض النظر عن رأيه طول ما هو بيعبر عنه بشكل محترم ومش بيسيء لأي حد في الصفحة من مشتركين.. لأننا مختلفين عن بعض في السن والجنس والدين والتعليم والثقافة والمستوى المادي والخبرات الحياتية فبديهي نختلف في الآراء.

كل سنة وأنتم طيبين.. يا ربع مليون مصري.

1,221 Likes

مع الوقت بدأ حماسي يخفت، وبدأت أشعر أنني قمت بما أستطيع أن أقوم به. لم أعد أشعر بالرغبة في الكتابة في الصفحة بشكل مكثف كما كنت أفعل سابقًا، خاصة وأنني أحرص على ألا أكتب في الصفحة شيئًا لا أشعر به، وإذا كنت متشائمًا ومتضايقًا لم أكن أحاول أن أعبر في الصفحة عن مشاعري السلبية. كنت أعتقد أن ما يُكتب من القلب يصل إلى القلب، وما يتم اصطناعه يبدو واضحًا أنه مصطنع ومتكلف؛ ولهذا قلَّت المشاركات، وقلَّت أنشطة الصفحة منذ سبتمبر حتى نوفمبر. لم تكن هناك أي حملات سوى متابعة سير القضية الخاصة بخالد والتي يتم تأجيلها بشكل شهري بعد

مرافعات قليلة ودون وجود تفاصيل كثيرة.

لم أعد أعرف ماذا علينا أن نفعل، تحدثت مع عبد الرحمن ومع العديد من النشطاء، كنت أفكر في وقفة صامتة لرفض الانتخابات ومحاولة بثّ فكرة أننا غير راضين عما يحدث في مصر بشكل سياسي، ولكن جميع مَن تحدثت معهم رفض هذه الفكرة بشدة، وقالوا إنه لن تكون هناك استجابة؛ فالوقفات الصامتة أصبحت مكررة أكثر من اللازم وفقدتْ بريقها كفكرة.

ولكنني شاهدت أحد مقاطع الفيديو التي أَرسلَها لي خالد كامل؛ ذلك الشاب الذي كان يقوم بإنتاج مقاطع الفيديو بالصفحة، لمظاهرات في شيلي استمرت لشهور وتسببت في إسقاط النظام هناك. بعض هذه المظاهرات كانت قائمة على فكرة إزعاج مَن حولك بإحداث صوت باستخدام أي شيء لديك: أبواق السيارات، الحِلَل والأدوات المطبخية، التصفيق، التصفير. الفكرة كانت أن تتفق مجموعة كبيرة من الناس على النزول ولفت الانتباه للقضية بهذا الشكل لكسر حاجز الخوف.

وضعت الفكرة على الصفحة، فلاقت قبولًا واستحسانًا من البعض واستهجانًا من آخرين. صمم خالد كامل فيديو رائعًا يشرح فيه الفكرة، ولكن التعليقات كانت: «لسنا مثل شيلي؛ فثقافتنا مختلفة»، والبعض الآخر يرى أن الضوضاء والإزعاج ليست وسيلة حضارية للتعبير عن الرأي. بعض النشطاء أعجبتهم الفكرة ورأوها على الأقل تجديدًا وتصعيدًا لفكرة الوقفات الصامتة وأعلنوا استعدادهم للمشاركة والتنظيم.

أنشأتُ حدثًا على الصفحة لنشر الدعوة لحضور اليوم، وقررنا عدم تحديد أي مكان، وقرر بعض النشطاء؛ معظمهم من حملة البرادعي التي يقودها مصطفى النجار، أن يخرجوا من إمبابة؛ وهو حي شعبي يقطنه مئات الآلاف، وكذلك في إحدى المناطق الرئيسية في الإسكندرية.

ولكن حدث بعد إنشائي لهذا الحدث خطأ مريع، كنت أستخدم اشتراكي الشخصي أثناء إضافة الحدث، وقمت بخطأ إملائي في كتابة العنوان، وبشكل طبيعي قمت بتعديل الحدث بعد نصف ساعة، وبعد أن انضم له أكثر من ٥٠٠ شخص مؤكدين حضورهم.

وصلتني رسالة على البريد الإلكتروني بعدها من محمود سامي؛ أحد مشرفي صفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد»، يخبرني أنه للأسف عَلِم شخصيتي الحقيقية. كانت لحظةً مرعبة. احتوت رسالته على مرفق وفيه صورة من التنبيهات الخاصة بالفيسبوك والتي تصل أي شخص على صفحته الرئيسية بأن «وائل غنيم» قد قام بتغيير اسم الحدث.

قال لي محمود: «لا تخشَ شيئًا فوالله لن أخبر أحدًا، لكن أرجوك افعل شيئًا لتخفي اسمك». بدَأَت نبضات قلبي تتسارع من الخوف؛ لأنه من الممكن أن يكون من ضمن الخمسمائة الذين أكدوا حضورهم للحدث بعضُ رجال الأمن، أو حتى الأشخاص الذين يعرفونني شخصيًّا مما سيتسبب في تسريب المعلومة لأشخاص كثيرين. هداني تفكيري إلى تغيير اسمي في الفيسبوك لمحمد أحمد، حتى يظهر للجميع اسم محمد أحمد بدلًا من وائل غنيم، ولكن المشكلة أنه حتى حينما تفعل ذلك يذهب بك الرابط إلى صفحتي الرئيسية على الفيسبوك واسم المستخدم فيها هو «ghonim»؛ لذلك قررت استخدام خاصية إغلاق اشتراكي في الفيسبوك. تحول التنبيه وقتها إلى محمد أحمد قام بتغيير الحدث، ولكن الاسم لم يكن به أي رابط لصفحة صاحب الصفحة.

كانت ليلة مرعبة بالنسبة لي، وجلستُ أتصور ما قد يحدث إذا كان هناك مَن عرف شخصيتي الحقيقية. أخبرت أصدقائي على تويتر أن مشكلة تقنية حدثت في اشتراكي على الفيسبوك، ولا أستطيع الدخول عليه؛ حتى يكون ذلك تبريرًا لي بعد ذلك في حالة استجوابي، حيث إنني سأنكر علاقتي بالصفحة وأقول إن اشتراكي تم اختراقه. شعور الخوف ظل يلازمني، ولم أنم طَوال تلك الليلة. حاولت الوصول لعبد الرحمن منصور لأخبره بما حدث ولأسمع منه إذا كانت لديه أي أفكار، فشاركني القلق مما يمكن أن يحدث. والمشكلة الأكبر أن أحد النشطاء المعروفين على الساحة وهو محمود سامي أصبح يعرفني بالاسم. أنشأت حسابًا وهميًّا على الفيسبوك وأخرجت اسمي الشخصي من إدارة الصفحة، وجعلت هذا الحساب الوهمي، وكان اسمه «خالد سعيد»، مشرفًا على الصفحة. وكتبت إلى محمود أطلب منه أن يحتفظ بالمعلومة لنفسه، وألا يخبر أي أحد لأنه قد يتم إيذائي، أقسم محمود في رده على ألا يخبر أحدًا، وقال إنه شخصيًّا سينسى الاسم وينسى أي تفاصيل تتعلق

به، ووقتها احترمته أكثر من أي وقت سابق.

لم تتوقف الدراما عند هذا الحد، فبعد يومين شاء القدر أن يكرر عبد الرحمن الخطأ نفسه؛ كان يريد تعديل تفاصيل الحدث مرة أخرى، ورغم أنني ذكرت له بالتفصيل ما حدث معي إلا أنه أخطأ وظهر اسمه لي كمغير للحدث. اتصلت بعبد الرحمن معاتبًا له، فما قمت به أنا كان إهمالًا، ولكن تكرار الحدث من أحدنا مرة أخرى في أقل من أسبوع يبدو وكأننا نسلم أنفسنا للجهات الأمنية على طبق من ذهب. إحدى عضوات الصفحة النشطات كان اسمها المستعار «How Dull» أرسلت لي رسالة على البريد الإلكتروني الخاص بالصفحة قائلة: «عبد الرحمن، أرجوك، لقد انكشف اسمك، افعل شيئًا». أرسلت لها ردًّا مهدئًا من روعها قائلًا لها إن اسمي ليس عبد الرحمن، وإنني أستخدم اسمًا مستعارًا ودعوتها لعدم القلق. لم تكن مقتنعة لردي وأخبرتني أن أفعل ما أريد.. ولكن يجب أن أحذر.

حذفت اسم عبد الرحمن من مُشرفي الصفحة، وطلبت منه أن يُنشئ اشتراكًا وهميًّا وأن يغلق حسابه لمدة أسبوع؛ حتى لا يظهر اسمه الحقيقي لأي شخص مشترك في الدعوة لليوم عبر تنبيهات الفيسبوك، فقام بذلك بالفعل. كل ما حدث في أيام قليلة كان أشبه بالكابوس؛ بدأت أشعر أنهم الآن يعرفون أسماءنا، وقررت أن أتعامل من هذا المنطلق.

كان عدد المشاركين في يوم الغضب أو التظاهر بالضوضاء أقل بكثير مما توقعت، فقد شعر العديدون أن الفكرة غير منظمة، خاصة وأن أماكن المظاهرة لم يُعلَن عنها مسبقًا؛ ولذلك لم نصل للكتلة الحرجة المطلوبة لتحقيق تأثير فعلي. ولكن الجيد فيها كانت مشاركة النشطاء في إمبابة حيث إنها من المرات القليلة التي تظاهر فيها النشطاء داخل الأحياء بدلًا من التظاهر في الأماكن المعروفة كالتحرير ودار القضاء العالي، وشارك في المظاهرة عبد الرحمن يوسف ومصطفى النجار وبثينة كامل وغيرهم.

قبل انتخابات مجلس الشعب اتفقت مع عبد الرحمن أن نقوم بتغطيتها بشكل محايد جدًّا؛ لأن الصفحة يجب أن تظل بعيدًا عن الاستقطاب السياسي وأن تقوم بدورها الحقوقي. وجاء عبد الرحمن قبل يومين فقط من الانتخابات بفكرة رائعة، وهي أن نطلب من أعضاء الصفحة الذين سيصوتون في الانتخابات أن يُبْطلوا صوتهم ويكتبوا

اسم خالد سعيد في بطاقة التصويت. كانت هذه طريقة إيجابية لمقاطعة الانتخابات، وستقلل من عدد الأصوات المزورة. كنت أتمنى لو كان لدينا وقت كافٍ لنقوم بحملة كاملة للترويج للفكرة على أوسع نطاق، ولكن كان بيننا وبين الانتخابات ٤٨ ساعة فقط. أعلنا عن الفكرة على الصفحة ونشرنا تصميمًا أرسله لنا أحد المتطوعين يناشد الأعضاء بالتصويت لخالد سعيد رمز الميزان.

كنا نعتزم فضح أي انتهاكات أو تجاوزات تحدث في الانتخابات بغضّ النظر عمن قام بها. كان النظام يتحدث عن فوز كبير محتمل للحزب الوطني، وآلة الإعلام الرسمية كالعادة تشن هجومًا شديدًا على جماعة الإخوان. كل الأحزاب والقوى السياسية التي تمثل قوة نسبية قررت مقاطعة الانتخابات، ما عدا حزب الوفد وجماعة الإخوان المسلمين، وأشيع آنذاك أنهما قد عَقدا صفقة مع النظام، ولكن بدا واضحًا بعد الانتخابات عدم صحة ذلك.

قبل الانتخابات بيوم واحد فقط فوجئت بأن الصفحة قد تم تعطيلها من الفيسبوك؛ وكلما حاولت الدخول لها تعود بي إلى الصفحة الرئيسية للفيسبوك. لاحظت أن الأمر نفسه حدث لصفحة محمد البرادعي أيضًا؛ حيث لا يمكن الدخول لصفحته، والتي كنت ما زلت مشرفًا فيها وإن كنت لا أقوم بعمل أي تحديثات تُذكر عليها، وكنت أترك أغلب تحديثاتها لعبد الرحمن. لم أفهم ماذا يحدث، وبدأ الخبر ينتشر بسرعة على تويتر؛ فالجميع يكتب أن الصفحة أُغلقت، والمفارقة الطريفة أن كثيرًا من مستخدمي تويتر بدءوا يُرسلون لي رسائل تطالبني بالتدخل بصفتي أحد موظفي «جوجل» باستخدام ما لديَّ من اتصالات للوصول إلى إدارة الفيسبوك وعودة الصفحة.

وصلتني رسالة من «نادين وهاب»؛ وهي ناشطة مصرية تعيش في أمريكا وتعمل في مجال حقوق الإنسان، كنت قد تعرفت عليها عبر البريد الإلكتروني منذ بضعة أشهر كمتطوعة في الجمعية الوطنية للتغيير. نادين أخبرتني في رسالتها عبر اشتراك «الشهيد» أنها تريد المساعدة في عودة الصفحة للنور، وأنها الآن تراسل إدارة الفيسبوك. كانت نادين من القلائل الذين يعرفون هويتي الحقيقية، فقبل بضعة أشهر من هذا الموقف كنت قد صرحت لقليل من أصدقائي النشطاء الذين يعيشون خارج مصر بأنني «أدمن»

صفحة «كلنا خالد سعيد»؛ حتى يتخذوا الإجراءات الضرورية إذا حدث وأصبحتْ حياتي في خطر.

كان عبد الرحمن قلقًا جدًّا ونحن نحاول استعادة الصفحة. قال لي: «يا ليتني لم أُغير اشتراكي وأسمع كلامك، ضاعت الصفحة وضاع عمل شهور طويلة». لا أُخفي أنني كنت أكثر هدوءًا منه في معالجة الأحداث؛ لأنني كنت واثقًا من عودتها، وكذلك لأنها حتى لو لم تعد فربما كان ذلك الأفضل لي وله ولمصر. قلت له هذه العبارات وطلبت منه أن يهدأ.

وأخيرًا وصلتني رسالة من أحد موظفي الفيسبوك ردًّا على رسالة أرسلتها لهم، قائلين إن الصفحة قد تم إغلاقها بسبب كثرة ما وصلهم من تقارير ضدها، وعندما قاموا بالتحقيق وجدوا أن الصفحة يمتلكها اشتراكات وهمية، والاشتراكات الوهمية مخالفة لسياسة الفيسبوك؛ ولذلك تم إغلاق الصفحة.

اتصالات «نادين وهاب» في أمريكا ببعض مسئولي الفيسبوك ووصولها لأحد كبار موظفيهم والمسئول عن السياسات الخاصة بأوربا ومنطقة الشرق الأوسط أثمرت عن إمكانية عودة الصفحة مرة أخرى، ولكن بشرط أن يمتلكها اشتراك فيسبوك لشخص حقيقي بدون أسماء مستعارة. حدث حوار طويل بين المسئول وآخرين من الفيسبوك مع نادين ومعي بصفتي «الشهيد»، وانتهى الأمر بالاتفاق أنني موافق أن ننقل ملكية الصفحة لنادين وعبد الرحمن منصور. عرضَت عليّ نادين أن تعطيني اشتراكها الشخصي لأُدير به الصفحة؛ وكانت شَجاعةً تُحسد عليها؛ حيث إنني لم أكن أريد أن يعرف موظفو فيسبوك أن أحد موظفي «جوجل» وراء هذه الصفحة، مع علمي أنهم لن ينشروا أيًّا من أسمائنا، فذلك ضد قواعد الخصوصية لديهم. نادين أخبرتني أنها تعيش بالولايات المتحدة ولا تنوي العودة لمصر قريبًا ومستعدة للمخاطرة في حالة حدوث أي مشكلة. اتفقتُ معها على ذلك وأنشأت اشتراكًا وهميًّا وطلبت من عبد الرحمن فعلَ الشيء ذاته؛ حتى لا يدخل أحدنا باشتراكه الحقيقي ويحدث أي خطأ آخر.

المدهش أنه بالرغم من أن عدد ساعات إغلاق الصفحة لم يستغرق الـ ١٢ ساعة إلا أن الخبر انتشر في الكثير من وسائل الإعلام المصرية والعالمية، وكان مرتبطًا بفكرة

الانتخابات، حتى أن البعض بدأ في توجيه التهمة للفيسبوك باتفاقهم مع الحكومة المصرية على غلق الصفحات التي تهاجم النظام وتزويد الحكومة بمعلومات مفصلة عن الأشخاص الذين يُديرون هذه الصفحات. ولكن تبين بعد ذلك أن كل هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحة.

حينما عادت الصفحة تنفسنا الصُّعَداء، وعلمنا قيمتها؛ صفحة بها حوالي ٣٠٠ ألف مستخدم أغلبهم من الشباب المؤمن بأهمية تغيير البلد وإصلاح الأوضاع في مصر. الحمد لله.

بدأت الانتخابات، وبدأنا نرصد الانتهاكات. طلبنا من الجميع أن يُرسلوا لنا أيَّ مخالفات يلاحظونها في دوائرهم. التزوير في مصر كان هو الأساس في أي انتخابات، وطُرقه مختلفة؛ كان يحدث بنشر الفزع والرعب باستخدام البلطجية قبل الدخول إلى اللجان، أو عن طريق استخدام قوائم أسماء لأشخاص تُوفوا والتصويت بدلًا عنهم، أو التصويت بأسماء وبطاقات الأشخاص الذين لم يذهبوا للإدلاء بأصواتهم.. وأخيرًا التزوير في الفرز الخاص بأعداد الأصوات؛ وذلك بالتعاون مع أمن الدولة والضغط على موظفي الفرز.

كانت هذه الانتخابات من أسوأ ما مرّ على مصر. قام مجموعة من الشباب من أعضاء والمتعاطفين مع جماعة الإخوان المسلمين بإنشاء صفحة على الفيسبوك تسمى «رصد برلمان ٢٠١٠». كان من الجميل أن نرى صفحة مُكرّسة لمفهوم الصحافة الشعبية على الفيسبوك وتركز على مراقبة الانتخابات. بدا من أسلوب الصفحة أن القائمين عليها شباب متخصص ومهني. واكتشفت بعد ذلك أن أحد مؤسسي الصفحة هو عمرو القزاز؛ الشاب الذي كلفته بإدارة موقع «الشهيد» (alshaheeed.org). دنيا النشطاء صغيرة فعلًا! كما كان القدر يُخبّئ لنا المزيد من المفاجآت في الأسابيع التالية.

جذبت صفحة «رصد برلمان ٢٠١٠» أكثر من ٤٠ ألف شخص حتى قبل بدء الانتخابات. كوّن مديرو الصفحة شبكة من المراسلين في كل الدوائر الانتخابية، ونشروا كل ما يحدث من تجاوزات. في صفحة «كلنا خالد سعيد» فعلنا مثلهم، ولكن

بتركيز أقل. كان دور الجميع هو إثبات أن هذه الانتخابات مزورة، وأنه لا شرعية لهذا المجلس الذي يعتمد على تزوير إرادة الشعب، ونجحنا إلى حد كبير في ذلك وسط الشباب. «فاز» الحزب الوطني بأكثر من ٩٠ ٪ من المقاعد، وخرج الجميع يكتبون النكات تعليقًا على ذلك. وخرج علينا أحمد عز في جريدة الأهرام في ثلاث مقالات ليشرح لنا فيها عبقرية الحزب الوطني، ولماذا اختاره الشعب. الاستفزاز كان فوق طاقة البشر.

ولكنني شعرت وقتها بالعجز؛ لم تكن هناك فائدة في هذا النظام، ولم نعرف ماذا نفعل حيال ذلك. حاولت أن أستخدم الفكاهة لأخفف من توترنا وإحباطنا، وكنت أنشر الكثير من النكات حول الانتخابات المزوَّرة وأصبحتْ واحدة منهم من أكثر العبارات تداولًا على تويتر، وكان نصها: «تعتذر ويكيليكس لأنها لن تستطيع أن تغطي الانتخابات البرلمانية المصرية لعام ٢٠١٠، حيث إن أجهزتنا لن تحتمل العدد المهول من الوثائق المزورة التي سيتم الكشف عنها غدا».

نشرنا ملفًّا فيه كل الصور ومقاطع الفيديو التي تُظهر بشكل جَليٍّ عمليات التزوير والترويع التي قام بها الحزب الوطني أسميته: «الملف الأسود للانتخابات المصرية»، وشعر الجميع بالإحباط الممزوج بالغضب. وقرر الإخوان المسلمون والوفد مقاطعة الجولة الثانية من الانتخابات بعد مشاركتهم في الانتخابات دونًا عن الكثير من القوى السياسية الأخرى. البرادعي لَمَعَ نجمُه بشكل كبير بعد الجولة الأولى؛ لأنه كان من أوائل من دعا لمقاطعة هذه الانتخابات ووصفها بالمسرحية الفاشلة؛ وهكذا ثبتت صحة رؤيته وخطأ الآخرين.

لم تمنعنى كل هذه الأحداث المتسارعة من متابعة عملي؛ ففي شهر ديسمبر عقدتْ شركة «جوجل» مؤتمرَيْن في الأردن ومصر للمُطَوِّرين العرب، وشاركتُ في المؤتمر كمُتحدث؛ حيث طَلب مني المُنظِّمون أن أُلقي كلمة عن الإنترنت في العالم العربي. عملتُ على العرض والكلمة لكثير من الوقت، وحرصتُ فيه على أن أناشد المُطَوِّرين العرب والعاملين في مجال الإعلام بأن يُدركوا أهمية دورهم المؤثر في التغيير في المنطقة.

في كلمتي، ذكرت أمثلة لرجال أعمال استخدموا التكنولوجيا لإحداث التغيير؛ مثل الشابّ الأمريكي ذي الأصول البنجلاديشية سلمان خان؛ أسس سلمان قناة بسيطة على موقع «يوتيوب» (YouTube) وأسماها «أكاديمية خان». كان سلمان على قناته يُحمِّل فيديوهات لدروس في المواد الأساسية التي يمكن لأي شخص الوصول إليها ومشاهدتها في أي مكان وأي وقت بسهولة ويُسر، واستطاع الوصول إلى أكثر من خمسين مليون شخص حول العالم يستمعون لما يبثه من غرفته الصغيرة في منزله بكاليفورنيا. تحدثت أيضًا عن مبادرة «كيفا» (kiva.org)؛ والتي جمعت ٢٠٠ مليون دولار أمريكي في شكل قروض لخمسمائة ألف شخص معدم في كثير من البلدان. واختتمت كلمتي في المؤتمر بعشر نصائح، كانت أولها أن كل واحد منا يمكنه أن يلعب دورًا مؤثرًا أكثر مما يتخيل، «أنت أكبر مما تتخيل». والنصيحة العاشرة كانت «ساهم في تغيير العالم؛ يمكنك أن تفعل ذلك».

في أواخر شهر ديسمبر، اقترح عبد الرحمن منصور أنه بما أن الشُّرطة تحتفل بعيد الشرطة يوم ٢٥ من يناير فربما علينا أن نقوم بشيء ما في هذا اليوم. كانت فكرة رائعة، خاصة وأنها المرة الأولى التي أعرف فيها أن مصر تحتفل بعيد للشرطة! فالكثير من المصريين حانقين على جهاز الشرطة ويكرهون طريقتها في التعامل مع المواطنين؛ وبخاصة أولئك العاملون في أمن الدولة والمباحث الجنائية. كانت المعاملة الوحشية والمهينة التي يتعرض لها المواطنون من قِبَل كبار الضباط أمرًا عاديًّا ومنتشرًا في مصر. ولكننا لم نكن نعرف كيف «نحتفل» بهذا اليوم. كان التحدي هو أن نفكر في حدث يرسل رسالة قوية للشرطة والنظام دون أن نُعرّض أعضاء الصفحة للخطر. ماذا نفعل؟ مظاهرة أم وقفة صامتة أم شيئًا مختلفًا؟ لم نصل وقتها لاقتراح محدد.

أرسلت برسالة إلى «أحمد ماهر»؛ وهو أحد مؤسسي حركة ٦ إبريل؛ لأسأله إن كان لديه أي اقتراحات لليوم، فعلمتُ منه أن الحركة قد قامت بتنظيم مظاهرة أمام دار القضاء العالي بعد الدعوة للاحتفال بانتهاكات الشرطة ضد المواطنين المصريين. اقترحت عليه الوقفة الصامتة بالإضافة إلى حملة فنية اقترحها عبد الرحمن منصور، كأنْ يكون هناك مثلًا لوحة شرف عليها صور الضباط الشرفاء، وقائمة سوداء تكشف

انتهاكات بعض الضباط المجرمين الذين يرتدون الزيّ الرسميّ للشرطة.

كان حماسي يزيد مع تعدد أفكار «الاحتفال»، واتفقنا على أن نقوم بجلسة عصف ذهني مرة أخرى بعد رأس السنة. ولكن في ٣٠ من ديسمبر؛ بعد يومين من اقتراح عبد الرحمن للفكرة كتبت على صفحة «كلنا خالد سعيد»:

يوم ٢٥ يناير هو يوم عيد الشرطة إجازة رسمية.. أعتقد أنهم خلال سنة عملوا حاجات كتير تستحق الاحتفال بيهم على طريقتنا الخاصة.. إيه رأيكم؟

471 Likes / 119 Comments

الفصل الخامس

ثورة بميعاد

في ١٧ من ديسمبر ٢٠١٠، صادرَتْ شُرطيّة عربة الخضر التي يعمل عليها محمد بوعزيزي؛ وهو بائع خضر يعمل دون تصريح في مدينة سيدي بوزيد التي تبعد ١٩٠ ميلًا عن تونس العاصمة. عندما احتجّ بوعزيزي على مُصادرة عربته ومصدر رزقه. يقال إن الشُّرطيّة صفعته وأهانته أمام الجميع. ذهب بوعزيزي إلى قسم الشرطة ليشكوها ولكن الضباط رفضوا مقابلته. في الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم عاد إلى قسم الشرطة وأشعل النار في نفسه كنوع من الاحتجاج على المعاملة التي تلقّاها. لم يمُتْ بوعزيزي من فوره، ولكن نُقل إلى مستشفى قريب من العاصمة حيث مات في ٤ من يناير ٢٠١١ متأثرًا بحروقه.

تجمّع المتظاهرون عند قسم الشرطة في اليوم التالي لحرق بوعزيزي لنفسه. تعاملت معهم الشرطة بالعنف والغاز المسيل للدموع. على الرغم من أن الإعلام التونسي تجاهل المظاهرات كعادة كل الأنظمة العربية في التعاطي مع الاحتجاجات داخل أراضيها، إلا أن أخبارها انتشرت على الشبكات الاجتماعية؛ مما جعل مزيدًا من المظاهرات تبدأ في مختلف المدن التونسية حتى وصلت للعاصمة في أواخر شهر ديسمبر ٢٠١٠.

كان عبد الرحمن منصور يريد أن نُبرز على صفحة «كلنا خالد سعيد» ما يحدث بتونس كرسالة هامة للمصريين، إلا أنني رفضت ذلك تمامًا في البداية. طلبت منه الانتظار؛ لأنني كنت قلقًا من أن تُساند الصفحة ما يحدث في تونس وتعتبره

إيجابيًّا ويتفاعل معه الجميع ثم يتم قمع المتظاهرين وينتهي الأمر بهزيمة وإحباط جديدَيْن لا نحتاجهما على الصفحة في ظل الإحباط القائم من تأجيلات قضية خالد وتزوير انتخابات مجلس الشعب وخلوّ نشاطنا من انتصارات حقيقية على الأرض. ولكن عبد الرحمن نشر على الصفحة صورة للمظاهرات التونسية يبدو فيها المتظاهرون منتصرين على الشرطة التي حاولت قمع مظاهرتهم. وكما توقعت، نشبت خلافات قوية بين أعضاء الصفحة حول هذه الصورة. لم يكن هذا الوقت المناسب لنتصرف تصرفات مندفعة على الصفحة. تناقشت في الأمر مع عبد الرحمن مرة أخرى، وأكدت على رأيي أنه من الأسلم ألا نغطي مظاهرات تونس الآن في الصفحة. واتفقنا في النهاية على أن نحذف الصورة التي نشرها وننتظر لنرى ما الذي ستسفر عنه الأيام.

كان اهتمام الصفحة الأساسي، بعد قضية خالد سعيد، هو التركيز على انتهاكات الشرطة المصرية وتجاوزاتها. كانت قناعتي تزيد يوما بعد يوم أن الشرطة هي السلسلة التي يربطها النظام حول أعناقنا. تجاوزات الشرطة كانت كثيرة، وكل ما فعلته الصفحة هو وضعها تحت الأضواء والتركيز عليها وشحن الناس ضدها.

حاولنا في الصفحة قدر الإمكان أن لا نعادي جهاز الشرطة بالكامل؛ فأكثر من مرة أَشَدْنا بضباط محترمين أدَّوْا واجبهم واستحقوا الإشادة، وحاولنا التوضيح أننا ننتقد المتجاوزين وليس الجهاز بالكامل. ولكن للأسف كان المتجاوزون كثيرين، وسواء بالصفحة أم بدونها كانت الشرطة مكروهة في الشارع بشدة.

تغير شعار الشرطة في عهد وزير الداخلية حبيب العادلي من «الشرطة في خدمة الشعب» إلى «الشعب والشرطة في خدمة الوطن». كان لهذا التغيير دلالة واضحة أن الشرطة لن تكون في خدمة الشعب ولو شكليًّا حتى في شعارها. التعذيب في أقسام الشرطة لم يكن مجرد حالات فردية بل كان تعذيبًا منهجيًّا، فقوات الشرطة تفتقد للأدوات التقنية الحديثة التي تساعدها على كشف الجرائم؛ فأصبح التعذيب هو الوسيلة الوحيدة للحصول على المعلومات.

معظم جهود جهاز الشرطة كانت تركز على حماية النظام. كانت المهمة الكبرى

لجهاز أمن الدولة؛ وهو أقوى أجهزة الشرطة وأكثرها نفوذًا، هي مطاردة المعارضين، وتخويفهم وتهديدهم وتعذيبهم وتلفيق التهم لهم. لم تعد الشرطة جهة مستقلة تعمل على تطبيق القانون، بل صارت مرآة النظام، وأصبح من الصعب التفريق بينهما، حتى أن الشرطة في مصر كان يطلق عليها «الحكومة». الفساد في الشرطة كان ماليًّا أيضًا؛ فلأن رواتب أفراد الشرطة والضباط كانت ضئيلة للغاية، لجأ الكثير من أفراد الداخلية للرشوة وفرض الإتاوات.

نكتة منقولة: أمين شرطة عنده ولدين توأم نتيجة امتحانهم طلعت والاثنين سقطوا، دخل عليه الأولاني فنزل عليه ضرب وشتايم وخرج متبهدل، ودخل التاني أبوه بص في الشهادة وقال له خلاص شد حيلك بقه السنة الجاية.. الولد أول ما خرج أخوه أتجنن وسأله هو أنت عملت إيه عشان ميضربكش؟ قال له: حطيتله خمسة جنيه جوه الشهادة.

1,033 Likes / 187 Comments

مع كل هذا الإحباط أردت أن أُنهي آخر يوم في سنة ٢٠١٠ بدَفْعة إيجابية، فبدأت بنشر رسائل إيجابية من المشتركين والمطالبة بالمزيد من هذه النماذج لبثّ الأمل مع أول يوم في ٢٠١١.

كل سنة وأنتم طيبين والسنة الجاية تكونوا أحسن من اللي فاتت تعالوا كلنا نشجع بعض على الإيجابية والمساهمة في نهضة بلدنا.. ياريت كل واحد يحكيلنا إيه أكتر حاجة هو عملها وفخور بيها في ٢٠١٠.

1,057 Likes / 477 Comments

أنا هبدأ أنشر أمثلة لناس عملت حاجات إيجابية وشاركتنا بيها في التعليقات على أكثر حاجة إيجابية عملتها في ٢٠١٠ وفخور بيها.. هنشجع بعض باللي بنعمله.. هنغير بلدنا للأحسن.. وطول ما احنا مع بعض.. بندافع عن المظلوم والضعيف.. هنكون أقوى.. كلنا خالد سعيد.

120 Likes / 14 Comments

تدفقت الرسائل التي تحمل معاني متشابهة على الصفحة ونشرتُها:

Eman Farid Shawky

الحمد لله عملت حاجات كتير أفخر بيها، أول حاجة نجحت صافي في كليتي.. كلية العلوم لأول مرة وبتقدير جيد، وتاني حاجة إني شاركت لأول مرة في وقفة صامتة وكنت لوحدي والعسكري جري ورايا بس ربنا ستر.. تالت حاجة إني رحت انتخبت لأول مرة وشفت التزوير بعيني وبعد كده شاركت في اعتصام عند مديرية الأمن ويااااارب كل المصريين يبقوا إيجابيين ويحاولوا يغيروا من نفسهم الأول عشان يقدروا يغيروا.

155 Likes / 27 Comments

Khaled Mansour

شكرًا أدمن كلنا خالد سعيد إنك وجهت غضبنا ناحية عمل إيجابي.. الفكرة ازاي إننا ندير غضبنا.. غضبنا مش هيتوجه لأي حاجة سلبية ضد نفسنا غضبنا هيكون الإصرار على مواجهة الظلم ومحاولة العلاج المؤقت للمشكلة بأي عمل إيجابي مش هَوجِّه غضبي مرة تانية ضد نفسي.

132 Likes / 5 Comments

كنت على الصفحة مستغرقًا في محاولات لإنهاء السَّنة بروح من التفاؤل ولم يخطر ببالي أنا وعبد الرحمن الكارثة الوشيكة التي ستحلّ بمصر. فلم تمر دقائق على بداية السنة الجديدة ٢٠١١ إلا وانفجرت قنبلة داخل كَنيسة القديسَيْن بالإسكندرية وسط القداس والكنيسة مليئة بالمصلين المُحتفلين. اهتزت الكَنيسة وصمّ صوت الانفجار الآذان. حاول الكثيرون الهرب من الكنيسة، ظنًّا منهم أن هناك زلزالًا قد ضرب المدينة. ولكنهم عندما خرجوا من الكَنيسة وجدوا أشلاء واحد وعشرين مصريًّا متناثرة على الأرض في كل مكان، كما أُصيب العشرات. كان الانفجار صدمة لنا جميعا خاصة وأنه تم توثيقه بكاميرات المحمول وبثه على الإنترنت ليرى الجميع فداحته؛ أشلاء ونيران وصراخ ودماء.. منظر بشع.

منذ بداية الصفحة حرصت أن نتجنب الخوض في أي أحداث طائفية حتى لا تشتعل حرب التعليقات بين أعضاء الصفحة من المسلمين والمسيحيين، خاصة أن كل ما تحتاجه لاشتعال المعارك هو مجموعة من المتطرفين من الطرفين. فسياسات النظام المُفَرِّقة بين المصريين استطاعت، سواء بقصد أو دون قصد، أن تُفرق بين

المسلمين والمسيحيين، ومشاعر الاحتقان التي كانت تُنكرها وسائل الإعلام كانت جلية واضحة في الشارع المصري، على الرغم من أن الكثير من المسلمين والمسيحيين يعيشون مع بعض منذ مئات السنين بدون أي مشكلة. وكان النظام بارعًا في توظيف هذه التفرقة وهذا الشرخ في العلاقة ليصنع قناعة لدى المصريين أنه لولا وجود مبارك في الحكم لكانت الحرب الطائفية قد اندلعت في مصر. وبالتالي استطاع مبارك أن يُسوّق نفسه ودولته البوليسية بنجاح لدى المجتمع الدولي على أساس أنه الأفضل بين خيارين أحلاهما مُرّ؛ فإما هو وإما الفوضى.

دائمًا ما تندلع أعمال العنف بين المسلمين والمسيحيين في مصر لأسباب غير دينية؛ فالصراعات الطائفية، خاصة في المناطق والقرى الفقيرة في مصر، تحدث أساسًا نتيجة لعلاقات عمل أو علاقات عاطفية بين اثنين كل منهما يختلف مع الآخر في ديانته. وبسبب قلة الوعي وغياب نظام حقيقي لإرساء العدالة فالمشاكل التي يمكن حلها في قاعات المحكمة تتحول إلى معارك في المجتمع بين العائلات. كما أن الجرائم التي يكون فيها قَدَرًا ضحايا مسلمون ومسيحيون يُنظر لها أحيانا على أنها هجوم مقصود على شخص بعينه بسبب ديانته، مما يؤدي إلى رد فعل عنيف من عائلة الضحية. وأحيانًا تقرر فتاة شابة أن تغير ديانتها وتهرب مع شابّ تحبه من الديانة التي اعتنقتها حديثا لأن أهلها لن يوافقوا على ارتباطها به لاختلاف ديانتهما. وعندها تعلن عائلة الفتاة أنها قد خُطفت وأُجبرت على تغيير ديانتها. وهكذا سريعا ما يتحول الأمر إلى دائرة مفرغة من الانتقام مما يزيد من الإحباط والغضب لدى الطرفين.

بعد الانفجار بحثت على الإنترنت على صورة تُظهر الهلال مع الصليب سويا؛ وذلك لتخفيف حدة المشاكل التي ستحدث بسبب الأحداث، وطلبت من الجميع تغيير صورهم الشخصية لتلك الصورة والتي كتبت فيها: أنا مصري ضد الإرهاب.

ياريت كلنا نغير صورة البروفايل بتاعنا الشخصي للصورة دي ولو ليوم واحد لازم نوئد الفتنة بين الناس.

516 Likes / 237 Comments

بدأنا في نشر الصور ومقاطع الفيديو المؤلمة الخاصة بالحادثة، بعض أعضاء

الصفحة بدءوا في انتقادنا بشكل كبير في التعليقات مُتهِمين الصفحة بإشعال فتيل الأزمة. كان رد فعلنا دفاعيا وواضحا أن التعرف على الحقائق هام رغم قسوتها.

نشر الصور هدفه إننا نعرف الحقيقة مش هدفه التهييج.. احنا معملناش الصفحة دي إلا عشان صورة خالد وهو متعذب.. لو مكناش شفناها مكناش هنهتم.. كلنا لازم نتكاتف دلوقتي وننسى أي خلافات ما بينا ونحارب المجرم اللي عمل كده بغض النظر عن هو مين أو تبع مين.

218 Likes / 94 Comments

في أغلب حوادث الاعتداء على الكنائس أو استهداف المسيحيين تخشى وسائل الإعلام بث الصور ومقاطع الفيديو التي تُظهر الاعتداء خوفا من اندلاع الفتنة. ولكن مع ظهور الإنترنت والقنوات الفضائية الخاصة أصبح ما يحدث هو أن المسيحيين جميعهم يتم شحنهم عاطفيا بالصور والمقاطع الدامية بينما لا يعرف المسلمون فداحة ما يحدث بسبب أنهم لا يرونه. كانت تلك قناعتي الخاصة والتي من أجلها حرصت على نشر كل المقاطع حتى شديدة الدموية لجميع أعضاء الصفحة من الأغلبية المسلمة حتى يعرفوا فداحة الأحداث ويتعاطفوا مع زملائهم من المسيحيين.

دعَوْنا الناس على الصفحة للتبرع بالدم ودَعْونا الجميع إلى الهدوء والتعقل لأن الفتنة التي يمكن أن تحدث بين المسلمين والمسيحين هي بالضبط ما يريده مرتكب هذه الجريمة البشعة. المخرج عمرو سلامة كتب على صفحته الشخصية أن أي معارك أو غضب يحدث الآن بين المسلمين والمسيحيين هو بمثابة تهنئة للإرهابيين على غرضهم، ونصح الجميع بأن الغضب لا بد وأن يتحول لتفكير عقلاني وخطوات نحو التغيير الحقيقي الذي يصلح هذه المشكلة من جذورها. نشرنا رسالته على الصفحة ولاقت قبولًا كبيرًا بين أوساط المسلمين الباحثين عن التهدئة.

حاول الكثير من رجال الدين الإسلامي والمسيحي أن يَحثوا الناس على التهدئة. نشرت مقابلة مهمة مع الداعية معز مسعود؛ والذي سبق وأن تعرفت عليه شخصيًّا منذ سنوات طويلة، قال بوضوح إن المسيحيين لا غنى عنهم لنسيج الوطن تماما كالمسلمين، وإنه من المهم أن يتَّحد المصريون ولا يُشعلوا نار الفتنة التي يسعى لإذكائها مَن قام بهذا التفجير في المقام الأول.

المسيحيون غضبوا كما لم يغضبوا من قبل، ونزل شبابهم إلى الشوارع في مظاهرات في مختلف محافظات مصر. كانوا قلقين من أن مرتكبي هذه الجريمة البشعة سيفلتون بجُرمهم؛ لأن هذا ما حدث في حوادث مشابهة في الماضي. تصاعد غضب المتظاهرين وبدءوا في قطع الطرق الرئيسية في القاهرة. في شبرا؛ وهي منطقة مزدحمة بالقاهرة أغلب سكانها من المسيحيين، تحولت المظاهرة للعنف، وحدثت اشتباكات بين المتظاهرين والشرطة ونتج عنها إصابات من الجانبين وخاصة من ناحية المتظاهرين. انتشر فيديو سريعا على الإنترنت فيه عسكري يضرب متظاهرًا على رأسه بعصا بدون توقف على الرغم من دماء المتظاهر وصرخاته.

أصدرت وزارة الداخلية بيانًا أدانت فيه «عنف» المتظاهرين وإرهابهم لسكان بعض المناطق بالقاهرة، وقالت إن اثنين من ضباط الشرطة و١٢ من العساكر قد أصيبوا. وكالعادة لم تذكر الوزارة الإصابات التي طالت المتظاهرين. تم القبض على ثمانية من النشطاء السياسيين المسلمين الذين اشتركوا في المظاهرات، ومن الواضح أن هذه كانت رسالة للمسلمين ألا يشتركوا أو يتضامنوا مع المسيحيين في مظاهراتهم. كان النظام يريد أن يُنظر للحادث على أنه حادث طائفيّ بحت.

دَعَوْنا في الصفحة إلى وقفة قبل عيد القيامة الأرثوذكسي لتهدئة الاحتقان. المسيحيون الأرثوذكس هم غالبية مسيحيي مصر، وكان عيدهم بعد أسبوع فقط من التفجير؛ يوم ٧ من يناير. وكان هناك خوف من أن يتكرر التفجير في كَنيسة أخرى فاقترح المهندس والمفكر المصري محمد الصاوي أن ينزل المسلمون إلى الكنائس ليكونوا دروعًا بشرية لحماية إخوتهم المسيحيين أثناء صلاتهم، ولإيصال رسالة أن الإرهاب لن ينال من وحدة الوطن. كتبت على الصفحة أن مُنفّذ الحادث لم يكن هدفه هو قتل ٢١ مسيحيًّا، بل كان هدفه هو أن يتقاتل ٨٠ مليون مصري.

وقفةُ الدروع البشرية لحماية الكنائس والوقفة الصامتة التي دَعَوْنا لها قامت العديد من الصحف بتغطيتها، وتحدثت عنها منى الشاذلي المذيعة الشهيرة، وتم عمل فيديو من المُخرجَيْن عمرو سلامة ومحمد دياب لحث الناس على المشاركة فيها، ودعا إليها الممثل خالد أبو النجا والروائية سحر الموجي والإعلامية بثينة كامل. وصلت الدعوة

لمائة وسبعين ألفًا، وأعلن المشاركة فيها ١٨ ألفًا. ولكن الأرقام الحقيقية كانت قليلة في الشارع؛ لأن الحشد لم يكن مبكرًا بوقت كافٍ، وبسبب تصاعد أحداث المظاهرات العنيفة التي قادها مسيحيو المناطق الشعبية من الفقراء ضد قوات الشرطة في مناطقهم وأسفرت عن العديد من الإصابات.

حراسة الكنائس كفكرة نجحت في الشارع، وسلط عليها الإعلام الضوء، ولأول مرة يدخل الكنيسة كل هذا الكمّ من المسلمين والمسلمات حتى المنتقبات منهم. نشرنا صور بعض المسلمين الذين حملوا لافتات تؤكد على وحدة الصف المصري وعلى رفضهم للإرهاب أيًّا كانت صورته.

في الوقت الذي كانت فيه مصر تتداوى مما حدث، ونحاول على الصفحة تهدئة الأجواء انتشر على الإنترنت مقطع فيديو لم يتجاوز أربعين ثانية يُظهر جثة شابّ في الثلاثينيات من عمره، مُلتحٍ. المقطع ذكّرني مرة أخرى بما حصل لخالد سعيد. جهاز أمن الدولة كعادته لجأ إلى الطريقة المعتادة من القبض على أعداد كبيرة من المصريين المحسوبين على التيار السلفي وتعذيبهم بغية الوصول إلى أي معلومة عن مُنفذي حادث تفجير الكَنيسة. السيد بلال؛ كان أحد المعتقلين الذين لم يستطيعوا تحمُّل وطأة التعذيب، وتوفي نتيجة قسوته واستخدام وسائل التعذيب التقليدية كالصعق بالكهرباء في المناطق الحساسة بالجسم. أسرة السيد بلال أخذت له صورة وهو متوفٍّ ونشرت الأمر. تبنت الصفحة فورًا قضية السيد بلال، وطلبت من أحد المتطوعين تصميم صورة مشتركة للسيد بلال ومارتينا فكري؛ واحدة من ضحايا الاعتداء الغشيم، الصورة كانت تريد أن توصل رسالة للمصريين أن السيد ومارتينا هما ضحيتان لجريمة لم يرتكباها.

كتب عبد الرحمن على الصفحة:

> **من الصحفي عبد المنعم محمود.. أسرة سيد بلال ضغطوا عليهم ميروحوش النيابة.. اكسروا الضغط الأمني.. خد والدتك ومراتك عزيهم وساندهم أنهم لا يتنازلون.. شارع البزاز كوبري الناموس.. قرب محطة الظاهرية وقريب من مسجد الفولي.. ابعت رسالة لزوج أخت سيد بلال ومحاميه عزبة واطلب منه لا يستجيب لضغوط الأمن بالتنازل عن اتهام أمن الدولة بقتله.**
>
> 538 Likes / 121 Comments / 41,926 Views

كان السيد بلال من أسرة فقيرة ولديه طفل صغير. لم يكن التعاطف معه بنفس قوة التعاطف مع قضية خالد، ولكن الصفحة اهتمت كثيرًا بالسيد بلال؛ لأنه يفتح ملف قانون الطوارئ والتعذيب في أمن الدولة للنشطاء من أبناء الحركات والتيارات الدينية. نسَّق عبد الرحمن منصور مع الصحفي عبد المنعم محمود من جريدة الدستور، والذي كان أول صحفيّ تواصل مع عائلة السيد بلال. نشرنا صورة لابن السيد بلال الصغير، وصورة لأمه العجوز الحزينة بفقدان ولدها. كانت أساليب النظام تنكشف أمام المواطن العادي يوما بعد يوم. تعاطف الكثير من المسيحيين على الصفحة مع أسرة السيد بلال وكتبوا تعليقات تُظهر ذلك.

وفي محاولة لتجديد روح الأمل والتفاؤل على الصفحة، أطلقت في يوم ٧ من يناير حملة اسمها «أسبوع الخير لخالد سعيد»؛ كانت فكرة الحملة الأساسية هي أن يقوم الناس بشيء إيجابي في المجتمع ويهبوا ثوابه لخالد رحمه الله.

كانت الصفحة تتناول الأحداث اليومية وتدعو لعمل الخير، ولم يكن هناك الكثير من الوقت للتخطيط لما بعد ذلك. ولكن كان ٢٥ يقترب، وكان علينا أن نضع خطة ونتفق عليها بديمقراطية كما تعودنا.

عايزين أفكار لعيد الشرطة يوم ٢٥ يناير: لأن الناس دي بتتعب في إهانة وتعذيب وأحيانًا قتل المواطنين المصريين فميتفعش يعدي يوم على عيدهم من غير ما نفهمهم إننا مش هننسى.. ياريت أي حد عنده فكرة يطرحها وياريت تكون أفكار غريبة ومختلفة ويارب نقدر ونرجعلهم جزء من جمايلهم علينا.

506 Likes / 272 Comments / 183,015 Views

لم يكن أعضاء الصفحة يتناقشون بحماس حول كيفية الاحتفال بعيد الشرطة كما تمنيت، وكان هناك بعض منا يتبادل الأفكار وحسب. ولكن في ١٣ من يناير اتخذت الأحداث خارج مصر منعطفًا جديدًا وأعطتنا الأمل الذي طالما انتظرناه.

في هذا اليوم، شعر زين العابدين بن علي رئيس تونس بتصاعد الغضب الشعبيّ ضده، خاصة بعد خطابه التهديدي الأول والذي وصف فيه المتظاهرين بالمخربين والمظاهرات بأنها جزء من مؤامرة خارجية تستهدف أمن واستقرار الوطن. كان ردُّ

فعل بن علي غير متوقع لحاكم عربي دكتاتور من فصيلته، فقد خرج بخطبة أخرى للشعب عبر فيها بكلمته الشهيرة: «أنا فهمتكم» عن قوة الشعوب إذا ما أفاقت وضعف الحكام إذا ما رَأَوا الخطر الداهم يقترب. أكد بن علي للتونسيين أنه قد فهم أن تطلعاتهم وأحلامهم أكبر بكثير من أداء حكومته، وأن الشعب قد أفاق ولن يسكت بعد اليوم عن إذلاله. كان خطابه خطاب شخص مهزوم.

كعادة الصفحة في أخذ رأي الأعضاء قبل أيّ قرار، سألت المشاركين عن رأيهم حول تغطية أحداث تونس في الصفحة، ووافق ٨٦٪ على استمرار التغطية. ما حدث في تونس ألهمَ جميع العرب وأشعرَنا جميعًا أن المستحيل لم يعد مستحيلًا. كتبت على الصفحة:

مفيش رئيس ولا حكومة ولا شرطة أقوى من شعبها.. أول امبارح الرئيس التونسي قال لشعبه اللي نزل في الشارع «إرهابيين» و«مخربين» وهطبق عليهم أقصى العقوبات.. والنهاردة بعد ما شعب تونس نزل منهم عشرات الآلاف الشوارع حس بالخطر فأقال وزير الداخلية وأمر بالإفراج عن كل اللي انقبض عليهم في الاحتجاجات.

348 Likes / 76 Comments / 99,472 Views

لم أكن أتخيل عندما بدأت المظاهرات في تونس منذ ديسمبر أن يرضخ النظام التونسي بهذه السرعة. ما حدث لرئيسهم أظهر هشاشة الأنظمة العربية. وفي اليوم التالي لخطاب بن علي الثاني حاصر المتظاهرون وزارة الداخلية، وأُعلن عن هروب بن علي للسعودية. وضعت على الصفحة تصميم «معتز قطان» للعَلَم المصريّ ويظهر في الجانب ذي اللون الأحمر من العلم المصري النجمة والهلال الأبيضان المُميِّزان للعلم التونسي الأحمر. الصورة كانت دلالة على مؤازرة تونس وتشجيع على أن نتحول لمثلها.

لأول مرة في حياتي من ساعة ما اتولدت أشوف رئيس عربي بيترجى شعبه.. بيعتذر.. بيقول أنا فهمتكم خلاص.. أنا آسف.. أنا غلطان.. مش هعدل الدستور عشان أنتخب نفسي تاني.. هخفض الأسعار وأوفر منح للعاطلين.. هشيل الحظر اللي كان مفروض على الإعلام.. هسمح بالتعددية الحزبية الحقيقية.. أرجوكم.. أرجوكم.. أنا آسف.. يا شباب مصر اسمعوا عشان تعرفوا إن مفيش حكومة أقوى من شعبها.. ألف تحية لشعب تونس الحر.

793 Likes / 197 Comments / 26,128 Views

التعليقات على الصفحة كانت شديدة القوة، بعضها يطالب الصفحة أن تدعو لفعالية

كبيرة في الشارع المصري، وآخرون يسخرون بشدة من سلبية المصريين ويُطلقون النكات لذلك. هاجمني بعض الأعضاء بصورة شخصية قائلين: «إذا حرق بوعزيزي نفسه في مصر، سينظم أدمن خالد سعيد وقفة صامتة».

كتبت أول رسالة فيها إسقاط مباشر على حسني مبارك على الصفحة لأرى تأثيرها على الأعضاء من خلال التعليقات.

وداعًا زين الهاربين بن علي.. إلى مزبلة التاريخ.. بس من فضلكم محدش يقفل غطا الصندوق.

1,105 Likes / 259 Comments

بمجرد هروب بن علي في الرابع عشر من يناير شعرت أننا نستطيع أن نكون الدولة العربية الثانية التي تتخلص من دكتاتورها، فَوَضْع مصر كان أسوأ من وضع تونس سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، والغضب في الشارع كان أكبر بكثير. كان يقف بين المصريين وبين الثورة عدمُ إيمانهم بأنفسهم والمبالغة في تخيل قوة النظام، أما اليوم وبعد ما حدث في تونس قد تصل الآن الرسالة لجمع كبير منهم لكسر حاجز الخوف والتحرُّك.

مصر لها مركز فريد في العالم العربي؛ فالمصريون مُعتزون بأنفسهم في مختلف المناحي، ويعتبرون أنفسهم قادة للعالم العربي ثقافيًّا وعلميًّا. وما حدث في تونس جعل من السهل استخدام هذه الفكرة لشحذ الهمم، فها هي تونس قد سبقتنا في بحثها عن الحرية. نفسية المصري المعتز بوطنه وبشجاعته ساهمت كثيرًا في مجاراة مصر لما حدث في تونس.

كان غضب الشباب المصري يتزايد، ولا تتوقف المقارنات بين مصر وتونس. طالب بعض أعضاء الصفحة بصراحة أن تدعو الصفحة للنزول للشارع على غرار ما فعلته تونس. فكرت في جس نبض أعضاء الصفحة فكتبت:

النهاردة يوم ١٤.. يوم ٢٥ يناير هو عيد الشرطة يوم إجازة رسمية لو نزلنا ١٠٠ ألف واحد في القاهرة محدش هيقف قصادنا.. يا ترى نقدر..

3023 Likes / 1757 Comments / 176,013 Views

كان هذا أول إعلان عن الثورة. التعليقات كانت متنوعة، وتلقيت أكثر من ٣٠٠ تعليق في فترة زمنية قصيرة. البعض كان ينتظر هذه الدعوة من الصفحة ويريدها أن تحدث، والآخرون تشاءموا ورَأوا أن مصر لن تتغير أبدًا، وغيرهم رَأَوْها دعوة للفوضى

وإدخال البلاد في نفق مظلم. ربط الفكرة بيوم ٢٥ من يناير كان أيضًا ربطًا منطقيًّا؛ فثورتنا بالأساس ضد نظام يعتمد بشكل كليّ على الشرطة في القمع، وشاءت الأقدار أن يكون هذا اليوم بعد ١٠ أيام فقط من نجاح ثورة تونس والتي بدأت ضد جهاز الشرطة وانتهت بهروب بن علي. كانت هذه بعض تعليقات الأعضاء على الفكرة:

أحمد معتمد: فكرة جامدة بس هو ١٠ أيام وقت قليل عشان تحضر لحاجة زي كده بس ياريت فعلا يبقى في تنسيق مع باقي الحركات والقوى السياسية والناس اللي نفسها البلد تتغير بجد وربنا معانا وياريت الناس تفوق.

محمد زايد: ياااااااااااااااااااااااااريت وأنا أول واحد في المكان اللي تحددوه

مصطفى كامل: الفكرة جامدة أوي بس محتاجة تتنظم كويس.

م. شريف: نقدر نقدر وينزل ٥٠ ألف في إسكندرية كمان.

حسام خفاجي: لا مش هنقدر... علشان البلد كلها بتاخد إجازة إلاااااااا بتوع الشرطة بيناموا صاحيين ما شاء الله.

حمدي: أنت إرهابي فعلا والله.

خالد بهجت: يا أدمن هو احنا لسه هنستنى يلّا دلوقتي والناس متحمسة.

يارا أيمن: يادي النيلة على الوقفات التافهة اللي بتعملوها.. حرام عليكو ارحمونا بقة واعملوا حاجة مفيدة.

سامح البلاح: يلّا نحشد الجموع من دلوقتي.. ونقدر بإذن الله أن نفعلها.. السنن الكونية تقول هكذا.. وسنن التاريخ تقول كذلك.

محمد العمري: والله ما حد هيعمل حاجة، آخرنا كلام على الفيسبوك. إحنا خلاص بقينا جيل الفيسبوك وبس.

مودي باشا: كده العملية كبرت يا كبير... هي شعللت في دماغك ولا إيه!!!! بس بص لقدام إيه اللي هيحصل مصر مش زي تونس والجيش في جيب مبارك صدقني أنا... بس أقولك أنا معاك وزي ماتيجي تيجي.

أحمد العمدة: الحكومة ماسكة البلد بيد من حديد وما اعتقدش إن احنا نقدر نعمل زي تونس في وقت كنا احنا مثل يقتدي به جميع الشعوب العرب.. قول للزمان يرجع يا زمان الثورة العرابية وثورة يوليو.

مايكل صلاح: نقدر بس نشغل دماغنا.

بعد ذلك بساعتين تحدثت مع عبد الرحمن بعد دخوله على الإنترنت، فسألته: «إيه

رأيك لو ١٠٠ ألف ينزلوا الشارع يوم عيد الشرطة؟»، سألَني عبد الرحمن: «هنقدر؟»، فكان ردي: «بصراحة مش عارف، بس أنا حاسس إن فيه حماس قوي، بس طبعًا أنت عارف خوف المصريين!». صارحته بشكوكي وقلت له إنني لست ثائرًا، ولست متحمسًا لفكرة إقناع الناس بالقيام بشيء عواقبه غير مأمونة. وأنني أيضًا ليس لديّ الخبرة للتعامل مع مثل هذا العدد من الناس إذا حدث ونزلوا للشارع، خاصة وأنه لن يكون معي؛ لأنه سيذهب إلى جيشه الإلزامي يوم ١٧ من يناير. قلت له إنني كنت أتمنى أن تتبنى هذه الدعوة حركة معارضة سياسية قوية بينما ندعم نحن دعوتهم فحسب على الصفحة دون تَصدُّر المشهد. وجاء رده أنه ليس هناك معارضة سياسية قوية في مصر، وكان محقًا. وكان هذا قدر الله.

كنت متفائلًا ولكن بحذر، وكنت أخشى من أن يفشل اليوم فشلًا كبيرًا، وتكون الصدمة كبيرة على الكثيرين من أبناء جيلنا الحالمين في التغيير، ولكني بدأت كعادتي في حملة مضادة على دعاة الإحباط حتى أقلل من تأثيرهم على باقي الأعضاء في الصفحة.

في تونس أكيد من شهور لو فتحنا صفحات الفيسبوك عندهم كان فيه دعاة التثبيط بتوع: مفيش فايدة والبلد عمرها ما هتتغير والإنترنت متراقب ووزارة الداخلية هتقبض عليكم.. الناس دي موجودين في كل مكان وزمان بس ياعيني بيبقى موقفهم وحش قوي بعد الانتصار.. إن شاء الله هناخد حقوقنا كلها وهنتحرك إيد واحدة.

489 Likes / 78 Comments / 99.149 Views

وبدأتُ أيضًا في وضع بعض الرسائل والتعليقات التي وَضَعها الأعضاء في الصفحة كتشجيع للجميع على المشاركة والإدلاء بالآراء المُشجِّعة للفكرة.

Tito Taufique

ليه الشوارع ما تتمليش بينا؟ عملتوها عشان الانتفاضة الفلسطينية عملتوها عشان كأس إفريقيا أربع مرات عملتوها عشان غزة والحصار مستخسرين تعملوا حاجة زي دي عشان نفسينا؟

590 Likes

إحدى الصحف المعارِضة نشرت فقرة من كتاب «الطريق إلى قصر العروبة» للمؤلف محمد علي ذَكَر فيه أنه لو تجمّع ١٠٠ ألف مواطن في ميدان التحرير سينالوا

ما يريدون. كتبت رسالة على الصفحة لشعب مصر: «ليكن ٢٥ من يناير هو شعلة التغيير في بلادنا»، ونشرت ما قاله الكاتب لبثّ الأمل.

عدت إلى صفحة الحدث الذي قمت بإنشائه في نهاية ديسمبر بناء على اقتراح عبد الرحمن للاحتفال بعيد الشرطة، قررت أن أقوم بتعديل اسم الحدث بدلًا من إنشاء واحد جديد. كان الحدث القديم اسمه «الاحتفال بعيد الشرطة المصرية ٢٥ يناير»، فقمت بتعديل عنوانه إلى «٢٥ يناير: ثورة على التعذيب والفقر والفساد والبطالة». بعد هروب الرئيس التونسي وتنامي الغضب بين المصريين الذين يريدون أن يُعيدوا سيناريو تونس مع مبارك، كان يجب أن أعيد توجيه الحدث. لم أستطع أن أقاوم استخدام كلمة «ثورة»، وكل مرة حاولت أن أبتعد عنها وأبحث عن كلمة أخرى أقل حدة كنت أعود إليها. كان النظام المصري المتحلل هو مشكلة مصر الأساسية، والطريقة الوحيدة للتقدم هي من خلال إسقاط هذا النظام. كل هذا وأنا الذي لا أعتبر نفسي ثائرًا.. كان أمرًا في غاية الغرابة بالنسبة لي!

رغم أن تعديل اسم الحدث لم يأخذ سوى بعض الضربات على لوحة المفاتيح إلا أن طريقة تفكيري تغيرت تمامًا مع تغييره وشعرت بالأدرينالين يتدفق في عروقي؛ فالخيارات المتاحة الآن لم تكن المواجهة أو الهرب، ولكن المواجهة أو المواجهة. فبعد أن نشرت الدعوة على الصفحة كنت مستعدًّا لمواجهة كافة العواقب حتى الموت.

حرصت أن يحتوي عنوان الدعوة للحدث على الفقر والفساد والبطالة؛ لأننا في أحوج الأوقات لتتوحد جهود العمال والحقوقيين والموظفين وغيرهم من طبقات الشعب التي سئمت من ممارسات النظام. النزول للشارع بمطالب متعلقة بحقوق الإنسان وضد وزارة الداخلية فقط سيتسبب في قصر المشاركة على شريحة معينة من الشعب المصري؛ ولذا كان مهمًّا أن تكون المطالب جامعة لكل أطياف الشارع المصري.

بعد اللي شفته في تونس خلال أيام قليلة غيّرت مواقفي.. الأمل كبير والتغيير ممكن يحصل بسرعة لو فيه ناس هتحارب عشانه.. وحقوقنا هناخدها وصوتنا لازم يكون عالي.. مش بس عالي، صوتنا لازم يخرُم الآذان.. وأقسم بالله العظيم وربنا شهيد على اللي بقوله أنا هانزل يوم ٢٥ يناير ومستعد أموت شهيد عشان بلدي تتحرر من الظلم اللي فيها.

410 Likes / 91 Comments / 101422 Views

الاستجابة للحدث كانت سريعة ومؤكِّدة على فكرة أننا نستطيع. كان تجنيد عبد الرحمن منصور في خدمة الجيش الإلزامية سيبدأ بعد يومين فقط، وكان عليه أن يغادر للحاق بكتيبة الجيش التابع لها؛ لأنه سيدخل معسكرًا تدريبيًّا لمدة ٤٠ يومًا يخرج بعدها لإجازة قصيرة. أخبرته مازحًا بأنه سيخرج من معسكره بعد أن يتنحى مبارك والصفحة بها أكثر من مليون عضو. لا أُخفي أنني كنت أداعبه فقط، ولم أتوقع حينها أن هذا ما سيحدث؛ فلم تمر ساعات على إعلان الصفحة للدعوة للثورة، ولم يكن الأمر قد انتشر بشكل يجعل من الممكن تقدير حجمه بعد.

بدأت في مقارنة أوضاع مصر بتونس ومواجهة دعاة الإحباط. وضعت في صورة الصفحة الرئيسية عَلَمًا لمصر جزؤه الأحمر احتوى على رمز تونس وكتبت على الجزء الأسود: «موعدنا ٢٥ يناير»، في رسالة إلى النظام.

كتب أحد أعضاء الصفحة رسالة يائسة محتواها أن ما حدث في تونس لن يحدث في مصر، وأن كل هذا الإقبال على الإنترنت هو ظاهرة فيسبوكية صوتية، وأن المصريين لن يتغيروا لأنهم جبناء. كتبت ردًّا عليه على الصفحة لأن كثيرا من أعضاء الصفحة يؤمنون بنفس المعنى.

يا مصطفى بلاش تيأس.. هما عايزينا كده يائسين وفاقدين الأمل.. صدقني الشعب مش جبان.. الشعب بس كله خايف.. الكل خايف إنه يقوم وينتفض بس محدش يقوم معاه.. لكن إحنا دورنا كلنا نقوم مع بعض وننشر دعوتنا.. تونس كلها قامت وكانت م الشعوب اللي ما بتقدرش تعمل مظاهرة في ٢٣ سنة إلا عشان ماتش كورة.. مصر فيها ٣ مليون عاطل.. لو اتحركنا كلنا محدش هيعرف يقف قصادنا وصدقني ضباط الجيش هيبقوا معانا لو اتحركنا صح..

302 Likes / 155 Comment / 96,919 Views

كان رد فعل الصحف المصرية في صباح يوم ١٥ من يناير بعد تنحي بن علي متوقعًا؛ فقد حاولوا التقليل من الحدث الجلل. جريدة الأخبار؛ إحدى أكبر الصحف القومية كَتَبَتْ عنوانًا في صدر صفحتها الأولى يقول: «زين العابدين يغادر تونس لجهة غير معلومة بعد تزايد حدة الاضطرابات»، ثم كتبتْ بخطٍّ حجمه ضعف هذا الخط قائلين: «وتعلو مصر»، ثم كتبت: «مبارك حقق لبلاده أعلى معدلات الأمان الاقتصادي». العنوان أظهر جليًّا رُعب النظام مما حدث في تونس. رفضوا تسميته بالثورة وأسموه

بالاضطرابات، وبدلًا من إشارة إلى هروب بن علي أشاروا إلى مغادرته، وأخيرًا حاولوا بشكل مباشر التأكيد أن مصر لا تمر بمثل هذه الأزمات الاقتصادية. قام أحد أعضاء الصفحة بتصوير الجريدة بكاميرته وأضاف الصورة على الصفحة فنشرتُها مباشرة وكتبتُ تحتها تعليقًا يَشحذ الهِمَم ويؤكد أن النظام يخشى ما حدث في تونس. التعليقات على الصورة كانت ساخرة وأثبتت بالفعل أن مثل هذه الممارسات التقليدية والتي يقوم بها النظام تُسهم بشكل مباشر في الدعوة للنزول للشارع.

نشرتْ جريدة الأهرام في ١٦ من يناير تصريحات مُستفِزّة لوزير الخارجية المصري وصف فيها الوزير توقعات البعض انتقال ما جرى من ثورة في تونس إلى الساحة المصرية بأن «هذا كلام فارغ»، وشدّد علي أن لكل مجتمع ظروفَه، وإذا ما قرر الشعب التونسي أن ينهج هذا النهج فهذا أمر يتعلق به. وأوضح الوزير أبو الغيط أن مصر قالت: «إن إرادة الشعب التونسي هي السيدة المتوّجة في هذا المجال، ولا أحد يقاوم إرادة الشعب، وأعتقد أن الخير سيأتي لتونس مهما كانت التحديات. أما هؤلاء الذين يتصوّرون أوهامًا ويضعون الكثير من الزيت فوق اللا شيء، فالزيت سيؤدي لاتساخ ملابسهم. وهناك إعلام يسعى لإرهاب وتحطيم المجتمعات العربية وللأسف كلها فضائيات غير مصرية».

فجأة أصبحتْ قصة بوعزيزي مُفجّر ثورة تونس على كل لسان مصريّ وعربيّ، الشابّ التونسي الذي بسبب مُر الحال ومُصادرة العربة التي يبيع عليها الخضراوات أحرق نفسه لتشتعل ثورة تونس تعاطفًا معه. أكثر من خمسة مصريين حاولوا إحراق أنفسهم في الأسبوع التالي للثورة التونسية أمام مجلس الشعب. كلها كانت والحمد لله محاولات فاشلة، ولكن النظام كان مُرتعدًا. أول حالة من هذه الحالات حدثت يوم ١٧ من يناير تم متابعتها بشكل كبير في كل وسائل الإعلام، وخرج فتحي سرور مهدئًا رَوع الجميع، وزار وزير الصحة الشخص الذي قام بإحراق نفسه. كان النظام مرعوبًا من تكرار السيناريو التونسي فمنعت وزارة الداخلية بيع البنزين في جراكن عبر محطات بيعه.

بدأتُ في محاولة استقطاب بعض المجموعات المنظّمة عبر بثّ رسائل مباشرة لهم في الصفحة، ومنها الألتراس؛ وهي فِرَق مشجعي الكرة وتُقدّر بالآلاف.

إلى جماهير الألتراس الأهلاوية والزمالكاوية والإسماعلاوية والاتحاداوية.. لو بذلتم نفس المجهود اللي بتبذلوه في أي ماتش يوم ٢٥ يناير هتساعدوا مصر أنها تتغير.. يلا نبقى كلنا ألتراس مصراوي يلا كلنا نتحرك عشان بلدنا وننزل لأن كلنا عندنا مشاكل في حياتنا.. مين هنا ألتراس ومستعد يشجع بلده.

1,616 Likes / 408 Comments / 207,557 Views

التواصل مع الألتراس كان ضرورة؛ فلكي تنجح الثورة يجب أن تكون المشاركة من كل طبقات وأطياف الشعب. لم أعرف نتيجة الاستجابة، ولكن في النهاية نَشْر الفكرة بين أوساط الآخرين كفيل بدعمها. سرية بيانات صاحب الصفحة وعدم تصوير الحدث على أنه خاص بصفحة «كلنا خالد سعيد» دفعَ العديد من الصفحات الأخرى تباعًا في الدعوة لها. كانت أولى هذه الصفحات هي صفحة ٦ إبريل؛ والتي كان بها قرابة الخمسين ألف عضو آنذاك، حتى بعض الصفحات الساخرة كصفحة عصير القصب المصري تبنت الدعوة لخمسة وعشرين يناير ونشرَتْها لأكثر من ربع مليون مصري آنذاك من أعضائها وغيرها من الصفحات الأخرى.

مع ازدياد نشاط الدعوة للثورة زادت بشدة الهجمات الإلكترونية على الصفحة، والاتهامات بالخيانة والعمالة والتخريب. كنت أتفقد الاشتراكات الخاصة بمن يهاجمون الصفحة والدعوة للنزول يوم ٢٥ ، وأفتح صفحاتهم الشخصية لأحاول استشفاف إذا ما كانت شخصيات حقيقية أم اشتراكات وهمية قام بها أعضاء اللجنة الإلكترونية للحزب الوطني لإيهام أعضاء الصفحة بوجود معارضة شديدة لفكرة النزول. طردت مئات الاشتراكات الوهمية؛ والتي تم تسجيلها حديثًا خصيصًا من أجل الوقوف أمام الفكرة، ونشرتُ بعض الصور التي تُثبِت أن هذه الاشتراكات وهمية وليست تابعة لأشخاص حقيقيين حتى يعي أعضاء الصفحة أن الأغلبية مع النزول وليست ضده.

خلال الفترة من ١٥ من يناير إلى ٢٥ من يناير كان هدف النشطاء هو تشجيع كافة المصريين على النزول إلى الشارع بشتى الوسائل. ثورة بلا قائد ولا ترتيب كما أراها، ولكن في النهاية نزول مئات الآلاف من المصريين حتمًا سيؤدي إلى تحقيق الحلم. لم أُنسق كثيرًا مع غيرنا من الصفحات فيما يتعلق بنشر المحتوى، ولم أحاول كما ذكرت

أن أنسب أي محتوى للصفحة، بل كانت الفكرة أن الجميع يمتلك حق الدعاية لهذا اليوم، واعتمد الجميع على الحدث الرئيسي للدعوة من صفحة «كلنا خالد سعيد» لتأكيد النزول يوم ٢٥ من يناير.

ومن أجل تطوير قدرة الصفحة على حشد أعضائها للنزول قمت بوضع استراتيجية للصفحة في الترويج لليوم اعتمدتْ على العديد من المحاور:

١ ـ إظهار ضعف النظام المصري وخوفه لتشجيع الشباب على كسر حاجز الخوف.

٢ ـ المقارنة بين الوضعين المصري والتونسي لحشد الرأي العام ضد النظام.

٣ ـ متابعة الانتصارات المتتالية للشعب التونسي منذ هروب زين العابدين بن علي.

٤ ـ نَشْر كل ما يتعلق بتجاوزات النظام اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وأمنيًّا.

٥ ـ دعوة الآخرين للمشاركة بكتاباتهم وأشعارهم وأغانيهم وتصميماتهم للدعوة لليوم.

٦ ـ طمأنة الجميع أن الجيش المصري سيتخذ موقفًا مُشرّفًا ويقف مع الشعب.

نجحت الاستراتيجية وبشكل كبير؛ ليس لذكاء مَن ينفذها ولكن لغرور مَن يحاول محاربتها. النظام المصري أخذ يُطلق التصريحات واحدا تلو الآخر مما جعلَنَا نستفيد، والأحداث في تونس كانت تسير في اتجاه جيد خاصة مع أنباء القبض على ضباط الشرطة التونسيين الذين تورطوا في استخدام العنف. كما أن الجيش التونسي كان له موقف مُشرّف في الثورة التونسية؛ حيث رفض الهجوم على الشعب وتوجيه سلاحه تجاههم، وكان مُهمًّا أن نرسل نفس الرسالة للجيش المصري.. وكذلك لطمأنة الشعب المصري. بدأت في نشر كل صور التعاطف والتفاعل التي يقوم بها الجيش التونسي مع مواطنيه. كان رد الفعل رائعًا.

الجيش التونسي ضرب أروع مثال للوطنية.. الجيش اللي بيتعلم فيه الضابط والعسكري الدفاع عن أرض بلده وولادها بيبقى صعب إنه يضربهم بالنار ويقتلهم... أثناء تشييع جنازة أحد شهداء تونس اللي اتقتل برصاص الشرطة أحد ضباط الجيش يقف إجلالًا واحترامًا للشهيد.

773 Likes / 231 Comments / 191,658 Views

أحد ضباط الجيش المصري من أعضاء الصفحة كان سريع التفاعل مع ما ننشره،

أرسل على البريد الإلكتروني الخاص بالصفحة من اشتراك قام بتفعيله خصيصًا ليراسلني صورة لبدلته العسكرية وعليها ورقة مكتوب فيها: «هانت يا مصر ميعادنا ٢٥ يناير». أرسلت له ردًّا محاولًا التعرف عليه ولكنه رفض وبشدة قائلًا إن هذا يُعرّضه للخطر وأخبرني برسالة أن المزاج العام بين ضباط الجيش من أصدقائه سيؤيد هذه الثورة لو حدثت. الصورة ساهمت بشكل كبير في رفع الروح المعنوية لدى أعضاء الصفحة بأن الجيش المصري سيتصرف على غرار الجيش التونسي.

مشاهد المظاهرات التونسية أثناء ثورتهم كانت أكثر من رائعة؛ مئات الآلاف مُتحدين مترابطين ولا يوجد سوى العلم التونسي واللافتات المُنادية برحيل بن علي وإسقاط نظامه. حاولت جمع أكبر نسبة من هذه الصور لأعيد نشرها. ومشاهد انتصار المتظاهرين على أفراد جهاز الداخلية هناك كانت تبثّ الأمل في نفوس أعضاء الصفحة. صورة أكثر من رائعة ومُعبّرة لكاب أحد الجنود وقد قُلب في تعبير عن الهزيمة، وفي الخلفية صور المتظاهرين جعلتني أعلق عليها قائلًا إنه لا صوت يعلو فوق صوت الشعب.

لكل واحد بكى بالدموع يوم ما مصر طلعت من كأس العالم (وأنا كنت واحد منهم) لازم دلوقتي نبكي بالدموع أن تونس خدت كأس الحرية.. الحرية أهم بكتير من ماتش كورة.. الكرامة والمعاملة الإنسانية أهم بكتير من كأس العالم.. حقوقنا لازم نأخذها وعشان كده لازم بجد ننزل ٢٥ يناير.

448 Likes / 76 Comments / 107,593 Views

بعد انتشار الفكرة بشكل كبير على الإنترنت قررت أن أُحوِّل حياتي خلال عشرة الأيام للصفحة، كنت أذهب إلى العمل ورأسي فيما يحدث في تونس وما يجب أن أكتبه على الصفحة. كل دقيقتين أو ثلاث أقوم بعمل تحديث للصفحة لأقرأ كل التعليقات الجديدة وأنام ثلاث ساعات يوميًّا وأقضي كل وقتي في المنزل داخل غرفتي بعد أن أخبرت زوجتي بالدعوة ليوم ٢٥ من يناير، وأن هذا الأمر هو الأولوية الأولى الآن في حياتي.

نشرت صورة أرشيفية سابقة لمبارك مجتمعًا مع بن علي وكتبت عليها تعليقًا: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون»، وكتب أحد الشباب رسالة تنحٍّ ينقصها خاتم التوقيع تاريخها هو ٢٥ من يناير. كانت عبارات السخرية هي العامل المشترك لدى دعاة الإحباط، بينما

تزايدت أعداد من يُصدّقون الحلم ويرون وجوب تحقيقه. حاولت أن أُظهر كلّ موقف إيجابيّ من ثورة تونس والتركيز على سلبية الوضع في مصر لحشد الأعضاء وإقناعهم بالمشاركة. أعدت نشر فيديوهات التعذيب وأيضًا لكي يرى المشتركون الجدد (الصفحة كانت وصلت ٣٦٥ ألف مشترك آنذاك) الأسبابَ التي تجمّعنا بسببها على الصفحة.

لم تكن الحملة مقتصرة على صفحة «كلنا خالد سعيد» فقط، فصفحات أخرى وبخاصة «٦ إبريل» كانت تسير معنا بالتوازي، إلا أنني كنت على الصفحة في عالمي الخاص الذي لم أخرج منه، فلم أقرأ ما يُكتب في غيرها من صفحات. لأول مرة على الصفحة أصبحت أتحدث عن مشاكل مصر كلها وليس فقط عن التعذيب: البطالة والظروف الاقتصادية والرشوة والمحسوبية والوساطة.

يوم ٢٥ يناير إحنا بنطالب بحقوقنا.. عايزين نركز من دلوقتي لحد يوم ٢٥ في الكلام عن الوضع الاقتصادي للبلد وعن أحوالنا المادية والمعيشية.. عايزين نكلم رجل الشارع الغلبان اللي ميفرقش معاه غير رغيف العيش وأنبوبة الغاز واشتراك الوصلة.. بلاش نتكلم في كلام كبير فنلاقي نفسنا ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ في الشارع.. الشباب التونسي بدءوا مطالبهم بحل مشكلة البطالة وغلاء الأسعار.. ولما الحكومة لم تستجيب تحركوا.. لازم نعمل كده.

322 Likes / 151 Comments / 119,239 Views

الشباب التونسي تظاهر بسبب الوضع الاقتصادي والبطالة وبعديها تحولت لثورة من أجل الحرية بعد ما كان رد فعل الحكومة قتل المتظاهرين بالرصاص الحي.. لو عايزين نوصل لكل الناس في مصر لازم يكون تركيزنا على الغلاء والأسعار والأجور وتعويض الشباب العاطلين.. مش كل الناس تفرق معاها مفاهيم الحرية والديمقراطية بس كل الناس تفرق معاها أسعار العيش والبنزين واللحوم.

821 Likes

كان الحديث عن مبارك خطًّا أحمر على الصفحة قبل أحداث تونس. وضعتُ هذا الخط بنفسي، ليس حبًّا فيه ولكن حتى نستطيع دائمًا أن نتحدث مع الأغلبية الصامتة ولا نفقد الاتصال معها ولا نُتّهم بأن الصفحة لها أهداف سياسية مما يُجبر الكثيرين على عدم متابعتها. هذا الخط الأحمر زال بزوال بن علي في تونس، وبدأت الحديث بشكل مباشر عن مبارك وممارساته وعن دكتاتوريته على الصفحة.

شخص لا أعرفه قام بتصميم عبقري يُظهر فيه مقارنة سريعة بين رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية منذ ١٩٨١، ورؤساء جمهورية مصر العربية خلال نفس الفترة. اللافت للنظر أن أمريكا تَعاقَب على رئاستها كلٌّ من رونالد ريجان ١٩٨١، ثم جورج بوش الأب ١٩٨٩، ثم كلينتون ١٩٩٣ لدورتين، ثم جورج بوش الابن ٢٠٠١ لدورتين، وأوباما ٢٠٠٩، بينما في مصر كان لدينا صور مختلفة لنفس القائد والذي بدا واضحًا أن ابتسامته تَخفُت وملامح وجهه بدا عليها العجز والمرض. الصورة كانت أفضل تعبير عن أن مَن يحكُمنا دكتاتور لم يتنازل عن عرشه طَوال ٣٠ عامًا. كانت بسيطة ومعبرة ومُناسِبة للمشهد.

أفكار إبداعية كثيرة جاء بها الشباب على الصفحة وقمت بنشرها، وكان أروعها هي فكرة إرسال رسائل قصيرة على المحمول (SMS) عشوائيًّا لنشر الدعوة في الشارع. كان مُهمًّا أن تصل الدعوة لليوم لجميع المصريين حتى وإن لم يشاركوا؛ وذلك حتى يترقبوا المشاركة ويحددوا موقفهم للأيام التالية. وصول الدعوة للبسطاء في الشارع المصري لم يكن ليحدث عبر الفيسبوك والإنترنت؛ ولذلك قامت مجموعات من الشباب بحشد أنفسها على الإنترنت، ومن ثَمَّ طباعة الأوراق والمنشورات للدعوة لليوم وإرسال رسائل بنفس المعنى على الهواتف المحمولة.

لأول مرة أشوفها على الفيسبوك.. الدعوة ليوم ٢٥ وصلت لأكثر من نص مليون مصري على الفيسبوك.. الدعوة أكد عليها ٢٧ ألف شخص.. المهم دلوقت ننتشر في الشوارع والمصانع والمساجد والكنايس.. المهم أن في شبرا وبولاق ومنشية ناصر وعين شمس وفي المحلة تسمع عننا.. المهم أن الناس في القرى تعرف أن فيه حل.. أن كلنا نتحرك نعترض ونقول لأ.. ونطالب بحقوقنا.. يلا يا مصريين نثبت للعالم أننا مش شعب خائف ولا جبان ومستعدين نضحي بأي حاجة عشان حقوقنا.

559 Likes / 239 Comments / 118,928 Views

مشهد صفحة الحدث كان مُشجّعًا؛ ففي أكثر وقفات خالد سعيد مشاركة لم تصل الدعوة لأكثر من ١٠٠ ألف، بينما في يومين وصلت الدعوة ليوم ٢٥ من يناير لنصف مليون مصري على الإنترنت، وأكد الحضور عليها ٢٧ ألفًا. كان واضحًا أن اليوم سيكون مختلفًا، وأن مظاهرة الخامس والعشرين من يناير لن تكون مظاهرة تقليدية. بدأ إحساس الثقة يتسرب لي شيئًا فشيئًا.

دعوت كل المشتركين في الصفحة لنشر الدعوة إلى الثورة في المنتديات والصفحات والمجموعات الشهيرة على الإنترنت وطلب مساعدتهم، وبالفعل استجاب الكثير للدعوة. أصبح ٢٥ من يناير يومًا معروفًا لأغلب مستخدمي الإنترنت في مصر. كتبت على الصفحة مجموعة من المقترحات لإيصال الدعوة لأكبر عدد ممكن، اقترحت على أعضاء الصفحة مشاركة روابط الحدث والصفحة، وإرسال رسائل قصيرة لمعارفهم، وطباعة دعوات للنزول يوم الثلاثاء ٢٥ من يناير، وكذلك دعوة خمسة أصدقاء بصفة شخصية للنزول سويًّا.

لم تكن هناك أي خطة لليوم برغم مرور يومين على الإعلان عن المظاهرة. لم أكن أعرف ماذا سنفعل تحديدًا؛ ولذلك قررت أن أراسل مصطفى النجار؛ الناشط في حملة البرادعي، وأحمد ماهر منسق حركة ٦ إبريل، والذي كنت تقابلت معه مرة واحدة في حياتي، ولكنه لا يعرف أنني مَن أنشأ صفحة «كلنا خالد سعيد». أرسلت لهما رسالة فحواها أننا يجب أن نبدأ التخطيط والتنسيق لليوم، ويجب عليهما أن يقوما بالعمل على الأرض وإخباري بالأماكن المقترحة.

محمود سامي؛ الأدمن السابق لصفحة «أنا اسمي خالد محمد سعيد» والناشط في ٦ إبريل، أرسل لي رسالة يوم ١٥ من يناير يطلب مني التنسيق والتعاون حتى ينجح يوم ٢٥ من يناير. كنت حريصًا على وقف التواصل مع محمود لأنه عرف شخصيتي الحقيقية، وكنت أخاف من انتشار اسمي في أوساط النشطاء. كان نص رسالة محمود:

> **محتاجين ننسق مع بعض يوم ٢٥ أنا تقريبًا متوقع إنك مش هترد علشان الأسباب اللى أنا وأنت عارفينها بخصوص إنك قررت من زمان إننا منتعاملش مع بعض بسبب إني عرفت اسمك.. بس هل عندك استعداد ولا لأ تنسق مع إبريل وغيرها؟ لو في استعداد ممكن أنا أمسكلك الموضوع دا على أرض الواقع أو أخلى حد أثق فيه يمسكه طالما في مشاكل إننا نتعامل مع بعض.. عايزين الشرارة في مصر تحصل بقى.. وتصعيدك بجد عاجبنى جدًّا.. يمكن هو عاطفى أكتر منه عقلاني.. ولكن لا نملك سوى المحاولة.**

أما ماهر فقد ردّ على رسالتي؛ كان يرى في البداية أن نذهب لوزارة الداخلية أو التحرير، وكنت مُعارضًا للفكرة بشدة؛ وذلك لأنها أماكن تقليدية يقل فيها عدد السكان، وكذلك يَسهُل السيطرة عليها لما لدى الأمن من خبرة؛ ولذلك كنت أرى أن الخروج من الأحياء الشعبية أيًّا كان هو الحل الأمثل.

دار بيني وبين محمود سامي حوار حول بعض الأماكن، وكان محمود متحمسًا بشكل كبير لشارع جامعة الدول العربية؛ لأنه قريب جدًّا من بعض الأحياء الشعبية مثل بولاق الدكرور وأرض اللواء ومِيت عقبة؛ وكذلك لأنه شارع كبير ويصعب إغلاقه أمنيًّا. كنت لا أرى في نفسي خبيرًا على الأرض؛ ولذلك أَحَلْت له الأمر للتفكير فيه هو وماهر والتنسيق فيما بينهما، وطلبت من محمود سامي أن يَعِدَني ألا يكشف هويتي الحقيقية لماهر نهائيًّا.

في ١٧ من يناير دردشت مع عبد الرحمن منصور على الإنترنت لآخر مرة قبل أن يذهب للتجنيد. كان الحوار عاطفيًّا ومشحونًا. قال عبد الرحمن إن أكثر ما سيفتقده أثناء تجنيده هو صفحة «كلنا خالد سعيد». كان محبطًا وحزينًا لأنه سيفوته الحدث الذي ظل يحلم به طَوال حياته؛ وهو بداية التغيير في مصر. طلب مني أن أواظب على تذكير الناس في الصفحة بأن ٢٥ من يناير سيكون مجرد بداية، وذلك حتى لا يستسلم الناس إذا لم يحضر المظاهرات عدد كبير. كان من المذهل كيف استطعنا أنا وعبد الرحمن العمل سويًّا لأشهر دون أن نتقابل أو نعرف بعضنا البعض معرفة شخصية!

في نفس اليوم أرسل لي ماهر رسالة بريدية يخبرني فيها أن النشطاء قابلوا بعض قيادات ألتراس أهلاوي وزملكاوي وسيشاركون معنا يوم ٢٥ من يناير ، ثم قال لي: «على فكرة أنا معرفش اسمك إيه بس أنا بحبك جدًّا والله». رددت على رسالته برسالة قلت فيها: «وأنا باحبك بس مش لازم تعرف اسمي وسميني خالد. أنا مش عايز أي حاجة غير بلدي تتغير وبس. ولا عايز اسمي يتعرف لا قبل كده ولا حتى بعد كده. نفسي بقه نغير ونخلص عشان أركز في حياتي الشخصية. يلا شدوا حيلكم. وفكرة رائعة إنكم قابلتم الألتراس وده الشغل الصح». لاحقًا أرسلت له رسالة مُقترِحًا عليه أن يبدأ النشطاء بالنزول للشارع بشكل تدريجي.

ذكرت على الصفحة أننا لن نُعلن عن توقيت وأماكن مظاهرة الخامس والعشرين من يناير سوى قبلها بيومين أو ثلاثة؛ وذلك حتى يصعب على أجهزة الأمن الاستعداد، وأتذكر كيف سخر بعض أعضاء الصفحة من فكرة «الثورة» التي سيتم إعلان مكانها وزمانها. كانت بالفعل نكتة لدى الكثيرين، ولكن بالنسبة لي كنت مؤمنًا بأن تَجمُّع أعداد ضخمة يصعب السيطرة عليها قد تتحول بالفعل لثورة حقيقية في الشارع المتعطش للتغيير.

رغم تفاؤلي إلا أنني بدأت أتخوف فعليًّا؛ لأن توقعات أعضاء الصفحة المؤيدين لفكرة الثورة على النظام وإسقاط مبارك أصبحت في السماء، ولو شارك عدد قليل في اليوم مثل كل وقفة ستكون ضربة قاضية للصفحة ولفكرة الانتفاض ضد هذا النظام. كنت أقول لبعض النشطاء، الذين أتواصل معهم دون أن يعرفوا هويتي، إننا نراهن على يوم ٢٥ من يناير، وإنه في حالة لا قدر الله وفشل اليوم سأغلق الصفحة لأنها ستكون النهاية على الأقل بالنسبة لي.

نشرت رسالة أسميتها: «٢٥ يناير ـ نقاط على الحروف»؛ لأوضح لماذا سنشارك في المظاهرات والتأكيد على احتمال قيامنا باعتصامات، وتوضيح ما الذي نريده من النظام، ولأؤكد على سلمية الفعالية وأننا لسنا دعاة فوضى أو تخريب.

عمر ما أي حد كان يتخيل إزاي إن فكرة إن يوم الشرطة يتحول ليوم يفوق فيه المصريين ويثوروا ويطالبوا بحقوقهم والدعوة توصل لأكتر من ٧٠٠ ألف مصري على فيسبوك.. لحد دلوقتي مقدرش أقول إحنا نجحنا أو فشلنا لأن النضال لحد دلوقتي إلكتروني عبارة عن كومنتات ولايكات.. بس اللي أؤكد عليه إن فيه إقبال عمري ما شفته في أي يوم من أيام خالد سعيد. كل الناس بتشتغل ونفسها اليوم ده يحصل لأن كل الناس تعبانة وبتعاني في ظل الوضع اللي إحنا فيه.

مصر مليانة مشكلات وعمر ما هدفنا كان إننا نزودها بالتظاهر أو الاعتراض.. بس فعلًا المشكلة الأساسية عندنا إن الحكومة والرئيس مش بيسمعوا لشعبهم.. هما متعودين على نظرية إن الرئيس بيؤمر وكله بيطيع واللي بيعترض يتقبض عليه وينضرب ويتهان أو لو صوته مش عالي ومؤثر يبقى نخليه يعترض وخلاص.. ودي كانت نفس نظرية الرئيس التونسي وحكومته. حتى أن لما البوعزيزي حرق نفسه كان رد الفعل من الحكومة رد فعل سلبي وبسيط ومتوقعوش إن الشعب هيواصل وعدد المطالبين بحقهم هيزيد لحد ما انتهى بهم الحال إلى إن الرئيس يؤكد إنه مش هيرشح نفسه في ٢٠١٤ وبعدين يقول خلاص هنعمل انتخابات بعد ٦ شهور وبعدها يهرب من البلد زي المجرمين.

مشكلتنا في مصر هي إن كل واحد فينا بيشوف مشاكله هو بس.. معندناش القناعة إن مشكلتي وإن اختلفت عن مشكلتك بس الأعراض واحدة والمسببات واحدة.. بقينا مش بنحس بالفقراء.. يعني كام واحد فينا فكر إزاي شخص يقدر يعيش بـ ٣٠٠ جنيه في الشهر مرتب؟ كلنا بنطنش ونقول واحنا مالنا.. الشخص ده بيحصل له إيه؟ يا إما بيبدأ يسرق وياخد رشاوي ويفتح باب فساد ممكن على فكرة يؤثر عليك تأثير مباشر لأنه الشخص ده هو مدير

في مصلحة حكومية ودرس لولادك وهو اللي بيعمل لك العيش وغيره وغيره... يا إما لو كان شريف وماخدش رشوة بيعيش عيشة غير آدمية بتفقده إحساسه بالانتماء لبلده ويبورث الشعور ده لولاده ومن هنا طلعت فكرة البلد دي بلدهم مش بلدنا.

الأديان نفسها بتحض إن الإنسان يهتم باللي حواليه.. لأن مشاكل المجتمع أخطر بكتير من مشاكل الفرد ولأن احنا عايشين في سفينة لو سبنا كل شوية حد يعمل خرم فيها السفينة هتغرق بينا كلنا.. ومش هيكون فيه حد هينجو.

الحكومة كانت متعودة من فترة طويلة على الضحك على الناس لأن مفيش غير الإعلام الحكومي زي القناة الأولى والأهرام.. الموضوع ده اتغير في آخر كام سنة (وعلى فكرة من باب الإنصاف فعلا فيه حرية للرأي في مصر أحسن بكتير من دول كتير في العالم العربي) وبدأت الناس تشوف المشاكل وتسمع عنها بشكلها الحقيقي وحجمها الطبيعي.. ورد فعل الحكومة دايما بيبقى يا إما يثير السخرية أو الشفقة. الناس مبقاش عندها ثقة في حكومتها والحكومة بتعتقد إن طالما الناس ساكتة فده معناه إنهم راضيين وخلاص أو على الأقل مفيش مشكلة لحد ما يتحركوا.

يوم ٢٥ يناير هو بداية.. بداية لإيه بالضبط؟ بداية لإننا نتحد مع بعض ونبدأ نضغط.. ويكون لينا مطالب محددة وشرعية يتفق عليها عدد كبير من المصريين.. وعشان مطالبنا دي يبقى ليها صدى هننزل كلنا في شكل اعتصامات ومظاهرات ومسيرات في كل مصر.. الهدف مش إننا نقلب نظام الحكم ولا نغير الرئيس بين يوم وليلة.. لأن المشكلة دلوقتي مبقتش في رئيس.. المشكلة دلوقتي بقت في سيستم لازم كله يتغير واحتمالات تغييره مرهونة بإننا كلنا نتغير ونطالب بالتغيير ونضغط ونجيب حقوقنا.

يوم ٢٥ يناير هو مش دعوة للفوضى بقدر ما هو مطالبة بالحقوق.. النزول للشارع والتعبير عن الغضب هو حق بيكفله الدستور المصري .. حق من حقوق الإنسان لأن الحكومة دي موظفة عند الشعب.. وأنا من حقي أعترض على سياستهم وأعترض على أطروحاتهم وأطالب بعزلهم. مينفعش نفضل عايشين في بلدنا وحاسين إننا مش بنمتلكه.. كل واحد فينا بيملك جزء من الوطن ده ومن حقه يعبر عن رأيه ويقنع بيه غيره وينشره..

يوم ٢٥ يناير لازم يكون يوم للمواطن العادي الكادح البسيط اللي مش لاقي لقمة عيشه.. اللي بيشتغل ١٨ ساعة عشان يدي بنته درس كيمياء.. أو اللي بيقف ٣ ساعات عشان طابور العيش.. أو اللي بيعمل جمعية عشان يقدر يشتري لحمة.. مع إني مش ولا واحد من دول بس ضميري بيحتم علي إني أساعد الناس دي كلها.. ومش بس الضمير العقل بيقول كده.. لأن لو استمرت الحالة دي في مصر قريب جدًا هيحصل مشاكل اجتماعية رهيبة وهنلاقي الناس بتقتل في بعضها وبتحقد على بعضها... رسالتي ليكم كلكم خلونا نركز في الرسائل اللي

بتوصل لكل الناس صح.. مش كل الناس فاهمين يعني إيه حرية ولا يفرق معاهم ديمقراطية. أنا هانزل يوم ٢٥ يناير.. مستحيل أقابل أي عنف بعنف زيه.. مستحيل أضرب أي حد هيضربني.. بس هادافع عن نفسي وأحمي نفسي.. ومستعد إني أموت شهيد لأن لازم عشان بلدنا تتغير ناس تنزل الشارع يكون عندها استعداد تضحي عشان بلدها.. مصر مش هتتغير من على الفيسبوك.. بس ممكن الفيسبوك يساعد في إننا نعرف الأخبار ونتابعها ونشوف الحقيقة عشان نتحرك على الواقع.

يا رب تكون رسالتي وصلت.

وأرجو إنكم تسامحوني على طول الرسالة.

603 Likes / 270 Comments / 140,198 Views

كنت أقوم بالتنسيق والحديث مع محمود سامي وأحمد ماهر ومصطفى النجار عبر البريد الإلكتروني من دبي. كان مصطفى ومحمود يعلمان أنني أعيش في الإمارات، ولكن الأقدار شاءت أن يحدث بيني وبين أحمد ماهر لقاء قبل مظاهرة الخامس والعشرين من يناير.

في ديسمبر ٢٠١٠، اتصل بي أحد منظمي المؤتمرات التابع لقناة الجزيرة ليوجّه لي دعوة للحديث في مؤتمر بقناة الجزيرة عن الإنترنت في العالم العربي في قطر. راقتني الفكرة لأنها ستكون أول زيارة لي لقطر؛ وهي فرصة مناسبة للتعرف على هذا البلد العربي الصغير حجمه القوي تأثيره، وكذلك رؤية قناة الجزيرة من الداخل وكيف تُدار فيها الأمور. كنت معتادًا في ذلك الوقت على الحديث في المؤتمرات والمحاضرات داخل العالم العربي وخارجه بسبب خبرتي في مجال الإنترنت وعملي في «جوجل». شاءت الأقدار أن يكون هذا المؤتمر في التاسع عشر من يناير؛ أي بعد أربعة أيام من إعلاني على الصفحة أن ٢٥ من يناير سيكون موعدًا حاشدًا للمظاهرات.

فكرت في إلغاء السفر والتركيز على الصفحة، ولكنني آثرت عدم تعديل الخطة لأنني أكره إلغاء أي التزامات دون سابق إنذار. قررت أن أذهب إلى قطر ولكنني سأمكث طَوال الوقت في غرفتي بالفندق قبل وبعد إلقاء كلمتي للتركيز في الصفحة وأغادر في نفس الليلة. وصلت إلى هناك صباح يوم ١٩ من يناير، وتوجهت إلى الفندق الذي ينعقد فيه المؤتمر. بمجرد وصولي هناك فوجئت بأن أحمد ماهر أيضًا

قد تمت دعوته هو وإسراء عبد الفتاح بصفتهما مدوّنَيْن ناشطَيْن على الإنترنت من مصر، وكانت صدفة غريبة.

قابلت إسراء وأحمد، ووجّهت لهما التحية سريعًا قبل بدء فعاليات الجلسة الأولى للمؤتمر. شاركت بكلمتي، ثم في وقت الغداء اخترت الجلوس مع المصريين على طاولة واحدة. سألت أحمد ماهر كشخص متابع للأحداث عن رأيه في يوم ٢٥ من يناير، قال لي إنه متفائل، وإن هذا اليوم سيكون أكبر من ٦ إبريل عام ٢٠٠٨. سألته هل حددتم الأماكن، فأخبرتني إسراء أن أدمن «كلنا خالد سعيد» ينسق حاليًا مع النشطاء والحركات السياسية، وسيعلن الأماكن قريبًا. كان شعورًا شديد الغرابة والطرافة في ذات الوقت؛ أتحدث مع مَن أُنسِّق معه للمظاهرات، أعرفه ولا يعرفني، وأسأله فيذكر وصفي وليس اسمي. والأطرف أنني بعد الغداء اتخذت موقعًا في جانب القاعة لا يراني فيه أحد وأرسلت رسالة عبر البريد الإلكتروني لأحمد ماهر أناقشه فيها عن الأماكن، فذكر لي أنه على سفر، وأن هناك مَن ينسق الأمر في القاهرة وسيردّ عليَّ.

كتبت لأحمد ماهر أنني استشرت أكثر من شخص من أعضاء الصفحة الذين أثق بهم وأعتقد أن المكان الأنسب هو دوران شبرا للتجمع؛ تخرج مظاهرات صغيرة من مختلف مناطق شبرا للتجمع عند الدوران؛ نظرًا لأن شبرا شهدت مظاهرات ضخمة للمسيحيين منذ أيام قليلة، وثبت أن الأمن لا يستطيع السيطرة على المظاهرات فيها؛ وكذلك لأن الإخوان المسلمين لديهم قوة لا يُستهان بها هناك، وطبيعة الحي الشعبي وشوارعه الضيقة تجعل من السهل حشد الناس للنزول والتحرك. واقترحت آنذاك أن تكون هناك خطة بديلة في حالة إحباط المظاهرة في شبرا؛ وهي أن يتوجه النشطاء لإمبابة ويقوموا ببدء المظاهرة من هناك. لم يكن أحمد مقتنعًا بشكل كبير، وطلب مني الانتظار للتنسيق مع الشباب على الأرض. في الحقيقة لم أكن مُهتمًّا بفرض وجهة نظري لأنني أعرف أن خبرتي في الشارع منعدمة.

اجتمع النشطاء أكثر من مرة، وأرسل لي ماهر ملخصًا لاجتماعهم بأنهم يُفكّرون في الخروج من المناطق الشعبية، وأن تتحرك الحشود من تلك المناطق إلى التحرير أو وزارة الداخلية. في رسالته لي دعا إلى أن يكون التركيز على القاهرة فقط وليس باقي

المحافظات، وأخبرني أن النشطاء سيقسمون أنفسهم على المناطق الشعبية المتفق عليها ليكونوا شرارة تجميع غيرهم من المتظاهرين، وسيتوجّه الجميع بعد ذلك إلى منطقة وسط البلد. أكد ماهر في رسالته على أهمية البدء في حشد الناس من صلاة الجمعة ٢١ من يناير وأن ننشر الدعاوى في الشارع بشكل أكبر.

في يوم ٢٠ من يناير أرسلت إلى ماهر أُخبره أننا تائهون، فلا يوجد شخص مسئول عن هذه المظاهرات، وكل واحد منا لديه فكرة ما عن مكان انطلاق المظاهرات. قال لي إن ميزة هذا التوهان أن الأمن نفسه تائه أيضًا. الآن أستطيع أن أقول إنه كان مُحقًّا. كنت أتحدث معه بناء على الاقتراحات التي تصلني بأهمية أن تكون المظاهرة في أكثر من مكان: جامعة الدول ودوران شبرا وميدان المطرية. مصطفى النجار أيضًا أرسل لي قائلًا إنه سينظم هو وفريقه مظاهرة، بها الأكاديميون والمهنيون، تنطلق من جامعة القاهرة وتتوجه إلى التحرير. أعجبتني فكرة أن المحامين والأطباء وأساتذة الجامعات سينطلقون من الجامعة؛ حيث إن الرسالة ستكون قوية.

كتبت يوم ١٧ من يناير مقالة عَنْوَنتُها بـ«نِفسي»، وهو تعبير مصريّ يعبر عن الأمنية والحلم. كنت حريصًا على أن أقرأها كل يوم، وأن أنشرها على الصفحة أكثر من مرة لأؤكد على أهدافنا وأحلامنا حتى لا يتوه ما نريد في وسط ما لا نريد.

هو أنتم عايزين إيه؟

من ساعة ما بدأت الصفحة وكل شوية يوصلني السؤال ده بصيغ مختلفة ومن أشخاص مختلفة.. منهم ناس عايزة تحبط الشباب وخلاص ومنهم ناس مقتنعة بإن البلد لازم تتغير بس مش فاهمين إيه الهدف اللي احنا بنحاول نعمله ومنهم ناس مش مقتنعة أصلًا إن البلد محتاجة تتغير وشايفين إن الاستقرار مهم جدًّا ومصر مش سهل إنك تغيرها من غير ما تحصل مشاكل كتير إحنا مش قادرين نستحملها.

فكرت شوية هو أنا كمصري نفسي في إيه؟ وحبيت أسأل كل واحد فيكم نفسه في إيه لأن أكيد مشاكلنا مختلفة حتى لو كان سببها واحد.

نفسي أحس إن لي صوت في بلدي.. باختار عضو مجلس الشعب بتاع دايرتي وباختار رئيس جمهوريتي.. مش عايز أحس إن صوتي مالوش لزمة وإن فيه تزوير بيحصل بغض النظر عن صوتي ورأيي.. مش عايز أروح لجنة الانتخابات فيقول لي: لأ خلاص إحنا صوتنا بالنيابة عنك ويضحك.. نفسي في ديمقراطية حقيقية مش مزيفة.

نفسي الفساد يتحارب في البلد.. مش عايز أعرف إن الحكومة الأمريكية عاقبت مرسيدس لأنها دفعت رشوة لمسئولين حكوميين في دول ومنها مصر والحكومة اتفقت مع أمريكا إن اسم المسئول ميطلعش لحد.. طب ليه؟ هو مش دي فلوس الشعب؟ ولما حد بيسرق بيتك من حقك تعرف مين هو وتشوفه بيتعاقب ويرجع اللي سرقه؟

نفسي المدرسين يغرزوا في الولاد والبنات حب العلم والتعلم.. مش سياسة الحفظ والصم.. ونفسي وزير التعليم بتاعنا يكون قامة علمية في مجال التربية.. والحكومة تدعمه بميزانية كبيرة لأن تعليم الأجيال الجديدة هو أملنا الوحيد لو عايزين نطور بلدنا.. إحنا عندنا عقول رائعة بنضيعها كل سنة بسبب الإهمال.

نفسي إن ضابط الشرطة يبقى زي زمان في الأفلام.. الشخص الوقور المحترم اللي بيراعي ضميره وبيتقي ربنا في السلطة اللي معاه.. يبقى متواضع بس حازم.. ميهينش اللي قدامه لمجرد إنه فقير ومعدم وفي نفس الوقت يرفع التحية لابن باشا لمجرد إن أبوه رجل أعمال مشهور.. نفسي يقفلوا التلاجات اللي في كل قسم عشان التعذيب.. ونفسي وكيل النيابة يبقى فعلا وكيل عن الشعب ويمثلنا ويراقب الضباط بشكل حقيقي.

نفسي نبطل واسطة ومحسوبية في البلد.. مش عايز أعرف إن ابن نقيب المحامين اتعين وكيل نيابة رغم إنه جايب مقبول.. ولا عايز أعرف إن فلان الفلاني أخد حتة أرض بسعر التراب لأنه صاحب الوزير الفلاني.

نفسي الرشوة تبقى جريمة كلنا بننكرها.. بدل ما نكون متعودين عليها.. ونفسي الشخص اللي يطلب رشوة يكون هو الغريب والمجنون مش العكس.

نفسي الحكومة تراجع طريقتها في توظيف الناس.. ملايين من الموظفين في الحكومة محدش بيستغلهم ومهاراتهم مع الوقت بقت ولا حاجة غير قراءة الجرائد وقزقزة اللب ده لو حضروا أصلًا.. نفسي كمان الناس اللي بتشتغل وبتتعب ميكونش مرتبه في الآخر ٥٠٠ جنيه يصرف نصهم مواصلات ويضطر يقبل الرشوة ويدخل الحرام لبيته.

نفسي الحكومة تبطل تتعامل مع الشعب على إنه شوية أطفال مش قادرين يفهموا فمضطرين يضحكوا عليهم.. الموضوع ده تسبب إن كلنا فقدنا الثقة في حكومتنا وأحيانا بتكون فيه أخبار حلوة وحقيقية والناس لمجرد إن خلاص عامل الثقة مبقاش موجود بيشككوا في الأخبار وبيعتبروها مؤامرة جديدة لتحسين الصورة.

نفسي الشعب يتعامل مع بعضه من غير طبقية.. والناس تبطل تأليه الأشخاص.. صحيح ربنا خلقنا غني وفقير بس ده ميمنعش إن المعاملة تكون متشابهة.. يا ريت نتعلم دي من الناس الأجانب اللي بتلاقي الشخص اللي سايق مرسيدس زي الشخص اللي سايق فيات.. محدش ليه أفضلية ولا احترام عن الآخر في حقوق الإنسان.. لأن أصلا داء الكبرياء بييجي للناس لما بيحسوا إن اللي حواليهم مدينهم أكتر من حقهم.. زي مثلًا لما بنقول كلنا للظباط يا باشا.

نفسي المسئول الحكومي يبقى فاهم إن معظم الإيرادات اللي بتحققها الدولة في الموازنة العامة من ضرائب الشعب.. وإنه بصفته موظف حكومي مرتبه ده من ضرائب الشعب.. يعني الفلوس اللي أنا وأنت وأي حد تاني بيدفعها شهريًّا للشركة (اللي هي الحكومة) هي اللي بتتسبب إنه ياخد مرتبه.. فيبدأ يتعامل مع الناس من منطلق إنه موظف عندهم مش مدير عليهم.. عمركم كلمتم الدعم الفني لشركة محمول ولقيتوا الشخص بيتنطط عليكم؟
نفسي نتخلص من السلبية اللي معرفش زرعوها فينا بقصد ولا بدون قصد وزرعوها ازاي.. بقينا من الشعوب اللي متأخرة تقريبا في كل حاجة ومتقدمة في الحاجات السلبية بس.. طب ليه؟ ليه كلنا عمالين نقول: البلد دي بلدهم ويا كش تولع وأنا مالي هو أنا هاغير الكون
نفسي نتعلم نختلف من غير ما نشتم بعض.. نفسي يكون فيه مسلم معتز بدينه وشايف إن المسيحي غلط.. ومسيحي معتز بدينه وشايف إن المسلم غلط بس الاتنين بيتعاملوا مع بعض باحترام وبيفرضوا في بعض حسن النية.. ومعندهمش خطوط حمراء في الكلام بيتكلموا بحرية واحترام مع بعض.. ومش خايفين من بعبع اسمه فتنة طائفية ضحكوا عليه بينا.. نفسي نفهم إننا كلنا مصريين وفي الدنيا حقوقنا متساوية وربنا هو اللي هيحاسبنا في الآخرة
نفسي منختزلش علاقتنا بالدين بإننا نسبح مائة مرة ونصلي على النبي خمسين مرة... لأن الدين أصلًا ربنا عمله منهج لحياة الإنسان والدين بيعلم الإنسان الإيجابية والبناء والمودة والرحمة وحسن الخلق والعدل ومحاربة الظلم.. كفاية إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.
نفسي نحب بعض.. نحب بعض بجد.. بقى عندي إحساس غريب إن الناس بتستغرب أي حاجة حلوة حواليها.. لو حد اجتهد وبيعمل حاجة عشان بلده يبقى أكيد عميل أو ممول من بره.. أو على أقل تقدير بيحاول يكسب شهرة.. ليه بقت مشاعر الغيظ والكراهية وسوء الظن طاغية على مشاعر الحب والوفاء وحسن الظن؟
على فكرة.. من حقي أحلم ومن حقي أسعى لتحقيق حلمي.. ومن حقك تحلم.. وبجد لو بطلنا نحلم نموت ـ أدمن كلنا خالد سعيد

1,689 Likes / 1,388 Comments / 440,064 Views

بمجرد الإعلان عن ٢٥ من يناير على الصفحة ارتفعت معدلات الاشتراك فيها من ٥٠٠ أو ٦٠٠ عضو جديد يوميًّا إلى أكثر من ٣٠٠٠ عضو. وصلنا إلى ٣٧٥ ألف عضو في ١٨ من يناير. كتبتُ رسالة على الصفحة بأهمية أن نتحد ونصبح على قلب رجل واحد لنحقق ما نحلم به. التعليقات على الصفحة أصبح متوسطها اليومي أكثر من ١٥ ألف تعليق يكتبه الأعضاء، الصفحة أصبحت خلية نَحْل لا تتوقف.

كان الخوف أن ما يحدث من زخم هو على الإنترنت فقط، عبّرت عن هذا الخوف الفنانةُ أمل كعوش والتي صممتْ لوحة فنية تقول: «هذا شارع، وهذا فيسبوك وليس شارعًا»، في إشارة إلى أن الثورة لن تحدث على الفيسبوك وستحدث في الشارع.

موعدنا ٢٥ يناير.. موعدنا لبداية تنظيم نفسنا والاعتراض على الأوضاع في الشارع الحقيقي بين الناس ووسطهم مش على الفيسبوك.. ٢٥ يناير هو بداية لازم كلنا نتحد فيها.. بداية لفترة جديدة من الإيجابية والمطالبة بحقوقنا.. بداية لحلم إننا فعلا يكون لينا صوت ورأي.. مش عايزين نبالغ في التفاؤل ونقول إن ٢٥ هيحصل فيه كل حاجة.. أكيد يوم ٢٥ مش هيكون هو النهاية للظلم والفساد.. لكن لو اتحدنا واتحركنا هو بداية النهاية.

393 Likes / 135 Comments / 107,699 Views

بدأتِ اللجنة الإلكترونية بالحزب الوطني في عمل حملة على الإنترنت والفيسبوك ضد النزول ليوم ٢٥ من يناير، وكانت الحملة تقوم على فكرة أن مَن سينزل يوم ٢٥ من يناير هم مجموعة من البلطجية والمخربين. التأكيد على سِلمية المظاهرات كان هامًّا لمواجهة حملات التشويه المنظمة.

مهم جدًّا لكل الشباب اللي هيشارك يوم ٢٥ يناير: إحنا مش بندعو لفوضى ولا تكسير ولا لاعتداء على أي ممتلكات عامة أو خاصة.. إحنا هننزل نطالب بحقوقنا نتظاهر ونعتصم وهندافع عن نفسنا بس لو اتعرضنا لأي اعتداء.. مهم جدًّا ويا ريت كلنا ننشر ده في الصفحات.

674 Likes / 163 Comments / 137,520 Views

أحد أعضاء الصفحة كتب تعليقًا مؤثرًا يؤكد على أهمية نجاح المظاهرات. نشرت التعليق لأُحمّس الناس وأواجه الأفكار الانهزامية:

لو جه يوم ٢٥ يناير ومحدش عمل حاجة وكله طلع كلام في كلام هيبقى موقف الشباب المصري زباااااالة قدام كل العالم وقدام الشعب كله ربنا يستر ومتتفضحش يوم ٢٥ يناير ونلاقي ١٠٠ شخص بس في الشوارع وبتوع الأمن المركزي يلموهم في العربيات وخلاااااااااص.

715 Likes / 538 Comments / 125,245 Views

في يوم ٢١ من يناير، أعلنتْ وسائل الإعلام عن وفاة أحد المصريين الذين أحرقوا أنفسهم تأثرا بقصة بوعزيزي في تونس. بدأ بعضُ النشطاء على تويتر والفيسبوك

يطالبون بالنزول الآن وعدم الانتظار للخامس والعشرين. نزلتْ بالفعل أعداد قليلة جدًّا لميدان التحرير، ولكن ما لبث أن وجدتْ قوات الأمن مستعدة للسيطرة على الموقف. حدثتْ بعض المشادات وانتهى الأمر على ذلك. محمود سامي وأسماء محفوظ كانا من ضمن النشطاء الذين نزلوا إلى الشارع. أسماء شابّة صغيرة السن ولكنها امتلكت جرأة وشجاعة النزول، وحينما لم تجد الشعب في الشارع قررت أن تسجل فيديو لتنشره على الإنترنت وتدعو فيه الجميع للنزول إلى الشارع يوم ٢٥ من يناير.

كان لهذا الفيديو أثرًا رائعًا في كسر حاجز الخوف عند الكثير من أعضاء الصفحة والذين تأثروا بأسماء وهي تذكر اسمها بدون خوف وتطلب من الجميع التحرك ضد الظلم والفساد والقهر. التعليقات على الفيديو في مُجملِها كانت إيجابية ومُشجّعة، والكثير وصف أسماء أنها بنت بمائة رجل؛ وهو تعبير مصريّ للدلالة على الشجاعة.

اهتمت الصفحة بشكل كبير في دعم فكرة التوافق وعدم تحويل اليوم لدعاية لصالح حزب أو حركة أو تيار، طلبتُ من جميع أعضائها الالتزام بفكرة النزول بأعلام مصر فقط. استمر التواصل والتنسيق، وتواصلتُ مع مشرف مجموعة على الفيسبوك بها أكثر من ألف مصور هاوٍ، اسمه إبراهيم المصري. وأبدى إبراهيم رغبة كبيرة في المساعدة. طلبت منه في التاسع عشر من يناير في رسالة عبر اشتراك «الشهيد» للتفاعل مع المظاهرات، تجاوَب بشكل سريع وقام بإنشاء حدث أسماه: «الكاميرا هي سلاحي»، وانضم له أكثر من ١٠٠ مصور أعلنوا مشاركتهم في مظاهرات ٢٥ من يناير بغرض التصوير. التصوير كان سلاحًا مُهمًّا لحماية المتظاهرين؛ لأن النظام يخشى من الإعلام أكثر من حرصه على أمن وسلامة المتظاهرين؛ وكذلك لأن التصوير يوصل الصورة الحقيقية للشعب المصري وللعالم الخارجي بغضّ النظر عما سيردده الإعلام.

أخبار الانتحار بدأت تزيد بشكل كبير في الشارع، وبدأت أبحث عن ظاهرة الانتحار في مصر عبر «جوجل» لأجد بحثًا فاجعًا. نشرت البحث والذي كان موجودًا على هيئة تقرير في جريدة الأهرام.

إنجازات الحكومة المصرية: فيه ١٢ ألف مصري انتحروا في آخر ٤ سنين! خمسة آلاف منتحر في ٢٠٠٩ وأكثر من ١٠٠ ألف محاولة انتحار في نفس السنة! والمعدل ده خمس أضعاف سنة ٢٠٠٥! يوميًّا فيه ١٤ مصريًّا بينتحروا والسبب الرئيسي هو البطالة والفقر وأكثر من ثلثي حالات الانتحار هي لشباب سنه تحت ٢٥ سنة. والمصدر هو الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء

278 Likes / 127 Comments / 114.521 Views

مع اقتراب يوم ٢٥ من يناير بدأت أشعر شخصيًّا بأن ما يحدث هو حلم؛ حلم لتغيير مصر، وبدأت أُجهّز نفسي لفكرة الموت من أجل هذا الحلم. لأول مرة في حياتي لم أخشَ الموت ولم أشعر بالخوف على مستقبلي أو مستقبل أبنائي، بل أردت أن ترى بلدي النور وتخرج من ظلمات النظام الاستبدادي.

حاسس بتفاؤل غير عادي وأمل كبير.. لأول مرة أسمع الناس العادية في الشارع بتتكلم عن يوم ٢٥ يناير وبتسأل بعضها هتشارك ولا لأه.. لأول مرة ٦٠ ألف شخص على الفيسبوك يقولوا إنهم هيحضروا.. لأول مرة الدعوة توصل لقرب المليون بني آدم على فيسبوك.. لأول مرة كل الزخم ده يحصل.. لأول مرة أحس إني نازل ومستعد أموت ومعنديش مشكلة لو ده هيرجع حق ولاد بلادي.

711 Likes / 170 Comments / 116,696 Views

في صباح يوم الخميس ٢٠ من يناير قلت على الصفحة إن أماكن الوقفات سيتم الإعلان عنها في تمام الثانية عشر مساء، والهدف كان ضمان انتشار الدعوة بين أوساط المصريين في صلاة الجمعة، والتي تُعدّ أكبر تجمع أسبوعيّ لكافة طوائف الشعب المصري باختلاف ثقافاته وبيئته. أعلنتْ بعض القوى الوطنية، والمشارِكَة في البرلمان الشعبي الموازي لبرلمان ٢٠١٠ المزوَّر، عن دعوتها للمشاركة في مظاهرات ٢٥ من يناير، وأعلنوا أن وقفتهم ستبدأ من أمام دار القضاء العالي. الإعلام اهتم بهذه الدعوة، بينما النظام تجاهلها كما كان يتجاهل دعوات الفيسبوك.

أعضاء البرلمان الشعبي قرروا أنهم ينظموا يوم ٢٥ يناير وقفة أمام دار القضاء العالي ومعاهم قائمة بمطالب وطنية.. البرلمان الشعبي هو برلمان أسسه مجموعة من السياسيين من مختلف قوى المعارضة والمستقلين بعد تزوير انتخابات مجلس الشعب.. الحمد لله فيه ناس كتير بتتحرك.

310 Likes / 53 Comments / 98,139 Views

سعدتُ جدًّا بتحركهم وعدم انتظارهم للتنسيق، فعبقرية يوم ٢٥ من يناير كانت في أن الدعوة لم تكن منظمة من جهة معروفة، وليس لها مخطط معين ما سواه باطل، بل على العكس، فكل مَن رأى عمل فعالية معينة مختلفة للتعبير عن رفض النظام كنت أساعده على نشر فعاليته في الصفحة.

فيه جروبات وصفحات تانية على الفيسبوك عاملين إعلانات لتجمع ومظاهرات ومسيرات في أماكن غير المتفق عليها.. ده شيء كويس ورائع.. لأن أصلًا فيه ناس كتيرة عايزة تشارك وانتشارنا هيفيد بحاجتين.. أولًا: إن المصريين كلهم يعرفوا ويشتركوا.. وثانيًا: إن الأمن ميبقاش عارف أماكن الانتشار أو يتفرق وميبقاش قوة واحدة في مكان واحد ويسيطروا على المظاهرات.. وشكرًا لكل الشباب الإيجابي.

494 Likes / 120 Comments / 131,805 Views

الحشد الهائل الذي كان يحدث دفعني لكي أؤكد أن حربنا ليست شخصية مع الشرطة. لم أُرِد للمظاهرات أن تكون تصادمية مع الشرطة، وأكثر من مرة على الصفحة حتى وقت الحشد وبعد ١٤ من يناير نشرتُ أخبارًا عن ضُباط أشراف. نشرت عن ضابط مصري رفض ١٥ مليون دولار رشوة ونشرت اسمه، واحتفينا به على الصفحة. كما كنت قد اعتذرت عن اتهامي لأحد الضباط بالتقاعس عن حماية كنيسة القديسَيْن بعدما تبين أنه أُصيب، وأعلنت أنني أعتذر له وأحَييه هو وكل ضابط شريف.

زي ما بنحارب الفساد في جهاز الشرطة.. لازم نساند الخير.. الشرطة فيها شهداء كتير ماتوا عشان بيؤدي مهمته اللي هيه في الأصل حِمايتي وحمايتك.. إحنا مش ضد الشرطة كجهاز بس إحنا ضد ممارسات الشرطة وضد أي انتهاك لحقوق الإنسان.. لو فيه ضابط محترم هاكون أول واحد أفتخر إنه أخ لي.. لازم ندعم الخير زي ما بنحارب الشر.

605 Likes / 125 Comments / 108,950 Views

أحد نشطاء مدينة المحلة المعروفة بإضراب ٦ إبريل ٢٠٠٨ على تويتر واسمه محمد مرعي أخبرني أن عُمّال المحلة أعلنوا مشاركتهم في فعاليات ثورة ٢٥ من يناير وبأعداد كبيرة، نشرتُ الخبر لشحذ الهِمَم على الصفحة.

عمال المحلة نازلين يوم ٢٥ يناير.

578 Likes

كان الوقت يمر بسرعة رهيبة، وكان يجب على كل النشطاء الاتفاق على أماكن التجمع لنُعلنها. محمود سامي رجع إليَّ ليخبرني أنه وباقي النشطاء اتفقوا على كل ما يتعلق بمظاهرة جامعة الدول، ومصطفى النجار أكد لي على أن المهنيين سيشاركون في مظاهرة جامعة القاهرة مع احتمال تغيير المكان في اللحظة الأخيرة، وماهر أكّد على موافقته على مظاهرة شبرا على أساس التحرك لميدان التحرير، واخترت أنا ميدان المطرية كمكان للمظاهرات للنصف الآخر من القاهرة. أعلنتُ الأربعة الأماكن على الصفحة وبدأتِ المعلومة في الانتشار بين الجميع.

بدأ أعضاء الصفحة في تصوير أنفسهم مؤكدين مشاركتهم في مظاهرة ٢٥ من يناير، وأرسلتِ الدكتورة دعاء العشري؛ أحد أعضاء الصفحة، مقطع فيديو رائعًا يصف الحالة المزرية التي وصل إليها المصريون من فساد في كل المجالات كالصحة والتعليم والأمن والغذاء. كما قام كثير من المصممين بتصميم لافتات مُعبّرة عن اليوم.

نجاحنا من دلوقتي مرهون بحاجتين: أولًا إصرارنا كلنا على النزول للتظاهر مهما كانت الظروف ومحدش فينا يتكل على إن ناس كتير بتروح لأن ده سبب دايمًا المشاركات القليلة.. ثانيًا توصيلنا للرسالة لكل الناس اللي في الأحياء الشعبية عشان حتى لو مش هيشاركونا يدافعوا عننا.. لازم كلنا نتحرك في الشارع دلوقتي ومنكلمش نفسنا على الفيسبوك.

348 Likes / 68 Comments

الأحداث كانت تتسارع وبدأ النظام يَزيد من رَدّ فعله الذي يُظهر خشيته، وبدأت بعض الشخصيات المثيرة للجدل والموجودة على الإنترنت في ترويج شائعات تؤكد سفر جمال وعلاء مبارك وهروب رجال أعمال من مصر وغيرها. أرسل لي أحد هؤلاء رسالة على بريد الصفحة الإلكتروني يطلب مني نشر هذه الشائعات لشحذ الهِمَم فرفضتُ بشدة، وقررتُ أن أقوم بحملة ضد فكرة ترويج الشائعات حتى ولو كانت في صالح الثورة؛ لأن الغاية عندي لا تُبرر الوسيلة. الحملة قوبلت بالكثير من الاحترام من أغلب شباب الصفحة.

في اقتراحات كتير بتوصلني بأني أنشر شائعات تخدم يوم ٢٥ يناير.. وردي هو مستحيل أكتب خبر كذب على إنه حقيقي لأن عمري في حياتي ما هتبع منهج الغاية تبرر الوسيلة.. قولوا عليّا سياسي فاشل أو شخص ساذج بس أنا لي مبدأ وهو إني أحترم نفسي وأراعي ضميري وأخاف من ربنا وميهمنيش أخسر ولا أنتصر.

600 Likes / 164 Comments / 123,933 Views

تفاعلتْ والدة خالد سعيد مع الدعوة، وقام أحد النشطاء من حملة البرادعي بتسجيل مقطع فيديو لها تدعو فيه الجميع للنزول والمشاركة في المظاهرات السلمية. العديد من المصريين في الخارج، خاصة في أوربا وأمريكا، أيضًا تفاعلوا مع الدعوة وبدءوا في إرسال صورهم وهم يحملون أوراقًا بها التاريخ وموقفهم المؤيد. الحشد بدا واضحًا والجميع بدا مُستعدًّا.

في معسكر التجنيد لم يكن عبد الرحمن منصور على علم بسرعة تطور الأحداث حتى زاره أخوه وصديق آخر يوم الجمعة ٢١ من يناير. كان الاثنان يعرفان أنه أدمن على صفحة «كلنا خالد سعيد»، وأرادوا أن يُبلّغوه الأخبار السعيدة؛ أن هناك ١٠٠ ألف عضو على الصفحة أكدوا حضورهم المظاهرات يوم ٢٥ من يناير، وأن الدعوة وصلت لمليون مستخدم على الفيسبوك. كان عبد الرحمن سعيدًا سعادة تفوق الوصف، ولكنه نَدِم لعدم قدرته على المشاركة.

لا شيء أكتبه هنا بوسعه أن يُعبّر عن شعوري وأنا أرى الحماس يتعاظم ككرة الثلج. كان المصريون مستعدين للقيام بعمل عظيم، لم نكن نعلم أننا بعد سنوات من المعارَضة المتعثرة أصبحنا جاهزين لثورة شعبية حقيقية.

الفصل السادس

٢٥ من يناير ٢٠١١

كان موعد سفري من دبي إلى القاهرة هو الثالث والعشرين من يناير في الرابعة فجرًا. قبل السفر بساعات تزايد إحساسي بالخوف والقلق مما قد يحدث. اتصلت بنجيب؛ وهو أحد زملائي في العمل بشركة «جوجل»، ومن القلائل الذين يعرفون نشاطي السياسي الافتراضي، وأعطيته بعض الإرشادات الخاصة بسلامتي، وكلمة السر الخاصة بالاشتراك الوهمي على الفيسبوك الذي أستخدمه لتحديث صفحة «كلنا خالد سعيد»؛ ليتمكن من تحديثها إذا لم أقم بذلك في أي يوم لأكثر من اثنتي عشرة ساعة. أرسلت رسالة لنادين في أمريكا أخبرتها فيها أنني مسافر إلى مصر، وأنه في حالة حدوث مكروه لي عليها أن تنتظر عدة أيام قبل إعلان أنني مشرف الصفحة. كنا قد اتفقنا أنه في غيابي سيقوم أحمد صالح بإدارة الصفحة؛ وهو ناشط تعرفه هي جيدًا وصديق لعبد الرحمن منصور ومصطفى النجار. أردت أن أكون مُطْمَئِنًا أن الصفحة سيتم تحديثها باستمرار حتى لو تم القبض عليّ، فلم أكن أريد أن يشك أحد أنني مشرفها. قبل ذلك بأسبوع، كنت قد طلبت من مديري المباشر؛ والذي يعمل من فرع الشركة في تركيا، إجازة قصيرة لظروف شخصية تتطلب وجودي بالقاهرة. قلت في قرارة نفسي إن لم تكن المظاهرة كبيرة فسأعود بعد يومين أو ثلاثة، أما إذا كانت المظاهرات كبيرة فلن تُشكّل ملابسي القليلة أو الإجازة الرسمية القصيرة عقبة أمام مساهمتي في تحرير مصر من الدكتاتور الذي يحكمها.

قبل مغادرة المنزل، جلست مع أبنائي قليلًا قبل أن يخلدوا للنوم، وشرحت لإسراء

أن سبب سفري هو حضور مظاهرة ضد حسني مبارك؛ لأن المصريين لا يريدونه أن يكون رئيسَهم بعد الآن. كانت إسراء تعرف مَن هو مبارك؛ فقد كنت كثيرًا ما أحرص على الحديث معها عن الوضع في مصر. شرحت لها أن مبارك وحكومته مسئولون مسئولية مباشرة عن تدني أحوال مصر. أما آدم ابني فكان أصغر من أن يفهم تمامًا أسباب مظاهرات ٢٥ من يناير. طلبت منهما أن يُعامِلا بعضهما البعض معاملة طيبة، وألا يُرهقا والدتهما طوال فترة غيابي، ثم احتضنتهما وأخبرتهما أنني سأفتقدهما جدًّا، وأنني سأعود لهما في أسرع وقت ممكن.. كنت أقول ذلك وفي قرارة نفسي لا أعرف متى سأعود.

بعد تجهيزي لكافة ملابسي رأيت نظرات القلق والخوف على وجه زوجتي، لم تكن خائفة وقلقة فقط، بل كانت أيضًا غاضبة. أخذتْ تُعاتبُني على كل ما فعلْته خلال الأشهر الأخيرة والذي كان بالأساس على حساب حياتنا الشخصية وتربية أولادي. وصفَتني في نقاشها معي بالأناني؛ لأنني لم أفكر في تبعات وعواقب ما أقوم به عليها وعلى آدم وإسراء. سألَتني ماذا إن تعرضَتْ حياتي للخطر وحدث لي مكروه، من سيرعاهم من بعدي؟ كنت مُتفهمًا لمشاعرها، وكانت مُحقّة في كل شيء، ولكن ردي عليها أن الأمر أصبح أكبر من أن أُفكر في عدم المشاركة فيه، وأنه لا يمكن أن أدعو لمظاهرة وأجلس في بيتي لأتابعها، وطمأنْتها أنني سأكون بخير.

قبل أن أترك المنزل صعدتُ لغرفة الأولاد. كانا مستغرقَيْن في النوم تمامًا فقبَّلْتهما مرة أخيرة. دخلتْ «إلكا» إلى غرفتنا وجاءت ومعها «حظاظة» خضراء؛ كنا قد حصلنا عليها في أحد الأنشطة الخيرية للتضامن مع مرضى السرطان. طلبتْ مني أن أرتديها طَوال الوقت في المظاهرات حتى أفكر فيها وفي الأولاد دائمًا؛ ولأتذكر أن أحافظ على سلامتي وأعود إليهم بأمان. ضممتها بقوة إلى صدري وودَّعتها ووعدتها ألا أُعرّض نفسي للخطر قدرَ ما أستطيع.

مشهد ذهابي إلى المطار لا أنساه؛ كنت أشعر بقوة ممزوجة بطعم الخوف من المجهول. استمعت إلى موسيقى «Hans Zimmer» المعروفة والخاصة بفيلم «Inception». مشاهد مرور سيارة الأجرة بسرعة في شارع الشيخ زايد ذي الأبراج

العالية متوجهًا إلى المطار مع الموسيقى المثيرة كان شديد السينمائية. تذكرت خلال تلك الرحلة التي استغرقتْ قرابة نصف الساعة شريطًا كاملًا من الأحداث ابتداء من تأييدي للبرادعي ودخولي معترك الحياة السياسية في مصر دون رغبة ولا خطة مسبقة، مرورًا بإنشائي لصفحة خالد سعيد، إلى الوقفات الصامتة ومواقفي من فكرة المظاهرات، وأخيرًا إلى الدعوة للثورة على الظلم والفساد والتعذيب والبطالة في الخامس والعشرين من يناير؛ والذي أصبح على بُعد ٤٨ ساعة. بدأت أتمتم بالدعاء وأُعدّ نفسي لأكون مُستعدًّا للموت في سبيل الحلم.

بعد مروري من الجوازات جلست في صالة السفر ودخلت على الإنترنت من جهاز الكمبيوتر المحمول وأخذت أحذف كل الحوارات الإلكترونية التي دارت بيني وبين آخرين والمتعلقة بترتيبات ٢٥ من يناير. لم أكن أريد أن أُتيح الفرصة للأمن المصري ليعرفوا أي تفاصيل من خلال المناقشات التي دارت خلف الكواليس حتى لا أُعرض أي شخص للخطر في حال اعتقالي. وأثناء ذلك كنت حريصًا على أن أكتب على الصفحة أو أحدثها كل نصف ساعة على الأقل. كان اختفائي لمدة ٤ ساعات؛ وهي فترة الرحلة وإجراءاتها، مؤرقًا بالنسبة لي؛ ولذلك بمجرد صعودي الطائرة أجبرت نفسي على النوم حتى أستفيد من الوقت الضائع في الطائرة بلا إنترنت في النوم.

وصلتُ إلى القاهرة بعد رحلة كنت نائمًا في معظمها، وقبل دخولي إلى الجوازات كتبت رسالة قصيرة على جهازي المحمول كانت موجهة إلى نجيب؛ زميلي في العمل. نص الرسالة كان يقول: «يتم القبض عليّ الآن في مطار القاهرة». الرسالة كانت مسودة جاهزة للإرسال، وكل ما كنت أحتاجه هو الضغط على زر الإرسال بالمحمول. نظرت إلى ضابط الجوازات والذي أخذ جواز سفري مُبتسمًا، وطلب مني الجلوس حتى أنتهي من الإجراءات الأمنية المعتادة؛ لأن اسمي ما زال على قائمة تَرقُّب الوصول. انتظرت عشر دقائق تقريبًا، ثم جاء أحد أمناء الشرطة لينزل معي إلى الصالة الحمراء لتفتيش حقائبي. نفس الطريقة الروتينية لاستقبالي.. ولا جديد.

سألني أمين الشرطة سؤالًا اعتدت عليه منذ سنوات: «هو حضرتك عملت إيه يا باشا؟ اسمك في القائمة ليه؟»، رددت عليه مازحًا: «اسمي في القائمة عشان بافهم.. أصل الحكومة في مصر ضد أي حد بيفهم». لم يفهم مزحتي، فقلت له: «أنا مش باحب حسني مبارك وعشان كده اسمي في القايمة». تمتم بصوت خافت بعبارات تؤكد على عدم حبه هو الآخر لمبارك فقلت له: «إن شاء الله دي هتكون آخر مرة هتفتش فيها، لأننا هنبقى زي تونس يوم ٢٥ يناير». ابتسم بشكل دبلوماسي وعلامات الريبة والشك أو عدم الفهم على وجهه واستكمل معي إجراءات التفتيش الروتينية.

خرجت من المطار مُقرِّرًا ألا أذهب إلى البيت، بل إلى فندق راديسون؛ والذي كنت معتادًا على النزول فيه كلما جئت للقاهرة في رحلة عمل أحتاج فيها للتركيز بعيدًا عن الجو العائلي في بيت أسرتي. كان أيضًا السبب هذه المرة أمنيًّا؛ لأن السكن بعيدًا عن البيت يعطي أهلي فرصة الاتصال بي وتحذيري في حالة محاولة الأمن القبض عليَّ من البيت.

استمررت في الحشد على الصفحة، وأخذت أنشر الصور والتصميمات والكتابات الداعية للنزول والمشاركة في الثورة والتي كان ينشرها الأعضاء على الصفحة. حاولت أن أبثّ في الصفحة الثقة بالنفس والإيمان بقدرة الشباب على التغيير، وأبرزت ردَّ فعل الحكومة الخائف والمرتعد.

قررت أن أجمع كل المعلومات عن يوم ٢٥ من يناير في وثيقة يَسهُل طباعتها وانتشارها على الإنترنت حتى نكون جميعًا على قلب رجل واحد. كتبت ورقة كاملة عن سبب التظاهر، وسر اختيار اليوم، وأماكن المظاهرات، والهتافات الموحدة، وكذلك أرقام هواتف النشطاء المسئولين عن غرف العمليات لدعم المتظاهرين في حالة القبض عليهم أو توجيههم لأماكن أخرى للتظاهر في حالة تفريق المظاهرات. انتشرتِ الورقة بشكل كبير حيث إن أكثر من ٥٠ ألف شخص دخلوا على النسخة الرسمية لها والتي كتبتها على موقع «Google Docs»، وانتشر نص الورقة على مختلف المنتديات والمواقع الاجتماعية والسياسية والإخبارية.

كل ما تريد أن تعرفه عن مظاهرات ثورة يوم ٢٥

ملاحظة هامة: يرجى زيارة الصفحة بشكل مستمر حيث إنه سيتم تحديثها بكل جديد.

مَن نحن؟

بدأت الدعوة للتظاهر يوم ٢٥ يناير من صفحة كلنا خالد سعيد وهي صفحة على الفيسبوك اتعملت عشان قضية الشهيد خالد سعيد اللي اتقتل من التعذيب والضرب في الشارع في إسكندرية يونية ٢٠١٠. الدعوة كانت عفوية ولم يكن مخطط لها من أي قوى سياسية أو شعبية. وبعد ما نشرت الدعوة وبسبب أحداث تونس تشجع كل المصريين للمطالبة بالمشاركة ونشر الفكرة. الصفحة لا تتبع أي حزب أو جماعة أو حركة أو جمعية فالصفحة مستقلة بذاتها وهي لا تؤيد شخصًا أو فكرة هي لكل المصريين الذين يريدون الدفاع عن حقوقهم. والصفحة قائمة على جهود ذاتية من الأعضاء في الصفحة وده كان سر نجاحها.

لماذا نتظاهر؟

تمر مصر بواحدة من أسوأ مراحلها التاريخية في كل النواحي. فبرغم التقارير التي تذكرها الحكومة المصرية لتجميل الصورة إلا أنه وللأسف الحقيقة مختلفة عن تلك التقارير. ونزولنا جميعًا يوم ٢٥ هو بداية للنهاية، نهاية كل الصمت والرضا والخنوع لما يحدث في بلادنا وبداية لصفحة جديدة من الإيجابية والمطالبة بالحقوق. يوم ٢٥ يناير هو مش ثورة بمعنى انقلاب لكن هو ثورة ضد الحكومة لنقول لها إننا بدأنا الاهتمام بشئون بعضنا البعض وسنأخذ كل حقوقنا ولن نسكت بعد اليوم.

فهناك ٣٠ مليون مصري مريض بالاكتئاب منهم مليون ونص مرضى بالاكتئاب الجسيم وأكثر من مائة ألف محاولة انتحار خلال عام ٢٠٠٩ تسببت في وفاة ٥٠٠٠ شخص. لدينا ٤٨ مليون فقير منهم مليونان ونصف المليون يعيشون في فقر مدقع. لدينا ١٢ مليون مصري بدون أي مأوى ومنهم مليون ونصف يعيشون في المقابر.

هناك فساد منهجي أدى إلى وجود قضايا فساد تزيد قيمتها جميعا بأكثر من ٣٩ مليار جنيه خلال عام واحد فقط. ومصر تحتل المركز ١١٥ بين ١٣٩ دولة في تقرير التنافسية العالمية من حيث الفساد الحكومي.

هناك أكثر من ٣ مليون شاب عاطل ونسبة البطالة بين الشباب تجاوزت ٣٠٪. ومصر تحتل المركز الأخير بين ١٣٩ دولة في معدل الشفافية في التوظيف.

لدينا أعلى معدل لوفيات الأطفال في العالم بواقع خمسين طفلًا كل ١٠٠٠ ولادة. ونصف أطفال مصر تقريبًا مصابون بأنيميا و٨ ملايين شخص مصاب بفيروس سي. ولدينا أكثر من ١٠٠ ألف مصاب بالسرطان سنويًّا بسبب تلوث المياه. ولدينا سيارة إسعاف لكل ٣٥ ألف مواطن.

في مصر قانون للطوارئ تسبب في وفاة عشرات المصريين من التعذيب والقبض على الآلاف منهم دون وجود أي سند قانوني لعمليات القبض عليهم. وبسبب استخدام الأمن لمراقبة السياسيين وإجهاض نشاطهم فقد نتج عن ذلك تزوير فاضح في انتخابات مجلس الشعب أدى إلى أن الحزب الحاكم يحصل على أكثر من تسعين بالمائة من مقاعد المجلس.

لمعرفة المزيد ومصادر هذه المعلومات يرجى مشاهدة هذا الفيديو.

لماذا يوم ٢٥ يناير؟

في عام ١٩٥٢ قاوم أجدادنا في جهاز الشرطة ببنادقهم العادية الجيش البريطاني بدباباته وجيوشه فاستُشهد منهم ٥٠ وأُسر أكثر من ١٠٠ وضَربوا أروع الأمثلة في التضحية من أجل الوطن. ونحن بعد أكثر من خمسين سنة نعاني الآن من ممارسات جهاز الشرطة الذي أصبح أداة لتعذيب المصريين وإهانتهم. وقد اخترنا هذا اليوم بالذات لأنه يرمز إلى التحام الشرطة مع الشعب وهذا ما نرجو يوم المظاهرة أن يلتحم معنا الضباط المحترمون لأن قضيتنا واحدة.

يوم ٢٥ يناير هو إجازة رسمية مما يمنح لكل المصريين المشاركة دون تعطيل أعمالهم.

ما هي مطالبنا؟

المطلب الأول: مواجهة مشكلة الفقر قبل أن تنفجر وذلك باحترام حكم القضاء المصري بزيادة الحد الأدنى للأجور زيادة عادلة خاصة في مجالات الصحة والتعليم لتحسين الخدمات المقدمة للشعب. والعمل على صرف إعانات تصل إلى ٥٠٠ جنيه مصري لكل شابّ خريج جامعي لا يستطيع الحصول على وظيفة وذلك لفترة محددة.

المطلب الثاني: إلغاء حالة الطوارئ والتي تسببت في سيطرة الجهاز الأمني على مصر والقبض على المعارضين لسياسات الحكومة ووضعهم في المعتقلات دون أي ذنب. ونحن نطالب بفرض سيطرة النيابة على الأقسام لوقف عمليات التعذيب المنهجية التي يتم ممارستها في أقسام الشرطة. وتنفيذ أحكام القضاء واحترامها من قِبل الحكومة المصرية.

المطلب الثالث: إقالة وزير الداخلية حبيب العادلي بسبب الانفلات الأمني الذي تواجهه مصر متمثلًا في الحوادث الإرهابية وانتشار الجرائم التي حدثت على يد ضباط أو عناصر من وزارة الداخلية دون وجود الرادع القوي.

المطلب الرابع: تحديد مدة الرئاسة بحيث لا تتجاوز فترتين متتاليتين لأن السلطة المطلقة مفسدة ولأنه لا توجد دولة متقدمة تسمح لرئيس الجمهورية البقاء عشرات السنين في منصبه.

من حقنا أن نختار رئيسنا ومن حقنا ألا يستبد أحد بالسلطة فيحكم البلاد حتى يموت.

طبعًا هناك مطالب كثيرة لكل المصريين في مجالات زي الصحة والتعليم والبداية هي أننا نتحرك مع بعض ونحقق مطلب مطلب عن طريق الضغط على الحكومة وده دورنا كشعب إننا نوجّه الحكومة ونحاسبها على أدائها ونحدد أولوياتها مش العكس.

أماكن وتوقيت المظاهرات:

مهم جدًّا إننا نفهم إن هدف المظاهرة هو إننا نحشد كل الناس معانا. الناس كلها متضايقة ومظلومة ومش راضية عن حال البلد يبقى لازم نشجعهم يشاركوا وعشان كده عايزين نعمل مسيرات في كل المناطق الشعبية والناس تنزل مع بعض في مسيرات أكتر من عشر أشخاص لحد مكان المظاهرة ده مهم جدًّا. وعلى فكرة أماكن المظاهرات مش مقصورة على الأماكن المذكورة هنا لأن فيه مظاهرات في أماكن تانية لم يعلن عنها وهيتنظم فيها مظاهرات في محافظات مختلفة. المهم إنك تنزل وتعبر عن رأيك وغضبك بالطريقة اللي تقدر عليها.

القاهرة الكبرى

- دوران شبرا
- دوران المطرية
- أمام جامعة القاهرة
- شارع جامعة الدول العربية

ملاحظات مهمة: فيه جهات أخرى منظمة مظاهرات ومسيرات في أحياء شعبية في كل أنحاء القاهرة والجيزة وحلوان لو كنت في منطقة شعبية انزل يوم ٢٥ يناير وانضم ليهم.

الإسكندرية

تم تحديد مكانين للوقفة: المكان الأول هو ميدان محطة مصر والمكان الثاني هو ميدان المنشية. على أن تتحرك مسيرات من كل مناطق الإسكندرية تسير عبر الكورنيش أو الشوارع الجانبية وذلك للوصول إلى نقاط التجمع في توقيت المظاهرة بالضبط.

فيه مظاهرات أخرى ستخرج من أماكن غير معلن عنها ولمعرفة التفاصيل اتصلوا يوم التلات بعد ٩ صباحًا على التليفون: ٠١٥٢١٥٤٣٩٧٨.

الإسماعيلية

شارع الثلاثيني وشارع السكة الحديد بجوار حمزاوي - رابط الدعوة على الفيسبوك في الإسماعيلية.

المنصورة

سيتم تحديد المكان يوم الاثنين الموافق ٢٤ يناير وللمعلومات متابعة رابط الدعوة على الفيسبوك في المنصورة.

الفيوم

مسيرة كبيرة سيقوم بها أهالي الفيوم تبدأ من ميدان الحواتم ببندر الفيوم تمام الساعة الثانية ظهرًا.

المحلة الكبرى

ميدان البندر وميدان الشون ومنطقة الشعبية والجمهورية وسيتم التجمع في مكان خامس سيتم الإعلان عنه في المظاهرة. رابط الدعوة

طنطا

أمام مبنى المحافظة بمدينة طنطا والتجمع الساعة الثانية بالضبط.

سوهاج

سيتم تحديد المكان يوم الاثنين الموافق ٢٤ يناير وللمعلومات متابعة رابط الدعوة على الفيسبوك في سوهاج.

باقي الأماكن: يُرجى النزول لأسفل الصفحة والوصول لفقرة أرقام تهمك للحصول على أرقام مُنسقي المظاهرات في محافظتك.

إرشادات التظاهر

١ ـ المظاهرة سلمية. نحن دعاة سلام ولسنا دعاة عنف. نحن نطالب بحقوقنا ومن الأَوْلى أن نحافظ على حقوق الآخرين. لن نستجيب لأي محاولات استفزاز من الأمن عشان يخرجنا من شعورنا ويحصل اللي هما بيخططوا ليه. هدف رئيسي من أهداف الأمن هو تصوير المتظاهرين على إنهم شوية بلطجية عايزين يخربوا البلد. يجب ضبط النفس وعدم التهور وعمل أي شيء يخالف القانون أو يعرض حياة أي شخص لخطر أو يتسبب في الإضرار بأي ممتلكات عامة أو خاصة. وفي حالة تواجد أي أفراد بيقوموا بأي عمل عنيف يُرجى التكتل حول الشخص واستبعاده الفوري من داخل المظاهرة وإبلاغ الأمن عنه.

٢ ـ يُرجى التواجد في مكان المظاهرة في الوقت المحدد بالدقيقة. التأخير يتسبب في تشتيت الجهود واحتمال فشل المظاهرة. التواجد في نفس الوقت يجعل من السهل بَدْء المظاهرة ويصعب على الأمن فرصة منعها.

٣ ـ عند النزول من البيت لا تحمل أي شيء لا تحتاجه مثل كارنيهات أو الرخص أو بطاقات البنوك. احمل بطاقتك الشخصية ومبلغ كافي لأي طوارئ. ويا ريت متجيبش ساعتك أو أي حاجة تتكسر بسهولة. الزيّ الأفضل يكون رياضي أو جينز مع وجود جاكيت للحماية من البرد في حالة استمرار المظاهرة أو الاعتصام لوقت طويل. يا ريت كل شخص يجيب معاه قزازة مياه كبيرة لأنه داخل المظاهرة بيكون دايمًا في عجز في المياه.

٤ ـ يرجى إحضار علم مصر وعدم إحضار أي شعارات أو لافتات خاصة بأي حزب أو حركة أو جماعة أو جمعية أو طائفة دينية. اليوم لكل المصريين لأننا جميعًا نطالب بالمساواة في الحقوق والعدالة الاجتماعية ومش عايزين نتفرق.

٥ ـ في حالة عدم نزولك لأي مظاهرات لا تكن في الصفوف الأمامية واترك الصفوف الأمامية لمَن هم أكثر خبرة على قيادة المظاهرة أو المسيرة عشان ميحصلش لخبطة في اتخاذ القرارات.

٦ ـ الهتافات موحدة ومتفق عليها. يُرجى عدم استخدام أي ألفاظ بذيئة أو الدخول في معارك جانبية مع أفراد الأمن. الأمن المركزي مش هو عدوك. هو مجند تم إجباره أثناء خدمته في الجيش على القيام بهذا الدور وفي حالة عدم طاعته للأوامر يتم معاقبته بأقصى العقوبات. حاول بقدر الإمكان تركز مشاعر غضبك نحو عدوك الحقيقي.

٧ ـ المحاولة قدر الإمكان لعدم تعطيل المرور في الشوارع. نحن لا نعاقب المواطنين نحن نطالب بحقوقنا. طبعًا باتكلم عن التعطيل المتعمد للمرور. لأنه في حالة نزول عشرات الآلاف في أي شوارع سيتم تعطيل المرور ومش ده اللي بنتكلم عليه.

٨ ـ متنزلش لوحدك.. أكرر مهم جدًا متنزلش لوحدك لأن الأصحاب بيفيدوا في الظروف دي. يا ريت تكون مع حد واقنع حد صاحبك تنزلوا مع بعض. زي ما بننزل الاستادات وقت الماتشات.

الهتافات الموحدة

فكرة الهتافات الموحدة هي من أهم أفكار التظاهر. كلنا نازلين لمصر ولازم نوحد صفوفنا ونكون إيد واحدة. هنلتزم بالهتافات مع بعض كلنا وهنركز على قضايا البطالة والفقر لأن دي القضايا اللي بتهم المصريين كلهم، ودي الهتافات اللي تم الاتفاق عليها:

- تحيا مصر .. تحيا مصر
- عيش .. حرية .. كرامة إنسانية
- حرية .. حرية .. حرية .. حرية
- يا حرية فينك فينك .. الطوارئ بيننا وبينك
- مش هنخاف مش هنطاطي .. إحنا كرهنا الصوت الواطي
- شعب تونس يا حبيب .. شمس الثورة مش هتغيب
- بالروح بالدم .. نفديك يا وطن
- أُرفع صوتك قول للناس .. احنا كرهنا الظلم خلاص
- واحد اتنين .. احنا المصريين
- صحي الخلق وهز الكون .. مصر بلدنا مش هتهون
- لما شعب تونس قام .. هرب اللص والمدام
- حد أدنى للأجور .. قبل الشعب ما كله يثور
- حقي ألاقي شغل وأعيش .. والملاليم ما بتكفيش
- يلا يا مصري صحي الروح .. الحرية باب مفتوح
- يلا يا شعب عدّي الخوف .. خلي الدنيا تصحى تشوف
- شعب حضارة ومجد سنين .. مش هيطاطي ليوم الدين

لينكات تهمك

- صفحة كلنا خالد سعيد على الإنترنت
- الصفحة الرئيسية للدعوة ليوم الثورة على الفساد والبطالة والظلم والتعذيب
- الدعوة الخاصة بوقفة محامي مصر لحماية المشاركين في المظاهرات
- جبهة الدفاع عن متظاهري مصر

يشاركون في المظاهرات

يجب الإشارة إلى أن المشاركة الأكبر في هذه المظاهرات ستكون من الجماهير المصرية غير المهتمة بالسياسة. لأن الدعوة وصلتهم ولمست مشاكلهم ومآسيهم. ولهذا فإن الدعوة من الأساس خرجت غير مسيسة وخرجت من صفحة «كلنا خالد سعيد» والتي لا تتبع أي أحزاب أو حركات ذات هدف سياسي. وقد استجابت للدعوة جميع القوى السياسية لأن المطالب واحدة ولأن هذه القوى السياسية قامت بالأساس للدفاع عن حقوق المصريين.

- حركة شباب ٦ إبريل
- الحملة الشعبية لدعم مطالب التغيير
- حزب الغد
- شباب من أجل العدالة والحرية
- جماعة الإخوان المسلمين
- حزب الوفد
- حركة حشد
- حزب الجبهة الديمقراطية
- رابطة البرادعي لدعم مطالب التغيير
- حزب الكرامة
- حملة دعم حمدين صباحي
- الاشتراكيون الثوريون
- الدكتور محمد البلتاجي
- الأستاذ علاء الأسواني
- والدة الشهيد خالد سعيد
- الكاتب الساخر بلال فضل
- المستشار محمود الخضيري
- الفنان عمرو واكد
- المخرج محمد دياب
- الفنان خالد أبو النجا

1,977 Likes / 1,527 Comments / 506,871 Views

في العشرين من يناير كنت قد راسلت عمرو القزاز؛ وهو أحد مؤسسي شبكة «رصد» التي رصدت التجاوزات أثناء الانتخابات البرلمانية في ٢٠١٠، لأسأله إذا كان يتوقع مشاركة الإخوان في المظاهرات بشكل رسمي. كنت أتمنى مشاركتهم لأن ذلك سيساعدنا؛ لتنظيمهم وكثرة أعدادهم. نفى عمرو ذلك بشكل قاطع، لكنه أخبرني أن الكثير من شباب الإخوان وبعض رموز الجماعة قد يشاركون بشكل شخصيّ. سألته عن طريقة للتنسيق مع أحد من القيادات هناك ولكن دون أن يتعرف على شخصيتي؛ وذلك حتى ننسق ونضمن مشاركتهم، ولكن الأمر لم يكن في وجهة نظره ممكنًا؛ لأن الإخوان كجماعة كبيرة لن تنسق مع مجهول لا تعرف أهدافه. تقبلت وجهة نظره واحترمتها؛ ولذلك عدلت عن فكرة التنسيق مع الإخوان، ووضعت آمالي على أن يشارك شباب الجماعة بشكل مكثف في اليوم. زاد أملي بعد أن رأيت بعض أعضاء الجماعة من أصدقائي على الفيسبوك يدعون لليوم ويعلنون مشاركتهم فيه أيضًا.

حواري مع عمرو تطرق إلى شبكة «رصد» وأسلوبها في العمل، انتقدت انحيازهم الواضح للإخوان المسلمين، وأخبرته أن أكثر ما يعجبني في كلمة «رصد» هو معناها الذي يشير إلى الحيادية ونقل الواقع. طلب مني عمرو الترويج للصفحة قبل النزول ليوم ٢٥ من يناير لأن لديهم النية في تغطية الأحداث بشكل كبير. وهنا طلبت منه أن يُنشئ صفحة جديدة باسم «رصد» فقط بعيدًا عن ذكر اسم البرلمان، خاصة وأن ذلك سيُسهم في زوال أي انطباعات مُسبَقة عن رصد وقت تغطية الانتخابات.

عمرو كان يحترمني كثيرًا بسبب نجاح صفحة «كلنا خالد سعيد» وبدا مقتنعًا بأغلب ما طرحته له من أفكار وآراء. شرحت له أن دور «رصد» المحايد يختلف عن دور «كلنا خالد سعيد» الحاشد. يجب أن تكون «رصد» مصدرًا للمعلومة وليست مصدرًا لتحليلها وحشد الناس حول رأي معين متعلق بها. قلت له: «لو يوم ٢٥ يناير فشل ونزل ٤ بس.. دورك كرصد إنك تقول: يوم ٢٥ يناير نزل أربعة ودي صورتهم، بينما دور صفحة «كلنا خالد سعيد» هو حشد الناس للنزول يوم ٢٦ وتحفيزهم له». تحدثت معه أيضًا

عن قضية هامة وهي توثيق الأخبار بالفيديو والصورة. رصد أثناء الانتخابات نشرت العديد من الأخبار عن معارك وخناقات ولم تستطع توثيقها. شرحت له أن الصفحة؛ وهي مصدر غير موثوق به للكثير من الناس لأنهم لا يعرفون القائمين عليها، تستمد مصداقيتها فقط إذا أظهرتْ دليلًا ماديًّا على الأخبار التي تنقلها، وأنه يجب عليهم في تغطية ٢٥ من يناير ألَّا يذكروا أي معلومة قبل أن يتأكدوا منها ويرفقوا عليها دليلًا سواءً كان مسموعًا أو مرئيًّا.

بعد هذا الحوار بفترة قصيرة، أرسل لي عمرو رابط صفحة رصد الجديدة. أخبرته أنني سأنشره على الصفحة طوال يوم ٢٥ من يناير وقبل نزولي للشارع، وأطلب من الجميع متابعة فعاليات اليوم عبر الصفحة. كان العديد من المشاركات المماثلة تنتشر من خلال النشطاء في العديد من الأماكن في محاولة لتكون مظاهرات ٢٥ من يناير من أكبر ما يمكن.

مشاعري تجاه ٢٥ من يناير كانت مُفعمة بالإصرار والتحدي، أعلنت على الصفحة أكثر من مرة استعدادي للموت من أجل نجاحنا في تحقيق ما نريد.

أول مرة أحس أن كلنا متجمعين على هدف واحد.. وهو أن كلنا ننزل نطالب بحقنا يوم ٢٥ يناير.. مسلم ومسيحي شباب وناس كبيرة ناس بتحب الأغاني وناس بتحب الكورة ولاد وبنات.. بجد نفسي اليوم ده ييجي بسرعة وتحقق اللي نفسنا فيه.. والله أنا نازل ومستعد أموت شهيد لو ده هيخلي الناس تفوق عشان ابني يعيش في بلده فخور بإن أبوه ساعد على أن كل المصريين ياخدوا حقوقهم المسلوبة منهم.

481 Likes / 96 Comments

مع اقتراب يوم ٢٥ من يناير بدأتْ مشاركات الأعضاء في الزيادة؛ مجموعات كبيرة من الصور وصلت للصفحة ولغيرها من الصفحات يُعبِّر فيها أصحابها عن نيتهم في النزول إلى الشارع يوم ٢٥ من يناير. لم تخلُ بعض هذه الصور من جرأة تؤكد على معنى الإصرار على تحقيق الحلم. أكثر هذه الصور أثرًا كانت صورة لشابَّيْن مسلم ومسيحي، كتبا على الصورة:

أنا أمير بطرس مصري ونازل يوم ٢٥ يناير عشان أجيب حق السيد بلال.. وأنا يوسف أحمد مصري ونازل يوم ٢٥ يناير عشان أجيب حق مريم فكري

3,059 Likes / 357 Comments / 124,868 Views

هذه الجرأة شجّعت الكثيرين للتصوير وإرسال صورهم، وامتلأ الإنترنت يوم ٢٤ من يناير بمئات من صور الشباب المصري الذي قرر النزول. أكد الكثيرون أنهم مستعدون للاستشهاد في سبيل مصر.

كان أهم ملمح في يوم ٢٤ من يناير هو التأكيد على إرشادات اليوم: السِّلْمية، واستخدام الشعارات الموحَّدة، والابتعاد عن الترويج للأحزاب والتيارات، وأخيرًا.. الحشد وتشجيع الجميع على النزول.

الدين والعقل والمنطق والخوف على البلد والخوف على مستقبل أولادنا بيقول لازم ننزل بعد ما مصر بقت رايحة من سيئ لأسوأ.. الغني بيبقى أغنى والفقير بيبقى أفقر.. هواء مسمم وأكل مسرطن وماء ملوث.. البطالة وضياع الشباب والمخدرات وانتشار ظاهرة الانتحار.. الفساد وسرقة فلوس البلد.. مصر بقت من أكتر الدول تخلفا في كل حاجة.. أهالينا بيموتوا من السرطان كل يوم.. انزلوا وقولوا كفاية كفاية!

528 Likes / 266 Comments / 143,959 Views

الحشد لم يقتصر على عبارات أكتبها أو أنقلها من الآخرين؛ فأحد أعضاء الصفحة أرسل لي رسالة بها خطبة قديمة لحسني مبارك أثناء الاحتفال بمناسبة دينية في التسعينيات. الخطبة كانت لمن يستمع لها خارج سياقها بمثابة دعوة ليوم ٢٥ من يناير. نشرناها وقلنا إن سيادة الرئيس يدعو جميع المصريين لمحاربة السلبية والنزول يوم ٢٥ من يناير. انتشر الفيديو بين عشرات الآلاف من المستخدمين على الصفحة في ساعات قليلة. ومن كلمات هذه الخطبة:

وما أروع قول الرسول الكريم إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب من عنده، ما أبلغ تلك الصورة التي قدمها الرسول صلوات الله عليه وسلامه ليجسد لنا بشاعة المعتدي على حق الجماعة بزعم أن ما يفعله إنما هو حقه.

وفي نهاية تلك الصورة يعاقب الرسول عاقبة السلبية في معاملة هذا المعتدي على حق الجماعة

وهي عاقبة وخيمة وبيلة لأنها الهلاك للمعتدي وللساكتين السلبيين جميعا. أما تلك الصورة فهي تمثيل المجتمع بقوم ركبوا سفينة فاقتسموا أماكنهم فيها ثم جاء أحد الراكبين وراح يكسر المكان الذي تحت قدميه بحجة أنه يخصه ولا شأن للآخرين به، ثم يقول الرسول متحدثًا عن هذا المهدد لأمن وسلم الآخرين فإن هم أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن هم تركوه هلك وهلكوا.

678 Likes / 171 Comments / 101.565 Views

اللجنة الإلكترونية في الحزب الوطني بدأت في التحرك بشكل أكبر وملحوظ في منتصف يوم ٢٤ من يناير على هيئة اشتراكات جديدة في الصفحة عليها صور أحزاب معارضة مثل حزب الوفد وحركات سياسية مثل الإخوان وحركة ٦ إبريل وغيرهم. الاشتراكات كلها كانت تحاول أن تُثبّط من عزائم الناس وتصف اليوم بمؤامرة على مصر لتخريبها لتكون مثل العراق ولبنان.

انتشر الحديث عن ٢٥ من يناير في كل مكان، في الشارع وفي وسائل الإعلام. بدأ بعض الكُتّاب المحسوبين على النظام يُندّدون بفكرة تشويه صورة عيد الشرطة، ووصَفَ قادة بعض الأحزاب الكرتونية الأمر بالرعونة وعدم احترام التاريخ المُشرّف للشرطة المصرية مع التأكيد على احترامهم لحق المصريين في التظاهر. كان كل ذلك يَصبُّ في صالح الدعاية لليوم والترويج له.

ساهم أيضًا في الحشد كتابات بعض الشخصيات المعروفة في المجتمع، وبخاصة مَن لم يكن لهم صوت معارض من قبل مثلِ بعض الفنانين والمطربين الذين قرروا المشاركة، وكذلك دعوة غيرهم من خلال الفيسبوك مثل حمزة نَمِرة وعمرو واكد وبسمة وأحمد العسيلي وخالد يوسف وعمرو سلامة ومحمد دياب وغيرهم.

ولم يقتصر الأمر على وسائل الإعلام المحلية فقط، فقبل ٧ أيام من ٢٥ من يناير وصلتني رسالة من مراسل مجلة «النيوزويك» ذائعة الصيت واسمه مايكل جيليو يقول فيها إنه مهتم بالحديث معي عن الصفحة والفعاليات التي دعت لها يوم ٢٥

من يناير وكيف تأثر المصريون بالأحداث في تونس. كان ردي عليه بالاعتذار عن إجراء أي مقابلة عبر الهاتف، وشرحت له أن هُويتي يجب أن تبقى سرية حتى مع الصحفيين؛ لأن أمن الدولة المصري يراقب صفحتنا عن كثب. ولكنني رحّبت بأن يرسل لي أسئلته على بريدي لأجيب عنها. في النهاية اتفقنا على أن ندردش سويًّا بالكتابة عبر «Google Chat»، وبعد ساعة من الحوار أرسلت له الكثير من الصور والإحصائيات من الصفحة. بعدها ببضعة أيام أرسل لي مقتطفًا من مقاله «هل مصر هي التالية؟» قبل نشره؛ كان يريد أن يتأكد من أنني أرى أن وصفه للموقف كان دقيقًا. كان مقالُه إيجابيًّا ومتوازنًا وانتهى بإجابتي عن سؤاله عما سأفعل إذا فشل يوم ٢٥ من يناير: «نحن نأمل أن يحضر عدد كبير من المتظاهرين، وأن يرانا الناس في الشوارع فيتفاعلوا معنا وينضموا إلينا.. وإذا فشلتْ مجهوداتنا سأتعلم من الدرس وأمضي قُدمًا وأبحث عن طريقة أخرى لتحقيق حلمي».

في ليلة ٢٤ من يناير اتفقت مع عمرو القزاز أنني سأعطيه إمكانية الكتابة على الصفحة كأدمن بصفحة «كلنا خالد سعيد» طَوال ٢٥ من يناير على شرط ألا يكتب سوى لضرورة قصوى كأن يوضّح للناس أمرًا ما يجري في الشارع لتحذيرهم أو خبرًا يُحمّسهم على المشاركة. واتفقت معه أن يكتب أنه الأدمن الثاني. كان عمرو متفرغًا لتغطية الحدث على صفحة «رصد» مع غيره من مشرفي صفحتهم.

بعد فجر يوم ٢٥ من يناير قمت بالإعلان عن صفحة رصد الجديدة؛ والتي لم يتجاوز عدد أعضائها سوى بضعة آلاف آنذاك. وكتبت آخر رسالة قبل الخلود للنوم؛ وهي رابط لأغنية حمزة نَمِرة «احلم معايا» وطلبت من الجميع أن يحلموا بغد أفضل سنشارك جميعًا في صنعه.

كما كتبت رسالة وداعٍ لجميع أعضاء الصفحة وأعدت نشرها في الصباح. لم أكن أعرف ماذا سيحدث لي أو لغيري.

معرفش إيه اللي هيحصل النهاردة.. ومعرفش ممكن أكون فين بكره بالليل.. في بيتنا.. معتصم في الشارع.. مقبوض عليَّ في السجن.. مدفون في القبر.. بس اللي أعرفه إني نازل لأن حقي وحق ابني لازم آخده من كل واحد أهان كرامة كل مصري في البلد دي.. لأن بلدنا مش تكية تتقسم على كام ألف واحد واحنا بنتفرج.. لأني مصري ومن حقي غاز بلدنا ميتصدرش لإسرائيل.. لأني صحيح بانام شبعان بس عارف كويس إن فيه ٣٠ مليون مصري بيناموا وهما بيحلموا بأي أكل ياكلوه..

أنا نازل لأن البلد دي بلدي وأنا مش مجرد صفر على الشمال تحدد مصيره حكومة أو أمن دولة أو داخلية.. أنا مواطن مصري.. عارفين مصر؟ مصر اللي حاربت إسرائيل وهزمتهم في ١٩٧٣.. مصر اللي اتحدّت إنجلترا.. وطردت الفرنسيين.. مصر اللي مفيش أي محتل عرف ينتصر عليها ويمسح هوية شعبها. أنا نازل لأني مش معاكم إن شعب مصر جبان.. شعب مصر مش جبان.. شعب مصر كل واحد فيه خايف إنه لو اتحرك هيتحرك لوحده ومحدش هيساعده.. لو محتاجين تضحيات والله أنا مستعد أضحي بكل ما أملك عشان بلدي.

من بداية ما عملت الصفحة وكان سبب إخفائي لشخصيتي حاجتين: سبب أمني بحت وهو إن الأمن ميقدرش يقفل الصفحة.. والسبب التاني وهو المهم إني في النهاية مش عايز منكم أي حاجة.. لكل اللي بيشكّكوا في نيّتي.. أقسم بالله العظيم أنا معنديش هدف غير إن بلدي تتغير.. مش عايز أي حاجة منكم لا عايز شكر ولا ثناء.. ولا عايز منصب ولا عايز مكافأة وحتى لو نجحنا وحققنا مستحيل أعرف أي حد شخصيتي لأن نفسي يكون عندنا في حياتنا حلم جميل.. قصة ليها نهاية سعيدة.. أنا مكافأتي الوحيدة هي إن واحد ميعرفنيش ولا أعرفه.. وعمري ما شفته يدعيلي ويقول: ربنا يبارك لك.. بس ده هدفي الوحيد.

أنا قصّرت في حق ناس كتير في الصفحة من غير ما أقصد.. أرجوكم محدش يزعل مني لأن والله العظيم أنا نيتي صافية وباعمل كل حاجة كان بيمليها عليّ ضميري.. صدقوني أنا مكتبتش هنا أي خبر أو نشرت صورة أو فيديو إلا لو كنت مقتنع تمامًا إنه حقيقي.. وعمري ما كتبت كلام عشان أخدعكم.. أنا كتبت هنا بقلبي مش بقلمي.. كل حرف اتكتب هنا كان وراه ضمير بيراقب وعقل بيفكر وقلب بيحكم.

كلكم عندي إخواتي.. حتى اللي دلوقتي شايفين إني عميل وخاين ومتموّل.. لأنهم للأسف دماغهم اتغسلت.. ومش دول أعدائي. أعدائي الحقيقيين اللي مسكوا البلد واعتبروها تكية لمدة ٣٠ سنة.. بيسرقوا في كل شبر فيها وبيعتبروا أي حاجة تتعمل مكرمة للشعب.. اللي هو المفروض صاحب القرار.. وبيستغلوا حالة الفقر والجوع ونقص التعليم في إنهم يستغلوا شباب في الهجوم على أي صوت يعترض عليهم. بس صدقوني نهايتهم قربت.

أرجوكم تسامحوني كلكم لو حصل لي حاجة بكرة. وأرجوكم كلكم تنزلوا لأن مصر مش هتتغير طول ما احنا بنهتف على الفيسبوك..

2,105 Likes / 1,429 Comments / 173,861 Views

قبل نزولي من الفندق مبكرًا صباح يوم الجمعة أخبرني مصطفى النجار أن مكان مظاهرة جامعة القاهرة تم تغييره لنقابة الأطباء في دار الحكمة بالقرب من ميدان التحرير. قمت بوضع الخبر على الصفحة ونوّهت له أكثر من مرة، ثم اتصلت بأخي الأصغر حازم أسأله هل يريد الذهاب معي للمظاهرة فوافق. حازم يصغرني بثماني سنوات، وهو طالب في السنة الأخيرة في كلية طب الأسنان، ولم يكن له قبل ٢٥ من يناير أي اهتمام بالسياسة. هو نموذج للشباب المصري الذي قرر النزول لأول مرة في حياته في مظاهرة.

فور وصولي إلى بيت عائلتي لأصطحب حازم دخلت على الإنترنت لأرى ما يحدث وأتابع الأخبار، ثم اتصلت بأحد أصدقائي والذي أخبرني أن منطقة شارع جامعة الدول العربية ملغمة بالشرطة وسيارات الأمن المركزي؛ ويبدو أنه سيستحيل حدوث المظاهرة هناك.

كان محمود سامي، والذي نظّم مع زملائه من النشطاء تفاصيل مظاهرة مصطفى محمود، على الإنترنت هو الآخر وقتها يترقب الأحداث، فكتبت له محاولًا إقناعه بالعدول عن فكرة مظاهرة المهندسين، ولكنه طمأنني أن الحشد كبير، وأن المظاهرات ستخرج من المناطق الشعبية المحيطة بمصطفى محمود وسيستحيل التعامل معها بعنف بسبب الأعداد المتوقع مشاركتها فيها.

بدأتْ بعض التعليقات على الصفحة تحوي تحذيرات تهدف لبث الرعب في نفوس الشباب؛ معلومات عن القبض عن بعض العناصر الإرهابية، وتوقعات بحدوث أعمال فوضى، وإصابة ووفاة الكثير من المشاركين في المظاهرات. كانت هذه هي معركة النَّفَس الأخير لأتباع النظام الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق ومنها الحرب النفسية إحباط المظاهرة.

اتصلت بالمخرج عمرو سلامة وسألته هل ستشارك؟ فأجابني بالإيجاب، وسألته عن المكان الأنسب فكان اقتراحه الذهاب إلى دار الحكمة. حاولت إقناعه بمصطفى محمود إلا أنه كان رأيه أن مظاهرة مصطفى محمود لن تكون كبيرة. قررت وقتها النزول مع حازم ولقاء عمرو عند دار الحكمة.

طلبت من حازم أن نترك السيارة في وسط الطريق لأنني اعتقدت أن الذهاب بالسيارة إلى مكان المظاهرة هو مخاطرة غير محسوبة. تركنا السيارة في شارع البطل أحمد عبد العزيز بمنطقة المهندسين واستوقفنا تاكسي أوصلَنَا إلى مكان المظاهرة. وصلنا إلى هناك في الموعد المحدد للمظاهرة. وقفنا دون وجود لقوات الأمن. كانت أعدادنا قليلة جدًّا لا تتخطى ٢٠٠ شخص. بدأنا في الهتاف ومطالبة الجميع بالانضمام لنا. ولكن لم تكن دعواتنا مؤثرة. ثم بدأت أعداد المظاهرة تزيد بشكل تدريجي وبطيء. وجدت فيها الكثير من الوجوه المألوفة بالنسبة لي: مصطفى النجار، ومحمود الحتة، عبد المنعم إمام، عبد الرحمن يوسف، الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح، الكاتب بلال فضل، المخرج عمرو سلامة وغيرهم. كنا نهتف بالهتافات التي اتفقنا عليها في الإنترنت، وكان أكثر هتاف رددته هو: «عايزين حقوقنا».

فجأة ظهرتْ تشكيلات من الأمن المركزي وصفّت نفسها صفين أمام المظاهرة. أعدادهم كانت كبيرة حتى أنني أُصِبت بخيبة أمل شديدة لأنني استشعرت أنه يبدو أن اليوم سيكون مثل غيره من المظاهرات المحدودة التي تحدث في شوارع مصر بين الحين والآخر. حرصت على محاولة الحديث مع الجنود، كنت أقول لهم: «أنا هنا عشانكم.. عشان حرام إنك تشتغل وتقبض ١٠٠ أو ٢٠٠ أو ٣٠٠ جنيه لأن ربنا مايرضاش بِدَه». العساكر، بناء على تعليمات من الضباط، قاموا بتطويق المنطقة التي نقف فيها فأصبح من الصعب الخروج أو الدخول على شكل جماعات. أعدادنا كانت قليلة ولكن الجميع كان يهتف.

مصطفى النجار ونشطاء آخرون أحضروا وردًا يُسلّموه للضباط، في الوقت نفسه الذي كنا فيه نهتف: «تحيا الشرطة ويّا الشعب». كان الهدف إيصال رسالة لهم أنهم ليسوا أعداءنا الحقيقيين، وأن عدوّنا هو نفسه الذي وضعهم في الصفوف الأمامية لمواجهة المتظاهرين المُسالمين. ولكن هذه المحاولات كانت تُقابَل بصَمَمٍ كامل وعدم رغبة في الاستماع.

بدأت أشعر باليأس وأنا في المظاهرة حتى أنني كتبت على اشتراكي الشخصي في تويتر أن المظاهرات مثل البطيخة لا يمكنك أن تتوقع طعمها حتى تقوم بفتحها، وأنا

فتحت البطيخة القَرْعَة (وهو تعبير مصري يُعبّر عن الفاكهة ذات الطعم الماسخ). الوضع استمر لأكثر من ساعة تقريبًا حتى بدأ النشطاء يَحومون ويتحدثون بينهم عن الخروج من الكردون الأمني للحاق بباقي المتظاهرين في التحرير. كان مصطفى وبعض رفاقه يحاولون التفاوض مع قادة الأمن للخروج بمسيرة سلمية إلى التحرير، التفاوض اشتمل على عرض منهم بالسير على الرصيف وبدون هتاف للتحرير والذي كان يبعد لمسافة لا تتجاوز عشر دقائق عن دار الحكمة إلا أن ذلك قوبل بالرفض القاطع.

بعض الشباب المتحمس في المظاهرة قرر الخروج من الحصار، وبدءوا في الجري سريعًا وفضوا صفَّيِ العساكر في مشهد صِداميّ، وفقد الكردون السيطرة على المظاهرة واندفع الشباب بسرعة شديدة باتجاه التحرير.

كان من ضمن الصفوف الأولى عمرو سلامة والذي تعرّض لحادث مؤسف كتبه في تدوينة نُشرت بشكل كبير على الإنترنت بعد نهاية يوم ٢٥ من يناير يتساءل فيها: «أنا انضربت ليه؟».

إحنا كنا متظاهرين أمام دار الحكمة في شارع القصر العيني، وكان في كردون من العساكر والظباط محاوطنا، وكان نفسنا نروح للناس الثانية اللي واقفين في ميدان التحرير.
على الساعة اثنين أو ثلاثة العصر قررنا إننا نحاول نروحلهم بأي شكل واللي يحصل يحصل.
بدافع الاندفاع كنت من أوائل الناس اللي بيزقوا العساكر وفعلا اخترقنا العساكر وجرينا في اتجاه التحرير ومجلس الشعب.
وكان الشارع فاضي تمامًا، وفي الأفق شفت بشر كثير، كنت فاكرهم متظاهرين لحد ما خدت بالي إن كلهم لابسين أسود وجايين نحيتنا ومعاهم عصيان سودا، وافتكرت مشاهد أفلام الحروب زي بريف هارت ولادياتور، وعرفت إحساس الحروب القديمة، ولاقيت نفسي بجري عليهم في طليعة الناس، ولاقيت ناس بتحاول تهرب منا احنا في الشوارع الجانبية بس واضح إنهم حاصروهم فرجعوا ثاني، لحظة من البلبلة ثم الانقضاض منهم علينا.
وكان معايا الآي فون بتاعي العزيز بحاول أصور كل ده.
إلى أن اجتمع حولي عدد لا بأس به من العساكر، وعملوا حواليا دايرة وبدءوا الضرب بعصيانهم على دماغي ووشي وبطني ورجليا.
ودخل قائدهم الظابط المحترم المغوار اللي مش هنسى وشه ليوم الدين وبدأ يضربني بالبونيات على وشي بشكل لم أكن أتخيل أن جسم البني آدم ممكن أن يتحمله، وخد الآي

فون العزيز الله يرحمه وداسه على الأرض وقعد يتنطط عليه ثم فاق لنفسه وقالهم: «سيبوه، بطلوا ضرب»، قلت الحمد لله ضميره صحي، فأكمل: «عشان الكاميرات». وخدني ودخل بيا شارع جانبي ولاقينا في سكتنا شاب ملقى على الأرض ودماغه نازل منها كمية مرعبة من الدم، وقال باللفظ: «أهه واحد ابن... مات أهه، و الله لموتك زيه يا ابن...»، ثم دخل مدخل عمارة، ودخل العساكر اللطاف معاه وقفل عليا باب العمارة وبلغة الحواري «قصني» وجابني أرضًا وبدأ بالضرب بشكل مبرح.

شلاليت في وشي، وفي بطني، والعساكر بالعصيان، وواحد منهم كسر حاجة خشب غريبة وجاب الخشبة وقعد يضربني بيها في كل حتة في جسمي، وكلام شبه «يا ولاد الـ... يا... ده احنا في الشارع من بليل يلعن د...»، وأنا بقوله: «ربنا يكون في عونكو، أنت عارف بقى أنت واقف ليه وبتمنعني ليه؟»، فيُستفز فيضربني أكثر: «عامل فيها مثقف يا ابن...» وأنا أرد عليه: «مش مثقف ولا نيله، أنا هنا عشانكو، أنا مصري زيك، طبعًا كلامي وسط الضرب كان أكيد مبهم، وهو وسط شتايمو كلامي كان في أهمية برنامج «طبق اليوم» بالنسبة له.

وبعد ما زهق، قالهم: «عايزكم تموتوه زي الواد الثاني يا إما هرجع أموتكم أنتو، ولو جاعنين كلوه»، ومشي، ولمدة لا تقل عن عشر دقايق ضرب مبرح بجد وأنا مستغرب هو أنا ازاي لسة ما متش، وأهه بعد ستة وثلاثين ساعة أقسم بالله حاسس بالوجع في كل سنتيمتر مكعب في جسمي.

الغريب إني وقتها ووسط الحدث وصلت لمرحلة إني فعلًا مش حاسس تماما بالضرب، واستشهدت، وبدأت خيالات تراودني، عن أهلي بعدها هيحسوا بإيه وعن فيلمي اللي ماكملتش مونتاجه، وعن الصفحة اللي هتتعملي على الفيسبوك، ويا ترا هنبقى «كلنا عمرو سلامة»؟ والأهم تصريح وزارة الداخلية اللي هيطلعوه إني أكيد بلعت الآي فون بتاعي.

وقعدت ساعتها أصرخ للعساكر وأقول كلام أفلاطوني ثاني زي: «أنا هنا عشانكم، أنتم عارفين إنتم بتضربوني ليه؟ أنا معايا موبايل، ومعايا فلوس، ومعايا عربية، ومستريح، إحنا هنا عشانكو، عشان أنتم تلاقوا تاكلوا وتأكلوا عيالكم».

ولسبب إلهي سمعوا كلامي، ولاقيت واحد فيهم اتأثر فعلا وبعدهم عني، وجابلي كرسي، وقالي: «أستاذ، هتعرف تمشي؟»، بعد لحظة صمت قلتله: «هحاول»، قالي: «طب اجري بسرعة قبل ما الظابط يرجع، لو رجع هيموتك»، فحاولت أهرب بسرعة ولكن الظابط رجع، وافتكرني بهرب طبعًا، وهما عملوا كأنهم بيجيبوني، فخدت علقة تجعل العلقة الأولى فيلم كارتون إنتاج والت ديزني في الأربعينيات.

وبعدها ركز مع صيد تاني كان جايبه من الغابة شوية، فجه ظابط ثاني سألني عن شغلي واسمي وشاف بطاقتي وقالي: «اجري بسرعة قبل ما يركز معاك ثاني».

جريت، وبعد شوية بدأت الآلام تظهر، وبعدها آلام الرأس والدوخة والزغللة، وبدأت عنيا تدمع بلا توقف، مش عياط، بس يمكن عشان أعصابي سابت تماما وفقدت السيطرة وصوتي كان بيطلع كإنه طالع من بير.
وصلت لواحد صاحبي في وسط البلد، استضفني في مكان عمله، وقعدت وجابلي حاجات أشربها.
وسابني شوية، ولاقيت نفسي ببكي بحدة لم أبكها منذ لا أتذكر متى.
لم أبكي من الألم، ولا حتى من الإهانة، ولا من الرعب، بس بكيت لسبب واحد؛ لسبب إني لاقيت نفسي بدأت أكره مصر، وحسيت إن ظباطها اللي حامينها كرَّهوني فيها، وحكومتها اللي ظالمانا كرَّهتني فيها، وشعبها السلبي - كان سلبي - ماكنتش معانا وكرهني فيها، والفساد والقمع وإلخ إلخ، وازاي ممكن أعمل في كائن بشري ثاني مقلب وأجيبه وأخلفه في البلد ديه، ازاي هقنعه يحبها ويحارب لها وينتميلها؟!
وقلت طب ليه ماسبهاش لو جاتلي الفرصة، مش يمكن كما قال صديق عزيز فعلًا: «مستقبل مصر الوحيد في الهجرة لكندا»؟
بس بعد دقايق، رجع صوت العقل - هو مش أكيد صوت العقل بس هو صوت طول عمره موديني في داهية - وفكرت نفسي بمعتقداتي اللي بكتب المقال ده عشان أشاركها معاكو.
افتكرت إن انتمائي لمصر مش إجباري، ده اختيار مني، أنا اخترته لأن إحساسي بالانتماء مفيد ليا مش مفيد لمصر، مفيد ليا إني أعرف أنا منين وفين، فين المكان اللي أنا منه، وهو بتاعي، اللي بيتي فيه، وسريري فيه، اللي بحس فيه إني وصلت خلاص مش مستني إمتى هروّح.
افتكرت إني لازم أبقى إيجابي تجاه أي مكان اخترت أنتمي له، وأتفاءل مهما كان، إن المكان ده هيكون أحسن بسببي وبسبب اللي حوليا.
من غير انتماء وأمل أنا فعلًا أفضّل إني أموت، ولو بقيت عايش بدون سبب له معنى هتحوّل لحيوان عايز ياكل وينام ويتمتع بمُتع لحظية عمرها ما هتغذي روحي، وده اختيار نهائي مش محتاج أراجعه مع نفسي.
حتى لو شاف العالم إني رومانسي زيادة أو حالم أو رومانسي، في ستين ألف داهية، أنا هبقى مبسوط باختياري ده حتى لو حصلي اللي حصلي.
واكتشفت إن أهم حاجة في الدنيا إني عارف الكلام ده، إني عارف أنا ليه اتضربت، إني عارف أنا ليه نزلت، إني أبقى عارف إن بدون شعارات ومطالبات سياسية معصلجة الفهم أنا نزلت واتضربت عشان عايز مصر أحسن، عايز مصر مافيهاش سلطة أبدية مطلقة لأي من حكامها، عايز مصر بفجوة اجتماعية أقل، الفقير حتى لو فضل فقير يكون له الحد الأدنى من الكرامة والاحتياجات الإنسانية، عارف إن ابني لما أخلفه في يوم من الأيام يتعلم صح، يتعالج

صح، يبقى عنده أي أمل وطموح مهما كان، حتى لو عايز يبقى رئيس جمهورية، عايز مصر الشرطة فيها بتحمي الشعب مش بتعمل فيه اللي اتعمل فيا وفي غيري، في كل قسم وشارع، مش زي اللي اتعمل ف الشهداء؛ خالد سعيد وسيد بلال، لو حد حاول ينهب حقه مايخفش يروح القسم ويبقى عارف إن حقه حيرجعله لإن الظابط عايز يرجعله حقه، وهيلاقي الظابط ده موجود في القسم، مش واقف في تشريفة من صباحية ربنا، ولا بيقمع معارضة ولا مهمته الوحيدة حماية نظام فشل يديه حقوقه أصلًا من مرتب محترم وعيشة كريمة، ومخليه واقف في وش المدفع يتكره بداله.

عرفت لما اتضربت إني خايف أقل، إني عرفت أنا ليه هنزل تاني وتالت ورابع، عرفت إني لو مت هبقى شهيد وأكيد هبقى في مكان أحسن.

وعرفت إن اللي بيضربني مش عارف هو بيضربني ليه، حاسس إن أسبابه مش منطقية حتى لو سهر الليالي يمنطقها لنفسه، ده يمكن يكون متعاطف معايا، وخايف أكثر مني، من جِزا أو عقاب أو تكديرة.

والأهم عرفت إن فيه أمل، أمل أشوف مصر مش زي تونس بس، أشوفها في يوم مكان أجمل من تخيلي مكان أتمنى أخلف فيه عيال عشان ينعموا فيه بحياة كريمة ويعمروه أكثر.

أنا لا أدعي بأي شكل البطولة، وشفت ناس اتضربوا أكثر مني بكثير، وناس اعتقلت، وفي ناس ماتت احتسبهم شُهداء، بس الناس دية كلها لو اتكلمت معاهم، أغلبهم فخورين بنفسهم، خوفهم بقى أقل، تحديهم بقى أقوى، حاسين إنهم على حق، الناس دية معظمها طلعت من معتقالاتها أقوى، حاسين إن الفرج جاي مهما اتأخر، وعارفين إنها مهما ضاقت واستحكمت حلقاتها مسيرها تفرج.

أهم اكتشاف إني اكتشفت إن في أمثال مش مجرد أمثال وخلاص، وفعلا معناها حقيقي، زي «الضربة اللي ماتموتنيش هتقويني».

800 Likes / 192 Comments / 138,025 Views.

المجموعة التي كنت فيها جاءت بعد مجموعة عمرو، جرينا بسرعة خلفهم وفجأة وجدنا الأمن المركزي يهجم من الاتجاه الذي كنا متوجهين له، وبدأ الضرب وبشكل عنيف لكل مَن في الصفوف الأولى، وشاهدت جزءًا من مشهد الاعتداء على عمرو. جريت أنا وأخي حازم وعشرات الشباب باتجاه محطة وقود في الشارع وصعدنا درجات السلم الخاص بها لنُفاجَأ بمئات من جنود الأمن المركزي تصطف لتغلق علينا الطريق. كتبت على تويتر أننا الآن في محطة بنزين ويبدو أنه سيتم الاعتداء علينا.

بدأتْ قوات الأمن في الضرب على الأرض بأقدامهم والصياح في مشهد هدفه هو إخافتنا، ولكن بعد عدة دقائق أمرهم الضابط بالتحرك بعيدًا وإخلاء المنطقة. لم نفهم وقتها سبب توقفهم، ولكن بدأنا في الخروج من محطة الوقود لشارع جانبي خلفي، وقررنا أن نسير فيه حتى نصل للتحرير هربًا من الأمن، ولكن فيما ظهر لي بعد ذلك يبدو أن أمرًا ما جاء لقوات الأمن بوقف الاشتباك والسماح لجميع المتظاهرين بالذهاب للتحرير. لم نكن نعلم ذلك وكل ما فعلناه هو محاولة الوصول بأقصى سرعة راكضين أو متحركين سريعًا إلى التحرير.

كان المشهد في التحرير من أغرب المشاهد التي رأيتها في حياتي؛ أعداد كبيرة من المتظاهرين تُقدّر بالآلاف إن لم تكن عشرات الآلاف في الشارع. هنا أيقنت أن اليوم قد نجح، وأن ٢٥ من يناير سيكون البداية لتحرير مصر من نظامها الفاسد. قبل وصولنا إلى التحرير حدثت هناك العديد من الاشتباكات استخدمتْ فيها قوات الأمن العنف ضد المتظاهرين وتم ضربهم بالقنابل المسيلة للدموع ورد عليهم المتظاهرون بالحجارة، ولكن الأمور هدأتْ، وهذا ما أكد لي أن ثمة أمرًا قد صدر لجميع قوات الأمن بوقف الاشتباك.

لم نُصدّق أنفسنا وبدأت أكتب دعوات على اشتراكي الشخصي بتويتر أدعو الجميع للنزول والمشاركة. الأعداد كانت في ازدياد كلما مر الوقت. مسيرات تأتي من مختلف أحياء القاهرة وبخاصة شبرا وإمبابة وبولاق تسير على الأقدام لتجذب معها الآخرين لتصل إلى التحرير ويستقبلها الشباب مُرحبين بهم. الشعور الخاص بتعزيز أعداد المتظاهرين كان رائعًا.

وصل شباب الألتراس للميدان وبدءوا في إشعال الشماريخ والألعاب النارية وارتفع هتاف: «الشعب يريد إسقاط النظام». كان الشعار منطقيًّا؛ فالنظام هو العقبة الوحيدة أمام كل المطالب التي نزلنا من أجلها.

الجوّ العام كان مُبشرًا للغاية، والروح المعنوية للشباب كانت مرتفعة. نسبة ملحوظة من المتظاهرين بَدَوْا من الطبقة المتوسطة في المجتمع. والكثير ممن سألتهم عن كيفية معرفتهم بالحدث كانوا يجيبون: «صفحة كلنا خالد سعيد» أو «صفحة ٦ إبريل»،

والآخرون تعرفوا على المظاهرة بسبب المسيرات التي اندلعت في كل مكان. المسيرة التي جاءت من منطقة مصطفى محمود بعد انطلاقها من المناطق الشعبية كانت الأكبر والأقوى في الحشد على حد علمي.

لم يكن الإنترنت يعمل في الميدان بشكل جيد، لم يعرف أحد السبب ودار جدل بين الجميع هل السبب هو أن الأمن تدخّل ليمنعه أم أن هناك مشاكل بسبب الأعداد الكبيرة في الميدان. كان مُهمًّا أن تبدأ الدعوة لمظهرات أكثر حشدًا يوم الجمعة. حاولت الدخول على الإنترنت من المحمول الإماراتي ولكن دون أي فائدة، فاتصلت بنجيب في الإمارات وطلبت منه أن يكتب على الصفحة: «إضراب عامٌّ غدًا وبعد غد (الأربعاء والخميس) ومظاهرة كبرى يوم الجمعة». بالنسبة لي ولكثيرين غيري، كان هذا التصعيد هو أنسب ردّ لما حدث في ٢٥ من يناير.

استمر توافد المتظاهرين على الميدان، واستغرقت بعض الوقت في جانب الميدان القريب من مسجد عمر مكرم متحدثًا مع بعض ضباط الأمن المركزي. كنت أرغب في الحوار معهم والتعرف على وجهة نظرهم في الأحداث وتعريفهم بأسباب نزولنا ربما يُسهم ذلك في دفاعهم عن المتظاهرين بدلًا من الاعتداء عليهم. أحد هؤلاء الضباط كان شديد الاحترام وبشوشًا، أصيب في قدمه بطوبة ألقاها أحد المتظاهرين لكنه بدا مُتقبلًا الأمر. شعرت في حوارنا أنه مؤيِّد لحدوث الثورة، ولكنه في النهاية سيتبع الأوامر ويطيع رؤساءه طاعة عمياء. النقاش كان جيدًا لفهم وجهات النظر، كانوا يتحدثون عن خطر الفوضى والانفلات الأمني، بينما أنا أتحدث عن حق التعبير عن الرأي والاعتراض على النظام الفاسد.

كان اليوم يسير بشكل رائع، وفي التاسعة مساء شعرت بالجوع الشديد فذهبت مع أخي حازم إلى أحد محلات الكشري الشهيرة بالمنطقة هناك خارج ميدان التحرير. الحياة خارج الميدان كانت عادية وروتينية جدًّا كما لو لم تكن هناك أي مظاهرات عارمة اندلعت على بُعد أمتار من المطعم.

جلسنا على طاولة واحدة مع شباب من المظاهرة. تحدثنا أثناء الأكل، وكانوا من شباب جماعة الإخوان المسلمين. خرجنا من المطعم وعُدنا للميدان لنجد العديد

من الشباب يُنظف الميدان استعدادًا للاعتصام الذي قرره بعض الشباب والمعارضين السياسيين، كانت الفكرة المتداوَلة على الإنترنت أنه إذا كانت الأعداد كبيرة فسيتم إعلان اعتصام عامّ حتى تنفيذ المطالب.

أصبح الاتصال بالعالم الخارجي من التحرير أمرًا شديد الصعوبة لمشاكل في الشبكات وسط شائعات في الميدان أن الأمن قام بقطع الاتصال عنه. لم أكن جاهزًا للمبيت في التحرير، فقررت العودة للمنزل وتغيير ملابسي والعودة مرة أخرى. كنت مُصابًا بصداع رهيب بسبب عدم نومي طَوال اليوم السابق، وبسبب الأحداث المتتالية. عُدت إلى البيت وشربت كوبًا من الشاي وكتبت دعوة على الإنترنت لجميع أصدقائي للنزول والمشاركة والاعتصام.

أثناء ذلك قامت الحكومة بحجب الفيسبوك وتويتر عن مصر بالكامل في ظاهرة هي الأولى من نوعها في مصر. بدا واضحًا أن الأمن الآن شعر بعجزه أمام ما يحدث في ميدان التحرير وبدأ في تصعيد إجراءاته. لم يعد ممكنًا للمصريين متابعة الفيسبوك وتويتر عبر شركات الإنترنت المصرية، وبدأ الجميع يتحدث عن طرق بديلة للدخول عليهما. حَجْب الفيسبوك كان خطأ كبيرًا من أخطاء النظام؛ لأنه أكد على قوة المظاهرات.

في طريقي للعودة فُوجئت برسائل تصلني أن التحرير مشتعل وبمجرد وصولي وجدت المشهد مرعبًا: ملاحقات واشتباكات بين عناصر الأمن والمتظاهرين، وتحوّل التحرير إلى ساحة من الدخان الكثيف بسبب القنابل المسيلة للدموع والتي أحرقت عينَيَّ. انتشر الغضب في التحرير وفقد الكثير من الشباب حكمتهم، ومن كان ينادي بـ«سلمية سلمية» أخذ يقذف الطوب على سيارات الشرطة وعساكر الأمن المركزي، وتحول الميدان لساحة معركة بسبب هجوم الأمن الذي استخدم الرصاص المطاطي وخراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع. لم يَسْلَم حتى الصحفيون من التعامل العنيف، فمصور قناة الجزيرة أصيب بإحدى عشرة رصاصة مطاطية. كان لدى قوات الأمن هدف واحد: إخلاء التحرير مهما كان الثمن، فهم لا يريدون أن يطلع النهار على الاعتصام ويراه مئات الآلاف من المصريين الذين يمرون بميدان التحرير يوميًّا للذهاب لأعمالهم.

صعدتُ على كوبري ٦ أكتوبر لأجد أحد المتظاهرين ممسكًا بطوبة كبيرة ويستعد لإلقائها على إحدى سيارات الشرطة، منعته فوقعت الطوبة على قدمي. صرخ فيَّ قائلًا: «مالكش دعوة دول ولاد... أنت مشفتش عملوا فينا إيه». فقد الأمن صوابه، فتسبب في أقل ما يوصف بالمهزلة.

كانت ليلة طويلة للغاية. وفي النهاية نجحتْ قوات الأمن في إخلاء الميدان وكسبتْ معركة، ولكن الحرب لم تنتهِ بعد. قبل أن أخلد للنوم في الرابعة فجرًا كتبت على الصفحة:

٢٥ يناير مش هو النهاية.. ٢٥ يناير هو بداية النهاية.

الفصل السابع

اسمي «٤١»

مع عودة المتظاهرين لمنازلهم تدفقتْ على الإنترنت مئات الصور والفيديوهات من مظاهرات ٢٥ من يناير في مختلف أنحاء مصر. شَهِدتُ بعضًا من أكثر اللحظات المؤثرة في حياتي في هذا اليوم، وعندما عُدت للفندق في المساء تابعتُ المزيد من المشاهد المذهلة التي تم تصويرها وتسجيلها ونشرها على الإنترنت.

كانت هناك صورة لمتظاهر يقفز على أكثر من خمسة عساكر في كامل عتادهم من خوذات ودروع. تم التقاط هذه الصورة والمتظاهر مُعلق في الهواء وكأنه لم ينتصر فقط على حاجز الخوف، بل انتصر أيضًا على قانون الجاذبية. فيديو آخر تم تصويره بكاميرا تليفون محمول أظهر متظاهرًا يحمل لافتة ويسير تجاه كردون أمني من العساكر. كان المتظاهر يُنشد بصوت مليء بالقوة والحماس أبيات الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي الشهيرة: «إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر، ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر». أخذ يردد الأبيات دون توقف للجنود ثم قال لهم: «احفظوها». ردود أفعال الجنود تباينت بين النظرات المستغربة والمؤيدة والساخرة.

تبنت الشرطة مختلف الاستراتيجيات لتحاول أن تمنع المتظاهرين من الوصول لميدان التحرير، واستخدموا حتى خراطيم المياه. أظهر فيديو من الفيديوهات مدرعة ترش المياه وهي تتجه نحو المتظاهرين، ولكن بعد ثوانٍ توقفت المدرعة؛ فأمامها وقف شابٌ شجاع قرر أن يعترض طريقها. وضع الشاب يديه في خصره وحدق في

المدرعة بثقة. حاول قائد المدرعة أن يتحرك قليلًا تجاه الشاب ولكن الشاب لم يتزعزع من مكانه، وهنا زاد القائد من قوة خرطوم المياه ولكن ظهر متظاهر آخر وحوّل اتجاه تدفق المياه لأعلى بعيدا عن الشاب الأول.

طالما شاهدت بانبهار مشهد «رجل المدرعة» وهو يقف وحده بشجاعة في وجه المدرعة في ميدان «تيانانمن» الشهير بالصين في عام ١٩٨٩، وأُعجبت كيف خاطر هذا الشاب الصيني بحياته من أجل القضية التي يؤمن بها. لم يخطر ببالي أبدًا أنه في يوم من الأيام سأرى مصريًّا يقوم بهذا العمل البطولي نفسه. في ٢٥ من يناير، تصرف آلاف من المصريين بإيثار وتضحية ومن ضمنهم «رجل المدرعة» المصري، الذي ظل مجهولًا حتى يومنا هذا ولم يرغب في التعريف بنفسها لوسائل الإعلام.

انتشرت الصور والفيديوهات على الإنترنت كانتشار النار في الهشيم، خاصة بعد أن أُعيد فتح الفيسبوك في مصر. وصل أعضاء صفحة «رصد» إلى ربع مليون عضو في أربع وعشرين ساعة بعد أن أعلنَتْ عنها صفحة «كلنا خالد سعيد». وبانتهاء يوم ٢٥ من يناير أصبح شيء واحد واضحًا للكل: الشعب يريد إسقاط النظام.

في اليوم التالي أصابني القلق الشديد. كان عدد المتظاهرين الذين شاركوا في ٢٥ من يناير أكبر بكثير مما توقع أي شخص، وكانت الجماهير المصرية تدعم الثورة بشدة. لكن إلى أين كانت الثورة متجهة؟

استمررت في الكتابة على الصفحة حاشدًا، وبدا واضحًا لي أن الأمر أصبح أكبر من الصفحة؛ فالجماهير في الشارع بدأت تتحرك أسرع من النخبة والنشطاء السياسيين وإصرارهم غير محسوب العواقب. بعد حجب الفيسبوك في مصر ليلة الخامس والعشرين وتذبذب قطعه وإعادته صباح السادس والعشرين قمت بإنشاء استمارة للحصول على البريد الإلكتروني الخاص بأكبر قدر من الشباب على الصفحة؛ وذلك للتواصل معهم في حالة العودة لحجب الفيسبوك مرة أخرى. ملأ الاستمارة في ساعات قليلة أكثر من ٢٠ ألف عضو بالصفحة.

زادت الوساوس ومشاعر الخوف لديّ بعدما تلقيت أكثر من رسالة من بعض

أعضاء صفحة «كلنا خالد سعيد» بأن مباحث أمن الدولة تقوم الآن بالقبض على مَن يظهر أسماؤهم في قائمة الحضور في الدعوة ليوم ٢٥ من يناير، راجين مني أن أحذف الدعوة والتي وصلت لأكثر من مليون شخص قبل اليوم. فكرت كثيرًا وكنت أضع احتمال أن هؤلاء الأشخاص هم أنفسهم من أمن الدولة الراغبين في وقف سيل الهجوم عليهم عبر الإنترنت، ولكن رسالة أخرى وصلتني يؤكد فيها ناشط أنه قد تم اعتقاله بسبب صورة نشرناها على صفحة كلنا خالد سعيد له (وهو مسلم) مع صديقه القبطي وكانا فيه يدعوان معًا للنزول والتحرك ضد النظام. قررت حذف الدعوة من الفيسبوك، وقلت إن التاريخ يُسطَّر في الشارع وليس على الإنترنت، وحماية كل من شارك في الثورة أهم من توثيقها.

بعد عدة ساعات من التردد بسبب الموقف الملتبس، قررت إعادة التفكير في الأمر، ووجدت أنه من المهم الحشد ليوم الجمعة عبر حدث على الفيسبوك لتصل إلى أكبر عدد من الشباب المصري على الإنترنت أماكن التجمع يومها. بعد كثير من التفكير، أنشأت حدثًا جديدًا على الفيسبوك أسميته «جمعة الغضب: ثورة ضد الفساد والظلم والتعذيب والبطالة»، وأبلغت أعضاء الصفحة أن أماكن المظاهرات سيتم الإعلان عنها مساء الخميس.

لم أكن أعرف مدى تأثير حدث الفيسبوك هذا على الحشد لليوم بما أن الثورة الآن أصبحت في الشارع، ولكنني قررت أنه من الضروري أن أفعل كل ما بوسعي لأنشر الدعوة. وبالفعل انتشرت دعوات ٢٨ من يناير على الإنترنت أسرع ثلاث أو أربع مرات من سرعة انتشار دعوة ٢٥ من يناير! كتبت على الصفحة قائلًا إن ٢٥ من يناير هو بالتأكيد ليس النهاية ولكنه بداية سقوط نظام مبارك الدكتاتوري.

يسقط يسقط حسني مبارك.. يسقط يسقط حسني مبارك.

1,863 Likes / 403 Comments / 203,167 Views

كانت تغطية وسائل الإعلام الحكومية وحتى بعض القنوات المستقلة في مصر منحازة للغاية ضد المتظاهرين. أصبح من الواضح أنه تم تنظيم حملة إعلامية من قِبل أمن الدولة لتعبئة الرأي العام ضد متظاهري ٢٥ من يناير. زعم مذيع شهير في

برنامجه أن المتظاهرين في التحرير يهاجمون قوات الأمن العزل بينما يحاول الجنود الأبرياء نقل المتظاهرين الذين أُغمي عليهم لعربات الإسعاف. تعمَّدَت وسائل الإعلام الموالية للنظام أن تنقُل للمشاهدين أخبار إصابات الجنود ولا تَذكُر أي إصابات في جانب المتظاهرين. محاولة التقليل من الحدث كانت السمة المشتركة في كل وسائل الإعلام المصرية حتى أن العنوان الرئيسي في جريدة الأهرام يوم ٢٦ من يناير كان حول المظاهرات في لبنان، وأشارت الصحيفة إلى أن بعض المصريين احتفلوا بعيد الشرطة ووزعوا الورود والشوكولاتة على الضباط تقديرًا منهم لجهودهم. وصرح أبواق النظام من المُحلّلين السياسيين أن مظاهرات ٢٥ من يناير تدفعها أيادٍ خارجية لنشر الفوضى في مصر.

اتصلتُ بالمذيعة منى الشاذلي على هاتفها؛ كنت منفعلًا، طلبت منها ألا تلتزم الحياد في تغطيتها لليوم على برنامجها «العاشرة مساء». تحدثت معها عن ضرب الشرطة للمتظاهرين وكيف رأيت ذلك بعينَيّ، والإفراط في استخدام الرصاص المطاطي والقنابل المسيلة للدموع في مواجهة عشرات الآلاف من خيرة شباب مصر. وعدَتني منى أنها ستحاول قدر ما تستطيع إيصال هذا الصوت وطلَبَت مني أن أقوم بمداخلة تليفونية أثناء برنامجها لأتحدث عن حجب تويتر وفيسبوك لأن النظام المصري كان ينكر حجبَهما ويتعلل بأن ما حدث هو ضغط على «سيرفرات» الشركتين، فوافقتُ دون تردد لأنني كنت أريد كشف الحقائق عبر كل وسيلة ممكنة.

بدأتْ منى الشاذلي برنامجها شديدة التوتر، وذكرتْ لي أنها تتعرض لضغوط شديدة من وزارة الداخلية لعدم ذكر الحقائق المتعلقة بالمظاهرات، وأن تدَّعي أن عدد المتظاهرين كانوا بضع مئات، وضغوط من الشباب الثائر لمطالبتها بالوقوف معهم، وأنها بسبب هذه الضغوط قد تفكر في التوقف عن العمل في برنامجها لأنها تريد أن تلتزم الحيادية وتصف الواقع دون تزييف أو مبالغة وتترك المُشاهِد ليكوِّن قناعته بناء على ما يشاهده.

اتصل بي برنامج «العاشره مساءً» على هاتفي الإماراتي، وسألتني منى على الهواء: «هل صحيح أنه تم اختراق مواقع الوزارات المصرية؟»، أخبرتها أن ما حدث هو

ما يسمى بالـ «DDos Attack»؛ وهو هجوم بهدف تعطيل الموقع لفترات قصيرة، فسألتني عن حقيقة حجب الفيسبوك وتويتر فأكدْت المعلومة، ورفضتُ ما قاله ضيفها الدكتور حسام بدراوي أحد قيادات الحزب الوطني عن أن ما يحدث هو ضغط على هذه الشبكات من مصر، وعللت ذلك بأنني أستطيع الدخول على هذه المواقع باستخدام بروكسي، وأن هذه المواقع صُمّمت لتستوعب مئات الملايين من المستخدمين وليس فقط ٤ ملايين مستخدم هو كل عدد مستخدمي الفيسبوك في مصر آنذاك، ثم بدأت أنتقد سياسات الحكومة التي لا تريد السماع لصوت شبابها. وحذرت من أن منع أصوات العقل سيجعل الأكثر تعصبًا في صدارة المشهد، حاولت بعدها ذِكْر شهادتي الشخصية لما حدث في الخامس والعشرين فقاطعتني منى سريعًا وشكرتني وأنهت المكالمة.

بعد أن انتهت مكالمتي مع منى، جاءتني رسالة على بريدي الإلكتروني من مصطفى النجار يطلب مني بأقصى سرعة أن نتحدث على الشات، بعد دخولي على برنامج الحوار قال لي: «خلي بالك كويس جدًّا لأن الأمن بيدور على أدمن الصفحة. أنا اتقبض عليَّ يوم ٢٥ بالليل وأمن الدولة أخدوني في مكان ما أعرفوش، غمّوا عينَيَّ وضربوني وعذبوني لساعات، وقعدوا يسألوني: مين اللي ورا الدعوة لـ ٢٥ من يناير؟ وإيه العلاقة بين البرادعي والإخوان؟ مين بيمول حركتكم؟ مين هو أدمن صفحة كلنا خالد سعيد؟».

أصابني الخوف وتسارَعَت ضربات قلبي وسألته بتوجُّس: «وقلت لهم إيه؟»، طمأنني قائلًا إنه لم يذكر اسمي، وأضاف: «أنا أقنعتهم إني ماأعرفوش وأنه ـ غالبًا ـ شخص مش عايش في مصر». ذكر لي مصطفى في معرض حديثه أن أحد الضباط ظل يركله وهو معصوب العينين وأخذ يقول: «أنتو فاكرين إنكم كده يعني انتصرتوا؟ أنتو فاكرين إنكم كسبتوا؟ إحنا اللي سبناكم تتظاهروا. النظام ده أقوى بكتير مما أنتو فاكرين ومش هيأثر فيه إن آلاف ولا حتى عشرات الآلاف زيك يتظاهروا في الشارع».

بعد ساعات من التحقيق، فقدَ ضباط أمن الدولة الأملَ في الحصول على معلومات لا يعرفونها بالفعل من مصطفى. وحتى يومنا هذا لا يعرف إذا كانوا صدقوه أم لا وقرروا إطلاق سراحه مع زيادة الضغط الإعلامي عن المعتقلين في الأحداث.

كنت غاضبًا لما تعرّض له مصطفى، ولكني أطمأننت لأنهم حتى الآن لم يستدلوا على هويتي ولكن أكثر ما كان يؤرقني أن هويتي الشخصية يعرفها بعض أصدقائي والنشطاء المشاركين في المظاهرات، فهل سأظل مجهولًا لوقت طويل؟

كنت مُستعدًّا للموت من أجل حريتنا، ولكن ذلك كان ممزوجًا بمشاعر الخوف الإنسانية الطبيعية وخاصة حينما تكون أبًا لطفلين وزوجًا لمَن لا عائل لها سواك. قررت فورًا أن أكْسِر شريحة محمولي المصري؛ لأنه مسجل باسمي، وبالتالي يمكن الوصول إليّ وتتبعي من خلاله بسهولة. شعرت أيضًا أن وجودي في الفندق يمثل خطرًا على أمني. اتصلت بأحد أصدقائي باستخدام هاتفي الإماراتي لأطلب منه استضافتي لعدة أيام حتى أكون بمأمن عن الرقابة، ويكون لديّ خط للإنترنت سريع. لم يَردّ صديقي على اتصالاتي، مرة واثنتين وثلاث حتى فقدت الأمل. حاولت مع صديق آخر يقطن بالمعادي ولكن الشيء ذاته حدث، واتصلت بثالث فأعرب عن ترحيبه لاستضافتي في مكتبه في الزمالك؛ مكتب صغير لشركة متخصصة في الدعاية والإعلان لم يكن مجهزًا للنوم، ولكنه احتوى على كنبة صغيرة وإنترنت سريع. وافقت على العرض فورًا، وطلبت منه أن ألقاه خلال ساعة؛ وهي المسافة بين مصر الجديدة والزمالك.

نزلت إلى ردهة الفندق وطلبت الحساب، أترقَّب مَن حولي لأتأكد من أنه لا يوجد مَن يراقبني. خرجت من الفندق بشنطة سفري التي جئت بها من الإمارات، رفضت أن أركب التاكسي الذي اقترحه عليَّ عامل الفندق ومررت إلى الجانب الآخر من الشارع وانتظرت دقيقتين حتى ظهر تاكسي عادي طلبت منه الذهاب إلى الزمالك.

لِقَتل الوقت بدأت في الحديث مع سائق التاكسي عن أوضاع البلد؛ وهي هواية لديَّ منذ سنوات. كانت المفاجأة أنه لا يعرف الكثير عما حدث في التحرير بالأمس، فجرائد النظام تحدثتْ عن مظاهرات لبنان وبعضها ذكر أن العشرات خرجوا إلى ميدان التحرير. لقد شهدَتْ مصر واحدةً من أكبر المظاهرات خلال فترة حكم مبارك ضد النظام ولكن الإعلام كان في حالة إنكار أنها حدثت من الأساس. سائق التاكسي كان لديه رؤية شبيهة للرؤية السياسية لرجل الشارع المصري؛ والتي يمكن تلخيصُها في كلمتين: «مفيش فايدة».

طلبت من السائق أن يُنزلني قبل مكتب صديقي بعدة عمارات. تأكدت من مغادرته المكان ونظرت حولي لأتأكد أنه ليس هناك مَن يراقبني. التقيت بصديقي عند باب العمارة واصطحبني إلى المكتب. كان مكتبه شقة هادئة في الدور الثالث بإحدى عمارات الزمالك الصغيرة المطلة على النيل في شارع أبو الفدا، مساحته لا تتجاوز ١٥٠ مترًا ومليء باللوحات الفنية والدعائية. صديقي هو أحد مُخْرجي الإعلانات المعروفين في مصر، والطريف أن غرفة الاجتماعات بالمكتب كانت تحوي صورة الرئيس حسني مبارك. أتذكر أول مرة رأيتها عند زيارتي له تعجبت، ولكنني ما لبثت أن ضحكت كثيرًا حينما أخبرني أنه وضَعها كنوع من أنواع الدُّعابة؛ فصورة مبارك هي عامل مشترك في كل المصالح الحكومية ووصل الأمر بالنظام أن يسمّي العديد من المنشآت العامة باسمه، حتى أكاديمية الشرطة التي تُخرّج ضباط الشرطة كان اسمها: أكاديمية «مبارك» للأمن.

كنت مُنهكًا ومُتعبًا من اليوم الشاقّ وقلة النوم، ولكنني فوجئت بأن الإنترنت لا يعمل بالمكتب. اتصلت بصديقي لأطلب منه أن يعود مرة أخرى إلى المكتب ويساعدني، وكانت الساعة وقتها تتجاوز الحادية عشرة مساء. ظللت أعدّ الدقائق حتى يأتي صديقي لانقطاعي عن التواصل مع الصفحة، وبعد وصوله تمكنت من الدخول على الشبكة الاحتياطية للإنترنت لديهم في المكتب، تنفست الصُّعَداء واستمررت في الكتابة على الصفحة مُضيفًا كل ما يصلني من فيديوهات وصور للمظاهرات وما يَرِد من أحداث عن التظاهرات الصغيرة في مختلف أنحاء الجمهورية، وحاشدًا ليوم الجمعة مُعلنًا أن أماكن التظاهر سيتم الإعلان عنها في أقرب وقت.

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، وظللت أُحدّث الصفحة كل عشر أو عشرين دقيقة بفيديوهات وصور من ٢٥ من يناير وكلام وتصميمات وشعارات تحثّ الناس على النزول يوم الجمعة ٢٨ من يناير. أخيرًا سقطت في النوم على الكنبة في الحادية عشرة صباحًا. استيقظت بعدها بثلاث ساعات وفورًا فتحت اللابتوب ودخلت على الإنترنت لأرى إذا ما كان شيء قد فاتني. تابعت تزايد عدد الذين أكدوا حضورهم يوم ٢٨ من يناير على صفحة الحدث على الفيسبوك والتي كانت قد وصلت لنصف

مليون عضو. كنت منشغلًا طَوال اليوم بالكتابة على الصفحة ومتابعة ما يدور من حوار بين الأعضاء، أتابع الدعوة ليوم ٢٨ من يناير وأقرأ الصحف وأشاهد البرامج الحوارية على اليوتيوب، وأنظر بتحدٍّ إلى تلك الصورة المعلقة لحسني مبارك. الجوّ مشحون والجميع مستعدّ، وبمجرد مراسلة مصطفى النجار وأحمد ماهر لي بأماكن التجمعات قمت بدمج القائمتين ونشرتهما على الصفحة. القائمة احتوتْ أسماء عشرات المساجد والكنائس في كل مصر، فالهدف كان ثورة كاملة ليفقد النظامُ سيطرته ويختل توازنه ويفهم الرسالة. فالقضية الآن هي أننا ـ كمصريين ـ مُصِرّون على استرداد كرامتنا، ولن يتوقف الشباب عن المطالبة بإسقاط النظام بعد كسر حاجز الخوف.

بعد أقل من ١٥ دقيقة على نشر أماكن التجمعات في صفحة كلنا خالد سعيد قامت الحكومة بحجب الفيسبوك مُجددًا وأصبح الوصول إلى قائمة التجمعات أمرًا شبه مستحيل، ولكن العديد من الشباب التقطوا الأماكن عبر الإنترنت وبدءوا في نشرها بالوسائل التقليدية. تذكرت القائمة البريدية والتي بها ٢٠ ألف عضو، وأنشأت بشكل سريع مجموعة على «Google Groups» حتى يتسنى لي إضافتهم إلى المجموعة ومراسلتهم بشكل سريع، وأرسلت الرسالة إلى الجميع.

كان الأمر أكبر بكثير من صفحة أو دعوة على الفيسبوك، أكبر من فيديو أو صورة أو تصميم، أكبر مما كان يكتبه نُشطاء تويتر؛ فالشارع المصري كان مِثل حلة الضغط التي كانت على وشك الانفجار ومظاهرات ٢٥ من يناير فتحت له الطريق حتى ينفجر.

زاد غليان الشارع قبل ٢٨ من يناير، ولكن النظام اختار أن يتجاهل تمامًا ما يحدث. خرج علينا صفوت الشريف؛ الأمين العام للحزب الوطني، في التلفزيون وقال إنه لم يهرب أي من أعضاء الحكومة أو الحزب خارج مصر؛ وذلك لأن المسئولين الذين يُكرّسون وقتهم من أجل مصر ليس لديهم ما يخافون منه. وأضاف أن الديمقراطية الحقيقية لا تعني فرض مطالب الأقلية على الأغلبية. أدى خطابه إلى زيادة غضب الشباب، فهو لم يفشل وحسب في إدراك مطالبنا، ولكنه أيضًا قلّل من أهمية الجماهير التي خرجت في المظاهرات ووصفهم بالأقلية التي ليس لديها دور في تكوين مستقبل مصر.

طَوال الأربع والعشرين ساعة التي قضيتها في مكتب صديقي لم آكل سوى وجبات سريعة طلبتها من المطاعم المجاورة وتواصلت مع العالم الخارجي بالإنترنت من خلال «بروكسي». لم تعرف والدتي أو إخوتي مكاني، فكل ما قُلتُه لهم هو أنني سأقضي الليلة عند أحد أصدقائي، ودون أن أذكر اسم هذا الصديق. في هذه الأثناء كنت أنا وأخي نتبادل الرسائل عبر الفيسبوك لأتجنب أن يتتبع أحد مكالماتي الهاتفية. كنت أتُوق إلى الخروج للشارع لأتمشى وأتنفس الهواء المنعش بعد كل هذا الوقت الذي قضيته محبوسًا في المكتب.

كنت قد اتفقت مُسبقًا مع اثنين من زملائي في «جوجل» أن أقابلهما أثناء زيارتهما من أمريكا للقاهرة، خاصة وأنها أول زيارة لهما لمصر، وكنا اتفقنا على أن نتقابل عصر يوم ٢٧ من يناير. ولكن بسبب تسارع الأحداث اقترحت عليهما أن نلتقي مساءً ونتناول العشاء سويًّا في أحد مطاعم الزمالك الشهيرة؛ وهو مطعم مفتوح على النيل يَبعُد عن مكتب صديقي دقائق قليلة سيرًا على الأقدام. أثناء لقائي معهما تحدثت بحماس عن ٢٥ من يناير وحلم الشباب المصري في التغيير. بعد ساعة ونصف من لقائنا انقطع الإنترنت فجأة عن المطعم. كان عليّ أن أتركهم لأنني لم أستطع أن أكون غير متصل بالإنترنت في هذا الوقت الحَرِج. كان المطعم مُزدحمًا كما لو لم يكن هناك ثورة أو مظاهرات عارمة ستشهدها مصر بعد أقل من ١٢ ساعة. أبدى زملائي قلقهم عليَّ وعلى سلامتي أثناء مظاهرات الغد، ولكنني طَمْأنتُهم ورحلت. لم أكن أعرف أن هذا اللقاء القصير سيُودِي بي إلى واحدة من أصعب التجارب في حياتي.

طَوال فترة جلوسي في المطعم كنت أتابع اشتراكي في تويتر، والذي لم يكن قد حُجب بعد عبر الهاتف المحمول. وبعد مغادرتي المطعم ولاحظت انتشار خبر قطع الرسائل القصيرة للمحمول، وبعد مغادرتي المطعم كتبت وقتها على اشتراكي الشخصي: «دعواتكم لمصر؛ فإن الحكومة يبدو أنها تخطط لمذبحة غدًا». بمجرد انتهائي من الكتابة وإرسال الرسالة في الشارع المظلم المؤدي إلى المكتب، فوجئت بثلاثة أشخاص يَهجمون عليّ، الأول أسقطني أرضًا والثاني أمسك بقدمَيّ والثالث كمّم فمي بيده. بدأت في الصُّراخ المكتوم طالبًا النجدة على الرغم من أن صوتي كان ما زال متأثرًا بهتافات التحرير يوم

٢٥ من يناير. كلمني أحدهم بغلظة متفوها بألفاظ بذيئة: «اسكت يا... اخرس خالص». تحدث أحدهم في جهاز إرسال قائلًا: «تمام يا باشا، إحنا جاهزين».

لم يكن من الصعب التعرف على هوية المختطفين، فملامحهم وطريقتهم في الحديث والتعامل وجهاز الإرسال تجعلني لا أشك في أنهم تابعون لجهة أمنية. أخذوا جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي ولكنني تشبثت بالهاتف المحمول. كان واضحًا أنهم يحاولون قدر استطاعتهم عدم جذب الانتباه لما يحدث حتى يتم وضعي داخل السيارة؛ لأنني كنت بين سيارتين متوقفتين على جانب الطريق، ولا يسهل على المارّة رؤيتي، خاصة وأن الوقت كان قد تجاوز منتصف الليل.

بعد دقائق جاءت سيارة صغيرة. كان قلبي يدق بجنون خوفًا من المجهول. أحْكَم اثنان منهما الإمساك بي وقال أحدهم: «إذا صرخت مش هيحصل لك كويس». عندئذ استسلمت نهائيًّا وقررت عدم المقاومة؛ فأنا الآن رهينة بين أيديهم وأعرف ما يُمكنهم فعله بي، والأفضل عدم الحديث والانصياع للأوامر بغضّ النظر عن النهاية المجهولة.

دفعاني داخل السيارة بقوة، وكانا يتعاملان معي بقسوة مبالغ فيها رغم توقفي عن المقاومة. جلست في المقعد الخلفي وجلس أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، وجلس الثالث بجوار قائد السيارة، بدأتِ الأوامر: «طلَّع كل حاجة في جيبك يا...»، الطبيعي مع هؤلاء هو استخدام الألفاظ النابية لإذلال مَن معهم. أخرجت ما في جيبي فكبّلوا يديَّ وأخذوا نظارتي والساعة والهاتف المحمول والحظاظة الخضراء التي طلَبَتْ مني زوجتي ارتداءها طَوال وجودي في مصر لأتذكر أبنائي أثناء المظاهرات ولا أُعرّض حياتي للخطر. بدأت السيارة في التحرك ببطء وبدأتْ في الانعطاف يمينًا ويسارًا في طرقات غريبة. لم أكن أرى شيئًا مما يحدث حيث إنهم أمروني بأن أرفع قميصي على رأسي لأغطي به عينيَّ، وأَحْكَم أحدهم الأمر بعقد حزام البنطلون بقسوة حول رأسي، ثم أجبرني بكفّه على أن أحني رأسي وقال لي: «إياك تنطق بكلمة واحدة».

مرت الكثير من الأفكار بسرعة في ذهني. كان أكثر ما يخيفني هو أن يكتشفوا أنني صاحب الصفحة التي دعت للتظاهر يوم الخامس والعشرين. فكّرت في نادين؛ الناشطة المصرية في أمريكا التي أخبرتها ألا تعلن عن اختفائي وعلاقتي بالصفحة سوى بعد

أسبوع، وفي مشهد زوجتي وهي تخبرني وأنا مسافر أنها حزينة وقلقة وأنها تشعر أنني اتخذت قرارًا أنانيًّا بدون التفكير في مستقبل أولادي ولا استشارتها كشريكتي في الحياة.

حاولت تهدئة الفزع الذي كنت أشعر به، ولكن دقات قلبي كانت تتسارع أكثر وأكثر. يا لَلمصيبة! فالكمبيوتر المحمول وضعته على وضع يسمى بـ«Sleep Mode»؛ أي أنني لم أُغلق البرامج ولا الصفحات المفتوحة، وكانت الصفحات وقتها هي صفحة «كلنا خالد سعيد» والبريد الإلكتروني الخاصّ بالصفحة، وكذلك المجموعة البريدية التي أنشأتها لإرسال أماكن التجمعات. جلست أفكر كيف أقنعهم بأي حيلة لأمنعهم من الدخول على الجهاز. وجاءت إلى رأسي فكرة رجوت الله أن تتكلل بالنجاح.

توقفتِ السيارة بعد أكثر من عشرين دقيقة من القيادة. أمروني بالخروج منها وهم قابضون على ذراعي الأيمن والأيسر وحذروني من أي محاولة للكلام. أخذوا يدفعونني بقوة ونزلت عدة سلالم للأسفل، وهنا تلقيت ضربة على وجهي وبعضَ الركلات على أنحاء متفرقة من جسدي من شخص كان في استقبالي هناك. عند دخولك في مقر أمن الدولة هناك ما يُسمّى حفلة استقبال يحرص فيها المُخبرون على ترويعك وإرهابك بما يضمن انقيادك وانصياعك التام لهم؛ يريدون منك أن تعرف أنهم الأقوى وأنهم قادرون على فعل ما يريدون بك. كان من الواضح أن هناك الكثيرين في انتظاري. أجبرني أحد أفراد الأمن فورًا على أن أواجه الحائط، وأمرني بأن أُبقي عينَيَّ مُغمضتَيْن. بدأ في رفع قميصي من على رأسي وقال لي: «أغمض عينيك، وإذا وجدت أنك قد حاولت فقط مجرد المحاولة لفتحهما فسترى ما لا تحمد عقباه»، فأغمضت عينيَّ بشدة. خلع عني القميص والفانلة الداخلية، وجاء بقطعة من القماش السميكة ليضعها على عينَيَّ كعِصابة ويعقدها حول رأسي حتى لا أستطيع الرؤية. أمرني بخلع بنطالي وبدأ في التهديد باغتصابي وكان مَن حوله يضحكون، قائلًا لي: «أهلًا بك في أمن الدولة يابن الـ...، أنت هنا هتتعلم الأدب وتعرف يعني إيه تبقى في حالك. اقلع البنطلون عشان هنجيب عصاية وندخلها في دبرك».

هنا بدأتْ رِجلاي في الارتعاش، وبدأ صدري يضيق، والرعب والخوف مما سيحدث لي وصل لأقصى مدًى. وفجأة أمرني المخبر بالعودة للوضع واقفًا وارتداء

ملابسي وهو يضحك. الضربات التي تلقيتها لم تكن كثيرة ولكنها كانت كافية، بجانب السباب والشتائم، لتخديري تمامًا واستسلامي لهم. شعرت أنني جثة تتحرك، توقف عقلي عن التفكير برغم أن قلبي ما زال ينبض نبضات متسارعة تُعبر عن أقسى تجربة عاصرتها في حياتي؛ تجربة التعامل مع المجهول.

اقتادني أحدهم من ذراعي لمسافة غير بعيدة، خطوت عدة خطوات وقال لي: «اسمك إيه؟»، قلت: «وائل سعيد غنيم»، ضربني على وجهي قائلًا: «لأ، من النهاردة انسى وائل دي خالص، أنت هنا اسمك ٤١، ماشي يا ٤١؟»، قلت له: «ماشي يا فندم». سألني: «اسمك إيه ياد؟»، فقلت له وأنا أرتعد خوفًا: «٤١ يا فندم».

ثم بدأ بتوجيه بعض التعليمات لي والخاصة بعدم الحديث مع أحد نهائيًّا أو محاولة التفكير في كشف العِصابة من على عينيَّ، وأن أُنفّذ كل ما يُطلب مني تنفيذه من الضباط.

كنت دائمًا ما أعتقد أن أمن الدولة ليس بالغباء حتى يَعتقل شخصًا مثلي قد يَخرج الكثيرُ من أصدقائه ومعارفه في الإعلام، أو يصلون لقنوات في السلطة المصرية للإفراج عنه، وكنت أيضًا أعتقد أنه حتى بافتراض الاعتقال فستتم المعاملة على خير وجه. ولكن الظروف تغيرت؛ فما يحدث في مصر من أحداث ابتداء من يوم ٢٥ من يناير تسقط معه كل وجوه الاحترام والخوف على سمعة جهاز أمن الدولة أو النظام بأكمله، المعركة أصبحت حياة أو موتًا.

نزلنا عدة سلالم مما أكد لي أننا نتجه إلى سجن تحت الأرض. اقتادني المخبر للسير في ردهة ذكّرتني بطريق السيارة التي كانت تقتادني للمكان، فأنا أسير في ردهات قصيرة يمينًا ويسارًا وفي خطوات سريعة بسبب خطواته. ودخلت غرفة شعرت وقتها أنها كبيرة جدًّا بسبب صدى الصوت، وأجلسني على مقعد خشبيّ وأمرني بعدم الحركة.

طلبت شُرب بعض الماء، فما حدث لي من ترويع جعلني أشعر بفقدان توازن كامل. أحضر لي زجاجة مياه وبدأت أشرب منها كالظمآن في الصحراء الذي وجد الماء بعد رحلة بحث طويلة. وضعت الزجاجة بين يديَّ المُكبّلتين حتى أستطيع أن أشرب منها مرة أخرى.

سمعت أصوات خُطوات تقترب من خارج الغرفة، كانوا أكثر من شخص، وعلمت من اختلاف أصواتهم بعد ذلك أنهم ثلاثة من المحققين.. وهنا بدأ التحقيق.

بدأ أحدهم بالترحيب بي قائلًا: «والله ووقعت ومحدش سمَّى عليك.. أنت فاكرنا يالَه شوية عيال صغيرة مش عارفين شُغلنا؟ إحنا متابعينك من زمان قوي وعارفين كل تحركاتك والبلاوي اللي بتعملها. أنت فاكر الأجهزة الأمنية جَهَلة ومش بيفهموا؟ إحنا بس كنا سايبينك عشان نعرف أنت مين وتبع إيه والنهاردة خلاص عرفنا كل حاجة».

قاطعَه الضابط الآخر قائلًا: «بص يا بني من الآخر.. أنت النهاردة اتمسكت ونقدر بكل سهولة نوديك ورا الشمس، بس مستعدين نتعاون معاك لو أنت اتعاونت معانا وادتنا كل المعلومات اللي احنا عايزينها.. وطبعًا أنت أكيد عارف اللي ممكن يحصل لك لو ماعملتش كده».

أعلم جيدًا كيفية سير تحقيقات أمن الدولة، واتباعهم لمنهج التعذيب في الحصول على المعلومات، وأتذكر جيدًا قصة صديقي ياسر المتدين الذي كان معي في الجامعة، والذي كان يُشرف معي على موقع «طريق الإسلام». في السنة الثالثة من دراسته اختفى ياسر من الجامعة، وبسؤالي عنه في بيته علمت أنه قد تم اعتقاله. خرج لنا ياسر بعد عدة أشهر ليحكي لنا فصول الرعب التي لاقاها في أمن الدولة من تعذيب بغرض الاعتراف عن دور غير حقيقي له في قيادة مجموعة من الشباب المتطرف للقيام بأعمال إرهابية. تم تعذيب ياسر بأبشع أنواع التعذيب، وتذكرت وقتها كيف أن ياسر أخبرني أن لأمن الدولة أسلوبًا معينًا في التحقيق؛ حيث يوحون لك أنهم يعرفون الكثير عنك ويواجهونك ببعض المعلومات التي يتوقعون صحتها ليختبروا قوة إنكارك وإذا أنكرتها بقوة فسيصدقوك.

استمر التحذير من الضابط الثالث الذي أخبرني أنه يعرف أنه سبق استدعائي من قِبل أمن الدولة، ولكنني من الذكاء أن أعرف أن اعتقالي من الشارع اليوم يجعلني فطنًا وذكيًّا في الاعتراف السريع بكل ما أقوم به وعلاقاتي حتى يتسنى لهم معاملتي دون قسوة أو عنف.

عاد الضابط الثاني ليتحدث: «شوف يا بني احنا مراقبينك من زمان جدًّا وعارفين كل حاجة عنك، بس برضه إحنا عايزين نسمع منك كل حاجة. لكن خُد بالك لو انت كذبت هيحصل تصعيد ومش هيكون في صالحك».

طلب مني الضابط أن أبدأ بسرد قصة حياتي، سألته: «طب حضرتك أبدأ أحكي من فين؟ من إمتى بالضبط؟». قال لي: «أكيد إحنا مش مهتمين نسمع عن طفولتك! احكيلي من أول ما سافرت أمريكا.. سافرت أمريكا ليه؟».

لم أفهم مغزى السؤال الحقيقي، ولكنني بدأت أتساءل: هل من المصلحة أن أخبرهم عن قصة إنشائي لموقع «طريق الإسلام»، أم أن ذلك سيُعقّد الأمور. تسلل الخوف لقلبي فبدأت أحكي لهم القصة كما ذكرتها لضابط أمن الدولة في ٢٠٠٥؛ والتي كنت أتذكر تفاصيلها لأنني كنت أخشى وقتها أن يتم استدعائي مرة أخرى فتتضارب أقوالي. ذكرت لهم أنني سافرت للزواج، وأنني التقيت بزوجتي عن طريق أحد أصدقائي وتزوجت بها، وكنت أنوي العيش بأمريكا حتى حدثت أحداث سبتمبر؛ فلم أكن سعيدًا من الأوضاع هناك ونظرة الأمريكيين للعرب والمسلمين وقررت العودة لمصر.

ضرب الضابط بعصبية على طاولة خشبية يبدو أنها كانت أمامه، وقال لي: «شوف يا ابني أنت شكلك جاي تستعبط وفاكرنا مش عارفين حاجة.. أنا اديتك فرصة وقلت لك تقول الحقيقة اللي أصلا احنا عارفينها كلها، لكن أنت مُصِرّ تكذب.. أنا هاديك فرصة تانية وهاكرر سؤالي: سافرت أمريكا ليه؟».

مسلسل الرعب الذي مررت به قبل التحقيق معي وصدمة المفاجأة وكذلك جهلي لقدر المعلومات التي يعرفونها عني ومعرفتي بالعواقب التي قد تنتظرني في حالة استمراري في إخفاء المعلومات جعلني أتخذ قرارًا متسرعًا بيني وبين نفسي أن أبوح بالحقيقة كاملة، وليحدُث ما يحدث. حكيت له قصة إنشائي لموقع «طريق الإسلام»، وسفري للتبرع به لمنظمة إسلامية خيرية في أمريكا، ولقائي بزوجتي. ذكرت التفاصيل قدر استطاعتي حتى يتأكد المحقق من مصداقية كلامي، ولكن الغمامة التي على عينيَّ منعتني من معرفة مدى تصديقهم لما أقول. وانتهيت من إجابة سؤال: «لماذا ذهبت إلى أمريكا؟».

هنا سمعت ضربة أخرى على الطاولة بعصبية أكثر من الأولى، وبدأ الضابط يُظهر عصبيته بشكل أكثر وضوحًا قائلًا لي: «واضح يا ابني برضه إنك مُصِرّ تخفي عننا الحقيقة.. يا ابني أنا للمرة التانية باحذرك إنك لو ماحكيتش التفاصيل هيكون لينا طريقة تانية خالص في التعامل معاك وأنت أكيد عارفها».

وهنا رددت عليه بشكل مباشر وسريع: «أنا والله قلت فعلًا الحقيقة ومش عارف إيه التفاصيل اللي أنا باخفيها، والله فعلًا دلوقتي ماعرفش قصدك إيه بالتفاصيل».

رد عليَّ بشكل مباشر: «طيب شوف هاقربها لك شوية وأساعدك وعشان أفهمك إننا عارفين كل حاجة، تقدر تقول لي إيه الورق اللي وقّعت عليه في أمريكا؟ ووقّعت عليه لمين؟».

لم أفهم السؤال، ولم يكن هناك ورق وقّعت عليه يورّطني في أي مشكلة، فذكرت له بشكل مباشر: لم أُوقّع سوى على ورقتين: عقد زواجي وعقد تنازلي عن الموقع للمؤسسة الخيرية بدون أي مقابل ماديّ. وهنا بدا حادًّا وقال: «أنت مش عايز تقول الحقيقة؟».

تذكرت قصة صديقي ياسر وكيف أنهم كانوا يتهمونه بما ليس فيه كأسلوب للتحقيق ليعترف لهم بما لا يعرفونه، فهم يُخمّنون ما يمكن أن يكون قد حدث ويُعلنون لك بكل ثقة أنهم يعرفونه حتى تُقِرّ وتَعترف. فأقسمت له إنني أقول الحقيقة ولا أكذب، وإنني لم أُوقّع على أي ورق، وإن كان يعرف شيئًا فليخبرني به لأؤكده أو أنفيه. بعد دقيقتين من الجدال قال بعصبية: «طيب أنا هاحط دي في الصندوق وهاعديها.. احكيلي بقى عن شغلك السياسي على الإنترنت».

زاد السؤال من ارتباكي، فلا أعرف ماذا يعرفون وكيف عرفوه، وقررت مرة أخرى أن أحاول إخفاء علاقتي بصفحة «كلنا خالد سعيد»؛ خاصة أن الصفحة تمثل لهم هاجسًا أكبر منذ إنشائها وحتى الآن، وأنني لا أعرف تبعات ما قد يحدث إذا ذكرت الصفحة. قررت أن أُخفي المعلومة لأرى ماذا سيحدث، فالمخاطرة وقول الصدق هذه المرة ستكون كبيرة. أجبت عن سؤاله، بأن لديّ على صفحتي الشخصية على الفيسبوك

أكثر من ١٥٠٠ صديق، ويتابعني أكثر من ٣ آلاف شخص على تويتر، وأكتب بشكل مستمر على الإنترنت معارضًا سياسات النظام وضد مبارك ومُؤَيِّدًا للبرادعي وحركة التغيير في مصر.

ردّ عليَّ بشكل ساخر قائلًا: «بس كده؟ أنت شكلك نفسك تتعرف على أساليبنا في الحصول على المعلومات.. مش كده؟». زاد تلعثُمي ورددت بسرعة قائلًا: «يا فندم فيه إيه بس؟! والله العظيم أنا باحب بلدي وباعشق ترابها ومش فاهم أنتو بتعملوا معايا كده ليه؟ أنا ماعملتش حاجة ضد بلدي». تعصب الضابط وارتفع صوته بشكل مفاجئ: «أنت خاين لبلدك.. واللي زيك المفروض يشعر بالخزي والعار». لم أفهم حينها مغزى ما يقول، واعتقدت أنه رد فعل على كلامي، ولكنني قررت أن أعترف بكل شيء، كانت لحظة حاسمة اتخذت فيها قراري بأن أذكر لهم كل شيء وأن أتحمل تبعات ما قمت به.

لا أحد يعلم أين أنا، لا أصدقائي ولا معارفي ولا حتى والدتي وزوجتي، ولم يشهد أحد واقعة اختطافي لأن الاختطاف تم في شارع شبه مظلم في وقت متأخر من الليل، وبالتالي فأنا هنا أسيرٌ لديهم يمكنهم بسهولة التخلص مني دون وجود أدنى دليل إدانة عليهم؛ ولذلك قررت أن مصيري بيد الله وأن أعترف لهم بكل شيء وأتحدث معهم بصدق لعلهم يعقلون.

قلتها وأنا أرتجف من الداخل: «أنا مؤسس صفحة الدكتور محمد البرادعي على الإنترنت، وأنا الأدمن بتاع صفحة «كلنا خالد سعيد»، وأنا اللي حددت يوم ٢٥ من يناير للنزول للشارع وعمل ثورة زي تونس. كنت أتمنى أن أرى ملامح وجوههم لأعرف هل كانوا يعرفون هذه المعلومات أم أنهم فُوجئوا بها. ما كنت أعرفه أن أمن الدولة كان يبحث وبشكل مكثف عمن يُدير صفحة «كلنا خالد سعيد» خاصة بعد انتقال أعمالها للشارع.

«أنت بقى اللي عمال تحرض ضد الداخلية بقالك شهور وعامل فيها بطل وبتستغل قضية واحد حشّاش عشان أهداف سياسية وضحت دلوقتي.. أنت إنسان حقير وخاين لبلدك». رددت باكيًا: «والله العظيم أنا باحب بلدي وماعملتش الصفحة دي إلا عشان نفسي بلدي تبقى أحسن والداخلية تتطور ونفسي كرامتنا ترجعلنا بعد ما راحت»،

قاطعني بصوت مرتفع: «تتطور إيه؟ وإيه اللي أنت شايفه بتعمله الداخلية غلط؟»، مع الوقت بدأ الحوار يتحول إلى حوار عقلاني، وفي اعتقادي كان ذلك للتعرف على أفكاري. تحدثت معه عن قانون الطوارئ وإساءة استخدامه، والتعذيب في أمن الدولة وغيرها من الجرائم التي كان يُشرف عليها ضباط وزارة الداخلية. لا أتذكر كيف سار الحوار بالتحديد، ولكنني أتذكر جيدًا أنه لم يقتنع بفكرة المُحارِب للظلم الذي لا يسعى لمصلحة شخصية؛ فالجميع عندهم هم أصحاب مصالح ومنافقون، لا يوجد المصري الوطني في قاموسهم الأمني.

سألني عن علاقتي بالبرادعي، وكان هذا محورًا هامًّا في التحقيق، فأسئلتهم محددة وكانوا بالفعل يبحثون عن كل خيوط ما اعتقدوا بأنه «مؤامرة» على مصر والمصريين بدأت في الخامس والعشرين من يناير. شرحت لهم بكل صدق علاقتي معه، وأتذكر أنه كان يَكيل السباب للبرادعي بصفته عميلًا لأمريكا وسببًا في حرب العراق، وجاء لخراب مصر وبثّ الفوضى فيها.

لم أكن لأصدق أن جهازًا استخباراتيًّا أمنيًّا بحجم جهاز مباحث أمن الدولة يردد ما يردده رجل الشارع العادي عن البرادعي، وكان التفسير المنطقي هو أنهم من بَثّوا هذه الشائعات إما إيمانًا ممزوجًا بجهل، أو خبثًا ممزوجًا باستغلال للجهل. دافعت عن البرادعي وقلت إنه شخص مصري وطني ساهم في تجديد دماء معارضة النظام في مصر، وإنني لا أصدق الأكاذيب التي يتم نشرها عنه خاصة، وأوضحت لهم استقلالي عنه وأنني في النهاية قد لا أنتخبه رئيسًا لمصر، ولكنني معه على نفس الطريق الحالم لتغيير أوضاع البلد. الحوار في هذه المرحلة كان حوارًا فكريًّا استمر لأكثر من نصف ساعة، فهم يحاولون معرفة ماذا يدور في رأسي، وأنا أحاول أن أثبت لهم أنني مُحبّ لوطني.

سألني أحدهم: «وانت بقى لو وطني وبتحب بلدك جدًّا شغّال ليه بشكل سري؟ ومخبّي اسمك من على الصفحة؟»، رددت عليه بهدوء: «السببين: لأني مش عايز أي شهرة ولا عايز أي حاجة من ورا اللي باعمله، والسبب التاني لأني كنت خايف من اللحظة دي؛ أنا باهاجم الجهاز اللي يقدر يقبض عليَّ ويحطّني في السجن ويتهمني

بأي تهمة». فرد عليَّ: «ده أنت واضح إنك معتقد إن ضباط الشرطة دول شياطين أو شوية وحوش كاسرة!». قلت له: «بالعكس؛ لو أنت بتتابع صفحة «كلنا خالد سعيد» تعرف إني قلت كتير جدًّا إننا مش ضد ضباط الشرطة المحترمين وهم كتير، إحنا ضد الفاسدين منهم. حتى لما في الصفحة كنت باتهم أي ضابط وأطلع غلطان بانشر اعتذار له، ويا ريت تراجع الصفحة من أسبوعين بعد أحداث كَنيسة القديسَيْن في إسكندرية وشوف الاعتذار اللي كتبته للضابط اللي كان واقف على حراسة الكَنيسة».

ردّ عليَّ مُقاطعًا: «مشكلتكم إنكم فاكرين نفسكم فاهمين كل حاجة، وأنتم مش فاهمين أي حاجة وبِيَتم استغلالكم عشان تدمروا بلدكم»، فرديت عليه: «بلدنا كل يوم اللي بيدمرها همّ السياسيين اللي ماسكينها وبيسرقوها وينهبوها، والظلم اللي بيقع على الناس».

تغير مجرى الحوار بشكل مفاجئ، وعُدنا مرة أخرى للتفاصيل. سألوني عن أسماء كل من ساهم في الدعوة ليوم ٢٥ من يناير، فكان ردِّي أن الأمر بدأ استجابة لما حدث في تونس ودعوة بسيطة على الفيسبوك، وتحولتْ بشكل سريع وغير متوقّع لدعوة انتشرت على كل الإنترنت وانتقلت للشوارع، «ووالله ما كان فيه تخطيط ولا استراتيجيات». سألني: «ومين اللي حدد الأماكن؟»، قلت له: «أحمد ماهر من حركة ٦ إبريل ومصطفى النجار من حركة البرادعي»، فسألني عن طريقة تواصلي معهم وأكدت له أنهم لا يعرفونني شخصيًّا، وأنني أُنسق معهم بشكل سرّي عن طريق الإنترنت. لم يقتنع الضابط نهائيًّا بالإجابة، ولكنه ارتضى أنني ذكرت له الأسماء واتصل بأحدهم عبر الهاتف للاستعلام عنهما. ذِكْري لمصطفى وأحمد كان لعلمي أنهما مراقَبان، وأن مصطفى نَفسه قد اعتُقل، وأنهم يعرفون علاقته بتنظيم وقفة دار الحكمة، وماهر كان من نشطاء ٦ إبريل المراقَبين أيضًا، ولكنني كنت حريصًا على ألا أذكر اسم أي أحد آخر.

كان هناك الكثير ممن يعملون في التنسيق للمظاهرات وأعرف أسماءهم، فهناك مثلًا محمود سامي؛ والذي نسّق مع غيره من النشطاء على الأرض للمظاهرة في مصطفى محمود، وكان دوره من أكثر الأدوار محورية، لكنني لم أشأ أن أذكر لهم سوى الأسماء التي يعرفونها، وربما يراقبونها أيضًا، وسبق لهم الاعتقال. لم أشأ أن أُعرّض

حياة أي شخص آخر للخطر، حتى عبد الرحمن منصور؛ الأدمن الثاني للصفحة، لم أذكر اسمه إطلاقا في التحقيقات خوفًا عليه، خاصة وأنه كان في الجيش يقضي فترة تجنيده الإجباري.

سألني عمّن الذي يكتب الآن على الصفحة، وإذا كان هناك أدمن آخر، أجبته بصورة مباشرة: نعم، هناك صديقة لي مصرية تعيش بالولايات المتحدة وتُدعى نادين تساعدني. قال لي مَن هي نادين؟ وكيف تعرّفت عليها؟ قصصت له قصة فقداني للصفحة وتبرعها بأن تكون الصفحة باسمها، وكيف أننا تعرفنا على بعضنا البعض بسبب أنها كانت في القائمة البريدية الخاصة بمجموعة دعم الدكتور محمد البرادعي.

لم يكن الضابط مقتنعًا بفكرة عفوية المظاهرات، وأنه لم يتم التخطيط لها خاصة في ظل وجود شخصية مثلي متزوج من أجنبية وأعمل بشركة أمريكية، وهناك أدمن آخر مصرية تعيش بأمريكا، وغيرها من الارتباطات التي تجعلهم يؤمنون بنظرية المؤامرة. المصريون رَأَوْا في النموذج التونسي حركة مُلهِمة لتغيير واقعهم السياسي المرير، أما ضباط أجهزة الأمن فلم يؤمنوا بقدرة الشعب على التغيير والمطالبة بحقوقهم في ظل نظام قمعي يقودونه بامتياز، وكانت نظرية المؤامرة هي الوسيلة الأمثل لتبرير فشلهم في عدم قدرتهم على كبح جماح هذه الثورة.

سألني الضابط: «كنت بتقابل مين في المطعم اللي في الزمالك؟»، فأخبرته مباشرة: «ماثيو ستبكا وجاريد كوهين؛ زميلان من شركة «جوجل» بأمريكا». وهنا قاطعني بعصبية: «أيوه ودول اللي حضرتك بتتلقى منهم الأوامر؟ أنت خاين لبلدك لمصلحة أجهزة المخابرات الأجنبية، وعملك في «جوجل» تغطية لعملك الاستخباراتي».

صُعقت من هول الصدمة، لم أصدق أنه يتهمني بخيانة بلدي الذي أعشق ترابه وأرفض حتى فكرة حصولي على جنسية غيره. عكسَ صوتي صدمتي ورفضي لما قاله، وقلت له: «أنا مستعد أتحمل كل أنواع الاتهامات وأقبلها إلا الخيانة، والله حتى لو عذبتوني حتى الموت عشان أقول إني خاين بلدي الموت عندي أشرف من إني أقبل بالاتهام ده».

لم يصدق الضابط كلامي واستمر في تعليقه: «يا ابني القضية واضحة جدًّا، وأنت موقفك ضعيف، أنت رقم ٤١ ومش عايز أقول لك مين رقم ٤٢ و٤٣ (مُلمّحًا لجاريد وماثيو)، وكل المعلومات هتكون عندنا وبالتفاصيل، والكذب مش في صالحك وهيخلّي موقفك أضعف». كاد أن يَجنّ جنوني بسبب سماعي لتلك الاتهامات، فلم يخطر على بالي أبدًا أن ضباط أمن الدولة يعتبرونني خائنًا لبلدي. أقسمت له إنني لم ولن أخون بلدي، وإنني عاشق لترابها، وقلت له إنني أتقاضى مرتبًا كبيرًا من شركة «جوجل»؛ حيث إنني أشغل منصبًا كبيرًا بالشركة، وانتقلت لدُبي منذ عام وأعيش في رَغَد العيش، ومعروف بعملي وإنتاجي في نطاق التقنية في كثير من دول العالم العربي. رزقني الله من حيث لا أحتسب ومؤمن بديني وأحب وطني فما الذي يدفعني لخيانة بلدي؟

لم أصدق ما أسمع، فقد ذكر لي الضابط الكبير أنهم يعرفون كل شيء؛ فأنا مجند لحساب المخابرات الأمريكية، وأعمل في شركة «جوجل» التي تُعدّ غطاء لمثل هذه الأعمال، وأن ما أحصل عليه من امتيازات هي ثمن عمالتي وخيانتي لبلدي. قاطعته بسرعة قائلًا إنني كمصري وعربي ومسلم لا أشعر بأي احترام للقيادة السياسية الأمريكية لسياستهم الخارجية المنحازة ضد العرب والمسلمين، وأنا دائم الانتقاد العلني لهم، كما أنني لم أَزُر أمريكا منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر بعد عودتي أنا وزوجتي لمصر. كما أن شركة «جوجل» هي أكبر شركة إنترنت في العالم كله، وقيمتها السوقية تفوق التريليون جنيه مصري، ونسبة كبيرة من مبيعاتها تأتي من خارج الولايات المتحدة، ودخلها السنوي يعادل دخل السياحة وقناة السويس مجتمعَيْن في مصر، فكيف تكون غطاء لأعمال استخباراتية قد تؤثر على سمعتها العالمية؟ الشركة معروفة وكل منتجاتها أمام الجميع وليس لديها ما تخفيه.

سألني عن تفسيري لاختيارهم لي مديرًا للتسويق في المنطقة برغم صِغر سني وقلة خبرتي العملية، تعجبت داخلي من السؤال وأحسست بحجم الفجوة بين هؤلاء الضباط والعالم الخارجي المتطور، أخبرته عن أن الشركات العالمية لا تهتم بالسن بقدر اهتمامهم بالكفاءة والخبرة والقدرات. وذكرت له بعضًا من إنجازاتي

السابقة ومنها حصولي على الماجستير بتقدير امتياز من الجامعة الأمريكية، وإدارتي لفريق عمل ضخم في شركة «مباشر» قبل انضمامي لـ«جوجل». ذكرت له بعض المشاريع التي قمت بها أثناء عملي بـ«جوجل» كتعريب الويكيبيديا وتطوير محرك البحث العربي، ولكن المحقق لم يهتم بكل هذه التفاصيل. كل هذه المعلومات لم تكن كفيلة بإقناعه.

كان واضحًا منذ البداية أن أحد المحققين والذي يبدو من نبرة صوته أنه أكبر سنًّا ورتبة من الآخرين هو أكثر مَن يؤمن بنظرية المؤامرة في الأحداث، بينما شعرت بأن هناك ضابطًا آخر غير مقتنع بتلك النظرية من خلال طريقة أسئلته. كان يسألني أسئلة منطقية مثل: بماذا تفسر حضور هذا الشخص (قاصدًا جاريد بسبب ديانته اليهودية) لمصر في هذا التوقيت بالذات، وكنت أجيبه بنفس منطقه. سألت الضابط: «إذا كنتَ تعتقد أن ما يحدث في مصر الآن خطة محكمة ومؤامرة أجنبية ويتم إدارتها من خلال الإنترنت، فبماذا تفسر أنت دخول شخص محسوب على جهاز مخابرات في هذا التوقيت للبلاد ومقابلة شخص مثلي في هذا التوقيت للحديث عن المظاهرات في مكان عام؟ هل أجهزة المخابرات القادرة على إسقاط النظام بهذا الغباء والسطحية؟ ألـم يكونوا قادرين على التواصل معي عبر الإنترنت؟».

قصصت له الحقيقة وأقسمت له إن ما أقوله هو الحق والصدق، وإن جاريد لم يأتِ سوى لزيارة سبق وتم الإعداد لها من فرع الشركة في مصر منذ بداية يناير، وأنه جاء ليزور العديد من الشخصيات الدينية المعروفة وبعض صُناع القرار للتجهيز لمؤتمر سيُعقد في إيرلندا لمحاربة أشكال التطرف واستخدام العنف. وأنه كان يرغب في دعوة بعض مَن كانوا أعضاء في الجماعات الإسلامية؛ التي تبنت العنف في السابق وتغير منهجها بعد ذلك، لحضور المؤتمر والحديث عن تجاربهم الشخصية وكيف تطرفوا ثم تغيرت آراؤهم بعد ذلك. لم أكن أكذب في شيء مما قلت؛ فهذا هو السبب الحقيقي لزيارة جاريد لمصر، ولكن التوقيت كان سيئًا لأقصى الحدود.

سألني أحدهم عن طبيعة علاقتي بجاريد بالضبط. لم أجد أسئلتهم المتكررة عن جاريد غريبة، فاسمه الأخير «كوهين» سيثير استغراب وشكّ الكثير من الناس في أمن

الدولة بمصر؛ وذلك بسبب الصراع الطويل الأمد بين مصر وإسرائيل على الرغم من أن معلوماتي عن جاريد أنه أمريكيّ الجنسية. قلت له إنني لم أقابل جاريد من قبل في حياتي، وإننا فقط تحدثنا على الإنترنت عبر الفيديو منذ ثلاثة أو أربعة أشهر مضت عندما انضم للشركة كمدير لـ«Google Ideas». أضفت أننا تحدثنا في الهاتف عدة مرات وتبادلنا الرسائل الإلكترونية بعد ذلك لنرتب لزيارته لمصر، والتي كان مقررًا أن تَحدُث في نوفمبر، ولكنه أجّلها لأنه كان لديه ارتباطات أخرى. أوضحت للضابط أنني وجاريد نعمل في قسمين مختلفين في الشركة؛ فأنا في قسم التسويق وهو في قسم الأفكار؛ ولذلك لم أتواصل معه في أي شيء غير هذا المشروع.

سألني الضابط: «وما الذي كان يريدك أن تقوم به؟».

جاوبته قائلًا إن جاريد طلب مني ومن موظفين آخرين في «جوجل» أن نرتب له لقاءاته مع بعض الرموز الدينية في مصر؛ مثل شيخ الأزهر ومفتي الجمهورية وآخرين بما فيهم الدعاة مثل عمرو خالد ومعز مسعود للوصول إلى النماذج التي يبحث عنها لتشارك في المؤتمر الخاص بالتطرف ومحاربته. بدأت في مساعدة جاريد في الاتفاق على مقابلات مع هؤلاء، ولكن عندما انشغلت مع المظاهرات في الأيام السابقة، تولت زميلة لي في القاهرة هذه الترتيبات.

سألني إذا كان جاريد على دراية بنشاطي السياسي على الإنترنت. قلت له إنه يعرف أنني نشط سياسيًّا في مصر، وإنني اشتركت في مظاهرات ٢٥ من يناير. سألني عما تناقشت فيه مع جاريد أثناء مقابلتنا. أجبته أننا تحدثنا عن الوضع في مصر، وأنني سألته عن رأيه في موقف إدارة أوباما من مظاهراتنا. كان جاريد مقتنعًا بأن الإدارة الأمريكية ترى في حسني مبارك حليفًا مُهمًّا لها، وأن الأمريكيين سيدعمون المظاهرات في مصر طالما كان سقف مطالبها اجتماعيًّا واقتصاديًّا بطريقة سلمية ولم تهدد بإقصاء «صديقهم» عن الحكم مثلما حدث مع بن علي في تونس. بدا جاريد متأكدًا أن الحكومة الأمريكية ستتدخل وتدعم نظام مبارك لتحمي مصالحها مع مصر. وأن باقي حديثنا كان عن العمل في «جوجل» كأي زملاء عمل لم يسبق لهم اللقاء من قبل.

لم يكن كل ما أقوله مُقنِعًا لاثنين من المُحققين، ولكن هناك مُحققًا شعرت أنه في

صفي، تساءلت بيني وبين نفسي هل هذه هي استراتيجية المحقق الطيب والمحقق الشرير (Good Cop / Bad Cop) المعروفة؟ ولم أجد إجابة. طلب مني المحقق «الطيب» كلمة السر الخاصة بجهاز الكمبيوتر الخاص بي، وهنا انقبض قلبي؛ فأنا لا أريدهم لأي سبب الدخول على جهازي الشخصي الذي يحتوي على بريد «الشهيد» الخاص بالصفحة. بريد الشهيد كان به وقتها أكثر من ٨٠٠٠ رسالة، كما أن به قائمة بأسماء وعناوين البريد الإلكتروني لأكثر من ٢٠ ألف شخص ممن يشاركون في المظاهرات، وأسماء العديد من المتطوعين الذين لا يعرفونني ولكنهم يساهمون بشكل مستمر في دعم الصفحة. كان الجهاز بالنسبة لهم كالكنز الذي سيقودهم لآلاف المتظاهرين الآخرين. ولم أكن أرغب أن يتعرض أي متظاهر لخطر الاعتقال بسببي.

رددت بسرعة وبديهية قائلًا له إنني أحتاج لهاتفي المحمول. سألني: وما علاقة الهاتف المحمول بكلمة السر الخاصة بجهازك؟ قلت له إنه نظرًا لأن هذا الجهاز تابع للشركة فإن هناك نظامًا أمنيًّا مفروضًا عليه يجعل كلمة السر لا يمكن استخدامها للدخول على الجهاز سوى مرة واحدة. وهناك برنامج على الهاتف المحمول يُصدر هذه الكلمات وهي ما يعرف اسمها بالـ«One Time Password». لم يكن هذا الأمر حقيقيًّا، ولكن الشركة بالفعل تمنع الدخول على بريدها الإلكتروني إلا باستخدام هذا التطبيق، وكنت أنوي في حالة إحضارهم لجهازي المحمول أن أستخدمه لإصدار كلمة سرّ وأحاول أمامهم الدخول بها على الجهاز والذي بالطبع سيرفضها لأنها لم تكن كلمة السر الحقيقية، ثم أُخبرهم أنه يبدو أن الشركة منعت قدرتي على الدخول على الإنترنت بإيقاف إصدار كلمات سر صحيحة.

الأمر كان مخاطرة بالغة؛ فعدم اقتناعهم يعني تعذيبي. هنا سمعت الضابط يتحدث في الهاتف ويسألهم عن هاتفي المحمول، ويَطمئن على وجوده وسمع إجابة بالإيجاب. وهنا استمر طلبهم للمعلومات؛ سألوني عن كيفية الدخول على اشتراك «الشهيد» على الفيسبوك لإدارة الصفحة. بدون تردد أعطيتُهم كلمة السر الصحيحة للصفحة، فأكثر ما يستطيعون فعله هو حذف الصفحة من على الفيسبوك، ولكن هذا لم يكن ليجدي مع الثورة، فالثورة أصبحتْ في الشارع وليست على صفحة بالفيسبوك.

حاول المحققون ربط البرادعي بالدعوة للمظاهرات، ولكنني ذكرت لهم الحقيقة كاملة؛ وهي أن محمد البرادعي لم يكن له أي علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالدعوة ليوم ٢٥ من يناير، حتى أنني راسلت علي البرادعي أخاه وطلبت منه في الثاني والعشرين من يناير مشاركة الدكتور البرادعي لدعم اليوم وضمان تغطيته إعلاميًّا بشكل مكثف بسبب حضور شخصية البرادعي، إلا أنه أخبرني بأن البرادعي خارج مصر وأنه لن يستطيع المشاركة في المظاهرات يوم ٢٥ من يناير، وأُصِبت وقتها بخيبة أمل شديدة.

استمر التحقيق وبدءوا في الحديث عن يوم الجمعة. سألني المحقق عمن أسماه بجمعة الغضب؟ أجبته أنني مَن أسميته بذلك، فسألني ومَن صمّم اللوجو الخاص بالحدث؟ وكان لوجو يُظهر شخصًا يصرخ بشكل غاضب وحماسي، فكان ردي أنه أحد المتطوعين على الصفحة بعد أن طلبت من أعضاء الصفحة التصميم، سألني عن اسمه فقلت له إنني لا أتذكر فالمئات من المتطوعين يقومون بعمل تصميمات للصفحة ولا أستطيع حفظ أسمائهم. سألني عمّن الذي حدد أسماء الأماكن؟ أخبرته أنني لم أكن أعرف الأسماء، ولكن مَن راسلني بالأماكن مصطفى النجار وأحمد ماهر ودمجتهما معًا. ثم سألني عن دور البرادعي في جمعة الغضب وأخبرته أن البرادعي أعلن من خلال موقع حملته أنه سيشارك، فسألني في أي مسجد فأخبرته أن الأمر مُعلن وعلى الإنترنت، وعلى أي حال سيُصلي الجمعة بأحد مساجد ميدان الجيزة الشهيرة؛ وهو مسجد الاستقامة ويخرج بعدها في مسيرة للتحرير.

وفي تلك الأثناء ثمة أمر ما حدث جعل المحققين يُعلنون انتهاء التحقيق ومغادرة المكان بشكل غير متوقَّع. أعتقد أنهم قبضوا على شخص آخر وكانوا يريدون التحقيق معه؛ فهم في النهاية يُصارعون الوقت قبل جمعة الغضب، والتي كان يَتوقع الجميع أن يكون يومًا حاسمًا، وأن تكون المظاهرات حاشدة.

خرج المحققون وجاء أحد عساكر الأمن الذي خاطبني بلهجة جافة وأمرني بالوقوف. قمت من على الكرسيّ الذي كنت جالسًا عليه فاقتادني إلى يمين الغرفة وقال لي أن أسند ظهري على الحائط، ثم أمرني بالجلوس وأخبرني أن هذا هو المكان الذي سأنام فيه.

جلست على الأرض أتحسس ما حولي بيديَّ المُكبّلتَيْن: بطانية من الصوف ليست سميكة بالقدر الكافي على الأرض تُستخدم كسرير أنام عليه بجوار الحائط، وأخرى معقودة بشكل يجعل منها وسادة يمكنني أن أضع عليها رأسي، وثالثة ألتحف بها لأنام. لم أكن أرى شيئًا؛ فالعِصابة على وجهي، ولكنني كنت أرسم في ذهني تصوّرًا لتلك الغرفة الكئيبة التي لا أدري متى سأخرج منها.

وضعت رأسي على الأرض وحاولت النوم، وبرغم الإرهاق الشديد لم يكن عقلي يرغب في النوم. كنت أفكر، كيف عرفوا أنني صاحب الصفحة؟ وهل عرفوا أصلًا؟ وما هو قدر المعلومات التي لديهم أكثر مما ذكرته لهم؟ ماذا حدث في الشارع؟ وهل سيتمكّنون من فتح جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي؟ هل ستنجح مظاهرات الغد؟ كم من الوقت سيحتاج أهلي وأصدقائي ليعرفوا أنه قد تم اختطافي؟ ماذا عن زوجتي وأبنائي؟

عشرات الأسئلة نزلت كالأمطار على رأسي ولا أجد إجابات لها، صراع قاسٍ بين التفاؤل والتشاؤم، بين الأمل والخوف من المجهول، وتضرُّع إلى الله أن يُخرجني من مصيبتي سالمًا.

بعد مدة قصيرة جاء شخص وأمرني بالوقوف وسألني إذا ما كنت أعاني من أي أمراض أو أتناول أي أدوية بشكل دوري فأجبت بالنفي. قام بقياس درجة حرارتي وقياس نبضات القلب ثم غادر المكان. سألني المخبر الذي يجلس معي في الغرفة إذا ما كنت تناولت طعام العَشاء، فأجبته بالإيجاب.

لم أشعر بعدها سوى بذلك المُخبِر الذي يصيح بصوت عالٍ: «قوم اقف ياله.. قوم يا ٤١ بسرعة». قمت بسرعة فأمرني بالتحرك بضع خطوات للوصول إلى الهاتف لأن الباشا يريد الحديث معي. وصلت لسماعة الهاتف فإذا به أقل المحققين تشكيكًا في روايتي، سألني: قل لي مرة أخرى أين سيتواجد البرادعي غدًا؟ فأجبته في مسجد الاستقامة، وسألني عن اسم الأدمن الثاني للصفحة فقلت له: نادين وهاب. أغلق الخط واقتادني المخبر للسرير الأرضي مرة أخرى.

الإرهاق كاد يقتلني فدخلت في نوم عميق لساعات قليلة، وصحوت على صوت المخبر يسألني إذا ما كنت أريد صلاة الفجر؟ فأجبته بالإيجاب فاقتادني إلى دورة المياه. توقعت وقتها أن يفك القيد عن يديَّ أو يرفع العِصابة عن عينيَّ إلا أنه أمرني باستخدام دورة المياه مُكبّلًا ودون فك القيد. ولكن حينما بدأت الوضوء فكّ القيد لاستحالة ذلك، مع إبقائه للعِصابة والتي كُنت أتوضأ عليها. صليت الفجر ودعوت الله أن يُطمئِن قلبي وعقلي وجوارحي.

لن أستطيع حتى إذا كتبت صفحات وصفحات محاولًا أن أعبر عن مقدار العذاب النفسي الذي عانيته أثناء اختطافي. على مدار الأحد عشر يومًا التي قضيتها في الحبس عيناي معصوبتان ولا تصلني أي أخبار من خارج محبسي، فقدت تقريبًا الإحساس بالوقت. ولولا الصلوات اليومية لما عرفت إذا كنا في الصباح أو المساء. ولكن عندما صليت الفجر في أول يوم من أيام اعتقالي دعوت الله أن ينجح اليوم؛ يوم الغضب.

ثمة أسئلة لا بد أن تأتي لعقلك وقتها: لماذا فعلت كل ذلك؟ ألست رجلًا ناجحًا وكان لك مستقبل كبير؟ لماذا قررت اتخاذ قرار قد تكون حياتك ثمنًا له؟ لا أُخفي أن الندم كان يحاول التسرب إلى عقلي. لكن قلبي كان يُلهمني أن أردد في سِرّي: «هل يفرق موت الانسان في سن الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين أو السبعين من عمره، بقدر ما يفرق ما قدَّمه هذا الإنسان في دنياه من رسالة؟». كنت أحاول إقناع عقلي الذي لم يَكُف عن التفكير أنني أدفع ثمنًا لأمر شاركت فيه مع الآخرين، وأنه يجب عليَّ أن أُسلّم أمري إلى الله وأرضى بعواقب ذلك، فلا بديل ولا مفر.

خارج السجن، كانت مصر تغلي، كما عرفت بعد ذلك. ففي ليلة ٢٨ من يناير (والمعروف الآن بيوم الغضب)، عقد الدكتور محمد البرادعي اجتماعًا في بيته مع شخصيات بارزة من الإخوان المسلمين والجمعية الوطنية للتغيير ومديري حملته الانتخابية. قرار الإخوان في الانضمام رسميًّا لمظاهرات الجمعة ساهم في دعم اليوم إعلاميًّا وشعبيًّا. تم الاتفاق على أن يشارك الدكتور البرادعي في المظاهرات المقرر انطلاقها من الجيزة في اليوم التالي. بعض الأشخاص الذين حضروا هذا الاجتماع

تم القبض عليهم مباشرة بعد خروجهم من بيت البرادعي، وكان منهم أعضاء بارزون بجماعة الإخوان المسلمين.

في صباح يوم ٢٨ من يناير وقع النظام المصري في خطأ قاتل فقطع كل وسائل الاتصال في مصر. توقفتْ شركات المحمول الثلاث عن العمل، وأيضا كل شركات الإنترنت، وحتى خدمة الرسائل القصيرة على المحمول. لم يكن النظام يعرف أن هذه الخطوة من جانبه كانت أفضل طريقة لدعوة الناس للنزول والمشاركة في فعاليات الغضب؛ فكل مواطن لم يكن قد سمع بالثورة بعد، أدرك أن النظام يواجه تحديًا كبيرًا ما، وأن النظام خائف ويمكن هزيمته. قررتْ أعداد كبيرة من الناس النزول إلى الشارع، والبعض نزل فقط ليعرف ما الذي يحدث في البلد.

كانت صلاة الجمعة حدثًا مثاليًا لحشد الناس للمظاهرة، وتبين بعد ذلك أنها كانت السبب الرئيسي لنجاح النشطاء يومها، فشباب كل منطقة يلتقي في المسجد في صلاة الجمعة. كان القلق الأساسي من أن يحاول أمن الدولة التأثير على أئمة المساجد، كما فعلوا من قبل، ليُقنعوا الناس بعدم التظاهر. فمن المعروف أن بعض الأئمة يتّبعون الأوامر خوفًا من عقاب عدم طاعة الأمن، بينما كان آخرون يدينون المظاهرات عن قناعة خاصة بعد الحملة الشعواء التي شنها الإعلام ضد مظاهرات ٢٥ من يناير.

حضر أحد أصدقائي صلاة الجمعة في مسجد بمدينة نصر، وفيها كرّس الإمام خطبته لمناقشة الأوضاع في مصر، فتحدث عن الفساد وعن شعور الناس بالإحباط من الوضع الحالي، وقال إنه يجب على الحكومة أن تأخذ خُطوات حقيقية نحو التغيير. ولكنه رغم ذلك أدان المظاهرات وتكلم عن الأجندات السرية والمؤامرات التي تسعى لتخريب مصر.

بدأ بعض الشباب في الانزعاج من خطبة الإمام، وعندما سأل بشكل بلاغي: «مَن المستفيد من هذه الدعوات المغرضة للتظاهر اليوم؟»، ردّ عليه أحد الشباب صائحًا بغضب: «مصر». تجاهل الإمام ردّ الشاب وسأل مرة أخرى: «الصالح مَن كل هذا؟»، فرد أكثر من شخص: «مصر»، ثم بدأ مجموعة من الشباب يهتفون: «مصر.. مصر.. مصر». ذهب صديقي للإمام بسرعة ونصحه بختم خطبته وإقامة الصلاة تفاديًا للمشاكل. بعد

انتهاء الصلاة، أخذ بعض الشباب يَدْعون الآخرين للانضمام لمسيرة للتحرير، وبدأ عشرون شخصًا تقريبًا يتحركون سويًّا لينضم لهم آخرون. وبعد بضع مئات من الأمتار، كبرت هذه المسيرة جدًّا بعد أن انضمت لها مسيرات أخرى من المساجد المجاورة.

بعض الأئمة قرروا أن يدعموا المظاهرات علانية، ففي جامع بميدان مصطفى محمود بالمهندسين، ركّز الإمام في خطبته على أهمية أن نضع حدًّا للظلم. وعلى الرغم من أنه لم يَدْعُ الناس صراحة للمشاركة في المظاهرات، إلا أن خطبته كانت رسالة دعم وتضامن واضحة. كانت خطبته رائعة لدرجة أن بعض الشباب صفق له أكثر من مرة أثناءها! بعد انتهاء الصلاة، قام أحد النشطاء المشهورين بمدافعته عن حقوق العمال بالهتاف قائلًا: «الشعب يريد إسقاط النظام»، وانضم له في الهتاف مئات من المصلين داخل المسجد. كان عدد المشاركين في المسيرة التي انطلقت من المهندسين بالآلاف. وفي مختلف أنحاء مصر، انطلق الناس في مسيرات من المساجد للميادين الرئيسية، خاصة في القاهرة والإسكندرية والسويس والإسماعيلية والغربية. كان المصريون والمصريات الذين اشتركوا في مظاهرات ٢٨ من يناير ينتمون لمختلف الطبقات الاجتماعية والأعمار والمستوى التعليمي، فكان الكُهول يسيرون جنبًا إلى جنب مع المراهقين وطلبة الجامعات، ويهتفون جميعهم: «الشعب يريد إسقاط النظام». كان النظام القمعيّ قد خنقهم لسنوات طويلة وأصبحوا أخيرًا مُستعدين لمواجهته.

كانت أول أسلحة استخدمَتْها قوات مكافحة الشغب ضد المتظاهرين هي خراطيم المياه والغاز المسيل للدموع، وتحولت الشوارع إلى ساحات حرب. وعلى الرغم من هتافات «سلمية.. سلمية» التي ظل يرددها المتظاهرون إلا أن قوات الأمن استمرت في هجومها عليهم. سيطر الغضب على المتظاهرين الشباب وبدءوا يردون عدوان الأمن، فكانوا يمسكون بقنابل الغاز ويقذفونها مرة أخرى على الشرطة، وأخذوا يرمونهم بالحجارة. الشرطة وجدت الغاز والمياه عديمَي الجدوى فبدأتْ في ضرب الخرطوش والرصاص المطاطيّ عشوائيًّا؛ مما تسبب في إصابات خطيرة لدى المتظاهرين. ولكن شجاعة المصريين وتصميمهم في هذا اليوم كانا تاريخيَّيْن؛ فلقد تحولوا إلى جيش من المواطنين يواجهون المعتدين عليهم. سارع الآخرون بتقديم الرعاية الطبية للشباب المصاب المثابر وتقديم المياه والطعام للباقي.

في القاهرة، انطلقت مسيرات ضخمة من مناطق عِدة بالمدينة ـ رغم مقاومة الشرطة ـ حتى وصلوا إلى ميدان التحرير. قُتِل العشرات أثناء هذه المسيرات، وداست المدرعات على الكثير، ومات البعض رميًا بالرصاص، وأُصيب المئات إصابات بالغة.

استمرت المواجهات بين المتظاهرين والشرطة من بعد صلاة الجمعة لعدة ساعات. بدا بعدها أن قوات الأمن استنفدت طاقتها وذخيرتها، ولم يَعُد باستطاعتهم مواجهة هذا التيار الهائج من المتظاهرين، فثبتوا في أماكنهم. ورغم ما تعرضوا له من اعتداءات، كان بعض المتظاهرين يُحيّون العساكر والضباط عندما يَمرون بهم. كان بعض العساكر والضباط يبكون، والكثير منهم احتضن المتظاهرين واعتذروا من قلبهم قائلين: «سامحونا، لم يكن لدينا خيار. ولكننا نقسم لكم إن قلوبنا معكم، فنحن نعاني مثلكم بالضبط».

بدأ الكثير من المصريين الغاضبين يسيرون في جماعات متجهين نحو أقسام الشرطة في أحيائهم، خاصة في المناطق الفقيرة من البلد. بينما اتجهت جماعات أخرى نحو أقرب مقر للحزب الوطني. فبالنسبة للكثيرين، كانت أقسام الشرطة ومقرات الحزب الوطني رموزًا لظلم وفساد نظام مبارك. وحتى اليوم يستمر الجدل حول ماذا حدث بالضبط عندما وصل هؤلاء المتظاهرون لوجهتها، ولكن بحلول المساء كان العديد من أقسام الشرطة في مختلف أرجاء القاهرة قد احترق، بالإضافة إلى الإسكندرية ومدن أخرى. يقول البعض إن الشرطة بدأت بالعنف فضربت المتظاهرين بالرصاص الحي أمام الأقسام، وعليه، فقد احتل باقي المتظاهرين الأقسام وأشعلوا فيها النيران انتقامًا للقتلى. في رواية أخرى، قيل إنه فور وصول المتظاهرين للأقسام حاولوا احتلالها والسيطرة عليها، فكان رد فعل الشرطة هو إطلاق الرصاص الحي عليهم، خاصة وأنهم كانوا مقتنعين أن المتظاهرين ما هم إلا مجموعة من البلطجية يريدون تحرير زملائهم من السجناء الموجودين بالأقسام. وبغضّ النظر عن أيّ الروايتين أدق أو أصح، فمن المؤكد أن الكثير من الناس قد قُتلوا رميًا بالرصاص أمام الأقسام في هذا اليوم، وأن الشرطة هربت في النهاية وتركت مواقعها في أماكن هامّة في البلد بعد أن تم حرق الأقسام. أُحرقت أيضًا مقرات الحزب الوطني في الكثير من المحافظات، بما فيها المقر الأساسي للحزب على كورنيش النيل بالقاهرة، والذي ما زال يقف مُتفحِّمًا حتى الآن.

في الساعة الخامسة والنصف مساء، أُذيع بيان من الجيش مفاده أنه «بسبب الأحداث التي وقعت في مختلف المحافظات، والتي شملت أحداث شغب ومخالفات للقانون وأعمال سلب ونهب وتدمير وإحراق وهجوم على ملكيات عامّة وخاصة ومنها البنوك والفنادق، أعلن رئيس الجمهورية؛ بصفته الحاكم العسكري، فرض حظر التجول من السادسة مساء وحتى السابعة صباحًا بدءًا من اليوم الجمعة وحتى إخطار لاحق». وانتشرت فورًا الدبابات في الشوارع، وتم تخصيص أربع دبابات لحماية مبنى الإذاعة والتلفزيون بماسبيرو. كما تولتِ القوات المسلحة تأمين محافظة السويس بدلًا من الشرطة.

أصدر الجيش بيانًا طلب فيه من المواطنين أن يقفوا ضد التخريب ويُدافعوا عن مصالحهم وممتلكاتهم، وكذلك مصلحة الوطن. وطلبوا من الجميع أن يحترموا حظر التجول، والذي تم مده ليكون من الرابعة عصرًا وحتى الثامنة صباحًا. استمرت المواجهات العنيفة، خاصة في سيناء حيث تم ضرب مبنى أمن الدولة في رفح على الحدود مع غزة بالقنابل.

انتشرتْ دبابات الجيش وقواته في الشوارع، إلا أن المتظاهرين قابَلوها بفرح وترحاب. كان هذا التصرف مُستلهمًا من ثورة تونس؛ حيث وقف الجيش هناك في صفّ الثوار وليس النظام. قدّم الكثيرون الورود لقوات الجيش، والتقطوا صورًا لهم مع العساكر والدبابات، وأخذوا يهتفون: «كِلنا مصريين، الجيش ده جيشنا»، و«الجيش والشعب إيد واحدة»، بينما استمروا في هتافهم الرئيسي: «الشعب يريد إسقاط النظام». ولكن رغم كل ذلك ظل المتظاهرون غير متأكدين من موقف الجيش الحقيقيّ في هذا الوقت، واستمروا في إرسال رسالة واضحة أنهم ضد مبارك ووزارة الداخلية وليسوا ضد القوات المسلحة.

شعر المصريون بالخارج بالهلع من المناظر التي رَأَوْها عبر وسائل الإعلام الأجنبية، فبدءوا في تنظيم أنفسهم وأخذوا على عاتقهم مهمة الردّ على التصريحات المختلفة التي صرّحت بها السفارات المصرية بالخارج لوسائل الإعلام الأجنبية والتي كان مفادها أن مصر على شفا الفوضى العارمة، وأن استمرار النظام هو الضمان الوحيد لاستقرار مصر والشرق الأوسط بالكامل. كانت جهود المصريين المغتربين مِحورية

ليرى العالم حقيقة ما يحدث في مصر؛ وبالتالي حشد دعم هائل للثورة المصرية حول العالم.

بعد الأحداث الرهيبة يوم ٢٨ من يناير، قرر محمد إبراهيم؛ أدمن الصفحة الإنجليزية من «كلنا خالد سعيد»، أن يستخدم العدد المتنامي من أعضاء الصفحة ـ والذي كان ينضم لها عشرة آلاف عضو جديد في كل يوم من أيام الثورة ـ ليدعو وينسق مع الآخرين من النشطاء لمظاهرات تضامن مع مصر في اثنتي عشرة دولة؛ منها أمريكا وكندا وبريطانيا وفرنسا. ساعدتِ الصفحة أيضًا على التنسيق بين المتظاهرين في كلٍّ من هذه البلاد. هذا التضامن الرائع لم يُعضّد فقط من ثقة المتظاهرين المصريين ولكنه شَكّل ضغطًا شديدًا على المجتمع الدولي ليُنهي دعمه لنظام مبارك. وعلى الرغم من أنهم يَبعدون آلاف الأميال عن بعضم البعض تكاتَف وتَوحَّد المصريون عبر العالم تحت لواء الحرية لوطنهم.

في مساء يوم ٢٨ من يناير، أُعلِن عن خطاب وشيك للرئيس. وبعد منتصف الليل ألقى مبارك أولَ بيان له منذ بدء المظاهرات في ٢٥ من يناير. وفي استجابة مباشرة للمظاهرات، أعلن عن حلّ الحكومة. وفي اليوم التالي عَيّن مبارك نائبًا له؛ وهي الخطوة التي قاومها لسنوات طويلة، ووقع اختياره على عمر سليمان رئيس المخابرات. عَيّن أيضًا الفريق أحمد شفيق؛ والذي كان وزيرًا للطيران، رئيسًا للوزراء وكلفه بتشكيل حكومة جديدة فورًا والبدء في سلسلة من الإصلاحات. ورغم أن هذه القرارات لم تكن كافية إلا أن الكثير من المتظاهرين رأى فيها تأكيدًا على أنهم سيُحقّقون هدفهم؛ وهو «الشعب يريد إسقاط النظام».

وأنا أجلس في زنزانتي لم أكن أعرف أيًّا من هذا، ولم أستطع أن أسمع أي شيء مما يحدث خارج أسوار السجن. كنت حبيس العزلة والعمى المؤقت؛ حيث تجاهلني السجّانون طَوال اليوم. وفي معسكر التجنيد الذي يَقضي فيه عبد الرحمن منصور تجنيدَه الإجباريّ، عرف عبد الرحمن تفاصيل خطاب مبارك الأول، وكتب ليلتها في دفتر مُذكّراته الصغير: «مبروك يا مصر، هزمنا الدكتاتور».

الفصل الثامن

العصابة

«٤١.. قوم اقف يالا»، قمت مُنفذًا أمر المُخبر، فسألني إذا ما كنت أريد رَغيفًا أو رغيفَيْن للإفطار وجُبنًا أم فُولًا، فطلبت منه رغيفًا واحدًا من الفول. أعطاني الرغيف وأمرني بالجلوس والأكل. الرغيف كان خبزًا بلديًّا وبه فول مدمّس، كانت الوجبة برغم بساطتها لذيذة، فبسبب ما عانيته من استقبال وظروف التحقيق الصعبة كانت توقعاتي للطعام في غاية السوء.

قبل ساعات من خطاب مبارك الأول، كنت أجلس في زِنزانتي أحاول بأي طريقة الاستماع إلى ما يقوله المخبرون خارج الغرفة. كانوا يتحدثون مع بعضهم البعض بصوت عالٍ في كل شيء خاصٍّ بحياتهم الشخصية من مرتبات وإجازات ومشاكل إلا الحديث عما يحدث في مصر من مظاهرات. بدا الأمر وكأن لديهم تنبيهًا صارمًا بذلك. كان الفضول يقتلني بعد صلاة الجمعة لأعرف ماذا يحدث في الخارج؛ فقد يكون هذا بصيص الأمل في إخراجي من هنا.

عندما أفكر في هذه الأحداث أتعجب كيف قدَّر الله أن المشرفَيْن على صفحة «كلنا خالد سعيد»، والتي دعت لمظاهرات ٢٥ من يناير، لم يشاركا في مظاهرات جمعة الغضب. لم يكن عبد الرحمن أقل قلقًا وتلهُّفًا مني على معرفة كيف سارت الأمور. عرف من ضابط زميله في المعسكر، والذي تابع الأخبار عبر إذاعة البي بي سي من خلال راديو كان معه، أن مظاهرات ٢٥ من يناير كانت ضخمة جدًّا وأرسلتْ رسالة قوية للنظام.

كان قادة معسكر تجنيد عبد الرحمن قلقين من أن يحدث شيء غير متوقع في المعسكر كردّ فعل للأحداث خارجه. وفي صباح الجمعة، حدثت حالة من التخبط بين الضباط والجنود حول شائعات بصدور أوامر بإلغاء الزيارات للمعسكر في هذا اليوم كإجراء احتياطي. ولكن بعد مرور الوقت عَلِم الجميع أن الزيارات مفتوحة، كان عبد الرحمن ينتظر زيارة من صديق على أحرّ من الجمر ليزوّده بمعلومات عن الذي يحدث خارج المعسكر. في النهاية، اتضح للجميع أن الزيارات مسموحة، والتقى عبد الرحمن بصديقه الذي أطْلَعه على عدد جريدة الشروق ليوم الجمعة. كان العنوان الرئيسي عن الأحداث المأساوية التي وقعت في السويس حيث قُتل الكثير من المتظاهرين بالرصاص يومَي الأربعاء والخميس. كان عبد الرحمن حزينًا لعدم مشاركته في المظاهرات.

في زِنزانتي، كانت الصلوات الخمس وحدها هي طريقتي لمعرفة الوقت. مرت الصلوات: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأنا في الغرفة أخرج فقط لدورة المياه والوضوء وأصلي وأجلس مكاني. طعام الغَداء كان عبارة عن طبق من الأرز وخضراوات، والعَشاء كان رغيفًا من الحلاوة. يمر وقتي بين محاولات للنوم أو التفكير، أو استراق السمع لأعرف ماذا يحدث في الخارج.

في وقت متأخر من ليلة الجمعة ارتفع صوت التلفاز في حجرة بالأعلى. لم أستطع تمييز الصوت ولكن كان يبدو أن أحدهم يُلقي خطابًا ما. (عرفت بعد ذلك أنه كان خطابَ الرئيس مبارك ليلة جمعة الغضب، والذي حاول فيه تهدئة المتظاهرين بقرار حلّ الحكومة، في الوقت نفسه الذي أدان فيه المتظاهرين لتهديدهم أمن البلاد على حسب زَعْمه). بعد انتهاء الخطاب قررت المخاطرة، فسألت الحارس المسئول عن رقابتي: «هو الريس ألقى خطاب؟». فتح سؤالي طاقة من السِّباب والشتائم عليّ من الحارس، والذي توجّه مسرعًا لخارج الغرفة، وما لبث أن أتى بشخص آخر أعتقد أنه مديره.

أمرني بصوت غليظ ومرتفع، «قوم يا ٤١»، قمت بسرعة مُنفِّذًا التعليمات، ثم أمرني مباشرة: «اقعد يا ٤١»، فجلست. استمر في صياحه الآمر بالجلوس والوقوف أكثر من

عشر مرات، ثم قال لي: «قوم اقعد يا ٤١» وهو تعبير مصري شهير عُرِف في الأفلام، كان يسخر مني ليرى ردّ فعلي؛ وهنا تصلبت في مكاني، فما لبث إلا أن وجّه إليَّ سبابًا بالأب والأم ثم اقترب مني ليضربني على صدري قائلًا: «احنا مش نبهنا عليك مالكش دعوة بأي حد وأي حاجة طول ما أنت هنا؟»، قلت له بصوت منخفض: «أيوه حصل يا فندم»، فصاح قائلًا: «قاعد بتحاول تسمع صوت التلفزيون وبتحاول تعرف إيه اللي بيحصل بره ليه؟ أنت شكلك مش هتجيبها لبر معانا هنا». قلت له محاولًا تبرير موقفي إن الصوت كان عاليًا، وإنني لم أعرف مَن الذي يتحدث وما الذي يقوله، ووعدته بعدم تكرار ذلك. تركني وذهب إلى حال سبيله.

قررت أن أتبع استراتيجية طَوال فترة مكوثي في المعتقل؛ لن أتكلم مع أحد، لن أطلب طلبًا من أحد إلا إذا كان ضروريًّا مثل حاجتي للذهاب لدورة المياه أو لملء زجاجة المياه التي أشرب منها. لم أكن أريد الاستماع لكلمات الإهانة والسخرية من أحد؛ فهي بالنسبة لي لا تفرق كثيرًا عن التعذيب الجسدي؛ فذلك يترك آثاره على الجسد لفترة والآخر يترك آثاره على النفس لفترة غير قصيرة.

يتعامل معك مخبرو المباحث كأنك لست إنسانًا مثلهم، يبالغون في إظهار عدم احترامك، وينادونك بأقذع الألفاظ حتى تعرف أنك لا تمثل بالنسبة لهم أي شيء حتى يضمنوا طاعتك التامة لهم واحترامك لقوانينهم التي يُديرون بها المكان تحت مراقبة وإدارة الضباط المشرفين على المقر.

في صباح يوم السبت أمرني الحارس بالوقوف لأننا سننتقل إلى غرفة أخرى، لم أفهم الهدف من هذا الانتقال، ولكنني لم أجادل. قمت مسرعًا مُنفذًا التعليمات، فاقتادني إلى مكان فيه بعض المحتجزين الآخرين حولي لأنني سمعت الحراس الآخرين يتحدثون معهم ويصيحون فيهم بعبارات الشتم والتهديد والوعيد في حالة عدم تنفيذ الأوامر. جلست في هذا المكان عدة ساعات؛ كان شديد البرودة، شعرت أنه تم الاحتفاظ بي في ثلاجة كبيرة، وكنت أتلفّح بالبطانية الصوف حتى أشعر ببعض الدفء. عُدت بعدها بساعات إلى مكاني الأصلي الذي لم أكن أُدرك نعمته سوى بعد مكوثي في تلك الثلاجة الباردة لفترة ليست بالقصيرة. لم أعرف بالضبط الهدف من

نقلي لهذه الغرفة المثلجة. ربما أرادوا أن يخيفوني عندما أعرف أن هناك محتجزين آخرين، إلا أن شعوري بأن هناك مَن هم مثلي محتجزون في هذا المكان أشعَرَني ببعض الطمأنينة، فيومًا ما قد نخرج منه بعد أن يتدخل مَن نعرفهم.

بعد ثلاثة أيام من بقائي في المعتقل، وبعد صلاة الظهر، أخبرني المُخبر المسئول عن حراستي أن أحد المحققين سيُجري تحقيقًا معي بعد قليل. شعرت بسعادة غريبة لأنني أخيرًا سأتحدث مع أحد حتى لو كان ضابط أمن دولة! الصمت المدوي والظلام الدامس قد يؤديان إلى الجنون، خاصة مع شخص مثلي يعشق التواصل مع الآخرين. لاحظت أن ثمة جديدًا في وجبة الغداء، ففيها اليوم قِطَعًا من اللحم الذي آكله لأول مرة منذ دخولي إلى المعتقل. شعرت وقتها أنهم يحاولون تلطيف الجو قبل التحقيق.

اقتادني المُخبر من يديَّ المُكبلتَيْن إلى خارج الغرفة التي كنت محتجزًا فيها، وأخذ يدفعني بخطوات سريعة إلى اليمين واليسار أكثر من مرة قبل الوصول إلى مكان التحقيق. وصلت هناك وجلست بانتظار المحقق الذي لم يستغرق طويلًا حتى سمعت صوت خطواته متوجهة إلى الغرفة.

«إزيك يا وائل؟»، رحّب بي المحقق والذي سريعًا ما أدركت أنه الشخص الذي شعرت أنه أكثر المحققين الثلاثة تعاطفًا معي، وكان هذا علامةً مبشرة لي. وزاد ارتياحي حينما دعاني باسمي الحقيقي لأول مرة منذ أكثر من ثلاثة أيام من الاحتجاز. رددت عليه بصوت منخفض وحزين مقتضبًا: «الحمد لله». سألني إذا كنت ما أريد أن أشرب شيئًا، فشكرته وأخبرته أنه لا رغبة لي في ذلك، ولكنه أمَر الحارس أن يُحضر لي علبة عصير باردة.

كان التحقيق يسير هذه المرة بشكل ودّي وبدون اتهامات، وكان الضابط يحاول أن يُقنعني أنه معي ويصدّق أنني شخص وطنيّ أُحب بلدي، ولكنه قد تم التغرير بي لصالح مجموعة تعمل ضد مصر. بداخلي، ومن خلال ما عرفت من تعامل الجهاز من خلال قراءاتي وصِلتي ببعض أصدقائي الذين تم اعتقالهم من قبل، لم أستبعد أنه يحاول استقاء المزيد من المعلومات، ولكن هذه المرة بصورة الضابط الطيب (Good Cop).

أقسمت له بالله إنني ذكرت لهم الحقيقة ليلة القبض عليَّ، وإن ما يحدث في الشارع ليس إلا صورة من صور الغضب الشعبي بسبب ما يحدث في مصر منذ ثلاثين عامًا، وإن دوري في الدعوة للمظاهرات دور ثانويّ إذا ما تمت مقارنته بدور النظام في تكريس هذا الغضب.

كان الضابط يكرر العديد من الأسئلة التي سألوها لي في التحقيق الأول، ولا أدري هل كان ذلك لتأكيد المعلومات أم لأنهم لم يدوّنوا كافة الإجابات في ليلة عصيبة من ليالي أمن الدولة، خاصة وأنه فيما يبدو أن يوم الجمعة لم يمر عليهم بسهولة. حتى أنه سألني مرة أخرى عن كلمة السر التي أعطيتها لهم من قبل، وهنا تنفست الصُّعداء لأن سؤاله يعني عدم محاولتهم الدخول على المعلومات من وقتها، وهو أمر في غاية الغرابة جاء في صالحي والحمد لله. أخبرني أنهم لم يستطيعوا فتح جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي، فأخبرته أنه من الوارد بسبب اختفائي أن الشركة مَنعت القدرة على فتحه. فسألني عن البريد الإلكتروني الخاص بالصفحة، والذي كنت أستقبل من خلاله الرسائل. لم يكن لديَّ وقتها أيّ خيارات سوى إعطائه كلمة السر داعيًا الله أن يكون نجيب زميلي في العمل في دبي قد شعر بالخطر الذي أواجهه وقام بتغيير كلمة السر برغم أننا لم نكن قد اتفقنا على ذلك. دعوت الله في سري أن شيئًا ما يمنعهم من الدخول على هذا البريد حتى لا يتعرض أيّ شخص تعاوَن معي لمكروه.

أثناء التحقيق، كاد الفضول أن يقتلني لأسأله عما حدث يوم الجمعة، ولكنني خِفت من ردة فعل غير محمودة، خاصة مع المحقق الذي يعاملني بنوع من الاحترام لآدميتي. وقتلت تلك الرغبة مُتمنيًا أن يخبرني من نفسه، وهو شيء لم يحدث.

انتهى التحقيق بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة تقريبًا، وسألني الضابط قبل أن أغادر: هل هناك من يُسيء معاملتك؟ ترددت كثيرًا في الإجابة عن هذا السؤال خوفًا من العواقب، فربما يريد الضابط الاستهزاء بي، ولكنني قررت أن أخبره الحقيقة، فقلت له: نعم، فقد تم ضربي وإهانتي على مدار ثلاثة الأيام، فردّ عليَّ بحزم: «الكلام ده مش المفروض يحصل، وأنا هانبّه حالًا على كل الحُرّاس هنا إنهم يعاملوك باحترام». قابلت ردّه بشكّ

كبير؛ فقد كنت مُتأكدًا أن إهانتي تحدُث بشكل منهجي، وأن الجندي المُكلَّف بحراستي لا يستطيع أن يفعل شيئًا دون أَمْر من رئيسه وإلا تعرّض للعقاب.

في غرفتي كنت أستلقي على الأرض أو أجلس مُستندًا على الحائط لساعات مُنتظرًا المجهول. جاء هذا على حساب صحتي، فمنذ عام مضى، وبسبب الرطوبة العالية في دبي، كنت قد أُصِبت بحساسية في الصَّدر جعلَتني ألازم البيت لأكثر من أربعين يومًا. والآن، وبسبب الضعف الجسدي والاستناد لفترات طويلة على الحائط الرطب، عادت لي حساسية الصدر مرة أخرى. كان سُعالي في إحدى الليالي شديدًا حتى أن حارس زِنزانتي اتصل عبر الهاتف بمسئوله ليسأله إذا كان يمكن نقلي للمستشفى، وقال للشخص الذي يكلمه في الهاتف إنه يخشى أن تقتلني شدة هذا السعال. كان الردّ من قِبل المسئول هو أن أرسل لي مَن يعطيني دواءً للسعال.

بعد يومين أو ثلاثة من مقابلة الضابط «الطيب»، والذي عرفت فيما بعد أن اسمه الحركي «رشدي»، أمرني المُخبر بالوقوف لأن سيادة الضابط يريد الحديث معي. رحّب بي الضابط الذي لم أتعرف على صوته ولكن بدا لي أنه صوت شابّ في الثلاثينيات من عمره، قائلًا بنبرة ساخرة: «ازيك يا خاين لبلدك»، فقلت له بشكل سريع: «أنا ممكن أقبل أي تهمة حضرتك تتهمني بها إلا الخيانة.. أنا مش خاين لبلدي.. أنا باعشق تراب بلدي ومستعد أموت علشانها»، فقال لي: «أنت خُنت بلدك وتسبّبت في مصيبة كبيرة، وربنا يستر والبلد دي تعرف تقوم تاني». شعرت وقتها من كلامه أن المظاهرات في الخارج بالفعل مستمرة، وأن الجمعة كان يومًا حاسمًا، ولكنني لم أجرؤ على سؤاله عن التفاصيل.

أمسك بيدي المُكبّلة بالكلابشات وأمرني بوضعها على فخذه وبدأ في تحريكها بشكل دائري. «أنت عارف إيه دي؟»، فرددت بصوت منخفض: «ما اعرفش». قال: «دي رصاصة أنا أخدتها في التسعينيات، الرصاصة دي أخدتها وأنا بأطارد مجموعة من الإرهابيين اللي بيروعوا بيوت أهلك وأهلي.. أنت عارف إن واحد من أصحابي استُشهد في المعركة دي؟ يا وائل أنت وأصحابك مش فاهمين قيمة البلد دي ولا عارفين أد إيه إحنا بنضحي عشانها. أنتم مش بتعرّضوا حياتكم للخطر زينا».

كان هذا الحوار غير الرسمي مُحيرًا، لم أكن أعرف ما هو المفترض أن يكون ردّ فعلي. هل أحاوره بشكل عقلانيّ وأُخبره بما أعتقد أم أُداهنه وأحاول إنهاء الحوار تجنبًا لأي عواقب قد تحدث إذا تسببت في إغضابه. كنت أشك أنه من الضباط، وأنه أحد المُخبرين الذي يدّعي أنه ضابط وذلك للتسلية. حاولت الحديث معه بدبلوماسية عن أنني لست ضد جهاز الشرطة الذي يحمي البلاد من الأخطار التي تتعرض لها، ولكنني ضد جهاز الشرطة الذي يُستخدم لحماية الفساد الذي يقوده أعضاء الحزب الوطني وغيرهم من أصحاب المصالح. تحدثت معه عن تزوير الانتخابات وتطبيق قانون الطوارئ على المعارضين وغيرها من الأمور. كان ردّه أنه رغم قناعته بأن الوضع ليس مثاليًّا، إلا أنه أفضل الخيارات المطروحة؛ لأنه بدون هذا النظام ستسقط مصر في هاوية من الفوضى والخلافات السياسية، وأن بلادنا مُستهدفة تطمع فيها دول أخرى في المنطقة وخارجها.

لم يكن منطقه مُقنعًا لي، وأعتقد أن منطقي لم يكن أيضًا مُقنعًا له، ولكنني شعرت بالانتصار عليه بعد أن غادر الغرفة؛ وذلك لأنني اعتقدت وقتها أنني على الأقل قد غيّرت ما لديه من مفهوم أنني شخص خائن لوطني. كنت أقول في قرارة نفسي: «على الأقل الراجل ده خرج من هنا ومقتنع إني إنسان كويس، بس عمل حاجة همّا شايفين إنها غلط».

كانت توابع جمعة الغضب مميتة، ولكنني لم أعرف ذلك إلا بعد الإفراج عني؛ فبحلول صباح السبت، كان هناك خمسة عشر متظاهرًا قد قُتلوا، وحاول البعض، بما فيهم أهالي هؤلاء الشهداء، أن يقتحموا وزارة الداخلية في وسط القاهرة. أُطلق الرصاص الحي على المتظاهرين حتى شَكّلت قوات الجيش حاجزًا ليفصل بين المتظاهرين ومبنى الداخلية. وفي أماكن أخرى، حاول السجناء الهرب من أكبر سجون مصر، وفي حالات كثيرة استخدمت الشرطة الرصاص الحيّ لتمنعهم من الهرب. تمرّد سجناء سجن وادي النطرون، على طريق القاهرة-الإسكندرية الصحراوي، وحاولوا الهرب بمساعدة أقاربهم الذين حضروا ليساعدوهم. تمكن آلاف من السجناء، بما فيهم سجناء سياسيون، من الهرب. صرّحت قوات الأمن لوكالة رويترز للأخبار أن ثمانية

سجناء قد قُتلوا بالرصاص وأصيب ١٢٣ سجينًا أثناء محاولتهم الهرب. فسّر النظام هذه الأحداث على أنها محاولة من المعارضة بالتعاون مع قوى أجنبية لتهريب هؤلاء السجناء، بينما وجّه النشطاء اتهامًا لقوات الأمن باختلاق الفوضى واتهام المتظاهرين بها لتخويف الناس من مخاطر إسقاط النظام.

تَدَافع المصريون على محلات البقالة والمخابز ليشتروا خَزينًا من الاحتياجات الأساسية؛ فلم يكن أحد يعرف كيف وإلى متى سيستمر حَظْر التجول، وما يتبعه من اضطراب في التجارة والانتقالات على الحياة اليومية. ولكن ظهرت بوادر الأمل؛ ففي غياب الإجراءات الأمنية وحماية الشرطة، توحّد المصريون في أنحاء الجمهورية وأظهروا تضامنًا وتكاتفًا رائعًا؛ فبتلقائية وسرعة تكوّنت اللجان الشعبية لحماية المواطنين من البلطجية واللصوص في كل محافظات مصر. وقسّم سكان كل منطقة أو شارع أنفسهم لمجموعات ودوريات ليَحموا الأُسر والممتلكات طَوال الليل. كما شكّلوا نقاط تفتيش في المداخل الرئيسية للشوارع، وأخذوا يتأكدون من هُويّة أي شخص أو سيارة تحاول الدخول للمنطقة أثناء حظر التجوّل. حمى المسلمون والمسيحيون سويًّا مساجدهم وكنائسهم بالتناوب في محاولة لدرء أي محاولة لإشعال الفتنة الطائفية مثلما حدث منذ بضعة أسابيع في مصر. كان شباب المتظاهرين يقومون بواجبهم في اللجان الشعبية طَوال الليل، ثم في الصباح ينطلقون لميدان التحرير ليشاركوا في الاعتصام المطالب بتنحي الرئيس والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

في التحرير، وصل الاعتصام لذروته في الأيام التي تلت ٢٨ من يناير، فزاد عدد الخيام المنصوبة مع الزيارات المستمرة للمتظاهرين من كافة أنحاء مصر لميدان التحرير. كان المشاركون في الاعتصام مُنظمين، وقسّموا المهام بينهم. كان الميدان حافلًا بحالة فريدة من الإبداع والإخلاص؛ فهناك مجموعات مسئولة عن تنظيف الميدان، وآخرون مُكلّفون بحراسة المداخل وتفتيش القادمين للتحرير. أقام الأطباء المشاركون في الاعتصام مستشفى ميدانيًّا بداخل أحد محلات الميدان ليوفروا الإسعافات الأولية للمصابين، وحوّل السبَّاكون المهرة عربات الأمن المُعطّلة إلى حمامات عمومية للمعتصمين. أسس آخرون مكتبًا للمفقودات حتى يُسلِّم فيه الناس

أي شيء يجدونه بلا صاحب أو يسألوا فيه عن شيء فقدوه في الميدان. وقام متظاهر بتشغيل وحدة لشحن الكهرباء؛ باستخدام أسلاك أعمدة النور في الميدان؛ وذلك ليتمكن المعتصمون من شحن هواتفهم وأجهزة الكمبيوتر المحمولة، تواجد في الميدان حَلَّاق يقدم خدماته مجانًا للمعتصمين. وكل ليلة في التحرير كان هناك مُغنّون هواة أو محترفون يُقدّمون الأغاني الحماسية أو تلك التي تسخر من النظام، وانتشرت اللافتات المُضحكة والساخرة في كل مكان من الميدان. هذه الروح الجميلة هي التي ساعدت المعتصمين على الاستمرار في اعتصامهم حتى تمت الاستجابة لمطالبهم.

لم يقتصر الأمر على مَن هم داخل الميدان، فخارجه أيضًا لعب الكثير من المواطنين دورًا حيويًّا في تزويد المعتصمين بالطعام والأدوية، كما تولوا تنظيم المرور وتوجيه السائقين إلى طُرق بديلة للشوارع التي أغلقها الاعتصام. على حد علمي؛ فإن مثل هذه المبادرات والحركة العضوية المدنية لم تحدث في تاريخ مصر من قبل، فالثورة أخرجت أفضلَ ما في المصريين من سلوكيات، وأثبتت أن مجتمعًا متنوعًا مثل المجتمع المصري يمكنه أن يتوحّد عندما يتشارك كل أفراده حول هدف واحد، وأنهم قادرون على فِعل ذلك بكرامة وعزة نفس. ومن أجل مصر.. تضامَن الجميع سويًّا واتحدوا.

في التحرير، كان المتظاهرون ما زالوا يهتفون: «ثورة ثورة حتى النصر، ثورة في تونس ثورة في مصر». انضمّ أحد ضباط الجيش إلى المظاهرات في الميدان، وكانت فرحة المتظاهرين به عارمة حتى أنهم حملوه على الأعناق وداروا به في الميدان وهم يهتفون: «يسقط يسقط حسني مبارك». في هذه الأثناء، أعلن التلفزيون المصري أن الرئيس أمر الحكومة الجديدة، والتي يرْأسُها الفريق أحمد شفيق وزير الطيران السابق، لاتخاذ كل الخُطوات الضرورية لتحسين الحقوق الديمقراطية وبدء الحوار مع قوى المعارَضة.. خاصة شباب ٢٥ من يناير.

وكمحاولة يائسة لإخفاء الحقيقة عن الشعب، سحب النظام الترخيص من مكتب قناة الجزيرة بمصر يوم الأحد ٣٠ من يناير. وفي مساء اليوم نفسه أوقف القمر الصناعي

«نايل سات» بثّ القناة، ولكن الجزيرة سرعان ما أعلنت عن ترددات بديلة يمكن للمشاهدين المصريين متابعتها من خلالها.

في يوم الاثنين ٣١ من يناير، زاد عدد المتظاهرين أكثر وأكثر؛ تلبية لدعوة لمظاهرة مليونية في الميدان في اليوم التالي للضغط على مبارك ليتنحّى. وردّ النظام بوقف حركة القطارات ليمنعوا الناس من مختلف محافظات مصر من الانضمام للتحرير وللمليونية. كان مُهمًّا للغاية بالنسبة لهم ألا يصل عدد المتظاهرين في الميدان إلى مليون شخص. لم تَدعم الكثير من الرموز الدينية المسلمة والمسيحية المظاهرات، غالبًا بعد ضغط النظام عليهم، حتى أن بعضهم طلب من المصريين ألا يشتركوا في هذه الفتنة. ولكن ذلك لم يمنع من وجود بعض الرموز الدينية المستقلة من المسلمين والمسيحيين في الميدان من بداية الاعتصام.

في ذلك اليوم أصدر بعض النشطاء السياسيين بيانًا يطالبون فيه بتحديد الجيش لموقفه الرسميّ من الثورة، هل سيستمر في الوقوف بجوار الرئيس غير الشرعيّ أم سيدعم المصريين الذين خرجوا للشوارع ليطالبوا بالحق في حياة كريمة؟ دعا بيان النشطاء أيضًا المصريين للمشاركة في المسيرات تجاه القصر الجمهوري والبرلمان ومبنى الإذاعة والتلفزيون في يوم أطلقوا عليه اسم جمعة الرحيل (أي رحيل مبارك)؛ يوم ٤ من فبراير.

وجاء ردّ القوات المسلحة في بيان أوضح فيه دعمه لمطالب المصريين المشروعة دون تحديد، وأعلن قادة المجلس العسكري تَفهُّمهم للمطالب الشرعية للشعب، وأنهم سيحمون حق المتظاهرين في التظاهر السلمي، وأكدوا على أن الجيش لم ولن يستخدم القوة تجاه المواطنين المصريين. كانت هذه لحظة حاسمة في الثورة؛ لحظة وعَدَنا فيها الجيشُ بأنه لن يكون هناك حمّام دم على يده في مصر على غرار ما حدث في بعض الدول الأخرى. كانت هذه الرسالة وقتها مُطمئِنة للكثير من المعتصمين، وإن كان ما رَأَوْه من شهداء وجرحى يوم ٢٨ من يناير قد جعل كلًّا منهم مُصِرًّا في تحقيق مطلبهم في إسقاط النظام مهما كان الثمن.

في زِنزانتي، معزولًا عن ميدان التحرير والزلزال السياسي الذي يهزّ مصر، كنت

أحاول ألا أفكر في زوجتي وابني آدم وابنتي إسراء نهائيًّا؛ لأن ما يحدث معي كان كافيًا لإصابتي باكتئاب على اكتئابي، ولكن في تلك الليلة لم أستطع منع نفسي من التفكير فيهم. بدأتْ تهاجمني ذكريات متفرقة عنهم: خفة دم آدم، موهبة إسراء الفنية، وكيف أنها لا تترك المنزل بدون أدوات الرسم. سألت نفسي عن مصيري وعما سيواجهه أولادي إذا لم أخرج من هنا. بدأتِ الدموع تخرج من عينيَّ دون إرادتي، وزاد الأمر سوءًا مع تذكُّر كلمات زوجتي التي وصفتني بالأنانية عند خروجي من البيت متوجهًا إلى المطار. بدأتِ الدموع تتساقط من خلال الغمامة، وهنا سألني الحارس بصوت منخفض لم أعهده ممن يحرسني: «بتعيط ليه؟»، قلت له: «افتكرت ولادي». رد عليَّ مندهشًا: «هو أنت عندك ولاد؟ أنت شكلك صغير أوي؟ عندك إيه؟». قلت له: «عندي إسراء عندها ٨ سنين، وآدم عنده٣ سنين». حاول الحارس طَمْأَنتي: «ماتخافش ولادك بخير وماحدش هيمسّهم، وأنت إن شاء الله كلها كام يوم وتخرج». كنت متأكدًا من أنه يقول هذا ليُطَمْئنني، حيث إنه لا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث لي في المستقبل.

في هذه الأثناء في دبي، كانت زوجتى في قمة اليأس وهي تحاول أن تعرف ماذا حدث لي. وهي تصفُ تجربتَها هنا (مترجمة من اللغة الإنجليزية):

> «كان يوم الخميس ٢٧ من يناير هو آخر مرة تحدثت فيها مع وائل، وعندما جاء مساء السبت دون أن يتصل بي، عرفت أنه لا بد وأن مكروهًا قد أصابه. كنت قد أكدت عليه أن يتصل بي يوميًّا أو على الأقل يُرسل لي رسالة قصيرة على المحمول يقول لي فيها إنه بخير. في مساء السبت اتصلت بأخيه حازم في القاهرة؛ الذي أخبرني أنه لم يتواصل أحد من الأسرة مع وائل منذ الخميس. عندها طلبت منه أن يسأل عنه في الفندق الذي ينزل فيه دائمًا عندما يكون في مصر، ولكن لم يكن لدى الفندق بيان بوجوده هناك. لا أذكر كم يومًا مرّ حين اتصلتْ بي أخته مي وقالت لي إنه بخير لأن صديقًا له اتصل بهم، وقال إن وائل معه. سألتها إذا كانت تحدثت مع وائل شخصيًّا فأجابت بالنفي. سألتها عن اسم صديقه وأين يسكن ولماذا لم تتحدث هي مع وائل، فانفعلت وقالت إنها لا تعرف، ولكن وائل بخير. أحسست أنه من الغريب ألا يكون لدى مي إجابات عن هذه الأسئلة. عندما ضغطت عليها أكثر لأحصل على إجابات أخذ حازم الهاتف منها وقال إنها قالت لي ذلك لتُطَمْئنني. أدّى كلامها لمفعول

عكسي تمامًا؛ لأن هذا كان يعني أنْ لا أحد يعرف شيئًا عن وائل بعد يوم من أخطر الأيام التي مرت على مصر.

أثناء غيابه، وضعتُ ثقتي في هؤلاء الذين يثق فيهم، وكنت سعيدة لأنني انتبهت للأسماء التي ذَكَرها. اتصلت بالعديد من الأشخاص المسجلة أسماؤهم على محموله، منهم «يونجا برونيني»؛ وهي مديرة بشركة «جوجل»، طلبًا للمساعدة. كنا أنا و«يونجا» على اتصال مستمر كلما توصلتْ إحدانا إلى معلومة جديدة بشأن وائل، أو فقط لنتشارك في قلقنا وخوفنا. بدأ أصدقاء وائل في مصر والإمارات في التحدث للإعلام حول اختفائه، وسرعان ما أصبحت صورته منتشرة في مختلف وسائل الإعلام. شعرت أن «جوجل» وعائلته وأصدقاءه يقفون بجانبنا ويحاولون بكل الطرق الوصول إليه؛ مما زاد من احتمالات عثورنا عليه. رغم أنني كنت ألجأ لكل الطرق، إلا أنه كان عليّ أن أكون واقعية. كانت هناك أخبار وتقارير عن جُثث يتم رميها في أماكن معزولة، وأخرى غير مُتعرّف عليها موجودة بالمستشفيات.

بجانب عائلة وائل، كانت مجموعة الدعم التي أحاطتني مكونة من أصدقائي وأصدقاء وائل. بالإضافة إلى الأصدقاء، كنت أتلقى مكالمات من أناس لا أعرفهم يسألون إذا كان هناك أي شيء يستطيعون القيام به لمساعدتي، وليعطوني أي معلومات قد تساعدني في الوصول لوائل. أخبرت أبناءنا أن والدهما اضطُر للبقاء في مصر لفترة أطول لأنه كان لديه الكثير من العمل هناك. كانت إسراء تعرف أن وائل كان من المفترض أن يعود قبل بضعة أيام، فقلت لها إنه تأخر في العودة لأنه يساعد الكثير من المصريين في أمر مهم. لم يكن الأولاد يعرفون شيئًا عن المحنة الحقيقية التي هو فيها؛ لأنني لم أكن أشاهد الأخبار في وجودهم، وشدَّدْت على كل من يزورنا ألا يتحدثوا عن وائل أمامهم. واصلت القيام بأعمالي اليومية بين توصيل الأولاد للمدرسة، ولبيوت أصدقائهم ليلعبوا معهم، وأنشطة ما بعد المدرسة، وفي كل يوم كنت أعود إلى المنزل وأحاول حبس أنفاسي في الحمّام حتى لا يسمعني آدم وإسراء وأنهار في البُكاء. كانت مشاعري متباينة بين الغضب من وائل لأنه زجَّ بنفسه فيما كان يعرف أنه قد يُعرّض حياته للخطر وبين الشعور بفقدان الأمل وعدم القدرة على التفكير أو التصرف».

أصبح خروجي من المعتقل حلمًا أدعو الله يوميًّا في صلاتي أن يُحققه لي؛ فالوحشة والظلام والصمت تكاد جميعها أن تقتلني. خلدت إلى نوم عميق بعد لقائي القصير مع الضابط سعيدًا بما أنجزته في هذا اليوم، فرشدي؛ ذلك الضابط الذي حقق معي بصورة

غير رسمية، طلب من الحُراس معاملتي باحترام، والضابط الذي جاء ليتحدث معي بصورة غير رسمية خرج بصورة أقل سلبية عني من تلك التي دخل إليَّ بها، وتحدثت لأول مرة مع أحد الحراس رغم عدم استمرار حوارنا لأقل من ثلاث دقائق.

أيقظني الحارس من نومي بعد أن تلقّى مكالمة هاتفية من الضابط المُحقِّق، طلب مني سرعة القيام والتوجه إلى السماعة، قال لي الضابط: «كلمة السر بتاعة الإيميل بتاعك مش شغالة»، فقلت له محاولًا إخفاء السعادة من نبرة صوتي: «يبقى أكيد حد من زمايلي غيّرها». فسألني غاضبًا: «ويغيرها ليه؟»، فقلت: «لأنهم خايفين عليّ وأكيد مش عايزين يعرضوني أو يعرضوا الناس اللي كانت بتراسلني لأي خطر»، فقاطعني: «خطر إيه؟ أنت إيه اللي مخبيه في الإيميل؟». فقلت: «مش مخبي أي حاجة بس أكيد فيه أسماء الناس اللي نازلة والناس اللي كانت بتساعد في عمل التصميمات وبتتطوع في الصفحة». لم يكن الضابط مقتنعًا بأنني أعطيته كلمة السر الصحيحة، ولكن الحقيقة هي أنني بالفعل قمت بإعطائه المعلومات الصحيحة ولم أُخفِ عنهم سوى كلمة السر الخاصة بجهاز الكمبيوتر المحمول.

كيف تغيرت كلمة السر؟! كان سؤالًا يقتلني الفضول لأعرف إجابته أثناء احتجازي؛ لأنني لم أتوقع أن يقوم زملائي بمعرفة اختفائي بهذه السرعة. ما حدث كان تدبيرًا إلهيًّا أقرب للخيال؛ فنجيب وهو أحد زملائي في العمل بشركة «جوجل»، كان من القليلين بالإمارات الذين يعرفون أنني ذاهب إلى مصر لحضور المظاهرات، وأخبرته قبل مدة من سفري أنني المشرف على صفحة «كلنا خالد سعيد». لم أخبر نجيب الأمر بغرض التسلية، بل أخبرته لأنني كنت أحاول الاستعداد للحظة مثل التي أنا فيها. ففي حالة اعتقالي أحتاج داخل الشركة لمن يتفهّم ذلك ويبدأ في محاولة مساعدتي إذا ما تعرّضت لأي مكروه.

لاحظ نجيب ليلة الخميس أنني توقفت عن الكتابة في صفحة «كلنا خالد سعيد» على الفيسبوك وفي تويتر، فبالرغم من حجب الفيسبوك إلا أنه كان يعلم جيدًا أنه يمكنني بسهولة تخطي الحَجْب عن طريق استخدام تقنيات البروكسي؛ ولذا فقد شعر نجيب بالقلق الشديد على سلامتي. حاول يوم الجمعة الوصول لي عبر الهاتف إلا أنه لم يفلح بسبب انقطاع الاتصالات في مصر. وفي صباح السبت زاد قلق نجيب عليَّ؛

فقرر تغيير كلمة السر الخاصة ببريدي «elshaheeed@gmail.com». بالرغم من أن «Gmail.com» تتبع شركة «جوجل» إلا أنه لم يشأ أن يطلب ذلك من إدارة الشركة خوفًا من تبعات ذلك على وظيفتي في حالة معرفتهم بدوري في الدعوة للمظاهرات. حاول نجيب استخدام خاصية نسيان كلمة السر، ولكنه لم يستطع تخمين الإجابة عن السؤال السري، ولكنه لاحظ أنه يمكن إرسال كلمة السر إلى بريد آخر كنت قد وضعته كبريد احتياطي في حالة نسيان كلمة السر، وكان هذا البريد هو بريدي الشخصي الذي أستخدمه على الـ«Gmail».

اتصل نجيب بزوجتي، والتي كانت قلقة بسبب اختفائي وعدم معرفتها لأي أخبار عني، فسألها إذا ما كنت قد تركت أي أجهزة كمبيوتر خاصة بي في البيت فأجابته بالإيجاب. وهنا تحرك نجيب سريعًا إلى البيت وبدأ في محاولة فتح أي جهاز للكمبيوتر ليصل إلى كلمة السر الخاصة بالبريد الإلكتروني الشخصي ومن ثَمَّ يستطيع تغيير كلمة السر الخاصة ببريد «elshaheeed@gmail.com». كل محاولات نجيب باءت بالفشل؛ فبالرغم من توفُّر ثلاثة أجهزة كمبيوتر محمول شخصية لديَّ في البيت إلا أن كلها كان عليها كلمات سر لم يتمكن هو ولا زوجتي من تخمينها. سألها إن كان لديها أي تليفون محمول يخصني، فأجابت بالإيجاب فقد تركت في البيت أحد أجهزة المحمول الخاصة بي قبل سفري بسبب كبر حجمه. ولكن نجيب أُصيب بخيبة الأمل بمجرد أن قام بشحن الجهاز لأنه طلب منه كلمة السر لفتحه. لكن هذا اليأس لم يَدُم سريعًا؛ فزوجتي أخبرته أن إسراء تعرف كلمة السر؛ فهي تعشق لعبة الطيور الغاضبة الشهيرة «Angry Birds»؛ والتي قمت بتحميلها خصيصًا على الجهاز حتى تلعبها. استدعتْ زوجتي إسراءَ؛ والتي كانت في إجازتها المدرسية، ووضعت إسراء كلمة السر على الجهاز، وهنا تنفس نجيب الصُّعداء، فبدخوله على الهاتف يمكنه قراءة محتويات بريدي الشخصي، وليس ذلك فحسب بل قائمة بأسماء أصدقائي وأرقامهم التليفونية.

قام نجيب بتغيير كلمة السر الخاصة بالبريد، وقام بتحميل كل الرسائل البريدية التي كانت به على جهاز قرص صلب، وحذف كل المحتويات من البريد، وذلك احترازًا وخوفًا من أن تكون هناك طريقة تمكنهم من الوصول إلى ما في البريد الإلكتروني.

وبدأ نجيب في الاتصال دوليًّا بكل مَن يستطيع الاتصال به ليسألهم عني، وعما إذا كانوا قد رَأَوْني منذ يوم الجمعة.

سألني الضابط عن كيفية الدخول لإدارة صفحة «كلنا خالد سعيد»، أعطيته اسم المستخدم وكلمة المرور، قرأت له كلمة السر حرفًا حرفًا راجيًا الله أن يستطيع الدخول على الاشتراك؛ لأن عدم حصولهم على أي من كلمات السر قد يعود عليَّ بالأذى وفُقدانهم الثقة في كل ما قلت. وبالفعل دخل الضابط على الصفحة ووجد نفسه مشرفًا عليها، سألني عن كيفية إغلاق الصفحة، فقلت له: ادخل على الإعدادات وهناك خاصية تسمى: «احذف هذه الصفحة من على الفيسبوك». طلبت منه أن يفعل ذلك؛ لأن بإغلاقها ستعرف نادين أنه قد تم القبض عليَّ وأن أمن الدولة يحتجزني، كما أنها ستتمكن بسهولة من استرداد الصفحة بالتواصل مع مسئولي الفيسبوك.

كنت اتفقت مع نادين أن تحتفظ بسر إنشائي للصفحة حتى بعد اعتقالي، بل وأن تعمل على تحديثها أيضًا لإزالة الشبهة عني، فلم أكن لأتوقع أنني سأعترف لهم بأنني مشرف الصفحة بعد القبض عليَّ. كنا أيضًا قد اتفقنا على أن يقوم أحمد صالح؛ وهو ناشط تعرفه هي جيدًا وصديق لعبد الرحمن منصور ومصطفى النجار، بتحديث الصفحة في غيابي. كان اتفاقي مع نادين أنه في حالة اختفائي لأكثر من أسبوع أن تُعلن للجميع عن هويتي؛ لعل ذلك يساهم في زيادة الضغط لإخراجي من الاعتقال.

كل هذه الأحداث المتسارعة أكدت لي واحدة من أهم الاستراتيجيات التي تعلمتها من الثورة: لكي تُحقق رؤيتك سيكون الأصدقاء وقنوات الاتصال أهمّ من أي خطط قد تقوم بها؛ فالعالم يتحرك أسرع من أفضل خطة ستضعها للتعامل معه. لم يحذف الضابط الصفحة، ولا زلت حتى اليوم لا أفهم سر عدم حذفها، ربما شعروا وقتها أن هذا سيكون إثباتًا لاعتقالي فخافوا من ردة الفعل في الشارع الذي سيعرف عاجلًا أم آجلًا بأنني مشرف الصفحة.

خارج محبسي، وفي صباح يوم الثلاثاء ١ من فبراير، أعلن وزير الداخلية الجديد رجوع الشرطة لشعارها السابق «الشرطة في خدمة الشعب»، في محاولة لامتصاص غضب المتظاهرين.

في اليوم نفسه، لبّى المصريون أول دعوة لمظاهرة مليونية، فخرج مئات الآلاف من القاهرة والمزيد من المحافظات يطالبون بمطلب واحد: تنحي مبارك.

مرة ثانية ظهر الرئيس على التلفزيون ليُخاطب الشعب، فأكد على أنه لن يترشح للفترة الرئاسية التالية في سبتمبر، وأنه ليس لديه أي رغبة للاستمرار في السُّلطة. ولكن في هذا الخطاب فعل شيئًا لم يقم به في خطابه الأول، فتكلم بطريقة عاطفية قائلًا: «أنا أعتز بالوقت الذي قضيته وأنا أخدم مصر، ولقد دافعت عن أرضها في الحرب والسلام. مصر هي وطني، ولدت فيها، وفيها سأموت على أرضها. سيحكم عليّ التاريخ كما سيحكم على الآخرين. وستظل مصر أمانة تنتقل من جيل إلى جيل».

أدى الخطاب إلى انقسام رهيب بين المصريين؛ ففريق منهم قَبِل بوعود مبارك بالإصلاح، ورأى أنه لا بأس من استمراره في منصبه حتى نهاية فترة رئاسته؛ بينما رفض الآخرون خطابه واعتبروه مناورة لتأجيل سقوط نظامه. كان الانقسام إلى حد كبير يشير إلى فجوة بين الأجيال. بدأ بعض الآباء يضغطون على أولادهم ليعودوا لبيوتهم ويفضوا الاعتصام، وانصاع بعض المتظاهرين بالفعل وتركوا ميدان التحرير.

فور انتهاء خطاب مبارك، خرجتْ مجموعات من مؤيديه إلى الشوارع في مختلف أنحاء القاهرة. أخذوا يهتفون بحياة الرئيس ويُنددون بمتظاهري التحرير. كان المتظاهرون مقتنعين بأن هذه المجموعات المحدودة من «المؤيدين» تم تنظيمها من قِبل النظام لترسل برسالة لباقي الناس أن ليس كلّ المصريين ضد مبارك.

على صفحة «كلنا خالد سعيد» استمر أحمد صالح؛ الأدمن الجديد، في نَشْر صور من التحرير تُظهر التضامن بين الناس من مختلف الأعمار والطبقات والمعتقدات. وعندما انتقد صالح خطاب الرئيس الأخير فوجئ بطوفان من التعليقات الغاضبة على الصفحة. أصبح من الواضح أن مبارك استطاع بخطابه كَسْبَ قلوب الكثيرين. كان عدد المشاركين في صفحة الحدث التي تدعو إلى «جمعة الرحيل» أقل من هؤلاء الموجودين على صفحة «لن أتظاهر يوم الجمعة»، الذي جذب ١٤٠,٠٠٠ عضو في مقابل ٥٠,٠٠٠ لحدث جمعة الرحيل. ولكن كان من المؤكد أن الثورة خرجت للشارع ولن تعود قبل أن تحقق مطالبها؛ ولذلك لم ينخدع بأرقام الحضور تلك؛ فالثوار في الميدان وليسوا على صفحات الإنترنت.

في صباح اليوم التالي، خرج الآلاف في مظاهرة تأييد للرئيس مبارك عند ميدان مصطفى محمود بالمهندسين، وحاولتْ وسائل الإعلام الحكومية أن تُظهر هذه المظاهرة على أنها مليونية. وتحركت مسيرات من هذه المجموعات إلى ميدان التحرير فحدثت اشتباكات بينهم وبين الثوار. بدأ المراقبون للموقف في الكتابة على تويتر أن الحزب الوطني قد حشد أعدادًا كبيرة من أعضائه ليتظاهروا في ميدان مصطفى محمود وأماكن قريبة من التحرير. وقال بعض الصحفيين إن رجال الأعمال المخلصين للحزب الوطني دفعوا لعدد من البلطجية ٤٠٠ جنيه لكل منهم ليهاجموا الثوار. أمسك الثوار بعض البلطجية وعندما فتشوهم وجدوا معهم بطاقات عضوية الحزب الوطني أو بطاقات تشير إلى عملهم بالشرطة.

تجمّع خمسمائة شخص تقريبًا خارج مبنى الإذاعة والتلفزيون رافعين لافتات مكتوبًا عليها «نعم لمبارك من أجل الاستقرار.. نعم لرئيس الحرب والسلام»، وأخرى عليها «لن نكون عراق أخرى» و«اللي يحب مصر ما يغرقش مصر».

وفي الساعة الحادية عشرة تقريبًا اقتربت المسيرات المؤيدة لمبارك من التحرير. اكتشف المتظاهرون في التحرير أن الميدان تم اختراقه من مئات من مؤيدي مبارك، فوقفوا سويًّا ليمنعوا هؤلاء المؤيدين من دخول الميدان، ونجحوا في دفعهم بعيدًا حتى المتحف المصري عند طرف الميدان. ولكن بعد صلاة العصر، زادت أعداد المؤيدين ودخل الميدان مجموعات تركب الجمال والأحصنة قادمين من نزلة السِّمان بمنطقة الهرم ويقودهم بلطجية استأجرهم بعض أعضاء الحزب الوطني ورجال الأعمال الأثرياء ليُخْلوا الميدان من المتظاهرين. حاول رجال الأعمال هؤلاء التعجيل بتحقيق انتصار النظام على المتظاهرين على أمل أن يكسبوا رضاء مبارك ورجاله.

هذه الاشتباكات؛ التي اشتُهرت باسم موقعة الجمل، أثبتت للكثيرين أن النظام لن يوقفه شيء ليظل متمسكًا بالسلطة. بدأت الاشتباكات على ثلاث جبهات في التحرير؛ أولها وأضخمها بالقرب من المتحف المصري وفي الشوارع الجانبية المحيطة، وثانيها على الطريق المؤدي لكوبري قصر النيل، وثالثها وأعنفها كانت في شارع طلعت حُرب حيث هجم على المتظاهرين مئات من البلطجية المسلحين بالسكاكين. كان مصير

المتظاهرين يبدو مظلمًا، ولكن انقلبت الأمور عندما قام أحدُ ضباط الجيش؛ واسمه ماجد بولس، بإطلاق النار على البلطجية. عندها تراجع البلطجية وهربوا للشوارع الجانبية ليرموا المتظاهرين بالحجارة. أجبر المتظاهرون البلطجية على التراجع وقبضوا على الكثير منهم وسلَّموهم للجيش.

مع المغرب كان المتظاهرون قد استولوا على الجِمال والأحصنة وسلموها أيضًا للجيش؛ الذي خَصص لهم مكانًا في مدخل ميدان التحرير من ناحية شارع باب اللوق. ظل المتظاهرون متحفزين ومستعدين لمزيد من الهجمات والدماء.. وبالفعل حدثت المزيد من المعارك طَوال الليل.

يمكن لأي شخص راقب هذه الاشتباكات أن يُدرك ما الذي يستطيع المصريون القيام به عندما يتَّحِدون؛ باستثناء القليل من شباب النشطاء المعروفين، كان المتظاهرون الذين حاربوا على الخطوط الأمامية في موقعة الجمل من الشباب غير المُسيّس. كان كثير منهم مصريين عاديين من الريف أو المناطق الفقيرة في مصر، وكان معهم العديد من شباب الإخوان المسلمين. هتف الجميع: «دافع عن مصر. دافع عن إخوتك وأولادك. دافع عن شرفك. المجد للشهداء.. المجد للشهداء».

بحلول الليل، كان ميدان التحرير خلية نحل لا تهدأ من النشاط والتنظيم. عمل الكل جاهدًا على حماية الميدان ضد الهجمات المتتابعة؛ فكسّر بعض الشباب الحجارة إلى قِطع صغيرة ووضعوها في أكوام لتكون جاهزة عند أي اشتباكات، بينما بنى آخرون حواجز من الألواح الحديدية أو الخشبية التي وجدوها في مناطق الإنشاءات المجاورة. ارتدى الناس قُبعات صلبة أو حتى حلل طبخ على رءوسهم لتحميهم من وابل الحجارة. وقام المتظاهرون الأكبر سنًّا بعمل دوريات حراسة على الحواجز، فيدقون عليها بعصيّ حديدية ليُصدروا صوتًا كطبول الحرب.

ولكن أضخم هجوم جاء في منتصف الليل من ناحية المتحف المصري، فلقد وقف البلطجية فوق مدرعات الجيش وأخذوا يقذفون المتظاهرين بالحجارة وكَسْر الرخام والزجاج. تضاعف عدد الإصابات، وأقام الأطباء مستشفى ميدانيًّا آخر فورًا بالقرب من الخطوط الأمامية ليستوعبوا كل هؤلاء المصابين. بعد ساعة تقريبًا أجبر الثوار

البلطجية على التراجع حتى ميدان عبد المنعم رياض وتمكّنوا من تحصين الحواجز. عندئذ بدأ البلطجية في قذف الثوار بقنابل المولوتوف، ولكنْ نجح بعض الثوار في الصعود إلى أعلى العمارات القريبة والرد على البلطجية بالحجارة وقنابل المولوتوف أيضًا مما فاجأ البلطجية وجعلَهم يتقهقرون.

بعد تراجع البلطجية صعدوا على كوبري ٦ أكتوبر واستمروا في قذف المتظاهرين بقنابل المولوتوف. ثم أصبحت الاشتباكات قاتلة بحق؛ فلقد بدأ القناصة في استهداف الثوار وضربهم بالرصاص الحي من أعلى الكوبري. بدأ الشهداء يتساقطون الواحد تلو الآخر حتى تمكن بعض الثوار من الصعود للكوبري من الخلف والاشتباك مع البلطجية والقناصة.

لعبت صحافة المواطن والميديا الاجتماعية دورًا عظيمًا في توصيل أحداث الميدان ومختلف محافظات مصر للعالم. شبكة «رصد»، كان لديها ١٢ أدمن استمروا في جمع الفيديوهات والصور والمعلومات من المتظاهرين. وسرعان ما أصبحت صفحتهم من المصادر الأساسية للمعلومات عن الثورة المصرية. انضم للصفحة أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ عضو ليتابعوا الأحداث لحظة بلحظة؛ وهو الشيء الذي لا تستطيع وسائل الإعلام التقليدية أن توفّره. ولم تكن شبكة «رصد» وحدها هي التي تقوم بهذا المجهود، بل انطلقت الكثير من الصفحات على الفيسبوك والاشتراكات الشخصية على تويتر التي كرّست نفسها لنشر المعلومات عما يحدث في الثورة. وكذلك استطاع المصريون في الخارج متابعة ما يحدث في ميدان التحرير، ومن ثَمَّ ينقلون وجهة نظر المتظاهرين لوسائل الإعلام الأجنبية في البلاد التي يُقيمون بها.

بالإضافة إلى ذلك، كانت تغطية وسائل الإعلام الإقليمية والعالمية مثل الجزيرة والـ«CNN» لأحداث الثورة بمثابة غطاء حماية للمتظاهرين. وعلى الرغم من أن النظام كان ينهار إلا أنه كان حريصًا على أن يحافظ على صورة جيدة أمام العالم الخارجي، خاصة وأن النظام لم يكن يريد مزيدًا من الضغط عليه من المجتمع الدولي. ومن المخزي فعلًا أن دم المصري ثمنه بخس لدى هذا النظام مقارنة بصورة أو فيديو يكشف همجيتهم.

وحيدًا في زِنزانتي، لم أتخيل أن ميدان التحرير أصبح ساحة حرب. وبينما تتوالى الأحداث المتسارعة خارج المعتقل، تظل الدقائق لا تنقضي داخله. بدأتْ حالتي النفسية تسوء بشدة، وفقدت الإحساس بالأيام. كنت أُجبِر نفسي على النوم، أحاول النوم كلما استيقظت، وكنت كلما خلدت للنوم حلمت بخروجي من المعتقل وبزوجتي وأطفالي. في أحلامي، تختلف تفاصيل وطريقة الخروج من المعتقل كل مرة ولكن الأمر الثابت دائمًا والذي لا يتغير أنني أفيق من حلمي محاولًا أن أبعد يديَّ الاثنتين عن بعضهما البعض لأُفاجأ بأنني ما زلت مُكبّلًا وتنتابني خيبة أمل كبيرة. أتذكر أنني في أحد هذه الأيام وصل بي الأمر إلى دخولي في حلم داخل حلم على طريقة الفيلم الأجنبي الشهير: «Inception». خرجت من حلمي الثاني لأحرك يدي لأجدها تتحرك وأنني لست مُكبلًا وغمرتني الفرحة.. فرحة الحرية. ولكن ما لبثت أن وجدت نفسي مُكبّلًا بعد فترة من السعادة. ظللت أدعو الله أن يُخلصني من هذا الجحيم. ففكرة تغمية العينين لا يمكن أن يشعر أحد بآثارها إلا إذا أَجبر نفسَه أن يفعل ذلك لعدة ساعات، وقد كان أكثر ما يؤرقني هو أن الأيام تمر ولا أعلم متى سأرى النور.

قبل ثلاثة أيام من موقعة الجمل، اتصلت «إلكا» بـ«يونجا برونيني» المسئولة عن قسم التسويق في أوربا وإفريقيا والشرق الأوسط، وقالت لها إنها قلقة للغاية عليَّ. صعّدت «يونجا» الأمر داخليًّا وطلبت النصيحة من مديرتها. كان الموقف معقدًا؛ فسياسة «جوجل» تنص على عدم التدخل في أي نشاط سياسي، ولكن كلًّا من «يونجا» ومديرتها كانتا قلقتَيْن على سلامتي وتريدان مساعدة زوجتي.

بعد جلسة عصف ذهني في «جوجل»، توصلت مجموعة من المديرين إلى فكرة إطلاق حملة إعلانية على «جوجل» تستهدف مستخدمي الإنترنت المصريين، وتستخدم محرك بحث «جوجل». قالت هذه الإعلانات إنني مفقود وطلبتْ من المصريين تزويد الشركة بأي معلومات مفيدة قد تساعدهم في العثور عليَّ. لم يكن هناك ذكر أنهم يشكون في أنني مقبوض عليَّ حيث إن الشركة لم تكن تريد أن تضع نفسها في مواجهة مع النظام؛ لسلامتي وسلامة موظفي «جوجل» في مصر. كما قرر فريق أمن الشركة أن يستخدم شركات أمن خاصة في القاهرة ليبحثوا عني في المستشفيات وأقسام الشرطة.

كان الهدف هو معرفة مكاني ومعرفة ما إذا كنت ما زلت على قيد الحياة. كان نجيب يتحدث مع عبد الكريم مارديني؛ زميلي المصري في «جوجل»، كل يوم لساعات ليُطْلِعا بعضهما البعض على آخر تطورات البحث عني. الكثير من أصدقائي القريبين في «جوجل» كانوا قلقين على سلامتي وحاولوا المساعدة قَدْر استطاعتهم.

اتصل أخي حازم بكل مَن يعرفهم ليسألهم عني، وذهب بصحبة الكثير من أصدقائي للمستشفيات وأقسام الشرطة وحتى المشرحة ليحاول أن يجد أي أثر لي، سواء كنت حيًّا أم ميتًا.

في هذه الأثناء، في معسكر التجنيد، زار عبدَ الرحمن منصور والدُه يومَ الجمعة ٤ من فبراير. كان عبد الرحمن قَلِقًا وكان والده متخوفًا. بادره والده بالسؤال: «هل تعرف وائل غنيم؟»، فرد عبد الرحمن: «نعم، إنه صديقي». قاطعه والده: «أين قابلته؟ وما هي بالضبط طبيعة علاقتك به؟»، رد عبد الرحمن في خوف: «لماذا؟ ما الذي حدث؟». قال والده: «وائل غنيم مختفٍ منذ ٢٨ من يناير، ويعتقد الكثيرون أنه تم القبض عليه. لقد عرفت من أخيك أنكما لكما علاقة بصفحة «كلنا خالد سعيد» التي دعت لمظاهرات ٢٥ من يناير».

في طريقه عائدًا لغرفته الصغيرة في المعسكر بدأ القلق والخوف يصيبان عبد الرحمن. كان قَلِقًا عليَّ، خائفًا من أن أُفشي سرّه وأتسبب في القبض عليه؛ فأن يتم اتهامك بالخيانة وأنت مجند في الجيش أمر لا يُستهان به، فعقوبة ذلك الإعدام. خوفي على سلامة عبد الرحمن جعلني أحرص على حذف أي أثر لاتصالاتي به قبل أن أغادر دبي متوجهًا للقاهرة. ولكن عبد الرحمن لم يكن قد حذف مراسلاتنا، مما يعني أنه في حالة فتح بريده الإلكتروني سيكون هذا دليلًا دامغًا ضده. وهكذا قضى وقته في معسكر التجنيد خائفًا من القبض عليه في أي وقت. كان الأمر غريبًا؛ فعلى الرغم من أنني وعبد الرحمن كنا في مكانين مختلفَيْن تمامًا إلا أنه شاءت الأقدار أن نَمُر بالمشاعر نفسها في الوقت نفسه ونُحرم من المشاركة في فعاليات الثورة في أَوْج قوتها.

في الزِّنزانة، لاحظت بعد عدة أيام ملاحظتَيْن: الأولى هي انخفاض عدد الحراس في المعتقل، كانت نوبات الحراسة عليَّ تتغير ثلاث مرات يوميًّا والآن أصبحتْ مرتين،

بل وصل الأمر أنه في أحد الأيام حرسني شخص على مدار الأربع والعشرين ساعة، وكان كثير الشكوى لزملائه من عدم وجود مَن ينوب مكانه؛ لأنه يريد العودة لمنزله. أما الملاحظة الثانية فإن الأصوات التي كنت أستمع إليها خارج الغرفة التي أُحتجز بها من الصياح والصراخ في المعتقلين لم تعد موجودة. كان الأمر مُحيرًا بالنسبة لي، خاصة وأنني لا أعرف مكان احتجازي.

بعد بضعة أيام في المعتقل بدأتْ نوبة من السعال الشديد تنتابني، أَسْعُل بشكل متواصل وشديد برغم دواء السُّعال الذي كان يعطينيه الحارس بشكل مستمر، ولكنَّ مفعولَه لم يكن له أيُّ أثر.

كانت مشاعري متناقضة؛ أحيانًا أشعر بأن ما يحدث هو دليل نجاح الثورة في الخارج، وأحيانًا أخرى أشعر أن هذا دليل إخماد الثورة وعودة العمل في المعتقل لرتابته المعهودة، وما بين هذا وذاك ظللت حائرًا وليس في مقدوري سوى الصبر والدعاء.

شيئًا فشيئًا كنت أفقد الأمل في الخروج من المعتقل، لا أعرف كيف ستكون نهايتي، ولكن الحتميّ هو أنه قد تم نسياني، فالأيام تمر دون أي جديد. توقفتِ التحقيقات معي منذ اليوم الثالث، ولم أرَ أو أتحدث مع أيٍّ من الضباط واليوم يسير ببطء شديد. لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم، لم يكن هذا شعارًا بل واقعًا أعيش فيه. وكنت أحاول تسلية نفسي ببعض العبارات التي لسبب ما لم أَمَلّ من تكرارها: «لكل شيء ثمن، وأنت الآن تدفع ثمن ما آمنت به»، «لا يهم أن تموت وأنت في الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين أو السبعين من عمرك، بل المهم هو ماذا قدمت في هذه الدنيا قبل موتك». من وقت لآخر كنت أُسَلّي نفسي بغناء «احلم معايا»، تلك الأغنية الشهيرة للمطرب الشاب حمزة نَمِرة والتي كثيرًا ما كنت أنا وعبد الرحمن نضعها على الصفحة كلما شعرنا بأن أعضاء الصفحة مُحبَطون، كما أن دعائي وتضرعي إلى الله في كل صلاة لم يتوقف بأن يُيسر لي الخروج من هذا المكان.

في منتصف اليوم الثامن من احتجازي دخل إلى الغرفة صوت سرعان ما استطعت تمييزه؛ فهو ذلك الضابط الذي زارني في اليوم الثالث وتحاورت معه بشكل غير رسمي. سألني إن كنت سعيدًا بما قمت به وتسببت فيه، فقلت له إنني لا أعرف ماذا

يحدث في الخارج. ثم قال لي: «أنت إنسان كويس يا وائل، بس أنت ارتكبت جريمة في حق بلدك». همهمت بصوت خافت معلنًا رفضي لما يقول ولكنه بادرني: «مش عايز حاجة؟». لم أصدق السؤال في البداية، فمنذ ثمانية أيام ولم يسألني أحد عما إذا كنت أتمنى شيئًا ليَحدُث. فسألته: «السؤال ده بجد، يعني لو طلبت منك حاجة هتنفذها لي؟». رد عليَّ قائلًا: «أيوه لو أقدر أنفذها لك هانفذها». وهنا لم أفكر كثيرًا، وطلبت منه بشكل مباشر: «نفسي آخد دُش».

أُصبت في المعتقل بحساسية شديدة في مختلف أنحاء جسدي، هذه الحساسية كانت بسبب عدم استحمامي لمدة ثمانية أيام، وبالرغم من وضوئي المتكرر للصلاة إلا أن الوضوء لم يكن كافيًا لأن الماء لم يكن يصل لأغلب جسدي. أما ملابسي المتسخة فأصبحت رائحتها لا تُطاق بسبب العرق الكثير الذي تصببته، وبسبب فضلات الطعام التي كانت تتساقط على ملابسي بسبب تناولي الطعام وعيناي معصوبتان. لم أكن لأتخيل في حياتي أن يومًا ما سيأتي ليكون الاستحمام حلمًا بَعيد المنال. ولم أكن لأجرؤ طَوال فترة اعتقالي على أن أطلب منهم مثل هذا الطلب لأنني لا أعرف رد الفعل.

فاجأني الضابط برد فعله، سألني: «معاك أي غيارات داخلية؟»، فنفيت ذلك لأن اعتقالي تم من الشارع ولم يتسنَّ لي العودة للمكتب والحصول على أي ملابس. وهنا أمر المُخبرَ أن يصعد إلى غرفته في الدور العلوي ويحضر من هناك كيسًا وصفه له. وقال لي: «يا وائل أنت ابن ناس ومش حِمل بهدلة وماكانش المفروض تعمل اللي عملته ده.. أنا هاعامل فيك ربنا وهاديك غياري الداخلي»، وضحك قائلًا: «وماتخافش ده نضيف ومغسول والفانلة الداخلية جديدة ولسه شاريها». شكرته وكُلّي امتنان.

دخلت إلى دورة المياه، سمح لي الحراس بإغلاق بابها لأول مرة منذ دخولي المعتقل، وسمحوا لي بخلع العِصابة من على عينيَّ. أزحت العِصابة من على عينيَّ لأول مرة منذ ثمانية أيام، لم أصدق نفسي، شعرت وكأنني خرجت حرًّا طليقًا، وبدأت أتفحص جسدي والذي فقدت منه بضعة كيلوجرامات بسبب حرصي على عدم تناول الكثير من طعام المعتقل. عيناي بالكاد تَريان النور، وثمة ما يجعلهما شبه مُغلقتَيْن، فهما لم تريا ضوءًا منذ فترة ليست بالقليلة والعماص يملؤهما.

ترك لي الحارس دَلْوًا من المياه الساخنة وكوبًا كبيرًا لأستحم به وصابونة تبرع بها أيضًا الضابط. بدأت أضع المياه على جسدي وأفرك الصابونة بقوة على جلدي المليء بحبوب الحساسية، وأشعر مع سقوط المياه على شعري وجسدي أنني أولد من جديد. بعد أقل من خمس دقائق انتهت المياه، ونشّفت جسدي بملابسي الداخلية المتسخة التي كنت أرتديها ووضعت الغمامة على عينيَّ مرة أخرى معلنًا انتهائي للمُخبر والذي نقلني لزِنزانتي مرة أخرى.

كانت تلك الدقائق الخمس عودةً للروح مرة أخرى، تضاءل معها الشعور باليأس وشعرت بالأمل. بالرغم من أنني ارتديت بنطالي وقميصي مرة أخرى وبرغم رائحتهما إلا أنني شعرت بنشاط وتفاؤل للمرة الأولى منذ أيام طويلة. ودخلت إلى غرفتي سعيدًا، وعاد إليَّ الضابط ليَطمئنَّ ويستمع لكلمات الامتنان الكثيرة التي وجّهتها له، فقد بث فيَّ الروح بفعله الذي كان من الواجب أن أشكره عليه.

خارج السجن، كان التحرير يعود للحياة مثلي. غيّر خطاب مبارك من موقف الكثيرِين، ولكن عندما اتخذ النظام قرار طرد المتظاهرين من التحرير بهذه الطريقة العنيفة في موقعة الجمل، عادت الروح الثورية من جديد. كان الناس يريدون أن يُصدقوا أن النظام يتغير ولكن استخدام العنف أثبت لهم أنه لا شيء سيتغير طالما ظل مبارك في الحكم.

في يوم الأحد ٦ من فبراير، دعا نائب الرئيس عمر سُليمان ممثلي مختلف حركات المعارضة، وفيهم الإخوان المسلمون، والأحزاب السياسة المعارِضة، والجمعية الوطنية للتغيير، وممثلين من شباب ثورة ٢٥ من يناير، وحسام بدراوي بصفته أمينًا عامًّا للحزب الوطني، وكثيرًا غيرهم لاجتماع لمناقشة الوضع الراهن في مصر. بعض من شباب النشطاء أصروا أنه لا حوار مع النظام قبل تنحّي مبارك، وشكّل هؤلاء الشباب فيما بعد ائتلاف شباب الثورة الذي شمل مجموعات وحركات شبابية متعددة، وكان دوره مؤثرًا جدًّا في الميدان. ورغم اعتراض الائتلاف، إلا أن الاجتماع حضره ممثلو المجموعات الأخرى، بما فيهم مصطفى النجار. قال لي مصطفى بعد ذلك إن عمر سُليمان رفض بشكل قاطع تنحي مبارك ولم ينتج عن مقابلتهم لسُليمان أيّ

حل للأزمة. ولكن سُليمان وافق على تسهيل دخول الاحتياجات الطبية والغذائية للمتظاهرين في الميدان، وأظهر اهتمامه بسماع مطالب المعارضة في انتخابات حرة وعادلة. كان النظام يحاول إيصال رسالة للجميع أن الحوار قد بدأ والثورة قد خفتت، وأن الوقت الآن هو وقت التفاوض لا فرض الرؤى. وكالعادة فشل النظام في تقدير الأمر مرة أخرى.

في نهاية الاجتماع، انتحى مصطفى النجار بعمر سُليمان جانبًا وسأله عني، وإذا كان لديه معلومات عن مكان تواجدي، فالجميع قَلِق من غيابي.

رد عليه سُليمان: «هل هذا الشاب من شباب الثورة مثلك؟ علمت أنه متهم بالتورط في علاقات مع جهات أجنبية واستخباراتية». فأجابه مصطفى: «وائل شابّ مصري طيب، وهو موظف ناجح بشركة «جوجل»، وواحد من المصريين المخلصين الذين يُطالبون بالتغيير. كل ما يقال عنه هو محض أكاذيب. إن أمه حالتها الصحية سيئة جدًّا منذ اختفائه، ونحن لا نعرف ما إذا كان حيًّا أم ميتًا». وعده سُليمان بالتدخل للإفراج عني، وخرج وقتها مصطفى مرتاحًا لأنه على الأقل علم أنني لا زلت على قيد الحياة.

في زِنزانتي، توقف الزمن تقريبًا. شيئًا فشيئًا يتسرب إليَّ شعور فقدان الأمل في أن ينقذني مَن هم في الخارج. كنت كثير التساؤل عن مصير أبنائي، وهل إذا ما كانت «إلكا» قد أخبرتْ إسراء بأنني اختفيت؟ فـ«إلكا» شديدة الصراحة وتُعامل إسراء كالفتاة الناضجة. لم أعرف ما هو رد فعل أمي وأنا أعلم عنها خوفها المبالغ فيه على أبنائها. كما أنني دعوت الله ألا يتسبب اعتقالي في زيادة مرض أبي، فقد أصيب والدي بمرض نادر تسبب في فقدان قدرته على الإبصار بعينه اليسرى منذ سنوات، وكان أكثر ما أخشاه أن يحدث له مكروه في عينه اليمنى فلا يرى بعدها خاصة وأنه يعيش في السعودية بعيدًا عن الأهل.

بدأتِ الوساوس الشيطانية تتسرب إلى عقلي للتفكير في الانتحار، ولكنني كنت أقاومها بالدعاء والتشبث بالأمل والرجاء في قَدَر الله. لم أكن ذلك النوع الذي يقبل الهزيمة؛ ولذا كلما جاءتني هذه الفكرة طردتها من رأسي، ولكن الحقيقة أن اليأس

من خروجي تملّكَني بعد أكثر من تسعة أيام من احتجازي دون حتى أن أعرف ماذا يدور في الشارع.

وكما كانت آمالي في الخروج تتضاءل، كان البحث عني يدور على قدم وساق في كل مكان بمصر، ويعمل عليه عائلتي وأصدقائي وأكبر محركٍ بحث في العالم. وعلى الرغم من أنهم لم يتوصلوا لمعلومات كثيرة عني، إلا أن اسمي لفت نظر وسائل الإعلام المحلية والعالمية، وبدأ الصحفيون في متابعة قصتي عن كثب.

بالإضافة إلى ذلك، كان الدكتور حازم عبد العظيم قلقًا عليَّ للغاية. كنت قد قابلت الدكتور حازم كمتطوع في حملة البرادعي للتغيير؛ وكان من القلائل الذين يعرفون أنني مؤسس صفحة «كلنا خالد سعيد» ومشرفها الرئيسي. بعد التردد لبعض الوقت، قرر الدكتور حازم أن يكشف هويتي الحقيقية للصحفي محمد الجارحي، الذي نشر مقالًا عن دوري الحقيقي في الصفحة؛ مما زاد من اهتمام الإعلام باختفائي. شكّل هذا الكشف عن هويتي الحقيقية ضغطًا رهيبًا على النظام الذي يهتم بصورته أكثر من احترامه لحقوق الإنسان. كان أحمد صالح؛ الأدمن لصفحة «كلنا خالد سعيد»أثناء الثورة ، يتابع الأخبار ولكنه لم يكن متأكدًا إذا كان عليه أن يُفشي هويتي على الصفحة. بعد أن تشاور مع نادين، قرر أحمد أنه من مصلحتي ألا يفعل ذلك خاصة وأن القصة كان يتم تداولها في الإعلام بالفعل؛ لأن أي كتابة على الصفحة ستكون بمثابة تأكيد لعلاقتي بها. تُعلن تضامنها معي. ولكن مما يدعو للسخرية أن التعليقات على الصفحة كانت إما تُعلن تضامنها معي وتطالب النظام بالإفراج الفوري عني، وإما تتهمني بأنني خائن ومحرِّض على الفوضى في مصر، وأنه قد تم احتجازي بعد تورطي في الأحداث بما لا يدع مجالًا للشك في عمالتي!

قام نشطاء كثيرون لم أكن أعرفهم على المستوى الشخصي بجهود مكثفة للعثور عليّ، فظهرت إسراء عبد الفتاح؛ الناشطة المصرية المعروفة، على قناة الجزيرة وقالت إنها تطالب بأن أكون المتحدث باسم شباب الثورة، كانت كل ما تريد هو وضع مزيد من الضغط لإطلاق سراحي. ومن دبي، اتصل زميلي في العمل نجيب بمنى الشاذلي، بعد أن وجد رقمها على محمولي الذي تركتُه هناك، وطلب منها المساعدة. قالت لي منى

بعد ذلك إنها قد حفظت اسمي عن ظهر قلب من كثرة محاولات الاتصال بمختلف الجهات للبحث عني.

ومن الواضح أن كل هذه المحاولات أثمرت في النهاية عن خروجي؛ ففي مَساء يوم الأحد السادس من فبراير تم استدعائي للتحقيق. دخلت إلى الغرفة ففاجأني المحقق بخبر لم أكن أتوقعه لعدم وجود أي مقدمات له: «وائل، بعد التحقيقات معاك والتحريات اللي عملناها عنك ثبتت براءتُك وعدم صلتك بأي جهات أجنبية، إحنا خلاص قررنا الإفراج عنك.. أنت هتخرج إن شاء الله بعد كام ساعة». وهنا لم أصدق نفسي، شعور لا يُوصف؛ فالحرية نعمة لا يشعر بها سوى مَن يفقدها ولو لبضع ساعات، فما بالكم لو كانت لأيام مع عدم علمي بالمصير الذي ينتظرني.

ابتسمت وقلت له: «الحمد لله.. الحمد لله»، قاطعني بحزم: «بس لازم يا وائل نتكلم عن حاجات كتير قبل ما تخرج، أنت دلوقتي شخص الإعلام كله في الخارج مستنيك وأنت ماتعرفش اللي حصل بره، وعشان كده مطلوب منك تركز معايا كويس جدًّا في اللي هقوله ليك».

استمر حديثنا لعدة ساعات. بدأ المحقق في تصوير ما يحدث خارج المعتقل، أخبرني أن ثلاثمائة ضابط شرطة قد قُتلوا في الأحداث، وأن التحرير أصبح به عناصر أجنبية من حركتَيْ حماس وحزب الله، وأن السجون قد تم اقتحامها بمساعدة الحركتين، وعن طريق بلدوزرات هُدمت الأسوار لتُخرج كل المجرمين، وتحدث عن الموقف الأمريكي من الثورة ومطالبتهم لحسني مبارك بالتنحي، حتى أنني أتذكر جيدًا كيف أنه قال لي إن الرئيس أُهين من الجميع: متظاهري التحرير، ومستخدمي الإنترنت، وحتى أوباما الذي خرج في بيان سافر متدخلًا في شئون مصر الداخلية ومطالبًا الرئيس بالتنحي الفوري.

كنت أستمع إلى حديثه بإنصات، وكل ما أفكر فيه هو الخروج من هذا السجن اللعين الذي كاد أن يُفقدني عقلي، إلا أنني أُصبت بصدمة شديدة من خبر مقتل المئات من المواطنين وأفراد الشرطة في التظاهرات.

استمر الضابط في شرح الأوضاع لي من وجهة نظره، وأخبرني بأن الرئيس مبارك استجاب لكافة مطالب المتظاهرين، ولكنهم الآن يتعمدون إهانته وسبه في الميادين وأمام وسائل الإعلام الأجنبية رغم كل ما قدمه لهم، وأخبرني أن معلوماتهم تُثبت أن هناك مؤامرة للفوضى في مصر. هنا بدأت في جداله قائلًا: «وما هو نوع المؤامرة؟»، قال.إنه في حالة إجبار الرئيس مبارك على ترك السلطة ستعم البلاد فوضى كبيرة، وستحدث فتنة طائفية، وسيموت المئات إن لم يكن الآلاف من المصريين، أما بقاؤه فسيضمن الاستقرار وحدوث التغيير وتحقيق مطالب الشباب، ونضمن ألا تصل قوى بعينها لا تهدف مصلحة مصر إلى الحكم؛ مُلمِّحًا إلى الإخوان المسلمين.

استمر الضابط لفترة طويلة في جلسة «غسيل المخ» يتحدث عن جهاز أمن الدولة وعن إنجازاته، وعن إنكار عمليات التعذيب التي تحدُث فيه، وأن أغلب مَن يخرج من الجهاز يدّعي كذبًا عليهم. وطبعًا لم أكن لأصدق ذلك لأن أصدقائي الشخصيين تعرضوا لعمليات تعذيب داخل الجهاز. أخذ يبرر حالات التعذيب الفردية بوجود ضباط لا أمانة ولا كفاءة لديهم، وهم موجودون دائمًا في كل قطاعات العمل في مصر. أخذ يُقنعني أن أكثر ضباط أمن الدولة متعلمون ومثقفون، وأخبرني أنه حاصل على ماجستير في القانون الدولي، وأن غيره الكثير، الفاسد في أمن الدولة استثناء على حد تعبيره.

لم أُكثر من الجدال لأنني مفتقد لمعرفة الصورة الحقيقية من الشارع، ولا أعرف كيف تسارعت الأحداث في الخارج، ولم أكن أعرف ماذا ينتظرني في حالة جدالي برغم الحوار البسيط. دخل الحوار في نقطة أخرى وهي مربط الفرس في اعتقادي للجلوس معي لساعات طويلة، بدأ يحدثني عما سأقوله في حالة خروجي من المعتقل، كان كلامه معسولًا بنبرة تهديدية. كان يُحذرني من حدوث الفوضى وتحميلي ما سيحدث نتيجة تهييجي للرأي العام في حالة حديثي عن المعاملة السيئة لي في أمن الدولة، وفي الوقت نفسه كان يُكثر من قوله إنه لا يوجّهني، وإن لي مُطلق الحرية في قول ما أريد طالما سأتحمل عواقبه. هذا التهديد بالفعل كان له أشد تأثير عليَّ بعد خروجي بالرغم من عدم تحققي من جديته. اتخذت قرارًا وقتها ألا أذكر ما حدث لي داخل أمن الدولة، وأن أذكر بوضوح أنه لم يتم تعذيبي جسديًّا، كان الأمر حقيقيًّا؛ فعلى الرغم مما قاسيته

ومن بعض الضربات فإن أي شخص دخل جهاز أمن الدولة يعلم أن هذه المعاملة هي معاملة محترمة؛ مقارنة بما يقومون به مع غيري!

بعد أكثر من أربع ساعات من الحديث أُحادي الجانب في أغلب الوقت، طلبت من الضابط طلبين؛ الأول أن يَكشف لي عن شخصيته الحقيقية وأن أرى وجهه، والطلب الثاني أن أتحدث إلى زوجتي لأُطمئنها على صحتي وأنني بخير. رفض الضابط بشدة الطلب الأول؛ بحجة عدم مخالفته للوائح الجهاز. قلت له: «إنك تقول إنكم أهل خير وثقة وتحبون بلادكم فلماذا لا نرى وجوهكم؟ لماذا لا تخرجون إلى النور؟». تحدث لي عن أهمية عملهم السري، وأخذ يُبرر رفضه والتزامه بالتعليمات، مما جعلني أطلب منه مطلبي الثاني وهو محادثة زوجتي، فأخبرني أن هذا الأمر خارج صلاحياته، ووعدني بأنه سيحاول الحصول على الموافقة للاتصال بها. انتهت محادثتنا التي كانت الجولة الأولى من غسيل المخ بعد عدة ساعات، فعُدت مرة أخرى إلى غرفتي.

تغيرتِ المعاملة من حارسي؛ الذي بدأ يبتسم ويتحدث معي ويبارك لي على قرب الإفراج عني. كان الأمر مثل الحلم، بدأت أعود لحالتي الطبيعية؛ أضحك وأتحدث وأبتسم وأمزح، والحارس كان يجاريني في الحديث وكأن الحظر الذي كان مفروضًا عليَّ قد تم التوجيه بوقفه. بعد ساعة طلبت من الحارس الاتصال بالضابط لأنني أردت الحديث معه لأتحدث إلى زوجتي، فقد كان ذلك أكثر ما يشغل بالي لأنني لا أعرف حجم الصدمة التي تعيشها منذ اختفائي وأردت فقط طمأنتها بسلامتي وأُخبرها بقُرب خروجي.

انقضتْ بضع دقائق وجاءني الحارس ليخبرني بأن الضابط يريدني، ذهبت إليه في غرفة التحقيق مرة أخرى وعيناي ما زالتا معصوبتَيْن، وأخبرني أنه تمت الموافقة على محادثتي لزوجتي، وبدأ يوجّه لي تعليمات بلغة إنجليزية واضحة أراد من خلالها أن يلفت انتباهي أنه يفهم الإنجليزية جيدًا. جاءوا بهاتفي المحمول واتصل الضابط بزوجتي من هاتفي المحمول، ووضع الهاتف على أذني.

كانت الساعة تتجاوز الثانية صباحًا بتوقيت دبي، وبالطبع كانت زوجتي نائمة، ردتْ بعد فترة متسائلة مَن المتحدث، أجبتها بأنني وائل، وأنا مبتسم بصوتي الأجش من أثر السعال المستمر والإرهاق، وفوجئت أنها ترد بعصبية قائلة إنني لست وائل.

أقسمت لها، فسألتني بشكل مباشر: «ما هو اسم والدتي الأوسط؟»، ذكرت لها الاسم وقلت لها: «وزيادة في الدلالة فهي تحبني أكثر منكِ»، وكنت دائمًا ما أمزح معها بترديد هذه العبارة. صرختْ بالإنجليزية قائلة: «يا إلهي، وائل أين أنت؟»، قلت لها: «أنا بخير ومحتجز في مباحث أمن الدولة ولكنني سأخرج غدًا»، أخذتْ تصرخ بكلمات لم أسمعها وبدا فيها عدم التصديق، ثم قالت: «أنت لا تعلم ماذا فعلتْ «جوجل» وماذا فعل كل أصدقائك من أجلك!». قلت لها: «ليس هذا وقت «جوجل»، أخبريني كيف حال إسراء؟»، قالت: «إسراء بخير وهي نائمة»، قلت لها: «أيقظيها فأنا أريد التحدث إليها»، لكن زوجتي قالت: «لا، لا أريدها أن تعرف أنك معتقل؛ فهي تعتقد أنك في رحلة عمل ومنشغل عن العمل، وإيقاظها بهذا الشكل وأنا أبكي سيجعلها تشعر بالقلق»، وافقتها، هنا أخذ الضابط يطالبني بإنهاء المكالمة فأخبرتُها ألا تقلق، وأنني سأخرج، وأنني بخير لم أتعرض لأي إهانة أو تعذيب، طلبتُ منها ألا تخبر أحدًا بهذه المكالمة حتى إخوتي ووالدتي، وكان هذا شرطَ المكالمة، فوعدَتْني بذلك وأغلقتِ السماعة.

مكالمة زوجتي أزاحتْ عني همًّا كالجبال؛ فهي وحيدة في الإمارات وليس لدينا الكثير من الأصدقاء، بل إن أصدقاءها معدودون على أصابع اليد؛ فهي ليست نَشِطة اجتماعيًّا وتقضي أغلب وقتها في تربية أولادنا. شعرت بالسعادة لأن زوجتي على الأقل ستنام الآن معتقدة أنني بخير، وأنها ستراني بعد فترة قصيرة.

عُدت إلى الغرفة لأجد الحارس يطلب مني أن أخلع ملابسي حتى يقوم بغسيلها وكيها استعدادًا للخروج غدًا، فخلعت ملابسي المتسخة وأعطاني بدلًا منها ملابس أخرى احتياطية. وجلست في غرفتي أحاول النوم في وقت متأخر من الليلة استعدادًا للغد ولكنني لم أستطع، فكيف أستطيع النوم وأنا أشعر بنسائم الحرية؟! فأخيرًا سأعود لأرى النور.

اتصل بي الضابط الذي كان يدير التحقيق معي منذ البداية، سألني إن كنت مستيقظًا فأجبته بالإيجاب، فأخبرني أنه لا يستطيع النوم هو الآخر وأنه يريد الحديث معي بصفة شخصية فوافقت. اقتادني المُخبر إلى مكتب التحقيقات مرة أخرى لأجلس

بضع ساعات مع الضابط في جلسة أخرى لغسيل المخ. كان الهدف من الجلسة هو تحسين صورة جهاز أمن الدولة، والضغط عليَّ بالترغيب أن أنكر حدوث أي معاملة سيئة لي. ذكرت له أنني سأذكر أنه تم ضربي ولكنني لن أكذب أو أذكر ما لم يحدث، فبرغم الإهانات التي حدثت فإنه لم يتم تعذيبي بالكهرباء ولا بالعنف المبالغ فيه. أخذ الضابط يَذكر لي مخاطر الحديث عن ذلك، سواء كانت مخاطر تهييج الشارع مما سيفتح الباب للمزيد من الضحايا يسقطون، أم مخاطر على نفسي، ولم يكن الضابط يوضح عن أي نوع من المخاطر يتحدث ولم أهتم أيضًا بالتعرف على ذلك.

انتهى حوارنا بوعدي له أنني سأفكر فيما قال، وأنني في أسوأ الظروف لن أقول سوى الحق ولن أبالغ في ذكر ما حدث لي في المعتقل، وشكرني الضابط وأخذ يكيل لي المدح وكيف أنني من الشخصيات الوطنية المحبة لبلدها حبًّا حقيقيًّا. وسلَّمت عليه ودخلت مرة أخرى إلى غرفتي.

سمح لي حارسي الشخصي بفتح العِصابة عن عينيَّ بعد أن طلبت منه ذلك مع وعدي له بوضعها بشكل سريع في حالة سماعي لأي خطوات خارج الغرفة، كنت أريد من ذلك رؤية المكان الذي اعتُقلت فيه طَوال هذه المدة. كان تصوري أن الغرفة كبيرة بسبب صدى الصوت الذي يَصدُر كلما تحدَّث المُخبِر، ولكنني حينما كشفت الغِمامة من على عينيَّ وجدتها غرفة صغيرة مساحتها مثل مساحة غرف النوم الثانوية في الشقق الصغيرة، ولكنها مليئة بالتعفن من أثر الرطوبة على كل جدرانها.

بدأ المُخبرون يَدخلون إلى الغرفة؛ الواحد تلو الآخر، وسلّمت عليهم. مَن اعتقدت أنهم مجموعة من الوحوش عديمة الإحساس، كانوا أشخاصًا عاديين جدًّا. وجوه تراها في الشارع المصري وعلى بعضها ملامح الطيبة حتى أنك تسأل نفسك كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يتحول إلى جلاد يعذب ضحاياه ويستمتع بعذابهم، ويعامل غيره من المصريين معاملة غير آدمية؟! كان الأمر مُحيرًا، ولكنني آمنت منذ زمن طويل أن هؤلاء ليسوا أعدائي؛ فهم مجرد أداة في يد أعدائي الحقيقيين؛ رءوس النظام المصري الذين استباحوا حرية وكرامة المصريين في سبيل بقائهم في الحكم. سَلَّمت على الحراس جميعًا، بل وقَبّلتهم وودعتهم قبل رحيلي حتى أؤكد لهم أنني لست خائنًا، وأنني أُحب

بلدي كما يحبونه هم على أقل تقدير. لا زلت أتذكر ما قاله أحدهم وهو يُسلم عليَّ: «ادعيلي ألاقي شغل وربنا يتوب عليَّ من الشغلانة دي».

لن أنسى أيضًا كيف دخل ضابط أمن الدولة؛ الذي أهداني ملابسه الداخلية لأستحم، إلى الغرفة، وضرب بالأوامر الرسمية عرض الحائط فسمح لي بالحديث معه بدون عِصابة، وحدثني بحديث يُشبه لحدّ كبير حديث الضابطَيْن الآخَرَيْن، حتى أن الشك تسرب إليَّ فيما إذا كان هذا سيناريو سبق إعداده للتأثير على ما أقول بعد خروجي من المعتقل. شكرته ضاحكًا على موقفه النبيل معي (والذي يُعد من أبسط حقوق المُحتجَز) لسماحه لي بالاستحمام، وداعبته قائلًا إنني لا أصدق أن ما أرتديه هو لباسه الداخلي؛ لأنه كان عبارة عن لباس أبيض به دوائر سوداء متكررة، ويستحيل أن يكون ضابط أمن الدولة الصارم مفتول العضلات المصاب بطلقة في فخذه يرتدي مثل هذا اللباس. ضحك الضابط وأخرج لي جزءًا من لباسه الداخلي الذي يرتديه والذي كان عليه النقشُ نفسه؛ ليُثبِت لي أن ما أرتديه هو بالفعل لباسه الداخلي، وضَحِكنا سويًّا.

مرت الساعات ببطء شديد، وكنت أستعد للخروج إلى الشارع مرة أخرى. جاءوا لي بكل ما أخذوه مني؛ ساعتي، ولكن للأسف بعد أن قُطع مِعصمُها الجلديّ، ونظارتي بعد كَسْرِها، والمحفظة بما فيها من كل المحتويات حتى الجنيهات الفضية، وجهاز الحاسب الآلي، وهاتفي المحمول، وسواري الأخضر الذي أعطته لي زوجتي حتى أتذكر أبنائي وأحافظ على سلامتي. وقَّعْت على كل الأوراق اللازمة لخروجي، ومنها استمارة تُسمّى استمارة التعارف، والتي وَضَعْت فيها كافة بياناتي وبيانات أقاربي الشخصية، وقاموا بتصويري كما يتم تصوير المُجرمين! ثم وُضِعت العِصابة على عينيَّ واقتادني الضابط إلى خارج المعتقل.. لأشم هواء الشارع لأول مرة منذ ١١ يومًا.

الفصل التاسع

وسقط الفِرْعَون

في حَوالَيْ الساعة السابعة مساء، اقتادني بعض الحراس إلى سيارة ميكروباص صغيرة وعيناي ما زالتا معصوبتَيْن. جلست في المنتصف وعن يميني ويساري المحققان اللذان قاما بالتحقيق معي طَوال فترة اعتقالي، عرفتُهم من أصواتهم. بدأتِ السيارة في التحرك وبدا واضحًا لي أن السائق يتعمد بشكل أو بآخر الدخول في شوارع يمينًا ويسارًا حتى أفقدَ القدرة على استنباط المكان الذي كنت فيه مما ذكّرني بما حدث لي منذ ١١ يومًا.

كانت أسرتي في انتظاري لأن كثيرًا من وسائل الإعلام أعلنت أنه سيتم الإفراج عني اليوم. وأنا أستعد لترك أمن الدولة، أخبرني الضابط «رشدي» أنه تلقّى أمرًا بأن يصحبني إلى مكتب وزير الداخلية الذي كان حريصًا على مقابلتي قبل أن أعود لمنزلي. وبمجرد وصولنا إلى البوابة الرئيسية لجهاز مباحث أمن الدولة في منطقة مدينة نصر بالقاهرة أخبرني الضابط بأن الوقت قد جاء لأخلع الغِمامة للمرة الأخيرة، فلا عِصابة ستوضع على عينَيَّ بعد هذه اللحظة.

أزلت العِصابة من على عينَيَّ لأنظر فيمَن حولي، فوجئت بمظهر رشدي والضابط الآخر الذي لا أستطيع أن أتذكر اسمه؛ فالصورة النمطية لضابط أمن الدولة هي أن الشرّ والتلذذ بتعذيب الآخرين من مُكوّنات شخصيته، وينتقل ذلك لوجوهِهم التي تبدو كئيبة وقاسية، أما الصورة الحقيقية التي شاهدتها بعينَيَّ اللتين كانتا تتحسسان

ما حولهما فكانت لشباب في مقتبل أعمارهم، وجوههم مصرية عادية، أخشى أن أعترف أنه بدا فيها الطِّيبة أيضًا!

«حمد الله على السلامة يا وائل»، هكذا قالها لي رشدي وهو ينظر إليَّ ببشاشة. ابتسمت له وقلت: «الله يسلمك». كنت أحمل داخلي تقديرًا لرشدي؛ لأنني استشعرت من كلامه من أول التحقيق أنه كان مُصدقًا لما أقول، لم تمنعني معرفتي باستراتيجية الضابط الطيب والضابط الشرير من تقديري له حتى وإن كان يتصنّع ذلك!

دخلنا عبر بوابات الحراسة إلى المبنى: الحراسة تبدو مشددة على هذا المبنى؛ حيث وجدت عشرات الضباط المُدجّجين بالسلاح هناك. صعدت مع رشدي إلى أحد الأدوار العليا بالمصعد وبصحبة أحد الضباط الذي كان واضحًا أنه من حرس الوزير. بمجرد خروجي من المصعد ودّعني رشدي وقال لي إنه من الممكن أن تكون هذه هي آخر مرة نلتقي فيها. كانت الإضاءة تؤلم عينَيَّ؛ فهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها النور منذ القبض عليَّ.

دخلت إلى غرفة وزير الداخلية الفسيحة، لاحظت كبر حجمها والذي يصل إلى ثلاثة أضعاف حجم غرف المعيشة في البيوت المصرية. احتوت الغرفة مكتبه وأمامه بضعة كراسي، وركنًا خاصًّا به طاولة للاجتماعات، وآخر به أنتريه يكفي لستة أشخاص. بمجرد دخولي كان مع وزير الداخلية هاتف أغلقه بشكل سريع وقال مُرَحِّبًا: «أهلًا أهلًا.. إزيك يا عم وائل»، بادلته الترحيب بشكل مُهذب وإن بدا على وجهي ملامح الغضب مما حدث لي. الشعور بالضعف وقلة الحيلة والذي لازمني طيلة فترات اعتقالي تَحوّل بشكل مفاجئ داخلي إلى شعور بالعزة والغضب وترجمته خلال حديث بسيط دار بيني وبين الوزير. في الغرفة قبل أن نبدأ في حوارنا لمحت شخصين، تعرفت على الأول حيث أخبرني وزير الداخلية بأنه «عمّو» حسام بدراوي. لم أكن في حياتي قد التقيت من قبل بالدكتور حسام بدراوي، وكل ما أعرفه عنه آنذاك أنه كان عضوًا في مجلس الشعب عن الحزب الوطني، وأنه كان محسوبًا على التيار الإصلاحي في الحزب.

سألني الوزير: «أنت شكلك زعلان، مالك فيه إيه؟ إيه اللي مزعلك؟»، فقلت له بنبرة هادئة يشوبها الغضب: «اللي مزعلني هي الصورة اللي فوق مكتب حضرتك

دي». وأشرت بعينَيَّ إلى صورة حسني مبارك والتي وضعت في برواز فاخر فوق الكرسي الخاص بمكتب وزير الداخلية. الصورة كانت تقليدًا روتينيًّا في كل المكاتب الحكومية وخاصة التابعة للجهات الأمنية كالداخلية والجيش والمخابرات كتقليد لتقديس الشخص وإثبات الولاء له.

فابتسم اللواء محمود وجدي وزير الداخلية، الذي تم تعيينه في التغيير الوزاري بديلًا عن حبيب العادلي، وقال لي بنبرة هادئة محاولًا امتصاص غضبي: «واضح إن الريّس مزعّلك أوي». كان ردي عليه مباشرًا وسريعا: «لا أنا معرفوش شخصيًّا عشان يزعلني أو مايزعلنيش، الرئيس ده موظف في الدولة وأنتم بتعاملكم معاه حولتوه لإله كل الناس مطلوب منها طاعة أوامره، ليه بتحطوا صوره في كل مكان؟». أجابني بابتسامته الهادئة قائلًا: «خد بالك يا وائل، ده راجل عنده فوق الـ ٨٠ سنة، وفي مقام جدّك، وعيب تتكلم عليه بالشكل ده، مهما كان ده رئيس الجمهورية وكبير بلدنا!».

لم أتوقع هذا الرد؛ فالثورة قامت ضد هذه المعاني الممسوخة التي تُستخدم في غير مَحلّها لتبرير الممارسات الخاطئة للنظام. ردّي عليه كان أنني أحترم الكبير طالما أن هذا الكبير بادلني الاحترام، وأن مَن لا يحترم شعبه لا يستحق أن ينال احترام هذا الشعب، بدأت أفقد حكمتي بعض الشيء وهنا قاطعني محاولًا تهدئة نبرة الحديث مرة أخرى: «أنت باين عليك ثورجي أوي، أنا برضه ثورجي زيك وعايزك لما تروّح تسأل عني. أنا مشيت من الوزارة على إيد حبيب العادلي ودلوقتي بسببكم أهوه رجعت مكانه، وإن شاء الله الوضع هيكون أحسن بكتير من زمان، وهتشوفوا تغيير حقيقي في منهج الوزارة». طلب مني أن نلتزم الحكمة والتهدئة، وتحدثت معه عن أن هناك أزمة ثقة بيننا وبين النظام، فمن المستحيل أن نُصدق وعودًا تأتي ممن سَلب إرادتنا لعشرات السنين. حذرني من أن ما يحدث الآن سيستغله المتطرفون لفرض سيطرتهم على حكم مصر، فقلت له إن مَن في الميدان ليسوا من المتطرفين، بل هم من الشباب الحانق الغاضب على ما يفعله النظام في مصر من عشرات السنين.

أشار الوزير إلى الدكتور حسام بدراوي: «يا دكتور حسام، ما تحضرنا وتقول حاجة»، فردّ حسام بدراوي مؤكدًا أن هذا الحوار هو نموذج للفجوة الموجودة بين الأجيال

وقال: «يا محمود بيه الشباب عندهم لغة تانية مختلف معانا فيها، ماعندوش موضوع احترام الكبير ده بنفس الصورة اللي إحنا متربّيين عليها وجيلهم منطلقاته مختلفة، وأنا على طول عايش الموضوع ده مع أولادي».

ثم وجّه حسام بدراوي حديثه لي بأن ابنته أوصته بأن يوصل لي السلام لأنها كانت ممن ذهبوا إلى ميدان التحرير بسبب دعوات الفيسبوك، وقال لي مُطَمئِنًا: «بص يا وائل، محدّش يقدر ينكر إن اللي أنتو عملتوه ده إنجاز وإن نيتكم سليمة، والحمد لله الدنيا بتتغير بشكل كبير. أنا تم تكليفي من أيام قليلة من قِبل الرئيس بإني أكون أمين عام الحزب الوطني، واشترطت خروج كل القيادات السابقة سيئة السمعة من الحزب، وإن شاء الله الحزب هيتغير بشكل كامل في الفترة اللي جاية».

قاطعته قبل استكمال عباراته والغضب قد تَملّكني: «حزب وطني إيه اللي هيتغير حضرتك؟ أنا باكره كل ما له علاقة بالحزب الوطني.. الحزب ده أفسد الحياة في مصر، وعلى جثتي لو الحزب ده رجع تاني، أنا مش عايز أشوف اللوجو (الشعار) بتاع الحزب الوطني في الشارع في أي مكان في مصر مرة تانية».

حاول الدكتور حسام امتصاص غضبي بأدبه الجم ولغته المهذبة، وبعد الأخذ والرد قال لي وزير الداخلية: «على العموم يا سيدي أنا سعيد إني قابلتك، وزي ما قلت لك إن البلد هتتغير والداخلية كمان هتتغير. عمّو حسام كان سبب من أسباب خروجك من أمن الدولة، وهو جه مخصوص عشان يوصّلَك، عشان تعرف بس إن الحزب الوطني بيتغير». قال تلك العبارة وهو يبتسم مما استفزني بشدة فقلت له بتلقائية: «ليس لديَّ مانع أن يوصلني الدكتور حسام بصفته الشخصية إلى منزلي فهو شخصية مصرية لم أكن قد سمعت عنه سوى ما يثير الاحترام، ولكنني أرفض أن يوصّلَني أمين عام الحزب الوطني، حتى وإن كان سببًا لخروجي من المعتقل».

ابتسم الدكتور حسام وقال: «يلّا يا وائل، أنا جيت هنا عشان أنت زي ابني، وكنت سعيد إني ساهمت في خروجك من المعتقل، والموضوع مالوش أي علاقة بالحزب الوطني. أنت واللي زيك شباب زي الورد ومصر هتتقدم طول ما فيها شباب زيكم».

ألقيت التحية على وزير الداخلية وعلى مساعده الذي لم أتعرف عليه طَوال المقابلة، وخرجت مع الدكتور حسام بدراوي. أثناء نزولنا بدأت في الشعور بقوّةٍ ما فعله الشباب في ميدان التحرير؛ فوزير الداخلية الذي كان نائبًا للفرعون في مصر أصبح شخصًا عاديًّا يمكن انتقاده والجلوس معه ورَفْض ما يقول. لم أكن حتى هذه اللحظة أعلم إلى أين وصلتْ بنا الثورة المصرية؛ فقد كنت في عالمي الخاص المليء بالأحلام والكوابيس.

ركبت في المقعد الخلفي مع دكتور حسام بدراوي في سيارته، وانطلق السائق من مدينة نصر إلى الجانب الآخر من النيل حيث منزل عائلتي في المهندسين. بعد دخولي السيارة بوقت قليل تلقى الدكتور اتصالًا هاتفيًّا وأخبرني أن أخي معه على الخط، تحدثت إلى حازم والذي بدأ يصرخ مهللًا من فرحته مُخبرًا مَن حوله بأنه يتحدث إليَّ، بادلته التحية وقلت له إنني في الطريق الآن إلى البيت.

بدأ الدكتور حسام يذكر أن الوضع في مصر الآن يشهد تغييرًا حقيقيًّا لأول مرة، وأنه كان من غير الراضين عن الأوضاع لسنوات طويلة حتى أنه كان يُعتبر جناحًا من أجنحة المعارَضة داخل الحزب الوطني أملًا في التغيير من داخل الحزب بدلًا من خارجه، ولكن محاولاته كانت دائمًا ما تبوء بالفشل بسبب وجود قيادات كثيرة فاسدة داخل الحزب. أما الآن فالوضع يتغير، وتعيينه أمينًا عامًّا للحزب من قِبل الرئيس مبارك شخصيًّا جعل من الواضح أن ما كان يحدث من تغييرات شكلية لن يحدث مرة أخرى.

قاطعت د. حسام وقلت له: «أنتو المفروض تبقوا مكسوفين من نفسكم.. تغيير إيه وحزب إيه؟». بدأتْ نبرة صوتي تعلو والرجل يستمع في أدب جم: «الحزب اللي حضرتك بتقول لي هيتصلح ده هو السبب في قتل أحلام المصريين، هو السبب في كل ما وصلنا له من فقر وبطالة ودكتاتورية، الحزب ده هو السبب في إني أُختَطف وأفضل ١١ يومًا ماأشوفش نور ولا أتكلم مع حد ولا أهلي يعرفوا حاجة عني لمجرد إني أعلنت اعتراضي على ممارساته. الحزب الوطني مكانه في حتة واحدة بس، في مزبلة التاريخ»، زادت شحنة الغضب والتأثر داخلي ووجّهت له حديثي مباشرة: «الإصلاحيين اللي زي حضرتك شركاء في اللي حصل في مصر بقبولهم العمل في البيئة دي».

لم يكن د. حسام يتحدث، وبدا واضحًا عليه التأثر بشدة من حديثي الذي كان

مُفعمًا بألم واضح لما لاقيته من اعتقال، طأطأ رأسه للأسفل وشعرت أن عينه تدمع ولم يكن يريد أن ألحظ ذلك، بينما كنت أنا أصرخ باكيًا مُخرِجًا كل طاقات الغضب التي كتمتها لأيام طويلة.

وصلنا إلى البيت لأفاجأ بعشرات الصحفيين حول السيارة يقومون بالتصوير لكنني حاولت إخفاء وجهي واستكملت الحديث محاولًا التقليل من حدة كلامي. أخبرته بأنني لا أعرفه معرفة شخصية وليس بيني وبينه أي مشكلة، وأن مساهمته في إخراجي من المعتقل يستحق بسببها كل تقدير واحترام وشكر مني، ووجهت له نصيحة قبل مغادرتي السيارة: «لو عايز نصيحتي يا دكتور، استقيل من الحزب ده، بلاش تلطخ سمعتك أكتر من كده، استقيل». سلّمت عليه ثم خرجت من السيارة.

أعداد كبيرة من الصحفيين كانت تنتظر أمام بيتي منذ الإعلان عن خبر الإفراج عني في الرابعة عصرًا، ورغم أن الساعة كانت تخطت الثامنة إلا أن أغلبهم انتظر حتى يحصل على تصريح مني بعد خروجي. خرجت من السيارة مُقرّرًا الركض بسرعة محاولًا إخفاء وجهي. ولكن بعض وسائل الإعلام استطاعت الركض خلفي وبالفعل التقطوا بعض هذه الصور.

والدتي كانت مع باقي أفراد العائلة من أخوالي وخالاتي وأبنائهم مجتمعين في شقتنا بانتظار عودتي. بمجرد وصولي سمعت صراخًا وزغاريد والجميع يسارع بتحيتي والسلام عليَّ وتقبيلي واحتضاني. لم تكن والدتي من بين هؤلاء الواقفين خارج البيت، سألت عنها فأخبروني أنها تنتظرني بالداخل. دخلت بسرعة لأجدها مُغرقة في دموعها، واحتضنتني بشكل دافئ وكأنها لم ترني منذ سنوات طويلة. بدأتْ والدتي في البكاء، وهنا أخبرني أخي أن والدتي، والتي أعرف عنها قوة عاطفتها، لم تبكِ طَوال هذه الفترة وكانت في صدمة شديدة. قلت لأمي إنني الآن عُدت، وإن عليها ألا تخشى شيئًا بعد الآن. أختي مي، والتي مرت بأزمة نفسية حادة وقت اعتقالي أخذت تبكي هي الأخرى غير مُصدّقة أنني بخير وأنه لم يُصبني أيّ مكروه. أما والدي فتحدثت معه عبر الهاتف مكالمة قصيرة لأخبره فيها أنني بخير وأن يَطمئن وأننا لن نترك حق المصريين.

لم أكن أعرف ما يحدث في ميدان التحرير، ولكنني كنت أرى أهمية خروجي

للإعلام يومها للحديث عما حدث لي وللحديث عن الثورة. كنت أريد أن تصل مشاعري الحقيقية لأكبر عدد من المصريين، ولم أكن أبحث إلا عن أمر واحد: المساهمة في إنجاح هذه الثورة وتحقيق أهدافها. معرفتي السابقة بمنى الشاذلي، والتي تحدثت معها أكثر من مرة بشكل شخصي، ساهم في اختياري لبرنامجها. لم أفكر كثيرًا واتصلت بها لأخبرها أنني أرغب في الظهور في برنامجها، ارتفع صوت منى مُعبِّرًا عن فرحتها لخروجي وأنني بخير، قالت لي: «أنت مش عارف أنت قلقتنا عليك أد إيه»، شعرت وقتها أن منى الشاذلي في مثابة أختي الكبيرة من صِدق نبرتها وصوتها السعيد بخروجي. قلت لها: «أنا عندي شرطين يا منى عشان أظهر معاكي»، قالت وهي تضحك: «طبعًا حقك.. إيه شروطك؟».

«الشرط الأول إني أتكلم براحتي تمامًا، أنا مش عايزك توجّهي الحوار وعايزك تديني فرصة أقول كل اللي في نفسي، والشرط التاني إن بما إن المقابلة دي هتكون كبيرة جدًّا أنا عايز مليون جنيه»، واستطردت: «بس مش عايزهم لنفسي، أنا عايزكم توعدوني بدفع مليون جنيه لأسر الشهداء». ردتْ منى بالموافقة بخصوص الشرط الأول وأنها ستترك لي كل المساحة التي أريدها للحديث، وسألَتْني إذا ما كنت أريد المليون جنيه لأُشرف بنفسي على عملية توزيعها فقلت لها: «لأ، أنا عايزكم أنتم توعدوني بكده، وتُشرفوا أنتو بنفسكم على الموضوع، أو تتبرعوا بيها لجمعية خيرية». طلبت منى بعض الوقت حتى تتحدث مع إدارة القناة وأخبرتُها أنني لن أخرج إلا معها، ولكن عليها ألا تخبر إدارة القناة بذلك، وتسعى للحصول على المبلغ كاملًا. بعد دقائق قليلة اتصلت بي منى وأخبرتني أن إدارة القناة قد قَبِلت العرض.

كنت وقتها لا أعلم عدد الشهداء الحقيقي ولم أرَ صورة أي منهم، إلا أنني كنت أتوقع أن الكثير منهم من المتزوجين ومن أسر فقيرة، وبالتأكيد بعد استشهادهم فإن أسرهم تمر بظروف مادية صعبة، والوضع السياسي في البلاد سيجعل من المستحيل الاهتمام بهم معنويًّا وماديًّا، وكنت أعلم أن ظهوري الأول سيكون سبقًا صحفيًّا؛ ولذا سعيت أن يستفيد هؤلاء؛ وهم الأحق مني من هذا الظهور.

دخلت على الإنترنت لأول مرة منذ خروجي من المعتقل لأفاجأ بأن صفحة

«كلنا خالد سعيد» كان يتم تحديثها بشكل مستمر؛ مما جعلني أعرف أنه لا بد وأن نادين وأحمد كانا يكتبان على الصفحة. سَعِدت أيضًا حينما رأيت عدد أعضاء الصفحة والذين تجاوزوا نصف المليون عضو، منهم أكثر من ١٠٠ ألف عضو انضموا للصفحة بعد اعتقالي.

لم يكن هناك وقت للكتابة على الصفحة، ولكنني قررت أن أكتب لأول مرة رسالة شخصية فيها كشف حقيقي عن هويتي دون ذكر اسمي:

> **الحمد لله.. رجعت.. صدقوني ما اتغيرتش.. باحب بلدي.. والله العظيم هنغيرها.. ويا ريت تشوفوا العاشرة مساءً.**
>
> 27,991 Likes / 27,230 Comments / 1,883,138 Views

أردت في رسالتي أن أؤكد أنني ثابت على مبدئي ولم أتغير، حتى أفوّت الفرصة على أيّ مَن كان أن يفكر أنه قد تم تجنيدي من أمن الدولة، أو أن رؤيتي للأمور بعد خروجي من المعتقل ستختلف عن قبل الدخول فيه، خاصة ومع تكرار مثل هذه الظاهرة لأكثر من مرة مع نشطاء.

لمحت بعض التعليقات على الصفحة والتي بعثتْ في نفسي الأمل، كنت معتادًا على تعليقات الهجوم والتخوين من قبل الثورة ولكن ما أثّر فيَّ هو تعليقات المبارِكين لخروجي.

> **وائل غنيم: لأول مرة فى التاريخ النظام اعتقلك والشعب حررك مبروك عليك حب مصر وشكرها ليك.**

صفحتي الشخصية على تويتر ارتفع عدد المتابعين فيها لأكثر من ٣٠ ألف متابع، وقد كانوا لا يتجاوزون أربعة الآلاف قبل الثورة، امتلأتْ بالترحيب بي وتهنئتي بالعودة. كتبت بالإنجليزية رسالة مفادها: الحرية تستحق المحاربة من أجلها.

> Freedom is a blessing that is worth fighting for.

وصل مصطفى النجار وعمرو سلامة ومعهم محمد دياب إلى بيتي؛ فلقد دعوتهم للحضور لأني كنت أريد أن أعرف ممن أثق فيهم ماذا حدث في مصر

في أيام حبسي. تفاصيل وتعقيدات الأحداث والظروف التي تمر بها البلاد كانت غائبة عني؛ ولذلك حرصت أن ألتقي بهم لأستمع منهم عن تقييمهم لما يحدث حتى أستطيع أن أوصل رسالتي بشكل صحيح عبر المقابلة مع منى. أبدى مصطفى النجار تَحفُّظًا على فكرة خروجي الإعلامي في هذا التوقيت؛ لأنني لا أعرف ما يحدث. ونصحني بأن أنتظر حتى أذهب لميدان التحرير وألتقي بمن فيه لأكوِّن انطباعًا صحيحًا، وخاصة أنه كان يشعر أن أمن الدولة تحدَّث معي كثيرًا، وأنه في حالات سابقة يخرج النشطاء ليُدلوا بتصريحات مغايرة لما حدث لهم بعد جلسات غسيل المخ التي يُتقنها ضباط أمن الدولة.

لا أنكر أنني بالفعل كنت وقتها واقعًا تحت تأثير جلسات غسيل المخ التي استمرت لساعات، وكنت كغيري ممن يتعرضون لفترات اعتقال أشعر بتعاطف تجاه مَن اعتقلني وهو ما يُعرف علميًّا بـ«متلازمة ستوكهولم». ولكنني كنت مُصِرًّا على الظهور الإعلامي في يوم خروجي نفسه؛ لأنني مُفعم بالكثير من المشاعر الصادقة تجاه وطني في تلك اللحظة، وكنت أريد أن أوصلها لأكبر عدد ممكن من المصريين. انتظاري ليوم أو ليومين سيبرد من تلك المشاعر ووقع كلامي على الآخرين سيكون أضعف. كنت أعرف أن الأمر مخاطرة، ولكنني لم أكن يومًا منذ انطلاق صفحة «كلنا خالد سعيد» أبحث عن أي مجد شخصي، وكنت أقول إن الله لن يُخيّب ظني وسيساعدني لعلمه بصفاء نيتي.

بعد مناقشتنا السريعة، ركبنا السيارة متوجهين إلى القناة. أصر أخي وأقربائي على السير خلف سيارتنا لتوفير الحماية لي ولمنع تعرضي لمكروه. لاحظت بمجرد تحرك السيارة أن شوارع منطقة المهندسين كانت شبه خالية، لا أثر للسيارات أو زحام الليل المعروف في القاهرة، ولا أثر لرجال الأمن، وكل ما أراه هو بعض الدبابات القابعة في المناطق الحيوية في الشوارع الرئيسية.

توقفت السيارة أثناء الطريق مرتين؛ مرة للمرور على لجنة شعبية في المهندسين، أوقفَنَا بعض الشباب الذي بدا واضحًا أنهم من سكان المنطقة ومعهم بعض الأسلحة والشُّوم، وطلبوا رخص السيارة وبطاقات مَن فيها، وبعد أن تأكدوا من سلامة بياناتنا تركونا. واللجنة الأخرى كانت لجنة تابعة للجيش المصري فعلتْ الشيء نفسه ولكن

مع السائق فقط. كان الأمر أشبه لي بفيلم هوليودي. لم أكن ذلك الوقت أستوعب حجم التغيير الذي حدث في مصر، ولعل هذا كان من أفضل ما كان في ظهوري الإعلامي.

سألني مصطفى: «أنت اتعذبت في أمن الدولة؟»، كان ردي عليه: «العذاب كان نَفْسي بسبب السجن والعِصابة والكلابشات، بس طبعًا انضربت كذا مرة من العساكر ومش من الضباط»، سألني: «ناوي تتكلم في الموضوع ده؟»، قلت له: «أنا وعدت الضباط في أمن الدولة إني مش هاتكلم في الموضوع ده وهاقول إنهم عاملوني كويس ومش هاكون باكذب؛ لأن فعلًا الضباط عاملوني كويس مقارنة بغيري، وأنا مش هدفي أصنع من نفسي ضحية وبطل، هدفي إني أنقل للناس إزاي إن فيه قانون طوارئ بيعتقل الناس بدون أي تهمة والداخلية بتخطف الشباب من الشوارع بدون حتى أهاليهم مايعرفوا همّا فين، المهم احكوا لي إيه اللي حصل في الفترة الأخيرة، عايز أفهم عشان ماقولش حاجة غلط!».

لخّص لي الشباب الوضع بأن ميدان التحرير الآن يمر بأصعب وقت منذ بداية الثورة في الخامس والعشرين من يناير، فبعد إلقاء الرئيس خطابه الثاني استدرّ استعطاف ملايين المصريين فبكى منهم الكثير على شاشات التلفزيون، وخرج مئات الآلاف منهم للشوارع مطالبين كل مَن هم في التحرير بمغادرة الميدان. الشعب الذي لم يكن أبدًا يحلم أن يكون له يومًا رأي عام يجبر وزيرًا على التخلي من منصبه وجد نفسه فجأة أمام رئيس يستجديه ويستعطفه. الخطاب احتوى على جملة حركت مشاعر الكثير من المصريين وهي أن مبارك قال إنه وُلِد وسيموت على أرض مصر التي حارب من أجلها، وأنه سيُنفّذ مطالب الشعب المشروعة. لمس مبارك بخطابه قلوب الناس خارج التحرير، وفي عشرات الآلاف من البيوت.

ولكن الميدان لم يتأثر بهذا الخطاب العاطفي وأصر المعتصمون أن رحيل مبارك أمر لا تفاوض فيه؛ فلقد ارتكب النظام الكثير من الجرائم خلال الثلاثين عامًا السابقة، بالإضافة إلى ما حدث في مصر خلال الأيام القليلة الماضية، حيث إن مئات المصريين استُشهدوا مدافعين عن حلمهم فلم يعد هناك أي طريق للعودة. حكى لي مصطفى عن لقائه مع عمر سليمان، وأنه لا يرى الآن طريقًا غير استكمال الثورة لأن عمر سليمان لم

يُبْدِ أي مرونة فيما يتعلق بفكرة تنحي الرئيس. وأكد لي أن عمر سليمان كان من الأسباب القوية لخروجي لأنه وعد مصطفى بشكل شخصي أن يتابع الأمر ويُسهم في إخراجي.

نقطة الضعف التي كنت أراها في نفسي؛ وهي عدم معاصرتي الأحداث، كانت بعكس ما توقعت أكبر نقاط القوة في حواري مع منى الشاذلي. كان أكثر الثوار غاضبين في حواراتهم التلفزيونية، ولا يستطيع أحد أن يلومهم لما لاقَوه وشاهدوه خلال الأيام الماضية؛ فالكثير منهم رأى بعينه خيرة شباب مصر يموت أمام أعينهم رميًا بالرصاص، والكثير منهم تم اعتقاله وتعذيبه قبل إطلاق سراحه. ولكن الرأي العام، والذي لم يعش هذه التجربة ويشاهد الثورة فقط عبر شاشات التلفزيون، من المستحيل أن يصل لنفس الإحساس بمشاعر الغضب ويلتمس لهم العذر. فكان المشهد الإعلامي للثوار وخاصة الشباب آنذاك مشهدًا سلبيًّا، خاصة مع سيطرة الأمن وبشكل كامل على أغلب وسائل الإعلام الحكومية والخاصة، ونشر الشائعات والأكاذيب عن شباب التحرير.

طلب مني الشباب التأكيد على فكرة أننا لسنا عملاء أو خونة نطبق أجندات أجنبية كما قيل عن أكثرنا في الإعلام. أخبروني أنني أتعرض لحملة هجومية عنيفة على شبكة الإنترنت تتهمني بالخيانة والعمالة لأمريكا وإسرائيل، وأن هناك من أطلق عليَّ اسم «وائل كوهين» في التعليقات على صفحة «كلنا خالد سعيد»، فبعد أن تم تداول اسمي بشكل كبير انطلق العديد من أبناء اللجنة الإلكترونية للحزب الوطني في البحث عن أي معلومات عني وترويج الأكاذيب والشائعات اعتقادًا منهم أن تشويهي شخصيًّا سيؤدي إلى تشويه الثورة، وخاصة بعد الزخم الذي حدث حولي منذ الإعلان عن أنني مشرف صفحة «كلنا خالد سعيد».

بعد وصولي إلى الاستوديو وبَدْء المقابلة، تحدثت مع منى بكل عفوية. كان واحدًا من أهم أهدافي في هذا الظهور الإعلامي هو تذكير الناس بأسباب نزولنا يوم ٢٥، فغيابي عن المشهد بعد ٢٥ من يناير جعل الروح البكر للثورة داخلي بسبب عدم معاصرتي للأحداث. أكَّدت على أننا لم ننزل سوى للمطالبة بأدنى حقوقنا في وطننا الذي فَقَد الكثير من الشباب الانتماء له، تحدثت معها عن مئات المصريين الذين يموتون في

طريقهم إلى إيطاليا للهجرة غير الشرعية، وعن مئات الآلاف الذين يدخلون مسابقات اليانصيب الأمريكية لتحقيق حلم الهجرة.

تحدثت عن أبي والذي كان يبكي على غير طبيعة شخصيته حُزنًا على ابنه؛ الذي احتسبه عند الله ولم يكن يتوقع عودته. أبي كان يعاني من مرض في شبكية عينه اليسرى أَفقدَه الإبصار فلا يستطيع أن يقرأ أو يرى بها تفاصيل ما حوله. كنت أخشى على أبي أن يفقد عينه الأخرى؛ لأنهم قرروا ألا يعرف أحد مكاني. أخبرتها أن ما حدث لي من اختطاف واعتقال بدون أي محاكمة هو جريمة، وبرغم معاملتهم الجيدة لي في المعتقل حيث لم يتم تعذيبي جسديًّا إلا أننا يجب أن نوقف مثل هذه الجرائم.

أكّدت على معنًى كنت مؤمنًا به، وهو أنني لست «البطل المُنتظَر» وأنني مجرد فرد من أفراد الثورة قرر المشاركة وأدّى دوره تجاه وطنه والذي كان أسهل الأدوار، وهو الكتابة والحشد على الإنترنت؛ فأنا لست إلا مجرد مناضل «كي بورد» لم تكن أصابعه تُتعبه من الكتابة، أما الأبطال الحقيقيون لهذه الثورة فهم مَن ماتوا وأصيبوا في سبيل تحقيق أهدافها. وأن تضحياتي لا تُقارَن بغيري، فأنا كنت نائمًا في أمن الدولة بينما يشارك الآخرون في ملحمة تاريخية.

كنت شديد الإرهاق؛ فلم أنم لفترة طويلة، والحديث كان طويلًا ولم تُقاطعني فيه منى. كنت أشعر في بعض الأوقات بتوقف قدرتي الذهنية على التفكير ولساني عن الكلام فأسكت لبضع ثوانٍ لأستجمع قواي وألتقط أنفاسي وأستكمل الحديث، وساعدَتْني منى في ذلك كثيرًا. كان الحديث هادئًا وتعاطف معه الجميع بسبب رباطة جأشي وحديثي المنطقي الذي لم يَخْل من العاطفة.

سألَتْني منى عن رأيي في الأحداث، فأكدت لها أنني لن أعبر عن رأيي في الوقت الراهن لأنني لا أعلم شيئًا عما يدور بالخارج، وأنني سأذهب لميدان التحرير وأتحدث مع الجميع قبل أن أعبر عن رأيي، ولكنني أكدت للجميع أن هذا الوقت ليس وقتًا لتقسيم «التورتة» أو فرض الأيديولوجيات أو تصفية الحسابات بين المصريين؛ فمصر أولًا هي كل ما نريده الآن وتحقيق أحلامنا التي لن يستطيع أحد أن يقف أمامها هو الهدف.

أرادتْ منى أن تذكر أن بعض رجال الأعمال ـ الذين رفضوا ذكر أسمائهم ـ قرروا التبرع لأسر الشهداء (مشيرة إلى صاحب القناة والذي وعد بالتبرع بمبلغ مليون جنيه لأسر الشهداء)، وعندها قرر مخرج الحلقة أن يَعرض صور الشهداء على الشاشة الرئيسية للبرنامج والتي كنت أراها من موقعي في الاستوديو. فوجئت بصورة تلو الأخرى لشهداء الثورة الذين ضَحّوا بحياتهم من أجل مصر أفضل، وبدأتُ في التألم. طأطأت رأسي وحاولت كتم دموعي إلا أن حشرجة ونحيبًا بدآ يخرجان ويَبْدوان واضحَيْن للجميع. كانت منى مستمرة في كلامها، ولكنني لم أَعُدْ أسمعه؛ فقد دخلت في عالم آخر أشعر فيه بالذنب على وفاة هؤلاء الأبطال، والغضب ممن قتلَهم ممن فقدوا أدنى معاني الإنسانية. رفعت رأسي مرة أخرى لأجد صورة الشهيد أحمد إيهاب أمام عينَيَّ؛ لم أكن أعرفه ولكنني شعرت أن ملامح وجهه ليست بالغريبة عليّ فهو مصري حالم بالتغيير دفع حياته ثمنًا من أجلنا بعد شهرين من زفافه.

انفجرتُ بالبكاء وأصبحتِ السيطرة على مشاعري أمرًا صعبًا. استطعت في الحلقة كبح جماح دموعي مرتين، أما هذه المرة فلم أستطع، بدأت في البكاء. سمعت صوت منى الشاذلي تُطالبني بعدم البكاء، ولكنني لم أعد أستطيع الصمود. كل ما استطعت أن أقوله أثناء بكائي هو: «أنا عايز أقول لكل أب وأم فقدوا أولادهم.. أنا آسف.. إحنا آسفين.. بس دي مش غلطتنا.. دي غلطة كل واحد ماسك في السلطة ومتبّت فيها»، وهنا أدركتُ استحالة استكمالي لتلك الحلقة فقلت: «أنا عايز أمشي»، وخرجت من الاستوديو سريعًا.

تركتْ منى الشاذلي مقعدها وخرجت ورائي تناديني، لكنني لم أستطع التوقف. خرجت لأجد عمرو سلامة مستغرقًا في دموعه وينتحب واحتضنني وجلسنا نبكي في مشهد لا أستطيع أن أنساه حتى الآن. الجميع من حولي كان يحبس دموعه حتى منى الشاذلي والتي بدأت تقول بنبرة حزينة وغاضبة: «مش أنتو اللي تعيطوا.. هم اللي المفروض يعيطوا.. حرام عليهم اللي عملوه في شباب مصر ده.. كفاية أرجوكم». خرجنا إلى غرفة الاستراحة فانتابتني حالة عصبية هستيرية وأخذت أضرب على الأرض وما هو حولي من أثاث بقدمي صارخًا: «كلاب.. كلاب.. كلاب». كل ما حدث لي

أثناء اعتقالي لم يكن شيئًا أمام العذاب النفسي الذي شعرت به بعد رؤيتي لتلك الصور. كل ما كنت أريده وقتها هو القصاص لهؤلاء الذين فقدوا حياتهم لنعيش.

بمجرد خروجي من الاستوديو انهالت الاتصالات على هاتفي المحمول من كل مكان، حتى أصدقائي خارج مصر اتصلوا بي ليخبروني أنهم تابعوا الحلقة وأنهم تألموا لألمي، وأخذوا يواسونني ويشدون من أزري. دخلت على الإنترنت لأجد زخمًا رهيبًا للحوار؛ الجميع يتحدث عنه في تويتر وفيسبوك. وصلتني أكثر من ١٢٠٠ رسالة على الفيسبوك الشخصي الخاص بي وقرأتُ بعضها سريعًا، المشترَك في هذه الرسائل هو مشاعر الحب والتقدير، والكثير منها طالبني بألا أشعر بأي ذنب تجاه ما حدث. لفتت نظري الرسائل التي كان أصحابها يؤكدون أن موقفهم من الثورة كان سلبيًّا حتى شاهدوا البرنامج وقرروا النزول.

بعد عودتي إلى المنزل اتصلت بزوجتي، كانت هي أيضًا قلقة. اعتذرت لها عن عدم اتصالي بها بمجرد خروجي من المعتقل وسألتها عن الأولاد فأخبرتني أنهم نائمون فالوقت متأخر. سألتني عن موعد عودتي إلى دبي، استغربتُ السؤال بشدة، فمغادرتي مصر الآن مستحيلة. أخبرتها أنني لن أستطيع العودة حتى تنجح الثورة. كان واضحًا أن كلًّا منا يتحدث من زاوية مختلفة عن الآخر؛ فهي ما زالت تشعر أنني بالرغم من كل هذه المحنة التي وضعت نفسي، ومن ثَمَّ وضعتها هي وأولادي، فيها لم أتعلم الدرس جيدًا وما زلت مُصرًّا على تنفيذ ما أراه صائبًا دون أي اعتبار لعائلتي.

غضبها وخوفها كان له ما يبرّره؛ ولذلك استمررت في الحديث معها على الهاتف ما يزيد على الساعة محاولًا التهدئة من روعها وإقناعها بأن حياتي لم تعد في خطر بعد خروجي من المعتقل، وأن سفري الآن لخارج مصر ستلتقطه كل وكالات الأنباء على أنه مؤشر سلبي للثورة؛ وهو ما يستحيل أن أساهم في حدوثه. قلت لها إنني إذا تركت البلد الآن سأعتبر نفسي خذلت الشهداء الذين ضحَّوْا بحياتهم من أجل الحرية. مع استمرار حديثنا أصبحت نبرة صوتها أكثر هدوءًا وبدا واضحًا أنها تقتنع. تحدثت معها عن بعض لحظات الاعتقال، وكيف أنني حاولت عدم التفكير فيها هي وأولادي في المعتقل حتى لا أصاب بحالات الاكتئاب ولكنني فشلت. أخبرتها عن

قوة تأثير كلماتها التي قالتها لي قبل مغادرتي البيت مسافرًا إلى مصر، وكيف تسببتْ تلك الكلمات في شعوري بالذنب، وأخيرًا طلبت منها أن أتكلم مع إسراء وآدم صباحًا لأنني افتقدتهما بشدة.

بعد حديثي مع زوجتي وصلني اتصال من رقم خاص (Private)؛ وعندما أجبت وجدت وزير الداخلية على الخط الآخر. ذكر لي اللواء محمود وجدي أنه شاهد الحلقة كاملة، وأنه وأسرته تأثروا بالحلقة، وأنه يُكِنّ لي كل احترام وتقدير لوطنيتي وإيماني بقضيتي.

بدا واضحًا لي آنذاك أن أمن الدولة كان يراهن على أن الضغط عليَّ وجلسات غسيل الدماغ والمعاملة الرائعة من قِبَل المسئولين ولقاءهم سيؤدي في النهاية لإقناعي بأهمية ممارسة ضغوط إعلامية على شباب الثورة للتخلي عن فكرة تنحي الرئيس. وقد كان ذلك جليًّا في الساعات التي قضيتها مع الضباط قبل خروجي، وفي الوقت نفسه مع مقابلة كلٍّ من وزير الداخلية والدكتور حسام بدراوي؛ ولذلك قررت إرسال رسالة للجميع عبر صفحة «كلنا خالد سعيد» للرد على هذا المعنى.

مستحيل أقبل حد يضغط عليا دلوقتي.. بالنسبة لموقفي الشخصي أنا منتظر أسمع من ناس كتير من اللي في التحرير وبعدين هعلنه لأني كنت متغمي عن الحقيقة ١٢ يوم.

11,093 Likes / 6,335 Comments / 1,307,026 Views

انتشر لقائي مع منى الشاذلي بشكل كبير على الإنترنت، وقامت بعض وسائل الإعلام الأجنبية مثل «CNN» والجارديان البريطانية وغيرهما بترجمته. أغلب وسائل الإعلام كانت تحاول صنع «بطل الثورة»، ووجدوا في قصتي ما هو مقنع لتصديري لمشهد البطولة وقيادة الثورة. حتى على الإنترنت، فأثناء مقابلتي مع منى الشاذلي قام أحد الشباب بإنشاء صفحة وأسماها: «أفوّض وائل غنيم للتحدث باسم ثوار مصر»، اشترك فيها قَرابة ربع المليون شخص خلال ٤٨ ساعة من إنشائها. كانت هذه الفكرة مرفوضة لديّ تمامًا، فمحاولة تسويقي كرمز للثورة وبطل لها لم تكن تُعجبني، وكنت أراها تُضرّ الثورة أكثر مما تنفعها، كما أنني رفضت فكرة البطولة على حساب شهداء ومصابين وأصحاب تضحيات تفوق تضحياتي.

لم أنَم لأكثر من ثلاث ساعات، استيقظت بعدها في الصباح الباكر لأستمر في قراءة التعليقات على الصفحة والتواصل مع الأعضاء كما كنت أفعل قبل ٢٥ من يناير. لاحظت انتشار شائعة عن هروب المتهمين بقتل خالد سعيد رحمه الله، ودعوات تُطالب بالقصاص منهم في الشارع! أزعجتني فكرة الثأر جدًّا، خاصة وأننا نطالب بدولة القانون التي تحترم حقوق الإنسان ومنها حق دفاعه عن نفسه حتى تثبت عليه التهمة. كتبت على الصفحة:

فيه إشاعة عن هروب المتهمين بقتل خالد سعيد من السجن.. اللي مضايقني إن ناس كتير أوي بتطالب بقتلهم .. أرجوكم محدش فينا ينصّب نفسه قاضي ويحكم على أي حد بأي حكم.. ده مش دورنا.. أرجوكم بلاش الحماس ومشاعر الغضب تضيّع كل حاجة حلوة بنبنيها .. صدقوني مصر فوق الجميع وأرجو من كل واحد فيكم يحط الشعار ده بين عينيه ويتقي ربنا ويراعي ضميره.

6,149 Likes / 1.763 Comments / 1,193,389 Views

اتصلت بعمرو سلامة ومصطفى النجار ومحمد دياب للترتيب للذهاب إلى التحرير سويًّا. الأنباء بدأتْ تصلني أن هناك زحامًا ملحوظًا في التحرير، وأن حواري مع منى الشاذلي يُعدّ من الأسباب الرئيسية لذلك. أصر أخي حازم وبعض أقربائي على الذهاب معي أيضًا، واقترحوا أن أحاول التخفي باستخدام قبّعة أرتديها على رأسي حتى لا يتعرّف عليّ المتظاهرون في التحرير ويحدث تدافع لا يمكن السيطرة عليه. كنت مُتعَبًا، ولكن إرهاقي النفسي وشعوري بمسئولية أي قرار سأتخذه كان أكثر إرهاقًا.

وصلنا إلى الميدان، وكنت قد رأيته آخر مرة مساء يوم ٢٥ من يناير. بدا الأمر أكثر تنظيمًا على البوابات، فهناك لجان تفتيش تتأكد من تحقيق الشخصية، ولا ينسوا أن يعتذروا للداخلين عن تعطيلهم وتشجيعهم بعد الدخول. الميدان كان ممتلئًا عن آخره؛ فلم نكن نستطيع حتى أن نرى موضع أقدامنا بمجرد الدخول. أشرقت وجوه مصطفى وعمرو ودياب وأكدوا لي أن الميدان لم يكن بهذا الامتلاء في الأيام الماضية. كان المتظاهرون يطالبون بتنحي الرئيس.

تعرف على شخصيتي بعض المتظاهرين، إلا أن مَن حولي طالبوهم بالهدوء حتى

أستطيع الوصول إلى المنصة الأساسية في الميدان للحديث مع الجماهير. كانت تلك المنصة أمام مجموعة من المحلات التجارية، وتبرع أحد أصحاب هذه المحلات بمقره ليتحول إلى غرفة مركزية لاستقبال المتحدثين وللإدلاء بالحوارات الصحفية. وصلت إلى تلك الغرفة بعد أكثر من ٢٠ دقيقة بسبب الزحام، وبمجرد وصولي خلعت القبعة وتعرفت على الكثير من الوجوه السياسية المعروفة هناك والذين رحّبوا بي وهَنَّئوني بحريتي. تحدثت قليلًا مع بعضهم ووجدت الإصرار والعزيمة على تنحّي مبارك وأنه هو المطلب الآن، خاصة بعد استشهاد المئات وإصابة الآلاف من المصريين.

في تلك الأثناء فُوجئت بدخول والدة خالد سعيد ـ رحمة الله عليه ـ إلى المكتب. قُمت من مكاني بسرعة وخطوت خطوات قليلة قبل أن أصل إليها وأسلّم عليها لتحضنني، وأخذتْ تبكي بصوت ملحوظ وهي تردد: «ابني ماماتش.. أنت خالد ابني». حاولت كتم دموعي وشعرت بقشعريرة في جسدي من هذا الموقف الإنساني. أعلم جيدًا شعور هذه الأم المكلومة في ابنها. لم أكن قد التقيت بها أو تحدثت معها في حياتي ولكنني كنت أتابع أخبارها وأسمع صوتها كثيرًا عبر الفيديوهات التي كنت أشاهدها لها وأنشرها على الصفحة. سألَتْني إذا كنت قد تعرضت للتعذيب أو سوء المعاملة، كأنني ابنها فعلًا. قلت لها إن كل ما يَعنيني هو أن أحقق العدالة لخالد الذي أصبح رمزًا ألهمنا وشجّعنا على الثورة، وأن مصر ستُصبح حرة ولن ننسى خالد سعيد أبدًا.

جاء أحد المنظمين للمنصة الرئيسية وأخبرني أنه يمكنني الآن الذهاب إلى المنصة، وأنه قد قام بتأمين المنصة والطريق إليها حتى لا يحدث أي تدافع. وعلى الرغم من ذلك وصلت إلى المنصة بصعوبة بالغة وسط الزحام الشديد والتدافع حتى على خشبة المنصة. وبمجرد اعتلائي المنصة شعرت برهبة شديدة؛ رأيت أعدادًا غفيرة من المصريين حاملين الأعلام ملء بصري ولا أرى لهم نهاية، مئات الآلاف من المصريين جاءوا إلى الميدان يريدون إسقاط هذا النظام الجاثم على صدور المصريين. بدأ البعض يهتفون «وائل.. وائل»، ولكنني طلبت منهم أن يتوقفوا. بدأت أستمع لبعضهم يصرخ بشكل غاضب: «وائل.. اوعى تكون بِعتنا يا وائل.. اوعى يكونوا ضِحكوا عليك»، وكان الجميع ينتظر كلمتي ليعرف موقفي الشخصي من قضية تنحي الرئيس.

على الرغم من أنني كنت أُتقن الحديث في وجود حضور كبير، إلا أن الأمر هذه المرة كان بالغ الصعوبة؛ فنحن في لحظة تاريخية ولم يسبق لي مخاطبة جماهير بهذه الطريقة.

بدأت كلامي بتحية الشهداء، وأول ما ذكرته هو أنني لست بطلًا وأنهم الأبطال لأنهم ضحَّوْا بحياتهم من أجل الوطن، وأكدت أن دماءهم لن تذهب هدرًا وأنه لا يفرّط في هذه الدماء إلا خائن. أكدت على أن «البلد دي بلدنا»، وأن كل واحد من المصريين له حق في هذا البلد يجب أن يحارب من أجله ولا يفرط فيه، إن لم يكن من أجل جيلنا فمن أجل أولادنا. ثم قلت للجميع إن مطالب ميدان التحرير هي مطالبي، وتنحّي الرئيس أصبح مطلبًا يجب أن ينادي به الجميع.

في نهاية كلمتي ناديتهم جميعًا بأن يَبتعدوا عن المصالح الشخصية وفرض الأيديولوجيات أو تصفية الحسابات، وأن الآن «مصر فوق الجميع». انتهت كلمتي بكلمة لمبارك قلت له فيها: «كفاية اللي عملته يا ريس.. كفاية عليك كده». وهنا هتف الجميع في صوت واحد ضد مبارك: «ارحل.. ارحل.. ارحل».

لم أشعر بمثل هذا الكمّ من الحُبّ بين الناس من قَبل سوى في الميدان. مشهد الميدان الذي تلاحم فيه الجميع جعلني أشعر أنني كنت في المعتقل ١١ سنة وليس ١١ يومًا؛ بسبب ما رأيته من تلاحم وحبّ بين كل المصريين في الميدان باختلاف أعمارهم ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية والعلمية وباختلاف دينهم. الميدان كان أشبه بالمدينة الفاضلة التي تبحث عن تحقيق أحلام مَن فيها، وزيارتي للميدان جعلتني أشعر بسعادة غير عادية بعد أن رأيت بعيني كيف قام هذا الشعب من أجل حقوقه وطموحاته.

لم أستطع التواجد لفترة أطول بعد نزولي من المنصة بسبب التدافع الرهيب، الجميع كان يلقي عليَّ التحية والبعض يسارع ناحيتي لتقبيلي أو احتضاني، كانت لحظات فارقة في حياتي تلك التي قضيتها في الميدان. شعرت بصداع شديد بسبب قلة ساعات النوم منذ يومين وكذلك عدم تناولي لأي طعام، واقتادني الشباب بصعوبة لخارج الميدان لنأخذ جميعًا سيارة أجرة باتجاه منزلي.

التجربة الرائعة التي مررت بها في التحرير كشفت عن الجمال وعِزة النفس المتأصلة

في الشعب المصري، وأبرزَتْ قُبح النظام وقسوته وفساده. بمجرد عودتي كتبت على الصفحة مشاعري تجاه ما رأيته في الميدان:

> **بجد فرق كبير بين إنك تلمس حب الناس على الإنترنت وحب الناس على الواقع. ربنا يبارككلكم كلكم.. دلوقتي بجد أهم حاجة هي إن اللي ضحّى بدمه عشان حلمه مايتقالش ليه إن فيه مليون مصري فرطوا فيه.**
>
> 17,582 Likes / 11,023 Comments / 1,090,207 Views

بعد أن كتبت هذا، تلقى حازم أخي مكالمة من مكتب أنس الفقي؛ وزير الإعلام في هذا الوقت. أبلغ سكرتير الوزير أخي أن الوزير يريدني أن أظهر على شاشة التلفزيون المصري. رفضت طلبه فورًا وقلت لحازم أن يقول لهم إنني لن أظهر على قناة ضللت الشعب قاصدة ونشرت الأكاذيب والشائعات عن المتظاهرين، وسهَّلت قتلهم بشكل وحشي.

اتصل السكرتير مرة أخرى وقال إن الوزير يريد أن يتحدث معي شخصيًّا. أخذت التليفون وبدأ الوزير في الكلام بسرعة، وأخذ يقول لي إن الإعلام الحكومي يتغير جذريًّا، وإن قنواتهم الآن مفتوحة للجميع ليتحدثوا بحرية كما يريدون. قاطعته غاضبًا: «حضرتك مصري؟ هل بتعتبر نفسك شخص بيحب البلد دي والشعب ده؟ أنت مجرد وزير بروباجندا بتنشر الشائعات، وأنا طبعًا مش هاطلع على قناة تلفزيون أنت مسئول عنها! الناس اللي زيك مفروض يبقوا في السجن مش في مناصب حكومية! أنت جزء أساسي من النظام اللي قتل مئات المصريين بدم بارد». لم يحاول الوزير أن يتناقش معي وحاول تحمُّل عبارات الغضب، وقال إنه يتفهم موقفي وما أمُرّ به الآن، ونصحني بأنه من المهم أن أتصرف بحكمة الآن في هذا الوقت الحرج، وألا أتسبب في مزيد من الدمار للبلد. كررت عليه أنني لن أظهر في قناته، وأنهينا المكالمة.

كنت أشعر بصداع رهيب. استلقيت على السرير وبدأت أفكر قليلًا قبل أن أنام دون أن أشعر. على قدر سعادتي بحب الناس إلا أنني لم أكن سعيدًا أن شخصيتي التي كانت شخصية مجهولة أصبحت معروفة. كنت أتمنى ألا يعرف أحد أبدًا عن نشاطي السياسي أو حتى أنني كنت مشرفًا على صفحة «كلنا خالد سعيد»، لا أنا ولا حتى عبد الرحمن

منصور؛ الأدمن الثاني للصفحة. لم أكن أحب فكرة صناعة الرموز والأبطال، فالشعب هو البطل، والحق هو الرمز. كنت شخصًا عاديًّا، وكنت أريد أن أُكمل باقي حياتي كشخص عادي بلا ضغوط، وأيضًا كنت أظن أن ارتباط الناس بالأفكار أفضل وأقوى من الأشخاص الذين يمكن تشويههم والتشكيك فيهم.

غفوت لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، استيقظت بعدها وما زال جسدي مُنهكًا. فتحت الصفحة لأتابع ما يحدث فيها، وقررت أن أبدأ في مخاطبة الأعضاء الذين يطالبون بالتوقف عن المظاهرات وعن تصديق وعود مبارك بتسليمه للسلطة بعد ستة أشهر، خاصة مع وصول أعضاء الصفحة لأكثر من ٦٤٠ ألف عضو بعد لقائي مع منى الشاذلي.

اوعوا يضحكوا علينا بشوية إصلاحات.. دم الناس الغلابة مش ببلاش يا حكومة.. مصر كلها بكت لما حفيد الريس مات.. والريس مانزلتش من عينه دمعة واحدة لما أكتر من ٣٠٠ مصري من ولاده اتقتلوا بإيد رجال الشرطة بتوعه.. دم إخواتنا مش هدر يا سيادة الرئيس.. دم إخواتنا أقسم بالله العظيم ما هيروح هدر.. ولو فاهم إن مصر دلوقتي ينضحك عليها بـ ١٥٪ علاوة يبقى حضرتك مافهمتش يعني إيه شباب مصر.

10,037 Likes / 3,553 Comments / 726,663 Views

في الخامسة صباحًا من فجر الأربعاء ٩ من فبراير، أرسل لي أحد أصدقائي مقطعًا لفيديو حوار أجراه اللواء عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية مع كريستيان أمانبور المذيعة المعروفة على قناة «ABC» الأمريكية. الحوار كان في السادس من فبراير، ولم أكن قد شاهدته، ولكن ما حواه استفزني بشدة. تحدث عمر سليمان عن أهمية الهدوء الآن والثقة في الحكومة الحالية للانتقال الآمن للسلطة كما وعد الرئيس مبارك. وأكد سليمان في حواره أن التيارات الإسلامية هي التي استخدمَتِ الشباب ودفعته دفعًا للنزول للشارع لتحقيق أهدافها، وأن استمرار هؤلاء الشباب في الشارع تدعمه دول أجنبية. وحينما سألَتْه كريستيان عن التخوف الذي يمنعهم من قبول فكرة تنحي الرئيس أجابها بأنه يخشى من الفوضى التي ستحدث في مصر بعد تنحيه، خاصة وأنه لا يوجد بديل قوي وواضح له الآن. سألَتْه كريستيان إذا ما كان مؤمنًا بالديمقراطية، فأجابها بأن الجميع يؤمن بفكرة الديمقراطية، ولكن المهم هو متى نطبقها وجاهزية الشعب لها، وأضاف أن الشعب المصري ليس لديه «ثقافة الديمقراطية» بعد.

عَبّر عمر سليمان بشكل دقيق عن النظام القديم ونظرته للشعب المصري غير المُستحِق للديمقراطية، وتناسى أن الوعي الذي يتحدثون عن غيابه كان النظام هو أول من غيّبه عن طريق تدهور ظروف البلد اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا، وأن هذا المبرر ساذج؛ لأن استمرار هذا النظام سيُساهم بشكل أكبر في استمرار غياب الوعي. أنهى عمر سليمان حواره موجِّهًا رسالة إلى شباب التحرير إلى أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، وأن طلباتهم يتم تحقيقها تباعًا، وأن يعودوا إلى بيوتهم فالجميع يريد أن يعمل ويعيش في أمان، وعليهم أن يساهموا في عودة السياحة وينقذوا اقتصادنا الوطني.

شعرت بغضب شديد بعد سماعي للحوار، فبسبب اطلاعي على وسائل الإعلام الغربية أدركت جيدًا مغزى ما يقوله عمر سليمان، فهو يخاطب الحكومات الغربية التي قررت أن تقف في صف الشارع المصري ضد النظام، ولأول مرة منذ عقود، ويوجّه لهم رسالة واضحة أن الشعب المصري غير جاهز للديمقراطية، وأن استبدادًا يحقق مصالحهم أفضل من ديمقراطية تُعرّض هذه المصالح للخطر.

وهنا شعرت بأهمية مخاطبة وسائل الإعلام الغربية، وقررت العدول عن رأيي في عدم الظهور الإعلامي في أي وسيلة إعلام غربية رغم أن بريدي كان يحوي رسائل من مختلف وسائل الإعلام الأمريكية التي كانت تريد استضافتي منذ خروجي من المعتقل. قمت بالرد على بريد مراسلي الـ«سي إن إن» بأنني مستعد لإجراء حوار معهم واتصلوا بي لنتفق على التفاصيل.

طبيعة الثورة التي لم يَخرج من رحمها قائد يوجهها ويحركها ويتحكم في مساراتها كان أمرًا رآه البعض سلبيًّا، وراهن الآخرون على أنه سيكون سر نجاح هذه الثورة. نبض الشارع في التحرير كان هو المُشكِّل الأساسي لوعي الجميع وقراراتهم، والوقوف أمام هذا النبض لم يكن له أي ثمن. وهذا ما لم يدركه النظام الذي حاول الجلوس مع كل التيارات السياسية والتأثير عليها لاتخاذ قرار العودة للبيوت ووقف الاعتصام.. ولكنه لم ينجح. أصعب ما واجهه هذا النظام هو أنه وقف أمام جيل ثائر غاضب حالم لا يفقه في السياسة شيئًا ولا يقبل بأنصاف الحلول ومستعد للتضحية بحياته من أجل تحقيق أهدافه.

هنتتصر لأن ماعندناش أجندات.. لأننا مش بنفهم في السياسة والموازنات والتفاوضات وألعابها الحقيرة.. هننتصر لأن دموعنا بتخرج من قلوبنا.. لأن أحلامنا مشروعة.. لأن الحب عندنا فطرة.. لأن الأمل خلاص تملك من كل واحد منا.. هننتصر لأن الموت عندنا أغلى وأشرف من الحياة بدون كرامة.. هننتصر لأن مصر فوق الجميع.

9,064 Likes / 3,571 Comments / 1,062,408 Views

طَوال هذه الأيام لم تفارق صور الشهداء فكري. طرحت على الصفحة فكرة أن نُكرم شهداءنا الذين ماتوا يوم الجمعة التالية بعمل جنازة تاريخية تليق بهم تتحرك من مسجد النور والكاتدرائية بمنطقة العباسية إلى ميدان التحرير لاستمرار الاعتصام والتظاهر مُطالِبة بتنحي الرئيس. الفكرة لاقت قبولًا كبيرًا بين أعضاء الصفحة إلا أنني لاحظت أنها لم تنتشر كما حدث وقت الخامس والعشرين من يناير. كانت ملاحظتي في محلها؛ فالفكرة لم تلقَ زخمًا وسط سخونة الأحداث، وعلمت جيدًا وقتها أن قدرة الصفحة على الحشد انتهت بانتهاء يوم الثامن والعشرين من يناير؛ فالقوة تحولت إلى الشارع ومَن فيه، وأصبحت بعيدًا عن صفحات الإنترنت التي لن يمكنها سوى تغطية الأحداث ومحاولة التأثير فيها تأثيرًا محدودًا.

تحدثت مع زوجتي في مكالمة هاتفية وأخبرتها عن قراري في الذهاب إلى الشهر العقاري المصري وعمل توكيل عامّ رسميّ يخوّل لها تملُّك كافة ممتلكاتي وأرصدتي البنكية، وكان هدفي هو طمأنتها نفسيًّا وفي الوقت نفسه حتى لا أشعر بأي ذنب تجاه أولادي لأن المعركة القادمة لا أحد يستطيع قراءة أحداثها، وكشخص توجهَتْ نحوه الكثير من الأضواء أصبحتِ المخاطر التي أواجهها أكثر بكثير من ذي قبل. وبنهاية هذا اليوم كنت قد انتهيت من إجراءات التوكيل وأعطيته لأحد أصدقائي وطلبت منه إرساله إلى زوجتي بالإمارات.

وفي ظهر التاسع من فبراير، وصل إلى بيتي طاقم فريق شبكة «CNN» وبدءوا في تصوير حواري المسجل معهم. كان المُحاوِر يقودني للحديث عن فترة التحضير لما قبل الثورة، بينما كنت أريد الحديث عن تصريحات عمر سليمان. أكدت على أن كلام عمر سليمان مردود عليه، خاصة وأن جماعة الإخوان المسلمين وباقي التيارات

الإسلامية لم يكن لهم دور في الدعوة للنزول يوم ٢٥ من يناير، وأن أعضاء الجماعة شاركوا بشكل شخصي بعد أن قررت الجماعة عدم المشاركة بشكل رسميّ. كان هذا تأكيدًا على أن النزول للشارع لم يكن مُخطَّطًا من قِبل قوى سياسية، بل كان ردَّ فعل طبيعي من جيل تربى على الخوف والفشل والسلبية بعد أن شاهد ما يحدث في تونس.

سألني المُحاوِر عن رأيي في الوضع الحالي، فأخبرته أننا كنا مستعدين للتفاوض في الخامس والعشرين من يناير، ولكن النظام تفاوض معنا باستخدام الرصاص المطاطي والقنابل المسيلة للدموع وخراطيم المياه، أما الآن فلا تفاوض بدون تحقيق المطلب الأساسي؛ وهو رحيل مبارك. وجهت رسالة لعمر سليمان بأننا لم نعد نخاف، وأنهم لم ولن يفهموا جيل الشباب، وأننا مستعدون للموت من أجل تحقيق مطالبنا. أخرجتُ ورقة التوكيل ليراها المحاور ويتيقن أن الكلام ليس كلامًا في الهواء، بل هو استعداد حقيقي للموت من أجل حلم التغيير.

انتهى الحوار وعدت بعدها إلى مكتب صديقي زياد علي لألتقي ببعض الشباب الذين تواصلوا معي منذ خروجي من المعتقل. زياد هو أحد أصدقائي الذين أعرفهم من عملي في مجال التقنية؛ حيث إنه يمتلك شركة لتطبيقات المحمول، ومكتبه يقع قريبًا من منزلي. كنت قد طلبت منه أن أتخذ من مكتبه مكانًا لنلتقي فيه ونرتب أفكارنا لاستحالة تواجدي الدائم في ميدان التحرير بسبب الزحام الشديد ورغبة الكثيرين في الحديث معي. الوضع كان شديد الصعوبة، والرهان على استمرار الثورة كان مدعومًا بشكل كبير بالاعتصامات في ميادين مصر والإضرابات التي قام بها العمال، ولكنه كان رهانًا غير واضح النهاية. فماذا سنفعل حتى نضغط بشكل أقوى ليتنحى مبارك ويحدث ما نريد؟

تلقيت في هذا اليوم اتصالَيْن هاتفيَّيْن، أحدهما من شخص على صلة بالدكتور حسام بدراوي وأخبرني أنه يريد لقائي في الصباح للحديث عن مَخرج للأزمة، والآخر كان اتصالًا من «رشدي»؛ ضابط أمن الدولة الذي كان يحقق معي، وفيه أخبرني أن وزير الداخلية يريد لقائي ليلًا للأهمية. وافقت على أن أحضر الاجتماعين بعد أن شددت على أن مطالب المتظاهرين في التحرير هي مطالبي، وهي غير قابلة للتفاوض.

اتصلت مباشرة بالعديد من الشباب الذين أعرفهم حتى يحضروا معي اللقاءَيْن، فلقد أردت أن يكون هناك أكثر من شاهد على ما يقال، وكذلك حتى نستطيع التشاور مع بعضنا البعض. جمعت مع آخرين أسماء المعتقلين والمختفين؛ وذلك لإعطاء القائمة لوزير الداخلية حينما أجتمع معه لأطالبه بإطلاق سراح هؤلاء الشباب من المعتقلات.

لقاؤنا مع وزير الداخلية ليلًا حضره الصحفي خالد البرماوي- مدير موقع مصراوي آنذاك ـ والمخرج عمرو سلامة. بمجرد دخولنا لوزارة الداخلية، استقبلَنَا رشدي؛ ضابط أمن الدولة الذي كان يحقق معي أثناء فترة احتجازي، وانتظرنا الوزير الذي كان فيما يبدو لديه اجتماع. بعد انتظارنا لفترة ليست بالقليلة دخلنا إلى الوزير، ولأول مرة أتعرف على اللواء حسن عبد الرحمن مدير جهاز أمن الدولة ـ الذي لم يكن لي به سابق معرفة إلا أنني تذكرت شكله لأنني كنت قد رأيته في أول مرة التقينا به باللواء محمود وجدي؛ حيث تواجد في اللقاء دون أن يُعرّفني بنفسه.

بدأ اللواء محمود وجدي حواره بمداعبة معي لكسر التوتر، فأخبرني أنني أصبحت من المشهورين في مصر، فابتسمت بشكل مهذب وأخبرته أنني لم أكن أسعى لهذه الشهرة ولا أريدها. تحدث الوزير عن وضع مصر وأنه من المستحيل أن يتنحّى الرئيس مبارك. بدا واضحًا أن وزير الداخلية يريد أن يقنعنا بالتخلي عن فكرة التنحّي. كان كلامي له واضحًا، وهو أن هذه الثورة بلا قائد، وأنها كالحصان الهائج، والذي إن حاول أحدهم الصعود على ظهره لترويضه بما لا يريد فسيطرح الحصان هذا الفارس أرضًا ويدوس عليه بالأقدام. قوبل كلام الوزير بالرفض الشديد من ثلاثتنا، وتحدثنا معه عن دماء الشهداء الذين قَضَوْا نَحبهم في ميدان التحرير بقبضة النظام الباردة والتي لم تراعِ حرمة هذه الدماء.

كانت مفاجأة لي أن الوزير لديه قناعة قوية بأن ما يحدث مؤامرة تستهدف مصر، وحدَّثَنا عن مؤامرة حرق الأقسام والتي قامت بها جماعة الإخوان المسلمين بمساعدة من حركتَيْ حزب الله وحماس. لم يكن حديثهم مُقنِعًا لنا؛ فأخذ الوزير يتحدث عن مشاهدة عَلَم حزب الله في ميدان التحرير على أسطح أحد المنازل، وأنهم مَن أطلقوا

الرصاص وكرات النار على المعتصمين لاتهام وزارة الداخلية بذلك. قابلت حديثه بعدم اقتناعي بذلك، فلو فرضنا جدلًا وجود عناصر من حزب الله لزعزعة أمن واستقرار مصر كما يدّعي، فما معنى رفع علمهم؟ ما هي الفائدة التي ستجنيها هذه الحركة أو غيرها من مثل هذا الفعل، خاصة وأنهم كما يشيع الوزير تسببوا في مقتل الثوار؟ لم يكن رده مقنعًا لأحدنا ولم يكن مقتنعًا بما نقول.

أخذ حسن عبد الرحمن رئيس مباحث أمن الدولة يحذرنا بأن مصر في خطر وعلى مشارف الفوضى، فسألته ألا يدري ماذا يفعل ضباطه وجنوده في المعتقَلين؟ وانفجرت وقتها وأخرجت كل مشاعر غضبي لأسأله لماذا يتم اعتقالي وتكبيلي وتغمية عيني لاثني عشر يومًا لا لشيء سوى لأنني طالبت بحق الشعب المصري في كرامته وحريته؟

أخذ يعتذر لي بدبلوماسية ويقول إن الوضع الآن تغير، وإن جهاز أمن الدولة ستتغير استراتيجيته بالكامل، وإنهم لم يكونوا يفعلون ذلك سوى من دافع الوطنية والخوف على مستقبل مصر وخمسة وثمانين مليون من شعبها! وإنني يجب أن أخرج من شخصنة الأمور في هذه اللحظة التاريخية وأفكر في مصلحة الوطن. تحدث معنا عن حياته الشخصية وأبنائه وعن دراسته للماجستير وتحضيره للدكتوراه في القانون محاولًا التأكيد أن هناك الكثير من الأكاذيب التي يتم ترويجها على جهاز أمن الدولة والمسئولين فيه. أضاف عبد الرحمن أنه الآن سعيد لوجود شباب وطني نشط مثلنا، ولم يعد على جهاز أمن الدولة أن يخشى من فوز المتطرفين في الانتخابات وسيطرتهم على مصر؛ لأن الانتخابات الآن سيصوِّت فيها ملايين المصريين، بعكس ما كان يحدث من قبل!

الحوار كان حادًّا في أوقات وهادئًا في أخرى. أخذ الوزير يُذكّرنا بإنجازات حسني مبارك وتاريخه العسكري وتضحياته من أجل الوطن، وعاد إلى نغمة إهانة الكبير. وأكد عمرو سلامة له أنه يجب أن نبحث عن حلول وسط، ولكن هذه الحلول لن تكون إلا بتنحي الرئيس. سيناريو التنحي ذاته وتفاصيله يمكن الحديث عنها، وأن تنحيه الآن هو ما يحفظ ماء وجهه وليس بقاءه في الحكم، أما العدول عن الفكرة فمن رابع المستحيلات أن يقتنع بها الشباب في ميدان التحرير حتى ولو فرضنا جدلًا اقتناعنا بها. في نهاية

الحوار، أعرب الوزير عن قلقه على سلامة المتظاهرين؛ خاصة وأن هناك أنباء تتردد عن عزمهم التوجه لمحاصرة القصر الجمهوري، وقال إن الحرس الجمهوري سيرد ردًّا عنيفًا على أي شخص يُشكّل تهديدًا لسلامة الرئيس، وقد ينتهي هذا الأمر بوجود عناصر مندسة تتسبب في حمامات دم؛ ولذا يجب منعها بشتى الطرق.

الوضع في الشارع كان صعبًا، ونظام مبارك كان يريد كسب مزيد من الوقت لأن ذلك في صالحه. كان النظام يؤمن أن المظاهرت والاعتصامات ستَضعُف وتقل يومًا بعد يوم، وأن الحنق الشعبي سيزداد من الأضرار الاقتصادية والأمنية المرتبطة بالثورة. وكان النظام يُمَنّي نفسه بأن المتظاهرين في النهاية سيُقلِعون عن فكرة تنحي الرئيس ويَرْضَخون لسيناريو انتقال السلطة في سبتمبر مع انتهاء فترة مبارك الرئاسية الحالية. وكنت أشعر أنه في ظل الهجوم المستمر على الثورة في وسائل الإعلام كانت المراهنة على استمرار المظاهرات في نظر العقلاء مغامرة غير محسوبة في الوقت نفسه الذي كانت ضبابية الموقف تُحتّم على الجميع البحث عن حل لهذه الأزمة. أنهى وزير الداخلية حواره بأنه قد علم أن الدكتور حسام بدراوي سيجتمع معنا في الصباح الباكر ودعانا للتباحث معه وأنه؛ أي حسام بدراوي، لديه تصوّر للخروج من الأزمة وتنحّي مبارك، وأن دعمنا له كشباب سيُسهم في ذلك.

لم نفهم كثيرًا معنى ما قاله اللواء والحل السحري الذي سيخبرنا به حسام بدراوي، إلا أنني تفاءلت واستبشرت خيرًا؛ بسذاجة سياسية تفترض حُسن النوايا، وشعرت بقوة الإرادة الشعبية في ظل عدم وجود قائد يَسْهُل الضغط عليه. خرجنا من الاجتماع في الثالثة صباحًا وقررت التوجه مع عمرو سلامة إلى بيته حتى نخرج في الصباح الباكر للقاء الدكتور حسام بدراوي في شقة أحد أصدقائه في الزمالك. وصلنا إلى بيت عمرو سلامة في منطقة الدقي بالقاهرة ودخلت إلى البيت لنكتب معًا تحديثًا على صفحة كلنا خالد سعيد:

حاسس إن القلم بيتكتب بيه آخر سطر وقريّب أوي هنقلب الصفحة وهناخد منهم القلم وهنبدأ نرسم مستقبلنا بإيدينا.

6,316 Likes / 2,077 Comments / 1,244,267 Views

جلست في بيت عمرو سلامة والتفاؤل يغمرني. وسألني عمرو هل شاهدت أي فيديو عن الأحداث منذ خروجك فأجبته بالنفي، فاقترح عليَّ مشاهدة أحد المقاطع المرئية والتي تُوثّق للثورة يومًا بيوم منذ بدايتها. المقطع كان به موسيقى حماسية، وبدأ في عرض مشاهد الخامس والعشرين من يناير والتي أصابتني بقشعريرة لأنني تذكرت ما حدث في هذا اليوم الوحيد الذي حضرته من بدايته لنهايته. ثم بدأتْ مشاهد المواجهات في الثامن والعشرين من يناير، صور أجهزة الأمن وهي ترش المياه على عشرات الآلاف على كوبري ١٥ مايو القريب من ميدان التحرير، وجنود وضباط الأمن المركزي يُطْلقون القنابل المسيلة للدموع بغزارة على المتظاهرين.

ثم بدأتْ بعضُ المشاهد المأساوية في الظهور؛ سيارات الأمن المركزي وهي تدهس المتظاهرين بكل وحشية فتقتل وتصيب، والصراخ والهلع على وجوه المتظاهرين، ومشهد لأحد المتظاهرين في الإسكندرية وهو يتقدم فاتحًا سُترته فيطلق عليه أحد الجنود رصاصة فيسقط وسط صراخ الفتاة التي تُصوِّر المشهد وتسب في القاتل، ومشاهد من موقعة الجمل وتعرُّض المعتصمين للهجوم من الآلاف بالمولوتوف والطوب، ومشاهد الشباب وهم يحملون مصابيهم إلى المستشفى الميداني بالميدان. شعرت وقتها بمدى ضآلة دوري وبأنني لست بطلًا بالمقارنة بهؤلاء. أُصبت بحالة بكاء هيستيرية لِما رأيته من مشاهد الدم التي لم أكن قد رأيتها سوى في الأفلام الهوليودية أو في مشاهد الحروب. كتبت على الصفحة مؤكِّدًا لهذا المعنى:

في الوقت اللي كنت نايم فيه في أمن الدولة وجسمي مافيهوش خدش واحد.. كان فيه أبطال ضحوا بحياتهم ووهبوها عشان حلمهم.. بجد حاسس إني لو كنت بره كنت هاخاف أنزل معاكم.. أقسم بالله العظيم إنتم الأبطال.. أقسم بالله العظيم إنتم أرجل شعب في العالم.. أقسم بالله العظيم إنتم رفعتم اسم مصر عالي.. صدقوني خلاص.. ٢٥ يناير كان بداية النهاية.. والنهاية قربت أوي.

8,060 Likes / 2,703 Comments / 1,459,815 Views

لم أتمكن من النوم وأخذت أشاهد الفيديو مِرارًا وتكرارًا. في الثامنة صباحًا، قابلنا الصحفي خالد البرماوي وتحركنا جميعًا لنصل إلى مكان الاجتماع، والذي حضره

أيضًا مصطفى أبو جمرة؛ وهو أحد أصدقائي الذين عرفتهم أثناء عملي في شركة «جوجل» وأحد الموقِّعين على بيان التغيير، والذين كانوا يحاولون مع غيرنا الكثير في تغيير الأوضاع في مصر.

عندما وصلنا، بدأ الدكتور حسام حديثه معنا عن التغيير الذي بدأ بالفعل فيه في الحزب الوطني، وبالدور الذي يحاول لعبه لإيصال مصر لبر الأمان. تحدث معنا عن تاريخه الشخصي في محاولة تغيير الحزب من الداخل والتعاون مع الشرفاء في الحزب الذين لم يكن يُرضيهم ما يحدث من القيادات ولكن صوتهم كان غير مسموع وإن سُمع كان غير مؤثر. لم يكن الحديث يَروقُني شخصيًّا لأنني قد عبّرت من قبل عن رأيي في الحزب الوطني، وأن مَن أفسد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر لا يستحق فرصة أخرى، وأنني سأحارب بكل ما أوتيت من قوة حتى لا تقوم قائمة هذا الحزب مرة أخرى. ونصحت الدكتور مرة أخرى أن يستقيل من الحزب ويُكوِّن حزبًا جديدًا مع مَن يراه من شرفاء الحزب إن كان يريد الإصلاح.

أخبرَنا د. حسام بدراوي أنه منذ اللحظة الأولى لقبوله المنصب الجديد كأمين عام الحزب الوطني طلب التواصل المباشر مع الرئيس، وبالرغم من العقبات التي يلاقيها من رجال الرئيس الذين كانوا كثيرًا ما يحاولون أن يمنعوا هذا التواصل المباشر إلا أنه التقى بمبارك، وبالفعل عرض عليه فكرة التنحي وتفويض سلطاته لنائبه، وأن هناك قبولًا شخصيًّا من الرئيس ولكن مَن حوله يحاولون الضغط عليه لرفض ذلك خوفًا على مصالحهم الشخصية وأوضاعهم.

فكرة تنحي مبارك من المشهد وتفويض عمر سليمان كانت في ذلك الوقت أحد الحلول التي يمكن قبولها خاصة في ظل ضبابية المشهد، ورأينا فيه حلًّا جيدًا للخروج من هذه الأزمة وحقنًا لدماء المصريين؛ لأن أهم الآثار الجانبية لغياب القيادة في الثورة جعل الجميع غير متفق على طرح بديل بعد إسقاط النظام. أبدى الجميع قبولهم بالمبدأ ومناقشة التفاصيل، وهنا بدأت وعمرو سلامة في بعض الاقتراحات لهذا الخطاب أن يكون واضحًا فيه لفظ التنحي، وأن يعزّي الرئيس أسر الشهداء، ويُشيد بما رآه من

الشباب؛ وذلك لتغيير الصورة الإعلامية السيئة التي صورَتْها وسائل الإعلام الرسمية والخاصة عن الثوار، وحتى لا يكون هناك أي مسوّغ فيما بعد لملاحقتهم.

وبعد أكثر من ساعة من النقاش أخبرَنَا الدكتور حسام بدراوي أنه سيذهب إلى القصر الرئاسي ويطرح الفكرة ويؤكد على أن هذا هو مطلب الشباب، وسألَنَا إن كنا نمانع في لقاء الرئيس ولم نمانع في ذلك إذا كان هناك تأكيد على تنحّيه، وأننا لسنا ذاهبين للتفاوض فنحن لا نمثل الميدان. خرج الدكتور حسام من المنزل متجهًا إلى القصر الرئاسي وبقينا نحن نتحدث عن احتمالات التنحي وتوقعاتنا لسير اللقاء. بعد فترة غير قصيرة اتصل بنا الدكتور وأخبرنا أنه قد تحدث مع الرئيس، وأنه قبل فكرة التنحي وأنه يريد لقاءنا. لم نصدق الخبر؛ فلم نكن نتوقع أن يسير الأمر بهذه السرعة، ولكن الحماس ملَأَنا لأن اليوم قد يشهد قرارًا تاريخيًّا.

قبل مغادرة المنزل تحدثنا عن المخاطرة التي نقوم بها، فلو كنا جزءا من لعبة سياسية فإن الأمر سينتهي بتخويننا. لم أكن شخصيًّا أسعى للقاء رئيس فَقَد شرعيته حبًّا في الظهور، ولكنني كنت ـ وبسذاجة سياسية ـ أبحث عن مخرج للأزمة، وكنت مُستعدًّا ومَن معي أن نخسر ما لدينا من رصيد لدى جماهير الثورة، والتي قد تتحول للهجوم علينا في حالة عِلمهم بحدوث هذا اللقاء، في سبيل تحقيق مطالبنا. ولكنني لم أكن أبحث عن أي مجد شخصي، ولم أعبأ بالتفكير في نظريات المؤامرة والألعاب السياسية.

بدأنا في التحرك، واتصلت مباشرة بمصطفى النجار وكذلك أحمد ماهر، وطلبت منهما سرعة التوجه نحو مصر الجديدة عند أحد الفنادق هناك لنلتقي جميعًا لأمر شديد الأهمية. مصطفى استجاب بسرعة أما أحمد ماهر فبمجرد اتصالي به قال لي: «بقه بتشتغلني يا وائل وأبقى معاك في قطر وماتقوليش إنك الأدمن!»، وضَحِك قائلًا: «لما هاشوفك هنتحاسب». قلت له إنني أريد رؤيته الآن لأمر ضروري، فأخبرني أنه في اجتماع مع الشباب للتنسيق لمظاهرات الجمعة، فطلبت منه مغادرة الاجتماع لأن الأمر جدّ خطير.

تحركت مع عمرو سلامة ومصطفى النجار وخالد البرماوي في سيارة خالد،

وبدأنا نُنشد جميعًا الأغاني الوطنية. دعوت الله وقتها أن يجعلَنا سببًا في إسعاد الملايين من المصريين إن نجح هذا وتنحَّى الرئيس. وفي الطريق اتصل بي رشدي ضابط أمن الدولة، أخبرني أن الخطة تغيرت وأنه يجب علينا الذهاب أولًا إلى مبنى وزارة الداخلية ومن ثَمَّ إلى مقر رئاسة الوزراء لنلتقي الفريق أحمد شفيق رئيس الوزراء قبل لقائنا بالرئيس. لم أفهم سرّ هذه الخطوة غير المفهومة والتي لم تكن على نفس اتفاقنا مع د. حسام بدراوي، وهنا توجّس خالد ومصطفى وبدءوا في الشك في طريقة سير الأحداث، بينما كنت أنا وعمرو نرى ألا نستبق الأحداث، وأننا في الطريق الصحيح ونفعل ما تُمليه عليه ضمائرنا ولا داعي للقلق والتشكيك؛ فنحن قررنا المخاطرة وعلينا الاستمرار فيها. اتصلت بالدكتور حسام بدراوي لأسأله عن سر تغيير الخطة، وعلمت منه أن رئيس الوزراء يريد الاطمئنان على ما سنقوله للرئيس حتى لا تقع أي مشكلة، وأن علينا أن نقتضب معه في الحديث، وأن نحاول إنهاء المقابلة بأسرع وقت للذهاب إلى القصر الجمهوري حيث يوجد هو لإنهاء ترتيبات اللقاء.

وصلنا إلى مبنى وزارة الداخلية جميعًا. كانت السماء تُمطر بقوة وامتلأت شوارع القاهرة غير المهيأة لتلك الأمطار بالمياه؛ مما أبطأ حركة الجميع وتسبب في تأخر أحمد ماهر عن اللحاق بنا. وصلنا إلى مقر وزارة الداخلية لتخرج سيارة لا نعرف مَن فيها وخلفها حراسة وطلبتْ من خالد أن تتبعها، وبدا واضحًا أن الاتجاه إلى مقر رئاسة الوزراء في وزارة الطيران داخل مطار القاهرة الدولي. الطريق كان مزدحمًا وطَوال الطريق كنا ننشد الأناشيد الوطنية ونحلم بتحقق اللحظة التي سيخرج فيها مبارك للجميع ليعلن تنحيه وتنتصر إرادة الشباب. هذا المشهد الرائع أخرج دموع الفرحة من عيوننا، خاصة ونحن نُردّد أبيات أبي القاسم الشابي: «إذا الشعب يومًا أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب القدر.. ولا بد لليل أن ينجلي.. ولا بد للقيد أن ينكسر».

وصلنا إلى مبنى الوزارة وخرجنا لنرى مَن بالسيارة الأخرى؛ كان وزير الداخلية مُصطحبًا معه مساعده اللواء حسن عبد الرحمن ومعهم الضابط رشدي الذي كان فيما يبدو مُكلَّفًا بالتنسيق بين الجميع. معالم السعادة البريئة كانت على وجوهنا جميعًا، بينما

كانت نظرات الوزير ومَن معه جادة، حتى أنني أتذكر أنني قلت لرشدي بإصرار إن ما نريد سيتحقق فقال لي: «المهم ليس ما تريد أو ما أريد، ولكن المهم هو مصلحة مصر».

أدخلونا إلى قاعة تشبه إلى حد كبير قاعات المؤتمرات؛ بها أكثر من ٥٠ أو ٦٠ مقعدًا أمام كل مقعد ميكروفون. لم نفهم لماذا نجتمع مع رئيس الوزراء في تلك القاعة.. ولكننا آثرنا الانتظار. دخل إلى القاعة بعد جلوسنا مجدي راضي؛ المتحدث باسم رئيس الوزراء، والذي يعمل بالوزارة منذ عهد الدكتور أحمد نظيف. سلَّم على الجميع واختصني بسلام حارّ، وأخذ يتحدث معي عن العمل العظيم الذي قام به الشباب.

ثم بدأ مجدي يُلمّح إلى مسألة بقاء الرئيس في السلطة، وأن تنحيه سيتسبب في فراغ دستوري لأنه الوحيد الذي لديه حق المطالبة بتعديل الدستور قانونًا. ابتسمت حينما سمعت منه هذا الكلام وقلت له: «لقد قام ترزية القوانين في عهد مبارك بترقيع الدستور المصري أكثر من مرة دون مشكلة، والآن.. ومع هذه الثورة ظهرتْ فجأة مشكلة الفراغ الدستوري؟ لا أرى في ذلك أي مبرر لاستمرار الرئيس، ولا أرى كغيري من الشباب بديلًا عن تنحيه عن سلطاته؛ لأن الجميع لن يرضى بأقل من ذلك».

استمرت الأحاديث الجانبية بين الجميع حتى فوجئنا بأصوات أقدام كثيرة تتوجه للغرفة، وتوقع الجميع أن رئيس الوزراء على وصول وأن الاجتماع سيبدأ، إلا أننا فوجئنا بمجموعة تتجاوز ثمانية شباب يَحملون أعلام مصر يدخلون إلى القاعة ومعهم الفنانة عفاف شعيب؛ التي كانت نادت على التلفزيون بانتهاء المظاهرات، وكذلك دخل معهم أحد المصورين بكاميرا للتصوير، وهنا أدركنا أننا في فخّ، وأن ما يحدث لا يعدو كونه استدراجًا لوضعنا في صورة تُذيعها الفضائيات لمؤتمر حوار بين معارضي الثورة ومؤيديها لإيصال صورة واهمة للجميع أن الأزمة في طريقها للحل. كان الهدف إظهار أن هناك انقسامًا شديدًا في صفوف الثوار، وأن منهم من أصبح راضيًا بوعود الرئيس ويرغب في الوصول لحل وسط.

وقفنا جميعًا وبادر مصطفى النجار بالخروج من القاعة وخرجنا خلفه، وهنا تحدثتُ بعصبية لضابط أمن الدولة وسألته: «بقه كده يا رشدي! بتضحكوا علينا؟ جايبينا نتصور؟

إنتم بتعملوا علينا تمثيلية؟ فاكرين إننا نفسنا نتصور ونطلع في وسائل الإعلام مع السادة الوزراء؟»، اقترب مني وزير الداخلية ورئيس مباحث أمن الدولة، واستمررت في نبرتي الحادة وصوتي المرتفع: «للأسف واضح إنكم مافهمتوش الشباب.. فاكرين إن كل حاجة في الدنيا بتخلص بصفقة.. فاكرين إننا جاهزين للقعدة على ترابيزة مفاوضات تفرط في حق الشهداء وننبسط بصورة مع وزير أو رئيس وزراء!!».

قاطعني وزير الداخلية وطلب مني الهدوء، وأن هناك سوءَ تفاهم كبيرًا، وأن أترك له فرصة للحديث. قال لنا إن ما حدث لا يعدو كونه صدفة؛ لأن هؤلاء الشباب لديهم أيضًا اجتماع تم تحديده مُسبقًا مع رئيس الوزراء، وأنهم دخلوا للقاعة لانتظار الفريق أحمد شفيق كما كنا نحن أيضًا ننتظر. لم نُصدّقه، وطالب مصطفى الجميع بالمغادرة، ولكنه قال إن رئيس الوزراء انتهى من اجتماعه، وبالفعل شاهدنا باب غرفته يُفتح ويخرج منه بعض الشخصيات وخرج مُرحِّبًا بنا وكأنه لا يعرف ما كان يحدث.

سأل وزير الداخلية عن سبب الخلاف والصوت العالي، فأخبره بما حدث على أنه سوءُ تفاهم، وهنا رحّب بنا وقال: «أهلًا بالشباب، اتفضلوا في مكتبي، أنا فعلًا عندي ميعادين والموضوع فعلًا اتفهم غلط، أرجو إنكم تدخلوا بس معايا ونقعد ونهدأ عشان نتكلم مع بعض».

لم يكن أحمد ماهر قد وصل بعد، فاتصلت به أسأله عن مكانه، فأخبرني أنه على وشك الوصول، لم أشأ إخباره بتلك القصة؛ لأنني أعرف أن ماهر أكثرنا ريبة وشكًّا، وهو الذي لا يعرف بعد سرّ اللقاء، وأخبرته أن عليه أن يأتي سريعًا، فنحن في صدد لقاء تحضيري لمقابلة مبارك الذي سيتنحى بعد لقائنا، أبدى ماهر دهشته وتشكُّكَه من الأمر، ولكنه كان على بُعد دقائق قليلة فقرر مواصلة الطريق.

كان الجو مشحونًا، وكنت أكثر الشباب عصبية وعدم قدرة على التحكم في أعصابي، بينما كان عمرو سلامة أكثرنا هدوءًا، والذي طلب مني عدم الحديث في البداية حتى لا يتوتر الجو أكثر ونخسر الهدف الرئيسي الذي جئنا من أجله. بدأ رئيس الوزراء حديثه بالكلام الذي انتشر في وسائل الإعلام عن المخاطر التي تهدد مصر، وعن الأزمة الاقتصادية الطاحنة، وما سيحدث في مصر في الأيام المقبلة إذا استمرت الإضرابات

والاعتصامات والمظاهرات من مجاعة وفوضى. كان في طريقة حديثه شديد التأدب وهادئًا ومحاولًا استيعابنا.

وصل إلى الاجتماع بعد دقائق أحمد ماهر، كان وجهه متجهمًا ولم يبتسم وهو يلقي التحية على الجميع. وبينما تحدثنا جميعًا كان أقلنا في الحديث مصطفى، وأصر ماهر على عدم الحديث نهائيًّا حتى أن اللواء محمود وجدي سأله عن سر عدم كلامه فأجاب باقتضاب أنه لا يرى أهمية للكلام الذي سيقوله، فيفضل أن يستمع وألا يتكلم. دخل عمرو سلامة في نقاش مع الفريق أحمد شفيق ليتحدث معه عن أهمية التنحي، وأن مستقبل مصر بالفعل في خطر، ولكنه خطر مرهون بعدم استجابة الحكومة لطلبات الشعب وليس العكس. كان منطقه رائعًا وأسلوبه هادئًا، إلا أننا شعرنا بعد مدة من الحديث أننا ندور في حلقات مُفْرَغة. لم يتحدث رئيس الوزراء ولو بالتلميح عن لقائنا الوشيك بالرئيس لإقناعه باتخاذ قرار التنحي، وشعر مصطفى النجار بذلك، كان جالسًا بجواري فهمس لي: «لدينا مظاهرة كبيرة غدًا، يجب علينا جميعًا التحضير لها، ينبغي أن نخرج من هنا لأنه لا فائدة مرجوة من استمرار الحديث»، فقاطعت الحديث بأدب وسألت رئيس الوزراء: «إحنا هنقابل الريس إمتى؟».

أظهر رئيس الوزراء دهشة مصطنعة وسألني: «هو أنتم المفروض هتقابلوا الريس؟ أنا ماعنديش أي تعليمات بالموضوع ده!»، وهنا وضحت الرؤية وبدا لي وقتها أنه قد تم استدراجنا بالفعل لمشهد إعلامي يستفيد منه النظام. قلت له محتفظًا بهدوئي: «الاتفاق كان مع الدكتور حسام بدراوي بأننا سنلتقي بالرئيس؛ لأنه قرر التنحي وأخبرنا أن حضرتك على علم بذلك»، فرد عليَّ الفريق أحمد شفيق بأنه ليس على علم بأي لقاء مرتب مع الرئيس، فاستأذنته وفتحت الهاتف وطلبت رقم الدكتور حسام بدراوي، وفعّلت خاصية الصوت العالي في المحمول حتى يسمع الجميع الحوار. استمر رنين الهاتف لفترة ولم أجد ردًّا على الخط الآخر، وهنا اشتعل الغضب بداخلي وبدأت أصدق ما قاله لي مصطفى وخالد في السيارة، وأن السياسة لعبة قذرة، ويجب ألا ننخدع بالمظاهر ونبني قناعتنا على أساس صدق نوايا الطرف الآخر.

حاولت مرة أخرى الاتصال، وهنا التقط الدكتور حسام الهاتف، فأخبرته بما يحدث،

فأكد لي أنه بالفعل تم التنسيق على ميعاد، ولكنه غادر القصر الرئاسي ولا يعرف إذا ما كان هناك أي تعديلات، فطلبت منه الحديث مباشرة مع الفريق أحمد شفيق، وأعطيت الهاتف له فتحدث معه وكرر له ما ذكره لنا بأنه ليس لديه أي تعليمات بهذا اللقاء، وكان الحديث مقتضبًا وانتهى سريعًا.

وهنا بادر أحمد ماهر ومصطفى النجار بالوقوف بينما ظللت جالسًا محاولًا استيعاب ما يحدث. اعتذر مصطفى عن عدم القدرة على استمرار الحوار لأن الترتيب لمظاهرات الغد مهم، وبدأنا في الخروج من الغرفة بعد السلام على الجميع. كان أول مَن خرج هو أحمد ماهر والذي لحقته لأعتذر له عما حدث، وأنني ظننت جهلًا مني أنهم يَخْشَون على هذا الوطن ويريدون مصلحته، إلا أنهم أثبتوا أن لا هَمَّ لهم سوى الكرسي.

خرجنا من المبنى على عكس ما دخلناه؛ شديدي الإحباط ومُنكّسي الرءوس. وجّهت حديثي للضابط رشدي مؤكدًا له أننا سنستمر حتى يتحقق ما نريد، وأننا في طريق مواجهة حتمية لن تنتهي إلا بانتصارنا أو موتنا.

في السيارة، وفي طريق العودة إلى التحرير، بدأنا نتحدث أنا وعمرو سلامة عن مدى سذاجتنا لتصديقنا هذه التمثيلية التي كان بطلها الدكتور حسام بدراوي، والذي كاد أن يستغلنا في مشهد إعلامي لولا قدر الله. بدأت بالفعل أُصدق نظريات المؤامرة التي طالما يرفضها عقلي، وأن الحكام الدكتاتوريين يحافظون على مناصبهم بتخطيطهم ضد مصالح الشعب. واستمرت شحنات الإحباط والغضب تخرج من أفواهنا، بينما كان ماهر والنجار وخالد يذكروننا بما قالوه، فمن المؤكد أن هذا النظام لن يتحول في يوم وليلة من الخوف على مصالحه إلى الخوف على مصلحة الوطن.

وبينما نحن في منتصف كوبري ستة أكتوبر تلقى خالد مكالمة هاتفية تطلب منه فتح الراديو وبسرعة. فتحنا الراديو على القناة المحلية لنستمع إلى خبر يُنقل على لسان الدكتور حسام بدراوي وينتشر في كل وسائل الإعلام أن الرئيس مبارك قرر التنحي وسيلقي خطابًا بذلك بعد ساعات قليلة.

الاندهاش كان سيد الموقف، لم يفهم الجميع ماذا يحدث، وكيف تتسارع الأحداث

بهذا الشكل غير المنطقي، وينتهي الأمر بتحقيق ما ـ أصلًا ـ كنا سنذهب لتحقيقه. بدأنا نعدل من وجهة نظرنا ونحاول التحليل؛ يبدو أن اللقاء قد تم إلغاؤه لأن الرئيس قد اقتنع بالتنحي وأنهم رأَوْا أنه لا جدوى من لقائه معنا؛ ولذلك آثر حسام بدراوي إلغاء المقابلة. حاولت الاتصال بحسام بدراوي إلا أن تليفونه كان مشغولًا أو لا يرد.

استمرت وكالات الأنباء العالمية تُعلن عن خبر اقتراب تنحي الرئيس. هل كنا نلعب في لعبة هامشية مع الناس غير المؤثرين في الحدث، بينما كان مبارك ومستشاروه الأقربون يأخذون القرار؟ اتفق الجميع على التوقف عن التحليل السياسي؛ فحقيقة الوضع سنعرفها فيما بعد، والمهم الآن أن نحتفل، بدأنا في الصياح سعداء: «مبارك بره! مصر حرة!»، وخرجنا من السيارة هاتفين بذلك لكل مَن حولنا من سيارات على الكوبري وعَلَم مصر يرفرف خارج السيارة.

عدت للمنزل لأتابع القنوات الفضائية وأعرف حقيقة الأمر، ورأيت الرئيس أوباما؛ والذي كان في مؤتمر بإحدى الجامعات أو المدارس، قد قطع حديثه ليهنئ الشعب المصري بتحقيق أهداف ثورته وهنا تأكد لي الأمر بما لا يقطع مجالًا للشك أن التنحي سيحدث. لأن أوباما لا بد وأن له قناة اتصال مباشرة مع مبارك، ولن يخرج لإذاعة الخبر إلا بعد تأكده من صحته.

بدأ الجميع في التحرير في الاحتفال والتعبير عن مشاعر السعادة. وبدأتْ وسائل الإعلام في سؤال المتظاهرين هناك عن انطباعاتهم عن رحيل مبارك. اتصلتْ بي قناة العربية لأبارك للمصريين وأقول لهم إننا نجحنا في تحقيق هدفنا بتنحي الرئيس، وإن علينا الآن أن نفكر في بناء مصر.

أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة بيانًا تلفزيونيًّا أسماه «بيان رقم واحد»، يقول فيه إنه يؤيد مطالب الشعب المشروعة وحقَّه المشروع في التظاهر السلمي، وإن المجلس العسكري في انعقاد. لم نفهم وقتها معنى هذا البيان، إلا أننا شعرنا أن الكواليس بها الكثير من الأشياء التي لا نعرفها. كانت هذه رسالة من المجلس العسكري للشعب بأنه مع الثورة، وانعقاد المجلس بدون القائد الأعلى للقوات المسلحة؛ وهو رئيس الجمهورية كان يعني حينها أن التنحي سيحدُث اليوم كما قال الدكتور حسام بدراوي.

بعد حديثي مع قناة العربية، قررت الذهاب إلى التحرير لأشهد خطاب التنحي هناك، وتحدثت مع الكثيرين الذين كانوا فرحين بالأخبار وينتظرون الخطاب بفارغ الصبر.

بدأ الخطاب متأخرًا جدًّا، وفيه تحدث الرئيس مبارك بطريقته المعهودة، وأخذ يُذكّرنا بدوره في الحرب والسلم، وبإنجازاته وتاريخه، ورغم أنه عزَّى الشعب في الشهداء إلا أنه فعل ذلك باقتضاب بالمقارنة بالإسهاب الذي أسهبه والطريقة العاطفية التي تحدث بها عن ألمه من إساءات المتظاهرين في التحرير لشخصه، حتى أنه تكلم عن الشهداء قائلًا «شهداؤكم» في زلة لسان أوضحتْ انفصاله عن الميدان. ثم دعا الجميع لتغليب مصلحة الوطن على أي شيء آخر، وقال إنه عاش على أرض هذا الوطن وسيموت عليه. ثم وفي آخر ٣٠ ثانية من الخطاب قال إنه سيفوّض سلطاته إلى عمر سليمان.

رَدُّ الفعل داخل الميدان كان متوقعًا لاستفزازية الخطاب؛ فمبارك لم يتنحَّ كما توقع الجميع، رُفعت الأحذية وسادت حالة كبيرة من الإحباط لدى الجميع، وبدءوا يهتفون: «ارحل يعني امشي، يااللي مابتفهمشي». اجتمع حولي الشباب في الميدان يسألونني: «هنعمل إيه؟ حرام والله اللي بيحصل ده! هي الناس دي مش بتفهم؟»، لم تكن لديَّ إجابة سوى أن أؤكد لهم أننا أقوى، ويجب أن نستمر حتى يتحقق الهدف؛ وهو التنحي الحقيقي وليس تفويضًا مطاطيًّا غير مفهوم. خرجت من الميدان وأنا في غاية الإحباط، والتقى بي أحد الأصدقاء ليوصلني بسيارته إلى البيت.

انطلقت إلى لقاء أصدقائي لنُفكر جميعًا في الخطوة القادمة، ففوجئت بخبرين: الأول أن وكالة أنباء الشرق الأوسط نقلت عني أنني صرحت لهم بأنني أدعو جميع المصريين في ميدان التحرير للعودة لمنازلهم بعد خطاب الرئيس، وأن مئات الثوار الغاضبين بدءوا في السير على الأقدام من ميدان التحرير إلى القصر الجمهوري لإجبار الرئيس على التنحي. الأمر كان شديد الخطورة؛ خاصة مع انتشار الشائعات والأخبار التي تتحدث عن إمكانية حدوث اشتباكات دامية؛ لأن الحرس الجمهوري سيتعامل بكل قوة ضد كل مَن يتحرك إلى القصور الرئاسية. هالني رد الفعل، وكنت شديد الخوف على سقوط المزيد من الشهداء.

دخلت على الصفحة وكتبت نفيًا لبيان وكالة أنباء الشرق الأوسط، والذي انتشر في كل مكان حتى على شريط أخبار القنوات الإعلامية الرسمية، وبدا واضحًا أنه خطة سبق إعدادها للتأثير على الشباب من خلال تصريحاتي. لم يكن النفي عبر الإنترنت كافيًا. استقبلتُ مكالمة من المذيع عمرو الليثي والذي طلب مني عمل مداخلة على برنامجه لأتحدث عن رأيي في الأحداث وفي قرار الرئيس.

قررت المشاركة وقلت على الهواء إنني لم يَصدُر مني بعدُ أيَّ موقف، وإنني كغيري غير راضٍ عن الخطاب لأنه لم يكن تنحيًا، بل تفويضًا للسلطات مع بقائه رئيسًا للجمهورية، وأكدت أنني لم أُدْلِ بأي تصريحات لأي وسائل إعلامية بعد سماعي الخطاب لنفي تلك الشائعات. سألني عمرو عن موقفي من التحرك إلى القصر الرئاسي، فكان ردي عليه أن موقفي الشخصي لا قيمة له لأن هذه الثورة بلا قائد ولا فارس يجلس على جوادها، ولا يستطيع أحد مهما كان موقفه التأثير على المتظاهرين الذين قرروا التحرك. كرر عمرو السؤال بطريقة أخرى فسألني هل ستشارك؟ فأخبرته بالنفي، ولكنني أكدت أنني وغيري سنذهب غدًا لميدان التحرير ونرتب للاحتفال هناك بالشهداء. طلب مني توجيه رسالة لمَن يتحرك إلى القصر الرئاسي، فقلت له إنني لا أملك أن أوجه هؤلاء الشباب، وطلبت منه أن يتوقف وغيره عن توجيه المتظاهرين لأنهم في الأساس لا يشاهدون التلفزيون. ثم أخبرته أن موقف صفحة «كلنا خالد سعيد» سيحدده استطلاع رأي سأقوم به على الصفحة كما اعتدنا من قبل لنسأل الجميع عن تقييمهم لما يحدث.

بعد هذه المكالمة شعرت بمسئولية كبيرة؛ صحيح أن كلامي قد لا يكون له أي تأثير في توجيه المتظاهرين، وأن الحشد على صفحة «كلنا خالد سعيد» ربما لن يكون مؤثرًا كما كان قبل الخامس والعشرين من يناير، وأن مَن في الشارع هم مَن يحددون الاتجاه، إلا أنني وبرغم كل هذا شعرت ولأول مرة أن لوحة المفاتيح تحولت إلى مدفع آليّ يُخرج الرصاص كلما ضغطت على أحد أزرارها، وأن ما أكتبه من كلام سأتحمل مسئولية نتائجه أمام ضميري وأمام ربي. كان موقفًا عصيبًا، فقررت استشارة أعضاء الصفحة كما كنا نفعل من قبل، وصممت استطلاعًا للرأي يستشف رأي أعضاء الصفحة في الخطاب الأخير

للرئيس وتقييمهم للخطوة القادمة؛ ومنها الزحف باتجاه القصر الجمهوري. كنت سأبني موقفي على رأي الأغلبية، ولنتحمل جميعًا تبعات الموقف مهما كانت العواقب.

أعددت الاستطلاع ونشرته على الصفحة، وفي ثوانٍ معدودة أصبحتْ خدمة الاستطلاعات التي أستخدمها منذ أشهر لا تعمل، وتعطَّل الموقع الرئيسي الخاص بالخدمة والتابع لشركة صغيرة على الإنترنت بسبب الضغط المفاجئ، فالجميع كان يريد المشاركة والإدلاء برأيه؛ مما تسبب في عدم قدرة الموقع على استيعاب عشرات أو ربما مئات الآلاف وقتها من الزوار للتعبير عن رأيهم. وقع الموقع وحاولت أكثر من مرة وبدون أي فائدة أن أجعله يعود للعمل، وأعلنت ذلك على الصفحة، وبدأ البعض يتهمني بالتخاذل والكذب والتضليل. كنت وقتها أتساقط من التعب، وقررت التحرك باتجاه البيت دون أن أدري ما هو القرار الذي سأتخذه.

أحد أصدقائي الذين أعرفهم منذ أكثر من عشر سنوات اتصل بي على الهاتف، كان حادًّا وغاضبًا، وانصبّ حديثه على تحميلي مسئولية وفاة أي معتصم أمام القصر الجمهوري الآن إذا لم أحشد للذهاب إلى هناك. كان يرى أن كثرة الأعداد هناك تَحُول دون استخدام العنف، وقلة العدد تجعل من استخدام القوة مقامرة غير مأمونة العواقب. حواره الحاد أصابني بالتوتر الشديد، وساعات نومي القليلة منذ خروجي من المعتقل وتسارُع الأحداث بهذا الشكل وتاريخية اللحظة وظروفي النفسية وصعوبة القرار كلها اجتمعت فوق رأسي، وأصبحت عاجزًا عن اتخاذ القرار. دخلت إلى البيت ووجهي متجهمًا وطلبَتْ والدتي من أقاربي الذين يسكنون معنا في العمارة نفسها الدخول إلى غرفتي ومحاولة الحديث معي. طلبت منهم جميعًا تركي وشأني، ودخلتُ على الصفحة وكتبتُ ما أشعر به:

يا رب أنت أعلم بنوايانا وبإننا عايزين حقوقنا وحرياتنا.. يا رب ألهمنا الصواب وشد من أزر كل واحد مننا.

15,095 Likes / 19,690 Comments / 1,405,565 Views

وضعت رأسي على الوسادة محاولا التفكير، ولم أشعر بنفسي إلا وقد رُحت في نوم عميق بعد يوم مليء بالمفاجآت. استمر نومي لأكثر من ٧ ساعات لأول مرة منذ خروجي من المعتقل، واستيقظت على حالة غير التي كنت عليها قبل نومي؛ فلقد تبخّر

التشتت والحَيْرة من رأسي، وحلَّ مكانهما الإصرار والغضب. غضبت مما حدث من سيناريو الأمس لاستخدامي وباقي الشباب إعلاميًّا في مشهد «حالة حوار» لقتل الثورة، ولاستخدام اسمي فيما بعد في بيان لإقناع معتصمي التحرير بالعودة إلى بيوتهم. كتبت على الصفحة مؤكدًا مرة أخرى أنني مع الثورة ومع مطالبها.

اتصل بي مصطفى النجار وأخبرني أنه ينبغي علينا أن نخرج اليوم للحديث مع الإعلام بعدما حدث بالأمس، واقترح حافظ الميرازي على قناة العربية. وافقت مباشرة؛ خاصة وأن قناة العربية أذاعت الحوار الذي تم قبل بيان الرئيس على أنه وجهة نظري بعد إذاعة البيان. اتصل بي أحد مذيعي العربية لأخذ تصريح سريع قبل الصلاة فنددت بما فعلوه من نشر لحديثي قبل الخطاب على أنه رد فعل للخطاب، كنت شديد الغضب.

وصل مصطفى إلى البيت، وكان قد أعدَّ بيانًا مع بعض النشطاء السياسيين فيه مجموعة من المطالب إلى الجيش المصري بناء على البيان الذي ألقَوْه بالأمس نثمّن فيه موقفهم ونطالبهم فيه بالتأكيد على تنحي الرئيس بشكل كامل وعدم عودته إلى السلطة، وحلِّ الحزب الوطني وإطلاق حرية تكوين الأحزاب، ورفعِ القيود عن الترشح للرئاسة، والإلغاء الفوري للعمل بقانون الطوارئ، وإعادة الانتخابات النيابية في جميع الدوائر التي حكم القضاء بعدم شرعيتها، والرقابة على كل الانتخابات من قِبَل منظمات المجتمع المدني والدولي، وتمكين كافة المصريين من الانتخاب بالرقم القومي، وفَتْحِ الباب للمصريين في الخارج للمشاركة في الانتخابات، وإطلاق سراحِ جميع المعتقلين، وملاحقة ومحاكمة كل القتلة المسئولين عن الجرائم فى حق شباب مصر، وملاحقة وإيقاف رموز الفساد، ومصادرة أموالهم التي سرقوها من قُوت الشعب، وإعادة بناء المؤسسة الأمنية على أُسس شفافة تمنع التغول والتعذيب وترهيب المواطنين.

ذهبنا إلى مقر قناة العربية، وفي الطريق علمت أن الأعداد عند القصر الجمهوري كانت لا زالت بالمئات، ولكنها بدأت في التزايد مع اقتراب صلاة الجمعة، أما المشهد في التحرير فكان كبيرًا وانطلقت مسيرة بالآلاف من الميدان إلى مبنى التلفزيون، والذي أحاطته القوات المسلحة وحصنته خوفًا من اقتحامه. دخلنا إلى الاستوديو وكنت في حالة غاضبة لم أمرّ بمثلها في حياتي، وبمجرد جلوسنا تحدثت عن أزمة الثقة التي نَمُر

بها، وأخبرت حافظ أن مصر مثل الفتاة التي استمر اغتصابها لأكثر من ثلاثين عامًا، وحينما وجدَتْ سكينًا واستدارت لتُعاقِب مَن يغتصبُها وجدته يرجوها أن تتحاور وأن تترك عنها الانتقام. استمر حديثي وقرأت البيان، وتحدث مصطفى عن أهمية تحقيق هذه المطالب بعد أن أُريقت دماء كل هؤلاء الشهداء.

ذكرت في اللقاء قصة شهيد مات كان بجوار مصطفى النجار برصاصة أصابت صدره، وأثناء محاولة مصطفى إنقاذه سأله الشهيد رحمه الله: «هو اللي بنعمله ده صح يا مصطفى؟ أنا هاموت شهيد؟»، فبكى مصطفى وأكد له ذلك، وما لبث أن مات رحمه الله. نزلت دمعة من عينيَّ وأنا أروي القصة، وعلَتْ نبرة صوتي وقلت: «إن دموعنا ليست دموع ضعف بل هي قوة، هي أقوى من الرصاص الذي قد يُخرجه عمر سليمان ورجاله في صدورنا ليقتلنا، أنا أقوى من عمر سليمان ومن مبارك»، وكانت تلك اللهجة المتحدية تحمل لهم رسالة أننا مستمرون فيما نفعله، وأن مَن في التحرير أقوى من أي نظام؛ لأنهم مستعدون للموت في سبيل تحقيق مطالبهم.

خرجنا من المقابلة، لننزل إلى الشارع المزدحم ويجتمع حولنا الجميع مرة أخرى. كنت أريد المغادرة بسرعة لأتابع الموقف وأُحَدّث الصفحة بما يحدث؛ خاصة وإن استلزم الأمر استمرار الحشد. مشهد التحرير كان مُبهِرًا في هذه الجمعة؛ مما أكد على رفض الغالبية العظمى من المتظاهرين منذ ٢٥ من يناير لخطاب مبارك. وجدت القناة الأولى الرسمية تؤكد أن الجيش المصري موافق على مطالب الشباب، وذكروا من المطالب بعض ما كتبناه في بياننا مما جعلَنَا نشعر بالأمل.

رسالة للنظام: كل ساعة تمر الشعب في الشارع يرفع سقف طلباته. المطلب الحالي المطلوب تحقيقه بأسرع وقت هو تنحي الرئيس ورحيله عن مصر.

5,514 Likes / 5,030 Comments / 1,013,841 Views

أعلن التلفزيون المصري أنه سيُعلَن بيان هامّ بعد قليل، وكانت الساعة قد قاربت على الخامسة، وذكرى بيان الأمس جعلَت الاستعجال بالفرح والتفاؤل أمرًا مستحيلًا. ظهر نائب الرئيس عمر سليمان واجمًا وأعلن في كلمة مقتضبه أن مبارك أعلن عن تنحيه، وفوّض المجلس العسكري في إدارة شئون البلاد.

لم أصدق نفسي وأنا أسمع، شعرت وقتها بالانتصار، بأن الحلم تحقق، وأن ما كان مستحيلًا منذ شهور حدث في ١٨ يومًا. أخذتُ أحتضن جميع مَن حولي: والدتي، أختي، أخي، خالتي، أصدقائي، هتف الجميع: «بلادي بلادي»، وارتفع الصوت مدويًا. واتصلتُ بزوجتي لأقول لها: «لن تصدقي، لقد رحل!»، قالت: «مَن؟»، قلت لها: «مبارك رحححححححححححل!»، وأخذتُ أكررها بهيستيرية. دخلت على الصفحة بعد دقيقة وكتبت: «مبروك لمصر.. لقد هَزِمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية»، وطالبتُ الجميع بالتوجه إلى ميدان الشهداء، أو ميدان التحرير سابقًا.

في زيارتهم الأسبوعية يوم الجمعة، ذهبتْ أسرة عبد الرحمن منصور وأصدقاؤه في معسكر التجنيد لتهنئته. لم يكن عبد الرحمن يتخيل أن تسير الأمور بهذه السرعة، لم يكن أي شخص يتخيل ذلك. وعلى الرغم من أنه لم تُتَح له الفرصة ليكون في المظاهرات، إلا أنه كان معها بقلبه في كل لحظة. في يوم الجمعة ١١ من فبراير، شعر عبد الرحمن أنه قد تحرر، مثله مثل كل المصريين، رغم أنه كان ما زال أمامه عشرة شهور أخرى من الخدمة العسكرية.

الفرحة كانت غامرة، أبواق السيارات في الشارع والألعاب النارية والهتافات والتصفيق كانت تُسمع في كل مكان؛ فقد كانت لحظة فارقة في تاريخ مصر الحديث تنتصر فيها إرادة الشعوب على إرادة الحكام. نزلتُ إلى الشارع وبدأت أوقف السيارات بهيستيرية ومعي مَن حولي من الأصدقاء والجيران ونهتف جميعًا، ولكن هذه المرة بكل قوة: «مبارك بره.. مصر حرة!». واصلْنَا الاحتفال طَوال الليل، والذي بدأ من ميدان مصطفى محمود حتى وصلنا جميعًا إلى ميدان التحرير، لأخرج إلى المنصة وأقرأ الفاتحة على الشهداء وأطلب من شابٍّ مَسيحيّ لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره أن يُصلّي من أجل الشهداء، وهتف الجميع «مسلم.. مسيحي.. إيد واحدة!».

كانت هذه اللحظات في ميدان التحرير أحلى لحظات عمري، لنُنْهي الفصل الأول من قصة لم تنتهِ ولن تنتهيَ حتى تصبح مصرُ دولة من دول العالم المتقدمة. لقد أنجزنا المهمة الأولى، وانزاح كابوس نظام مبارك، ووجدنا مِصرَنا التي حاول النظام لسنوات طويلة أن يُقنعنا أنها لم يَعُد لها وجود. استلزم الأمر بضعة آلاف من الأشخاص الذين

أقنعوا ملايين آخرين خلال ساعات بأن ينضموا لهم في سعيهم للحرية والكرامة. في يوم الجمعة هذا، وبعد ثمانية عشر يومًا، كان جُلُّ ما نستطيع أن نقوله هو: «حمد الله على السلامة يا مصر.. وحشتينا».

عُدت إلى بيتي بعد منتصف الليل مرفوعَ الرأس، وقبل أن أخلد إلى نوم عميق، كتبت على الصفحة:

«فخور إني مصري».

9,413 Likes / 2,539 Comments / 655,359 Views

شُكرٌ وتقدير

حينما قيل لي إنه يجب أن أكتُب هذا الكتابَ في أربعة أشهر حتى يمكن صدوره في الذكرى الأولى لثورة الخامس والعشرين من يناير اعتقدت أن ذلك ضَرْبٌ من ضروب المستحيل؛ ولكنني كنت محظوظًا بفريق العمل الذي ساعدني حتى يَخرُج الكتابُ بين أيديكم؛ ولذا فإنني أشعر بالامتنان تجاههم جميعًا.

صديقي محمد دياب في وَضْع التصوّر الأوّليّ للكتاب، كما ساهم ببعض الأفكار الإبداعية التي ساهمتْ في تيسير وصول الرسالة إلى قارئه.

رحاب بسام، مديرة النشر بدار الشروق؛ والتي عَمِلت معي على مراجعة مسوّدة الكتاب والوصول به إلى نسخته التي بين أيديكم.

أسرة دار الشروق؛ والتي عَمِلت معي في وقت ضيق جدًّا وبمرونة عالية حتى يخرج الكتابُ للنور.

صديقي عبد الرَّحيم محيلبة؛ والذي قضى وقتًا طويلًا معي يُنقّحه ويراجع ما ذُكر به من معلومات تاريخية.

والدي ووالدتي وإخوتي وأصدقائي وزملائي في العمل؛ الذين لم يَهْدأ لهم بالٌ وبحثوا عني في كل مكان بالقاهرة، وكانوا سببًا في خروجي من محبسي.

عبد الرحمن منصور؛ رفيق الدَّرب، والذي عمل معي منذ الأيام الأولى لإطلاق صفحة «كلنا خالد سعيد»، وكان مثالًا للإخلاص والتفاني وإنكار الذات.

ولا يمكن أن أُنهي هذا الكتاب بدون شكر زوجتي الحبيبة «إلكا»؛ والتي كانت رائعةً بكل ما تعنيه الكلمة؛ في تفانيها وإخلاصها ودعمها لي منذ زواجي منها.

Inv: 27
Date:6/2/2013

الثورة 2.0

... فلا بد أن يستجيبَ القدر

اعتمد نجاحُ الكثير من الثورات التاريخية على وجود قائد تتبعه الجماهير، ولكن في ثورتنا المصرية وغيرها من ثورات الربيع العربي كانت الفكرةُ هي القائدَ والرمزَ والمحرك؛ ولذا كان عُنوان هذا الكتاب: الثورة 2.0 ، أو المفهوم الجديد للثورة.

عندما ظهر وائل غُنيم على التلفزيون فور الإفراج عنه، وتحدث بعفوية وإخلاص، وبكى بحرارة على الذين استُشهدوا في أنحاء مصر، حرك مشاعر الملايين في مصر وخارجها، وزاد من تعاطفهم مع أهداف الثورة النبيلة. ومنذ ذلك اليوم واصل وائل غُنيم دوره – الذي بدأ قبل الثورة بأشهر - في الحشد والعمل لبناء مستقبل أفضلَ لمصر.

وقد استغرق وائل عدة أشهر في كتابة ومراجعة وتدقيق معلومات هذا الكتاب ليحاول بكل صدق أن يكتب ما يعرفه وما عايشه، وليكون الكتابُ توثيقًا موضوعيًّا لفترة مُلهِمة وهامّة في تاريخ الثورة المصرية، وإضافةً للمكتبة العربية، كما نأمل أن يكون أيضًا دليلًا لشباب الغد.





دار الشروق
www.shorouk.com